

رسول الله وخاتم
النبیین
دین ودولة
[١]

ج) عبدالعزيز إبراهيم العمري، ١٤٤٠هـ

فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمري؛ عبد العزيز بن إبراهيم سليمان

رسول الله خاتم النبيين، دين ودولة - الجزء الأول / عبد العزيز بن إبراهيم العمري

ط٢؛ الرياض، ١٤٤٠هـ

٦٣١ ص ٢٤×١٧؛

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٩٨٨٠-٨

١- السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩

١٤٤٠/٦١٩٢

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٦١٩٢

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٩٨٨٠-٨

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م



مؤسسة دارالسلام الدولي للنشر والتوزيع

ص.ب ٢٢٧٤٣ الرياض ١١٤١٦

هاتف ٤٠٣٣٩٦٢ فاكس ٤٠٢١٦٥٩

يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون تغيير أو تحريف وبموافقة خطية من المؤلف. والكتاب متوفر بصيغة (PDF) مجاناً على الموقع الإلكتروني (<http://omaryforum.com>).

رسول الله وخانق النبيين دين ودولة

أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري
أستاذ السيرة النبوية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض [سابقاً]

الجزء الأول



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

قال الله - تعالى - : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُخَرِّجُهُمُ الْكِنَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران].

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد :

فأعترف بأن المؤلفات في السيرة النبوية كثيرة، والجهود عظيمة، وما صدر منها في أزمان مختلفة جَلَّ أن يُحصى، وفضلها كبير، وقد غُطيت السيرة إجمالاً دروساً وأدباً وعلماً، شارك في ذلك جميع من كتب وألَّف فيها، حيث جرى تحبيبها إلى الناس وعرضها بأساليب مختلفة ولغات متعددة ومستويات شتى.

ومع اعترافي وشكري ودعائي لكل هؤلاء السابقين لي - في مجال السيرة النبوية - فقد أردت أن أنضم إلى صفوفهم، لعلِّي أجد لي فيها موضع قدم كمن يقف خلف إمامه في الصلاة (إمام المرسلين ﷺ).

ورأيت أن الكتابة في سيرة المصطفى ﷺ تحقق سعادة أمل منها أن أكون ضمن تلك الصفوف الطويلة خلف المصطفى ﷺ، لعلِّي أنال بها شفاعته وأحظى بلاقائه وإني لأرجو من الله ذلك.

ومما يلفت النظر عند مطالعة السيرة النبوية أو الكتابة فيها أنها تؤدي إلى محبته ﷺ، في كل أحواله وأعماله حتى في شكله الظاهر، فأنت حينما تقرأ أو صافه وهيئته ﷺ تشعر بالحب يتضاعف في قلبك، وبالروح الإيمانية تزداد قوة و يقيناً، وتجد سيرته قريبة من الإنسان سهلة التناول والتطبيق يستطيع أن يقتدي بها كل الناس، فهي ليست خاصة بفتة معينة أو قوم دون آخرين أو طبقة محددة من طبقات المجتمع.

واني لأعترف وأعلن أن أهم ما دفعني للكتابة في السيرة هو محبة الرسول ﷺ والتقرب إلى الله بذلك، وهذا شرف افتخر به وأذكره وأريده وأردده،

وأطمع من ذلك في محبة الله ومحبة من رسوله ﷺ حين أُرِدُ حوضه - بإذن الله ورحمته ..

ولا أزعم أنني عالمٌ أو أنني آتي بجديد ، لكنني أطمع في أن أفيد من يقرأ في السيرة النبوية ، وقد حاولت جهدي أن أسلك منهجاً معيناً في هذا الكتاب واضعاً أمام عيني أن أخدم القارئ لسيرة النبي ﷺ من عامة المسلمين ، بالحقائق دون زيادة.

والكتابة في السيرة النبوية ليست صعبة عليّ - بفضل الله - وقد قمت ولله الحمد بتدريسها ما يزيد على الخمسة وعشرين عاماً في جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية في الرياض ، وفي غيرها من الجامعات والمراكز الإسلامية في شتى أنحاء العالم باللغة العربية والانجليزية ، وأزعم أن لديّ اطلاعاً على مصادرها ومناهج الكتابة فيها ، وما يرتبط بذلك من علوم ، وقد أجريت عدداً من الأبحاث والدراسات حولها وألمت بمصادرها ، ولذلك فإن هذا الأمر - ولله الحمد - مُيسَّرٌ لي بفضل الله ومنَّه وكرمه.

وقد اخترت منهجاً لهذا الكتاب يقوم على الاستفادة من مصادر السُّنة في الروايات المرتبطة بالسيرة وتقديمها على غيرها ، وخصوصاً ما يرتبط بأحكام شرعية ، ويأتي في مقدمة ذلك صحيح البخاري ، بكتبه وأبوابه المتفرقة وعناوينها المميزة ، وغيره من مصادر الحديث ، كما استفدت من الكتب المتخصصة في السيرة النبوية وتفاسيرها ، والمصادر التاريخية المختلفة وغيرها ، وبعض الكتب الحديثة المتخصصة ، كما أنني استفدت كثيراً من المراجع والأبحاث الحديثة في مجال السيرة النبوية ، مما يصعب حصره ، وأشارت إليه بالتفصيل في مواضعه في هوامش الكتاب وفي قائمة المصادر ، التي قاربت الأربعمئة ما بين مصدر ومرجع.

وقد حاولت صياغة الأحداث بأسلوبى الخاص، ممزوجاً بالشواهد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي أوردت نصوصها كلما رأيت مناسبةً لذلك، وحاولت الدمج بين ذكر الحدث وفقهه والاستفادة من دروسه في حياة الناس عامتهم وخاصتهم، وأبرزت الجوانب الحضارية العالمية والتنظيم والإدارة في السيرة النبوية، وترجمت لأكثر الناس معاشة للرسول ﷺ، وبعض ما يرتبط بتلك المعاشة من أحداث، بأنياً ذلك على ما يصح من الروايات، وقد جعلت الكتاب شاملاً لما قبل ميلاد الرسول ﷺ، وما يتعلق بأحوال العالم المختلفة قبل الإسلام، وانتظار البشرية لخاتم الأنبياء ﷺ، وخصوصاً أهل الكتاب منهم.

وحاولت استقصاء الشواهد من مصادرهم من خلال سُخْها المعاصرة المعترف بها من قبل علمائهم حالياً، وكذلك من خلال مؤلفاتهم الحديثة، وأقوال المستشرقين عن النبي ﷺ.

وقد فصلت في أحوال العالم المعاصر للنبي ﷺ، وتحدثت عن أحوال العهد المكي بجميع أحداثه ووقائعه، وكذلك المرحلة المدنية من السيرة بحوادثها المختلفة مدنيها وعسكريها، وتطرق للتعلم الإسلامية في العصر النبوي، وتأسيسه ﷺ لدولة الإسلام، والقيم التنموية والمدنية التي بثها في المجتمع البشري ﷺ، وأدارها بنجاح وتميز، وصارت نبراساً للبشرية، وللإدارة الإنسانية الشاملة.

كما تحدثت عن بيعة أبي بكر الصديق ﷺ يوم وفاة الرسول ﷺ، ونجاحه في قيادة الأمة بعد رسول الله ﷺ.

وترجمت بالتفصيل للشخصيات المعاشة له ﷺ من المؤمنين به من أهل البيت ومنهم أمهات المؤمنين، وبناته، وأصهاره، ومن عاش في بيته من خدمه

ومواليه ومن في حكمهم المؤثرين في الأمة، واجتهدت في هذا للربط بينهم وبين حياة الرسول ﷺ، وتأثير التربية النبوية على حياتهم في أيامه ﷺ وبعد وفاته.

ولئن لم أنل شرف رؤيته ﷺ فإنني آمل ألا يفوتني شرف صحبة سيرته وحياته، عبر أسفار الكتب ونبض القلم، وفيضان الحب والمشاعر، ونقل ذلك لأحبابه المؤمنين به، ومن يرغب التعرف عليه ﷺ.

وقد شعرت بالسعادة واليسير والبركة في الوقت منذ اليوم الأول من عملي الجاد في هذا الكتاب، فكنت وأنا أكتب أحسُّ بقرب إلى الحبيب المصطفى ﷺ وأتنفس عصر النبي المصطفى ﷺ وأعيش أحداثه.

ومع بُعد الزمان، فقد كنت أحسُّ بقربي منه وارتباطي بالزمن الذي أعتقت فيه الإنسانية من رباط الوثنية ودخل الناس في توحيد الله - تعالى - والخضوع له وعبوديته، وأردت أن يدخل معي القارئ الكريم في هذا الشعور والإحساس.

كما أن في الاشتغال بالسيرة تقويماً للنفس ومحاسبة ومراجعة لها فيما قدمت، في ضوء ما عُرف من سيرة المختار تدفع الإنسان إلى الشعور بالتقصير وكثرة الاستغفار، ومحاولة تقويم للذات، وتربيتها، على اتباع منهج المصطفى ﷺ في السلوك والحياة.

كما أنني اعتبر عملي بهذا الكتاب من الاستعداد للإجابة يوم القيامة - بإذن الله - حينما أُسأل عنه ﷺ ما علّمك به فأجيب بما يجيب به المؤمنون، وأقدم كتابي هذا بين يدي الجواب، وأكون - بإذن الله - عوناً للآخرين على الإجابة الصحيحة.

ورغم أن بعض أصحابي المخلصين ألمح إليّ أنني ربما لا آتي بجديد في كتابة عامة عن السيرة النبوية، إلا أنني رأيت أن هذه الكتابة ستأتيني أنا بجديد، وستُدخلُ بإذن الله سعادة على قلبي، كما آملُ أن أجدها عند ربي، وأن يشاركني فيها القارئ الكريم، سائلاً الله أن يقربني لرضاه، عاتداً بالله من عمل يُسَخِّطُه، راغباً بالعون من الله والتوفيق.


وأجد هنا أن من الواجب عليّ أن أقدم جزيل الشكر والعرفان لمعالي الدكتور علي بن إبراهيم بن حمد النملة، الذي شجعني على العمل في هذا المؤلف وتكرم بمراجعته واستفدت من ملاحظاته جزاه الله عني خير الجزاء، وأدعو لكل من كان عوناً لي في إنجازهِ ونشرهِ.

وتأتي هذه الطبعة الثانية لهذا الكتاب بعد نفاذ الطبعة الأولى، وقد أجريت عليها بعض التصويبات والمراجعات التي رأيت اصلاحها وما وقعت عليه من أخطاء في الطبعة الأولى وما أفادني به الأحاب ممن قرأوا الكتاب وأفادوني بملاحظاتهم مشكورين مأجورين، مع إعادة الإحالة لبعض المصادر في طبعات أكثر توفراً وانتشاراً خصوصاً بعض كتب الصحاح، كما رأيت دمج الأجزاء الخمسة في الطبعة السابقة في جزئين ليسهل اقتنائه مع بقا تلك الأقسام من الناحية العلمية على ما هي عليه.

أسأل الله لي وللجميع العلم النافع والعمل الصالح أنه ولي ذلك والقادر عليه.

الرياض

ذو الحجة ١٤٤٢هـ



القسم الأول
علم السيرة النبوية
العالم والمصطفى
والوحي

أهداف دراسة السيرة النبوية وفوائدها

إن أي عمل يقوم به الإنسان لا بد أن يكون له هدف واضح، وثمره متوقعة تدفعه للقيام به، ولعل دراسة السيرة النبوية من العلوم الإسلامية والإنسانية واضحة الأهداف والمعالم، متحققة الفوائد والثمرات، فالنبي ﷺ أحب الخلق إلى الله، اصطفاه من خلقه، وحمله رسالته، فمحبته الله وحبنا له تدفع لمعرفة ودراسة سيرته.

وهذا جزء من حقه علينا ﷺ وعلامة حقيقية لمحبه ومحبته الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران).

كما أن دراسة سيرة المصطفى ﷺ فيها معرفة ما كان عليه ﷺ من تجسيد حي للإسلام، حيث عاش ﷺ عبداً لله جمع بين الدنيا والآخرة، وهذا ماثل في سلوكه ﷺ في تطبيق عملي للإسلام ولشريعته وأحكامه، وبذل للنفس والمال في سبيل الله.

كما أن سيرة رسول الله ﷺ فيها دراسة لتاريخ أعظم البشر وأفضلهم، والناس فُطروا على دراسة سير العظماء على وجه العموم، ومعرفة سيرهم وحياتهم وقصصهم، ولذلك فكل أمة من الأمم تحاول أن تبرز عظماءها، وتفززو بهم وبسيرهم العالم، بل ويُلَمِّعونهم وينسجون حولهم القصص الكاذبة أحياناً، ليظهروا للناس أن لديهم من يفتخرون به من الأعلام والرجال.

أما نحن المسلمون فحبيبنا وزعيمنا وقائدنا ﷺ هو أحسن وأفضل البشر سيد ولد آدم، ولذلك فإننا بدراسة سيرة المصطفى ﷺ نلبي هذه الحاجة الموجودة طبيعياً عند الناس، بأن نغطي هذه الحاجة بالمعلومات الصادقة

الصحيحة، التي يحرص الناس بطبيعتهم على الاطلاع عليها، ونغطيها بمن يجب علينا أن ندرس حياته وسيرته لكي نتعلق به، وهنا لا بُدَّ من التأكيد على أن غير المسلمين جعلوا النبي ﷺ أبرز البشر، فكيف بنا نحن أتباع رسول الله ﷺ، الذين ينبغي أن لا نقدم أي إنسان عليه ولا نتعلم سيرة أحد أو تاريخ بشر قبله، لا ملكاً ولا وزيراً ولا عالماً ولا عظيماً ولا كائناً من كان قبل رسول الله ﷺ.

ومايكل هارت (*Michael Hart*) مؤرخ أمريكي زعم أنه يؤرخ للإنسانية في كتابه: أعظم مائة رجل في تاريخ البشرية *"The 100 Aranking of the most inflential persons in history"* البشرية، حيث قال ما نصه: (لقد اخترت محمداً ليكون في أول القائمة، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ومعهم حق في ذلك، لكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً على المستوى الديني والدنيوي، هو قائد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً، وبعد مرور (١٣) قرناً من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قوياً متجدداً)،^(١) وهذا يذكرنا بقول الله - تعالى - : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح].

وقد قال عنه جوستاف لوبون (*Gustave Le Bon*) في كتابه: "حضارة العرب": (إذا قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد أعظم من عرفه التاريخ).^(٢)

(١) مايكل هارت، أعظم مئة رجل في التاريخ، ترجمة أنيس منصور - القاهرة: المكتب المصري، ص ١٤.

(٢) جوستاف، لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتير - بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٣٩٩هـ، ص ١٤.

وقد قال عنه وليم موير (William Muir): (مهما ندرس حياته نجد لها على الدوام كتلة فضائل مجسمة، مع نقاء سريرة، وخلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظر على الإطلاق في جميع الأزمان).^(١)

إن الله ﷻ تعبد الأمة الإسلامية بدراسة حياة الأنبياء السابقين وسنن الله في الأمم الماضية تبعاً لموقفهم من أنبيائهم ودعوتهم لله، وقد جعلهم نبأساً يُحتذى وذكرًا يتلى، وقدوة وتثبيتاً لرسوله ﷺ، وبالتالي فقصص النبي ﷺ وسيرته تثبت لمن يتعلمها من المسلمين، خصوصاً أنها مرتبطة بكتاب الله وسنة نبيه ورسوله ﷺ من الذين جعلهم الله نبأساً، قال - تعالى -: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف].

قال - تعالى -: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف].

وقال - تعالى -: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود].

وقال - تعالى -: ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف].

وقال - تعالى -: ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه].

(١) محمد خير الدرر، نبي الإسلام شخصيته حياته رسالته في عرض جديد، ص ٦.

كل هذه الآيات وغيرها تؤكد أن دراسة ما جرى للأنبياء السابقين جزء من القرآن والدين والعلم الشرعي، الذي يوجه حياة محمد ﷺ وحياة أمته معه، وبالتالي فإن في دراسة حياته تربية للأمة، وعلم لا غنى عنه إلى يوم القيامة.

كما أن دراسة سيرة النبي ﷺ تعلم الإنسان الثقة بالله وأن لله سنناً ثابتة ينصر فيها الحق ويخذل الباطل، وأن العاقبة للمتقين وأن وعد الله - تعالى - لنبيه ﷺ قد تحقق بحمايته ونصره وتمكينه على من اعتدى عليه وظلمه، وأن مكر الله ﷻ لنبيه ونصره لنبيه قائم إلى قيام الساعة.

كما أن في دراسة سيرته امتثالاً لأمر الله ﷻ وعبودية له، قال - تعالى - : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝١٦١﴾ [الأحزاب]، معلمنا الأول ﷺ بأمر الله ﷻ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝١٥١﴾ [البقرة]، وبالطبع فإن التأسي لا يكون إلا بعلم سنته، وسيرته وشمائله جزء من سنته، فيها قدوة للمؤمنين به في سائر أحوالهم، فهو قدوة للدعاة في حمل الهم والعمل الجاد وسمو الأهداف والغايات، وحب الخير للناس والرحمة بهم.

ولللأزواج في التعامل والرحمة والعطف والحنان والحب الحقيقي.

وللزعماء والقادة قدوة في الإدارة وتقديم مصلحة الأمة، والرحمة بالناس والبعد عن الأنانية، والأمانة والإخلاص والسياسة بما يرضي الله، واستعمال الأصلح للناس في أعمالهم.

وللجيران قدوة في معرفة حقوقهم، وحسن التعامل مع جيرانهم والرفق بهم والهداية لهم وحفظ حقوقهم وحسن الصلة بهم.

وللمصلحين قدوة في الصبر والتحمل، وسمو الأهداف وترتيب الأولويات، والتغيير الاجتماعي للأصلح بهدوء وفعالية، سعي لتنمية الإنسان، وحفظ حقوقه.

فهو للآباء قدوة في العطف، والتربية والرحمة، والحب الحقيقي والتعلم، وللفقراء قدوة في الصبر على الجوع والعفة والأمانة، وللأغنياء قدوة في الصدقة والتواضع، والإيثار والأمانة والوفاء بالعهد، وعدم الإسراف، وللمريض قدوة في الاحتساب، وطلب الأجر والبحث عن الدواء فيما أحل الله وعدم الإثقال على الآخرين.

وعلى العموم فهو قدوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر من سائر الأمة ونذكر أنه بدون علم لا يمكن التأسي^(١).

في دراسة سيرته ﷺ تحقيق لمحَبته^(٢):

فمحَبته مُقدِّمةٌ على النفس ومحَبته محبة لأخلاقه وفضائله، محبة المُحسِّن إليه للمُحسِّن بالثناء والإجلال والتقدير، كيف لا وإحسانه ﷺ قائم للمسلمين وللإنسانية جميعاً إلى يوم القيامة، بما حمل لهم من هداية الله، فمحَبته أعظم وأسمى مراتب المحبة، فهو أعظم الناس تأثيراً في حياتنا ﷺ

(١) انظر: محمد بن محمد عواجي، أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين، بحث في ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٠٥هـ.

(٢) انظر: سلسلة كتاب البيان، حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال تقديم صالح بن فوزان الفوزان وآخرين، ط ١٠ - الرياض: دار البيان ١٤٢٦هـ؛

وعبدالله بن صالح الخضير وعبد اللطيف بن صالح الحسن، محبة النبي ﷺ وتعظيمه، ط ١ - الرياض: دار البيان ١٤٢٧هـ؛

وعصام محمد عطية، لماذا نحب محمداً، ط ١ - الرياض: إدارة الدراسات والأبحاث الندوة العالمية للشباب الإسلامي ١٤٢٨هـ.

لنؤدي بعض حقه علينا ونقدمه على أنفسنا، وعلى كل شيء آخر، لناخذ عنه ونقدم أوامره على غيره: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ ﴿٧﴾ [الحشر]، وقد قال ﷺ: ((والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده)) وفي رواية: ((والناس أجمعين)).^(١)

كان ﷺ آخذاً بيد عمر بن الخطاب ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: ((لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك))، فقال عمر: فإنه الآن والله أنت أحب إلي من نفسي، فقال ﷺ: ((الآن يا عمر)).^(٢)

قال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ [آل عمران].

وقال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ [التوبة].

وقال - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الأحزاب].

وبدراسة سيرته ﷺ معرفة لفضله ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران].

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وحب الرسول ﷺ من الإيمان، ج ٩/١.

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري، كتاب الإيمان، شرحه (باب حب الرسول ﷺ من الإيمان).

ونقدر له ﷺ كم بذل من نفسه - في سبيل الله - ومن ماله، ومن دمه،
ومن أحبابه وأقاربه وأهله ومن وطنه.

وكذلك يتبين لنا فضل الله على نبيه ﷺ وفضله - سبحانه - علينا.

قال - تعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾
[الشورى].

ومن المعروف للمسلمين جميعاً، بل ولمن سبقهم من الأمم أهمية دراسة
تاريخ الأنبياء:

ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء قال - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ
وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب]. وقد
تأسى ﷺ بالأنبياء قبله. وقصّ عليه القرآن الكريم ذكرهم.

قال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا
يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [يوسف].

وقال - تعالى - : ﴿ فَأَقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف].

في معرفتنا بسيرة الرسول ﷺ نعرف الأمم المختلفة والأنظمة التي حكمت
العالم وسادت قبل الإسلام، سياسياً أو فكرياً أو دينياً أو أخلاقياً، ونعرف
النعمة التي أحدثها الإسلام في حياة الناس، كما قال عمر ﷺ: (لا يعرف
الإسلام من لا يعرف الجاهلية).

وبعلم السيرة نعرف ما كانت عليه أحوال الأمم عامة والعرب قبل الإسلام خاصة، التي يمكن إيجازها في قول ربي بن عامر حينما رد على رستم يوم القادسية قال: (اللَّهُ ابتعثنا واللَّهُ جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قَبِلَ منا ذلك قَبِلْنَا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعد الله، قال: وما موعود الله، قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي).^(١)

لقد فهم ربي كيف كانت حاله وحال الناس وكيف صارت بمبعث محمد ﷺ، إنها الجاهلية التي أشار إليها القرآن في قوله - تعالى -: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ [الفتح: من الآية ٢٦]، وحدث منها ﷺ بقوله: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم)).^(٢)

ونحن ينبغي أن ندرك التغيير الذي جاء به ﷺ والنعمة والرحمة التي حملها للبشرية جمعاء. وهذا يُعرف بدراسة سيرة المصطفى ﷺ. إن الصدق في سيرة المصطفى ﷺ لا يقابله أي طرح تاريخي عن شخصية أخرى مهما كانت تلك الشخصية.

فنحن بدراسة السيرة نتعلم صدقاً لا زوراً كما يحدث لبعض الشخصيات، كما أننا نصل إلى تفصيلات وحقائق لا تتوفر لغيره ﷺ. حيث إن بعض الشخصيات التي درسها العالم وأولعوا بالحديث عنها

(١) الطبري: تاريخه، ج٤/١٠٧.

(٢) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، ج٤/١٦٠.

نجهل الكثير من جوانب حياتهم، فالنصارى ليس عندهم تفصيلات حقيقية عن نبيهم عيسى عليه السلام، ولعل من يعرف تاريخ عيسى عليه السلام ويعرف ما كتبه النصارى عنه، يدرك أن جوانب حياته عليه السلام لم تُرصد ولم تُسجل ولم تُكتب ولم تُدرس بشكل صحيح، فأتباعه هم أجهل الناس بها.

أما المسلمون فعندهم شمول الحديث عن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ودقائق الأمور في حياته صلى الله عليه وسلم وهذا دليل على محبة الأمة لنبيها صلى الله عليه وسلم.

ولا يُعدّ من معرفة أن ذكره صلى الله عليه وسلم سابق لزمانه، حيث إن الحديث عنه صلى الله عليه وسلم كان في زمن الأمم السابقة، ففي زمن عيسى عليه السلام يقول الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

كما تحدث موسى عليه السلام في زمنه، قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف].

إن أخبار محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته عُرِفَت قبل ولادته بقرون، حيث كان علماء أهل الكتاب ينتظرون مبعثه، وما تزال في بعض كتب النصارى إشارات قوية وواضحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نبي آخر الزمان.^(١)

بدراسة السيرة نتعرف على كتاب الله،^(٢) فحياة الرسول صلى الله عليه وسلم مليئة

(١) انظر: الموضوع المتعلق بـ(العالم وانتظار الرسول صلى الله عليه وسلم)، من هذا الكتاب.

(٢) انظر: صالح أحمد الشامي، أضواء على دراسة السيرة، ط ١ - بيروت: المكتب الإسلامي

بالأحداث التي نزلت فيها آيات من كتاب الله ﷺ في مناسبات مختلفة.

كما أن بعض أسماء سور القرآن الكريم ارتبطت بأحداث السيرة، كما في الأنفال، والتوبة، والإسراء، وطه، والأحزاب، والشرح، والعلق، والمهمزة، والفيل، وقريش، والكوثر، والكافرون، والنصر، والفلق.

مع أن بقية السور لا تخلو من آيات مرتبطة بأحداث السيرة كما في غزوات بدرٍ وأحد والأحزاب وفتح مكة حنين وغزوة تبوك وغيرها من الغزوات التي ورد فيها آيات من كتاب الله ﷺ في ثانيا العديد من السور.

بل نجد أحداثاً أخرى خاصة كعلاقته ﷺ بنسائه وزواجه من بعضهن كزينب بنت جحش ﷺ، والحديث عن آل البيت وعن الصحابة ﷺ وعن أحوال الأمة وتطوراتها وردت فيها آيات في كتاب الله ﷺ وبالتالي فدراسة سيرته تعطي الإنسان تصوراً صحيحاً عن ما ورد في كتاب الله من أسباب النزول، وتعطيه انطباعاً خاصاً وكأنه يعيش عصر تنزل القرآن، والتحديات التي تعرض لها رسول الله ﷺ، ومعه الأمة والمجتمع المسلم، وكيف ثبت الله إيمانهم بما شاهدوه من أحداث عرفوها في القرآن المنزل عليهم في تلك الفترة، ومن يتدبر السيرة يعيش كما عاشوا عن علم ويزيد إيمانه بما يعرفه ويتعلم، وبالتالي يحيى في عصرهم وإن بعد زمناً ومكاناً عنهم، ويرى بنفسه التجسيد الحي للإسلام وأهله في معية رسول الله ﷺ، وأصحابه ويعيش تنزل الآيات تبعاً للأحداث.

إن الإنسان ليعجب كيف يجرؤ بعض المستشرقين على تناسي هذه الحقيقة، ويزعم بعضهم أنه تعلم القرآن في أثناء رحلته إلى الشام وهو

صبي،^(١) أي عقلية تلك التي تتجاهل هذه الحقائق وبأي منطقتي تتحدث؟!

إن في دراسة السيرة معرفةً لجيل الصحابة وفضلهم وتنمية محبتهم ومعرفة درجاتهم التي أشار الله إليها في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا أَكْثَرَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد].

فيعرف السابقين إلى الإسلام من هؤلاء الصحابة، والمبشّرين بالجنة منهم، وأصحاب بدرٍ وبيعة الرضوان وفضلهم، ويربط إسلامهم وأعمالهم بالسيرة النبوية وأحداثها، وقد وضّح البخاري وغيره في كتابه الصحيح مناقب هؤلاء الصحابة.^(٢)

ويدرك المسلم أن تزكية رسول الله ﷺ لهؤلاء وبشارة من بَشَّرَ منهم بالجنة كان عن وحي يوحى، وأنه لا ينطق عن الهوى حين قال: ((لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم)).^(٣)

وأن بشارته بالجنة للعشرة ولغيرهم تعنى خاتمة حسنة لهم، وأنهم بالتالي لقوا الله وهو راض عنهم، فتزيد محبة هؤلاء لمن يعرف مواقفهم، ويقف أمام

(١) انظر: (R. Gottheil. " Achristion Bahira legened " Zeits Chrifit für)

Assqriologie، ١٣، ١٨٩-٢٤٢، pp. (١٨٩٨)، ١٥، ٢٠٣-٢٦٨، Pp. (١٨٩٩)، ١٤:١٤

١٦٦-١٢٥ (pp. ١٩٠٣) ١٧، ٥٦-١٠٢، pp. (١٩٠٠)) نقلًا عن، فارس الجميل، رحلة

الرسول إلى الشام ومقابلة بحيرا الراهب، مجلة الجمعية التاريخية السعودية ١٤٢٥هـ.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ...، ج٤/١٨٨ -

٢٢١.

(٣) من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، ج١٠/٥١.

الكارهين لأصحاب رسول الله الذين طعنوا فيهم ليشككوا في الرسول نفسه وفيما قاله فيهم، كما أننا نعرف المواقف التي قام بها كل منهم مع رسول الله في إبلاغ دعوته والدفاع عنه، فمنهم شعراء الرسول: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير وعبدالله بن رواحه وعاصم بن ثابت رضي الله عنه.

ومنهم خطباء الرسول ﷺ، كثابت بن قيس بن الشماس، وأبي بكر وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيرهم.

ومنهم أمراء الرسول: أبو بكر وعمر وعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخالد بن الوليد وعبدالله بن جحش وزيد بن حارثة وابن أم مكتوم، وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين -.

كما نعرف الشهداء من الدعاة للرسول من أصحابه، وعلى رأسهم أصحاب الرجيع، وبئر معونة وغيرهم، وشهداء الغزوات المختلفة، ونعرف الأغنياء منهم كيف بذلوا وأنفقوا كعثمان وعبدالرحمن بن عوف، والفقراء كيف صبروا وتعففوا، المتزوجون منهم والعزاب الصادقين والصادقات والقانتين والقانتات والحافظين فروعهم والحافظات.

هذا الكلام عن رسول الله وأصحابه، أخبر به موسى بنى إسرائيل قبل ما يزيد على ألف سنة من مبعثه ﷺ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: من الآية ١٥٧].

أولئك تلاميذ محمد ﷺ الذين كان منهم خلفاء راشدون، وقادة محنكون وسياسيون وأبطال فاتحون وعلماء قادوا العالم وأظهروا فيه العدل

والتوحيد والرحمة.

إنهم الرعيل الأول الذين سبقوا إلى الدخول في الإسلام وحمل رسالته للعالم فلم فضل كبير علينا، فواجهنا الدفاع عنهم ضد أعدائهم وكارهيهم، مهما لبسوا من لباس وأظهروا من تقوى، أولئك الذين حاولوا إبعادنا عن جيل محمد ﷺ وأصحابه، في وقت قدسوا فيه علمائهم، ونزهوا أصحاب علمائهم، وقدسوا تلاميذ علمائهم، ورضوا بالطعن في تلاميذ محمد ﷺ وأصحابه.

وبدراسة السيرة نعرف الخصائص النبوية^(١) التي أنعم الله بها على رسوله المصطفى ووجوب إتباعه وما له من حقوق ﷺ وأن ما جاء به الحق، وأن أمره مقدم على أمته وعلى الناس جمعاء وهذا أمر من الله ﷻ في كتابه العزيز.

قال - تعالى -: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء].

فهو ﷺ معلم للأمة وقائدها دائماً وأبداً في الأفراد والمجتمعات والدول ما بقي الزمان، فمحمد دائم في حياة الناس، له عليهم حقوق، في حال الضعف يذكرونه، وفي حال القوة يذكرونه، ذكره دائم، قال - تعالى -: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿٤﴾ [الشرح].^(٢)

خصائصه متعددة، أولها الرحمة للعالمين، قال - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء].

(١) لمزيد من التوسع انظر: كتاب الخصائص النبوية للإمام السيوطي ﷻ؛ وأبوبكر الجزائري، هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب.

(٢) انظر: كتاب الخصائص النبوية، الإمام السيوطي ﷻ؛ وأبو بكر الجزائري، هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب.

قال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا جَاءَ تَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

فهو أعظم البشر، علمه وأدبه رب العالمين كما قال ﷺ: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)).^(١)

اختاره واصطفاه، قال - تعالى -: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

خاتم الأنبياء، وأرحم الناس، وأكرم الناس، وأصدق الناس، وأنظف الناس، وأطهر الناس.

أُيِّدَ بالمعجزات والبيّنات والبراهين والكرامات، شاهدها معاصروه وأدركها العلماء ومحبه، علا ذكره على سائر الخلق بما له من حق، وبما وعده الحق ﷻ.

صلى الله عليه والملائكة وأمر العباد بذلك، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(١) حسنه عدد من العلماء، وله شواهد؛

انظر تخريجه عند: أحمد عبدالعزیز الحداد في أخلاق النبي في القرآن والسنة،

ج ٢/١٠٣٣.

فتح الله له ونصره وغفر له، قال - تعالى -: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح].

إن دراسة السيرة النبوية تقوي عزائم المؤمنين وتعلمهم الصبر وتفتح لهم الأمل بانتصار الحق على الباطل، وبغلبة دين الله على ما سواه وبالقوة بعد الضعف وبأن الله ناصر دينه ونبيه وأمته إلى يوم الدين.

إن السيرة النبوية علمٌ بذاته ومفتاح لعلوم متعددة، فمن خلالها يتعلم المسلم الأخلاق وتطبيقها والعقيدة وأصولها، والأحكام الشرعية والآداب المرعية، والعدل والنظم الإسلامية وسياساتها الشرعية وكسب الناس لدين الله.

واستظهار الحقائق الكثيرة عن حياة الرسول ﷺ ودرء الشبهات عنها ومعرفة هذا العلم بعيداً عن المغرضين وجهالة العوام.

كما يتعرف دارسو السيرة على كثير من الحقائق الجغرافية لبلاد العرب عموماً والحجاز خصوصاً وسائر العالم المجاور الذي ارتبطت به أحداث السيرة، مثل: الحبشة، وبلاد فارس، والروم، ومصر، وغيرها فيما له صلة بحياة الأمة الإسلامية الأولى في عصر النبوة، وارتباطها بأحداث السيرة زمن النبي ﷺ، فقد كان ابن عمر ﷺ يتتبع آثار النبي ﷺ في منازل التي مرّ بها في غزواته وأسفاره.^(١)

والدارس الحقيقي للسيرة يعيش بعلمه وعقله وروحه ووجدانه وشعوره زمن النبي ﷺ، يرى حجراته ومسجده وكيفية بنائها، يشاهد مجالسه ومن يحف به من الصحابة، يسمع آيات الله من فيه ﷺ، يرى عطفه وشفقته، يتصوره حاملاً سيفه في بدرٍ وأحُدٍ وحُنينٍ شجاعاً مقداماً.

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٤/١٤٥.

وفي الوقت نفسه يرى بكاءه وهو يسمع القرآن من أصحابه فرحاً بما آتاه الله، ويتعلم الصحابة له، عطوفاً على الفقراء رحيماً بالناس أجمعين، في زمنه وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كما أن الدارس المتعلم لسيرة النبي ﷺ ومصادرها الصحيحة يتعلم ما صح من الروايات فيما يبني عليه علم وحكمة.

ويدرك الإنسان مراحل حياة الرسول ﷺ المختلفة وتدرجه في دعوته وفي اختيار المناسبين لاستقبالها وقبولها من الناس، ويعرف الدارس المراحل داخل المراحل والمواقف في الواقع، ويستفيد من ذلك في تطبيقها في حياتنا المعاصرة وخصوصاً للدعاة حاملي همّ دعوة الرسول ﷺ ودينه ورحمته للناس.

* * * * *

كيفية دراسة السيرة النبوية

إن أي باحث أو قارئ للسيرة النبوية ينبغي عليه أن يستشعر شخصية الرسول ﷺ ، وما له من حقوق وخصائص حباه الله إياها ، اصطفاه لوجيه ورسالته من بين خلقه ، وأعطاه عصمة ثابتة لا يتطرق إليها شك في الدين والأخلاق في توحيد الخالص لله ﷻ وعصمته من الشرك ، والكذب قبل البعثة وبعدها ، في عدله وإنصافه وأمانته ورحمته بالناس قبل البعثة وبعدها ، في عناية الله به وحفظه وتأديبه له قبل البعثة وبعدها منذ مولده ﷺ وأنه ليس لأحد أن يخطئ رسول الله ﷺ إلا ما ذكره ربه ﷻ في معرض تأديبه له ، كما في قصة الأعمى في سورة عبس ، أو في أسرى بدر ، أو فيما ذكره هو ﷺ ولا يقبل من أحد من البشر غير ذلك.

وبالتالي فإن على دارس السيرة أن يلتزم الأدب مع النبي ﷺ حين الحديث عنه ﷺ وعن سيرته وحقه ومحبه ﷺ وما له في أنفسنا وقلوبنا ، ويجب أن نرتبط بالأدلة الشرعية ، ونتذكر ما جاء في كتاب الله ﷻ وما أخبر به رسول الله ﷺ من أنه عبد لله ورسوله ، وأنه بشرٌ من البشر ، لكنه أفضل البشر كما قال ﷺ : ((أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ويدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض)).^(١)

(١) رواه الترمذي في صحيحه ، كتاب المناقب ، باب فضل النبي ﷺ ، ح برقم : ٣٦١٥ ، ج ٥٨٧/٥ ؛ وروى البخاري أجزاءً منه في صحيحه ، كتاب التفسير ، سورة الإسراء ، ج ٢٢٥/٥ ؛

انظر: تفاصيل تخريجه عند: أحمد الحداد في كتاب أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة ، (ج ١/٤٦٠) ؛

وانظر: ابن كثير ، تفسير سورة الإسراء ، ج ٢/١٠٨٥ .

ففي مصاف العظماء هو الأول لا يسبقه أحد ، لكنه صلوات ربي وسلامه عليه أكد أنه عبد من عباد الله - تعالى - وقد ورد ذلك في آيات عديدة من كتاب الله كما في قوله - تعالى - : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُبَيِّنَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

ويأتي التأكيد على عبوديته في معرض الحديث عن رفعه والإسراء به ، حتى لا يأتي من يسير على خطى النصارى ويخرجه عن بشريته فيغلوا فيه كما غلوا في عيسى عليه السلام ، فمع ذكر هذه الكرامة الفريدة لرسول الله ﷺ يأتي التأكيد على عبوديته لله - تعالى - : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُبَيِّنَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء]. مع أنه لو ذكرت الآية أسرى برسوله لكانت حقاً ، لكنها تؤكد على مقام العبودية الذي هو تكريم له ولسائر البشر ، كما جاء قوله - وتعالى - : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]. مذكراً بعبوديته ﷻ لله ومع ذلك فإن مقامه لا يصل إليه أحدٌ من البشر ، فلا يُقدّم المسلم أحداً من البشر لا من الأهل ولا من الولد ولا غيرهم على محبة رسول الله ﷺ.

وقد أكرمه الله بالعبودية مع اصطفاؤه بالوحي والرسالة ، وليس في هذا ضعف وإهانة لرسول الله ﷺ بل من كمال رسول الله ﷺ أن يكون عبداً ، وليس ككل العبيد حيث كان ﷺ عبداً شكوراً كما قال صلوات ربي وسلامه عليه لأُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حينما رآته يقف من الليل يصلي حتى تتفطر قدماه فكانها أشارت على الرسول ﷺ أن يكفيه بعض ذلك فقال

ﷺ: ((أفلا أكون عبداً شكوراً))،^(١) لم يقل نبياً شكوراً ولا رسولاً شكوراً، لأنه يرى أن من كمال نبوته ﷺ أن يكون عبد الله، وذلك تصديقاً لقوله - تعالى -: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر].

لكنه سيد البشر ﷺ وهو قدوة الناس، جاء ليقودهم للعبودية الحقة لله - تعالى - وحده، فكان ﷺ في مقدمتهم وأمامهم في أمر الله.

وكان ﷺ يعيش حياة البشر، يأكل وينام ويتزوج ويبيع ويشترى يصادق ويعادي كل ذلك داخل عبوديته لله، قال - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام].

إن أي دارس للسيرة النبوية وأحداثها ينبغي عليها أن يستشعر العصر الذي عاشه النبي ﷺ وإمكاناته وظروفه، ليدرك الصعوبات التي واجهها ﷺ وأصحابه، يدرك المناخ ودرجة الحرارة، وحجم الإنتاج الزراعي والحيواني والاقتصادي في منطقتهم ومحدودية الإمكانيات المادية والبشرية والثروات الطبيعية في بيئته مقارنة بغيرها.

كما يدرك الظروف الجغرافية والعادات والتقاليد وأحوال العرب قبل الإسلام، مما يجعله يأخذ تصوراً صحيحاً عن الوضع الذي عاشه الرسول ﷺ ليعطيه حقه من التقدير وحق أصحابه ﷺ.

كما أن عليه إجراء المقارنات الذهنية اللازمة بينه وبين أعدائه ومعانديه من مشركي العرب ويهودها في تلك المرحلة.

(١) من حديث البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه ...، ج٤٤/٢؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، ج١٤١/٨.

وعليه أن يدرك المراحل المختلفة لسيرة النبي ﷺ ولدعوته، ومن ذلك بالدرجة الأولى ما قبل البعثة وما بعد البعثة، وما قبل الهجرة وما بعدها، وما قبل بدر وما بعدها، إلى غير ذلك من الأحداث الحاسمة في حياة الرسول ﷺ وحياة أمة الإسلام في أيامه، والعالم أجمع.

كما أن على الدارس أن يربط أحداث السيرة بما ورد في كتاب الله ﷻ وأن يرجع إلى كتب التفسير وإلى أسباب النزول إن احتاج الأمر إلى ذلك.

وأن يضع الإنسان في ذهنه الأهداف العامة لدراسة السيرة النبوية وأن ما يكتبه أو يقوم به في عمله العلمي يحقق هذه الأهداف أو شيء منها.^(١)

كما ينبغي ربط السيرة بالحوادث المعاصرة في المجتمعات الإسلامية والإنسانية،^(٢) وتأثير العصر النبوي علينا في زماننا، ومعرفة سنن الله في الخلق.

كما ينبغي أن يدرك أنه أمام شخص اصطفاه الله ﷻ وحرّم الكذب عليه ويتذكر قول الرسول ﷺ: ((من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)).^(٣)

وبالتالي فإنه ﷻ ليس بحاجة أن يُكذب عليه أو يُكذب له، سواء بحسن نية أم بسوء نية، فقد يظن البعض بدوافع عاطفية أن إضافة حوادث غير

(١) انظر: سليمان حمد العودة، قضايا ومباحث في السيرة النبوية، - الرياض: دار المسلم ١٤١٦هـ، ص ١٩.

(٢) انظر: سر الختم عثمان علي، تدريس السيرة النبوية في مناهج التاريخ المدرسية - الرياض: دار العلوم ١٤٠٢هـ، ص ٣٥.

(٣) متفق عليه: من رواية البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب إثم من كذب على الرسول ﷺ، ج ١/٣٦.

صحيحة تجلب المحبة للنبي، وهذا بالطبع ما نهى عنه النبي ﷺ مهما كانت الدوافع لا يجوز الكذب عمومًا، فما بالك على رسول الله ﷺ، كما أن هذا بعيد عن خلق العلماء والعقلاء، وعن طلب الحقيقة وعن المنهج العلمي الإسلامي والإنساني عمومًا.

ويكفي ما صح عن رسول الله ﷺ ولسنا بحاجة لإضافات عليها، وهذا بالطبع لا يمنع الدراسة والتحليل واستخراج الفقه مما صح حدوثه، فهذا مطلب علمي وفقهي صحيح يصب في أهداف دراسة السيرة.

كما أن النقد العلمي للمتن منهج صحيح يمكن تطبيقه في مرويات السيرة النبوية.

والباحث العملي في سيرة النبي ﷺ يجد أنها غطيت بدقائق الأحداث وتفصيلاتها.

وقد عدَّ كثير من العلماء علم السيرة علمًا قائمًا بذاته، وكانوا يرونه قسمًا من السنة النبوية، لكن مناهج المؤلفين فيه أخف من منهج المحدثين في شروط قبول الرواية الحديثة لما يبني على الحديث من أحكام شرعية.

ولذلك نجدهم فيما يتعلق بالسيرة أكثر مرونة فيما لا يتبعه حكم، مثل ترتيب الأحداث أو أعداد المقاتلين أو السلاح. مع إيراد الكثير منهم لسند روايته في معظم الأحيان، وحرصهم على نقد الرواية باستمرار، واستبعادهم للضعيف منها.

ومع هذا فإن المحدثين الذين أدرجوا في كتبهم أقسامًا في السيرة كالبخاري في كتاب المغازي من صحيحه، ومسلم في كتاب الجهاد

والسيرة، وغيرهم عن أصحاب السنن طبقوا قواعدهم العامة في تمحيص الأحاديث المنسوبة للنبي ﷺ ولم يستثنوا مرويات السيرة من هذه القواعد.

وقد اهتم المؤرخون المسلمون عموماً وأوائلهم بالذات في جمع روايات السيرة النبوية، بطريقتهم وحسب ترتيبهم للأحداث وذكرها أسانيدهم بدقة، وحاولوا تصوير الوقائع والأحداث وترتيبها زمنياً بمنهج تاريخي وتميز واضح وإثراء في الأسلوب وإيراد السند كمنهج المحدثين.^(١)

وقد انصبَّ جهد المؤرخون في القرون الثلاثة الأولى على جمع الروايات الخاصة بالسيرة وتدوينها والاجتهاد في انتقاء ما يراه المؤلف كابن إسحاق في سيرته وشارحه ابن هشام وكذلك الطبري.^(٢)

وقد قام المتأخرون بعد ذلك بجهود خاصة، لتمحيص الروايات والتدقيق فيها ونقد متونها بطريقة علمية أكثر دقة.^(٣) حتى غدا علم السيرة قائماً بذاته، علم وسط يجمع علم السنّة (الحديث النبوي) وعلم التاريخ، يطبق عليه مناهج النقد المختلفة ويسير وسطاً بين هذين المنهجين.

ولعل الكثير من السلف عرفوا هذا العلم باسمه الواضح علم السيرة أو علم مغازي رسول الله ﷺ.^(٤)

وقد بذلت الأمة جهوداً مختلفة عبر عصورها التاريخية المتعددة في التأليف في هذا الفن ودقائقه، حيث ألفت كتب شاملة في مرويات السيرة مثل

(١) د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ١١.

(٢) د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ١٦.

(٣) د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ١٦.

(٤) انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي، المخطوط، السيرة والمدائح النبوية -

عمان: مؤسسة آل البيت ١٩٩٦م.

مرويات عروة بن الزبير (ت، ٩٤هـ)،^(١) وموسى بن عقبة (ت، ١٤٠هـ) وغيرهم.

كما اشتهرت مؤلفات بعينها كـ "السيرة النبوية" لابن إسحاق (ت، ١٥١هـ)^(٢) وشرحها لابن هشام^(٣) وهو أكثر كتب السيرة انتشاراً وتداولاً بين الناس فيما أظن، وما تبعها من شروح مختلفة،^(٤) وكتاب "المغازي" للواقدي،^(٥) وكتاب "المغازي" لابن أبي شيبة.^(٦)

كما عمل البعض حديثاً على استخراج أقسام السيرة من كتب التاريخ العام، أو من كتب الطبقات، ولعل من ذلك ما جرى من استخراج السيرة النبوية من كتاب "الطبقات الكبرى" لابن سعد^(٧) والسيرة النبوية من "تاريخ

(١) انظر: سلوى مرسى الطاهر، بدايات الكتابة التاريخية عند العرب، أول سيرة في الإسلام عروة بن الزبير، ط١- بيروت: المؤسسة العربية للدراسات ١٩٩٥م.

(٢) سيرة ابن إسحاق المسماة المبتدأ والمبعث والمغازي، لمحمد بن إسحاق بن يسار (٨٥هـ-١٥١هـ)، تحقيق وتعليق محمد حميد الله - المغرب: معهد الدراسات والأبحاث، فاس ١٣٩٦هـ.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام بن محمد بن عبد الملك بن هشام المعافري (ت، ٢١٣هـ)، تقديم وتعليق طه عبدالرؤوف سعد - القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٤م.

(٤) أشهرها (الروض الأنف) في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، للفيق المحدث أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي (ت، ٥٨١هـ) -، بيروت: دار المعرفة ١٣٩٨هـ؛ وكتاب شرح السيرة رواية ابن هشام للحافظ أبي ذر بن محمد بن مسعود الخشني (ت، ٦٠٤هـ)، صححه بولس بروتل -، بيروت: دار الكتب العلمية.

(٥) المغازي، للواقدي، محمد بن عمر (ت، ٢٠٧هـ)، تحقيق مارسدن جونز - بيروت: عالم الكتب (بدون تاريخ).

(٦) أبو بكر بن أبي شيبة، كتاب المغازي، تحقيق وتخريج عبدالعزيز العمري - الرياض: دار إشبيلية ١٤٢٠هـ.

(٧) السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، لابن سعد، ط١-، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي ١٤٠٩هـ، مجلدين؛ وغزوات الرسول وسراياه لابن سعد، أخرجها أحمد عبدالغفور عطار - بيروت: دار العلم ١٤٠١هـ.

الطبري"،^(١) والسيرة النبوية من "تاريخ الإسلام" للذهبي،^(٢) السيرة النبوية من كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير،^(٣) ويضاف لذلك المؤلفات العديدة المختلفة في الشمائل والخصائص النبوية، والدلائل والمعجزات التي يصعب حصرها في مثل هذه العجالة بالإضافة إلى الموسوعات الأخرى الشاملة للسيرة ومنها: "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن قيم الجوزية.^(٤)

وكذلك "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت، ٩٤٢هـ) فيما يزيد على عشر مجلدات.^(٥) والدلائل والشمائل، ومن ذلك "دلائل النبوة"، للحسن بن عبد الله الأصبهاني.

و"الخصائص الكبرى" لجلال الدين السيوطي، (ت، ٩١١هـ) وكتاب "أعلام النبوة"، للماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب، (ت، ٤٥٠هـ).^(٦)

(١) السيرة النبوية لابن جرير الطبري، تحقيق جمال بدران - القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ١٤١٤هـ.

(٢) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري جزء خاص بالمغازي، وجزء خاص بالسيرة النبوية، ط ١ - بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٧هـ.

(٣) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط في خمس مجلدات وفهارس مؤسسة الرسالة - بيروت: ١٤٠٦هـ.

(٤) السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، لابن سعد، ط ١ - القاهرة: الزهراء للإعلام العربي ١٤٠٩هـ، مجلدين؛ وغزوات الرسول وسراياه لابن سعد، أخرجها أحمد عبدالغفور عطار - بيروت: دار العلم ١٤٠١هـ.

(٥) حققها وأخرجها عدد من العلماء، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، تواريخ مختلفة حتى ١٤١٤هـ.

(٦) دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ).

و"الشماثل النبوية" للترمذي، و"الشماثل الشريفة" للسيوطي، و"دلائل النبوة" و"معرفة أحوال صاحب الشريعة" لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي.^(١)

و"الشفاء لتعريف حقوق المصطفى" للقاضي أبي الفضل عياض اليعصبي، (ت، ٥٤٤هـ).^(٢) وابن حجر الهيتمي في "أشرف الرسائل إلى فهم الشماثل".^(٣)

كما أنه ألفت كتب متخصصة في فقه السيرة، وهي مفيدة جداً للقارئ العادي والداعية يستقي دروساً وأدباً وسلوكيات من حوادث السيرة وتقدمها بأسلوب راق.^(٤)

وقد اجتهد مؤلفوها وكتابها، ونقلوا علم السيرة إلى مرحلة جديدة نستطيع أن نسميها "فقه السيرة"، كما سماها أولئك العلماء الذين كان لهم منهج واضح في كتاباتهم، رغم عمليات التصحيح والتقويم التي تعرضت لها كتبهم من قبل علماء آخرين وخصوصاً في تصحيح الروايات التي أوردوها في الكتب.^(٥)

لكنهم وبكل أريحية ردّوا على منتقديهم واحترموهم وأبدوا وجهة نظرهم فيما قيل عن تلك المؤلفات.^(٦)

(١) تحقيق الدكتور عبدالمعطي قلعجي، ط١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

(٢) دار الكتب العلمية، بيروت (بدون تاريخ).

(٣) تحقيق أحمد فريد المزيدي، ط١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ.

(٤) من هؤلاء محمد الغزالي في فقه السيرة، ومحمد سعيد رمضان البوطي، في فقه السيرة. ومنير الغضبان وغيرهم. (انظر: قائمة المصادر).

(٥) انظر: فقه السيرة، لمحمد الغزالي، خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني.

(٦) انظر: محمد الغزالي في فقه السيرة، ص ١١، مقدمة بعنوان: حول أحاديث هذا الكتاب.

كما أن بعض المؤلفين كتبوا في قضايا محددة كالحديث عن شخصية الرسول ﷺ، وهدية في التغيير الاجتماعي أو في نظام الدولة الإسلامية،^(١) أو في غزواته بشكل عام، أو في مرحلة معينة كالعهد المكي، أو المرحلة المدنية، إلى غير ذلك من النماذج والطرق في التأليف في السيرة، التي لا يتسع المجال لطرحها والإلمام بها جميعاً، حيث تأتينا المؤلفات الحديثة في السيرة كل يوم بجديد.

وأما الكتابة في العصر الحديث فقد أخذت أشكالاً متعددة.

منها ما ركز على حادثة معينة وجمع رواياتها ودرسها وحكم عليها وأخرج حولها بحثاً كاملاً يُعد مرجعاً في ذاك الحدث ورواياته وما ورد حوله والحكم عليها من حيث الصحة من عدمها. وقد توجه لهذا الأمر عدد من الأقسام العلمية في الجامعات الإسلامية في مقدمتها الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وغيرها من الجامعات السعودية والمصرية وغيرها.

كما ألفت كتب وأبحاث مختلفة تعد شاملة للسيرة النبوية.

ومن أمثلة ذلك:

❖ مرويات غزوة بني المصطلق، إبراهيم قريبي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

❖ مرويات غزوة الحديبية، حافظ حكيمي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(١) من ذلك تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرّف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمود سلامة - القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٤٠١ هـ، ومن ذلك نظام الحكومة النبوية المسمى الترتيب الإدارية لعبدالحى الكتاني.

- ❖ مرويات غزوة بدر، أحمد محمد العليمي باوزير، رسالة علمية من الجامعة الإسلامية في المدينة، ط ١ - الرياض: مكتبة طيبة ١٤٠٠هـ.
 - ❖ غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، دراسة نقدية، د. بريك بن محمد بريك أبو مايلة العُمري، ط ١ - مركز البحوث، الجامعة الإسلامية بالمدينة ١٤٢٤هـ.
 - ❖ عبدالقادر حبيب السندي، الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك - الكويت: مكتبة المعلا ١٤٠٦هـ.
 - ❖ السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، د. محمد بريك أبو مايلة العُمري - الدمام: دار ابن الجوزي ١٤١٧هـ.
 - ❖ غزوة أحد، دراسة دعوية، محمد عطية بن سعيد با مذحج - الرياض: دار إشبيليا ١٤١٩هـ.
 - ❖ غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم، عرض وتحليل د. سعود بن عبدالله الفنيسان - الرياض: دار إشبيليا ١٤١٨هـ.
 - ❖ السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق، د. سليمان بن حمد العودة، ط ١ - الرياض: جامعة الإمام ١٤١٤هـ.
- ومن المؤلفات المطول الشامل^(١) ومنها المختصر المركز، ولكل شيخ طريقته، وجميعها مفيدة، فمنها ما أُعد للعالم المتعمق المتخصص في علم السيرة، ومنها ما أُعد للقاري العادي، ومنها ما أُعد للصغار أو للشباب،

(١) ومن ذلك موسوعة نضرة النعيم، في مكارم أخلاق الرسول الكريم، تأليف صالح بن عبدالله بن حميد وعبدالرحمن محمد ملوح، في (١٢) مجلد، ط ٤ - جدة: دار الوسيلة ١٤٣٠هـ.

ومنها ما جعل بحثه سردياً للأحداث، ومنها ما جمع بين الحدث وفقه الحدث وهي الأنفع لقارئ السيرة، ويختلف بعضها عن بعض في صعوبة الأسلوب من سهولته، اشتهر بعض منها أحياناً، وانتشر أكثر من غيره، مع أن هناك أحياناً ما هو أفضل منه، اعتمد بعضها على منهج واضح يمكن تلمسه، وصدر بعضها بعفوية من مؤلفه.

وفي رأيي أن كل تلك المؤلفات المتنوعة والمتعددة تخدم السيرة ومساراتها المختلفة، وتصب جميعاً في نشر علم السيرة ما دامت تحقق أهداف دراستها، ولا تخرج عن الصحيح من الروايات.

ولعل من أبرزها ما أُلّف عن السيرة النبوية في القرآن الكريم،^(١) أو ما استخرج من كتب حديثة أو شروحاتها مباشرة.^(٢)

(١) انظر: محمد عزه دروزة، سيرة الرسول ﷺ مقتبسة من القرآن الكريم - بيروت: المكتبة العصرية؛ وعبدالصبور مرزوق، السيرة النبوية في القرآن الكريم - مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي (بدون تاريخ).

(٢) انظر: محمد الشنقيطي، السيرة النبوية عند ابن حجر في فتح الباري، الكويت ١٤١٤هـ.

خصائص السيرة النبوية

لا شك أن سيرة النبي ﷺ علم عظيم عن شخصية مصطفاً من الرب ﷻ وأحداث شهد عليها القرآن فيما تنزل من آيات تتلى إلى يوم القيامة وبالتالي تميزت بخصائص منها:

- ❖ أن صاحبها أفضل البشر، رفع الله له ذكره، وأدبه فكان سيد ولد آدم على الإطلاق، منذ وجد الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
- ❖ علو المصدر في هذه السيرة النبوية المؤيدة بآي القرآن الكريم في أغلب حوادثها وعامة مغازي المصطفى ﷺ وخلقه وسجاياه.
- ❖ أنها أدق سير الأنبياء والصالحين تفصيلاً ودقة، حيث تابع الصحابة كافة جوانب حياته الخاصة والعامة ونقلوها لنا بدقة متناهية، كما لم تنقل سيرة بشر آخر من قبله ﷺ.
- ❖ أنها أصح سيرة عرفت البشرية، صاحبها الصادق الأمين ﷺ، نقلها الصادقون من أصحابه، عُرِفَ ناقلوها، وصحّت أسانيدنا.
- ❖ أنها جمعت في ثناياها أعمال الرسول ﷺ التعبديّة والدينيّة، وسياسته الشرعية وجهاده ومغازيه، ومن عاصره من أصحاب وأمم وأقوام.
- ❖ ارتباط السيرة وأحداثها بمعالم جغرافية محددة ومعروفة، تدعمها وتؤكد مصداقيتها وتمكننا من متابعة أحداثها، وأماكن وقوعها بدقة وواقعية، وتتأسق وتتأغم عجيب.
- ❖ أنها مليئة بالدروس والعبر التي يمكن للمسلم خصوصاً وللإنسان عمومًا مهما كانت حاله ومكانته ووظيفته أن يستفيد منها، ليصل إلى أسباب النجاح، والسعادة الدنيوية والأخروية.

❖ أن في حياة الرسول ﷺ وإيواء الله له في يتمه وحفظه وعصمته من الناس، معجزة تشاهد وتُحَسُّ من خلال السيرة النبوية، ومن خلال نصر الله وحفظه دينه وانتشاره ومراحل حياته ودعوته، صدق الله فيها ما وعد نبيه وما وعد عباده الصالحين في أيامه.

❖ أنها نالت اهتماماً عظيماً من فقهاء الأمة وعلمائها ومحدثيها، فقل: أن يوجد عالم بارز إلا وقد ضرب بسهم في الكتابة في السيرة النبوية، فاستفاد منها وأفاد ما ساهم في تربية الأمة عبر الأجيال، وترقية الأخلاق والقيم.

❖ أن فيها تطبيقاً حياً لمعرفة سنن الله في الكون والحياة ونصر الله لنبيه، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [٥١] [غافر].

❖ أن السيرة تعالج كافة جوانب حياة الرسول ﷺ، قال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِن صَلَاحِي وَشُكْرِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١١٢] [الأنعام]. وتغطي حياته وصفاته وشمائله وتربط ذلك برسالته ونبوته واصطفاء الله له.

❖ إمكانية اختيار موضوعات محددة بذاتها من السيرة تشكل حدثاً جديراً بالدراسة لوجدها بتفصيلات أدق ودروس أشمل.

❖ كثرة المؤلفات فيها واختلاف مستوياتها وشمولها، فمنها ما يصلح للعالم ومنها ما يصلح للعامي ومنها ما يصلح للصغار والشباب أو الرجال والنساء، وغير ذلك من المستويات، كما أنه كُتِبَ عنها بلغات العالم قاطبة دون استثناء،^(١) وكُتِبَ عنها في مختلف العصور ولا يزال يُكتب عنها إلى يوم الدين، وكل تلك الكتابات تأتي بجديد.

(١) انظر: د. علي النملة، المستشرقون والسنة والسيرة في المراجع العربية - بيروت: مكتبة بيسان ١٤٣١هـ.

❖ أنها تؤرخ لعصر انقلاب عالمي وتغير في حياة البشرية، نُقل فيها الناس من الوثنية إلى التوحيد، ومن الشُّرك إلى عبادة الله وحده ومن الجاهلية إلى الإسلام.

❖ تأثير السيرة العظيم في نفوس المطلعين عليها، ومساهمتها الكبرى في التأثير على السلوك وتقويمه وتزكية النفس والأخلاق وتربيتها على الزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله، وشعورها بالسعادة، كما أنها تزيد الإيمان بما تثير في النفوس من حب الرسول ﷺ.

❖ أنه من خلال السيرة يمكن التعرف على أحوال العرب وبلدانهم وقبائلهم وكثير من العناصر الإنسانية والعمرانية والأعراف والعادات السائدة عند العرب ومن جاورهم، واحتك بهم قبل الإسلام وبعده، وتطلع على أوضاع العالم قاطبة وحضاراته في مرحلة حساسة من تاريخ البشرية.

❖ من خلالها يتم التعرف على الدور العظيم لأصحاب النبي ﷺ ونصرتهم له بالنفس والمال والأهل، ومحبتهم عند الله وعند رسوله وأتباعه، وبالتالي الدفاع عنهم أمام أعدائهم المستنقصين لهم، وهم أحياء رسول الله وأصحابه، من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ وأمّهات المؤمنين وبقية الآل والصحابة الذين - رضي الله عنهم ورضوا عنه -.

❖ جمال السيرة وحقيقتها وكمالها وواقعيتها وطيب حياة صاحبها ﷺ.

❖ أن السيرة النبوية المدخل الصحيح لفهم القرآن الكريم، وما تنزل فيه من آيات على رسول الله ﷺ في مختلف مراحل حياته.

أقسام السيرة النبوية

مرت السيرة النبوية وما يرتبط بها من أحداث وحياة للنبي ﷺ بمراحل متعددة، وقسمت حسب اصطلاح علماء السيرة إلى أقسام زمنية مترابطة ومتسلسلة، ينبغي أن يدركها الباحث في السيرة، ومن المعلوم أن مواقف النبي ﷺ ترتبط بوحي من الله وإذن منه ﷺ في كثير من أحواله، ترتب عليها نزول الشرع وأحكامه مع تحركات النبي ﷺ ومراحلها، إضافة إلى قلة وضعف أتباعه في البداية، وكثرتهم وقوتهم في آخر حياته وخصوصاً بعد فتح مكة، ومن هنا فإن العلماء قسموا السيرة وعصرها إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: العهد المكي، والقسم الثاني: العهد المدني:

وقُسم العهد المكي إلى قسمين (ما قبل البعثة) و(ما بعد البعثة).

القسم الأول من العهد المكي: ويحوي الأوضاع في مكة والعالم قبل الولادة، وحياة النبي ﷺ من الولادة إلى البعثة النبوية، وهي تغطي أربعين سنة من حياة الرسول ﷺ، وما سبقها.

وقد احتاجت هذه المرحلة إلى مزيد من العناية في تمحيص الروايات الخاصة بها ومعرفة طرقها، والتأكد من صحتها وما ذكر من أخبارها إذ إنه من الثابت نقلاً وعقلاً أن الرسول ﷺ حين نزل عليه الوحي لم يكن ينتظره ولم يكن يدعيه، ولا يتحدث عن شيء من ذلك على الإطلاق قبل أن ينزل عليه جبريل بـ((إقرأ))، بل إنه ﷺ احتار فيما رأى حتى اتضح له الأمر وتكرر عليه الوحي.

ولذلك فمن الثابت أنه لم يكن يعلم بنبوته قبل أن ينزل عليه الوحي، ولم يكن أحد من الناس يعلم أنه ﷺ بذاته هو نبي آخر الزمان قبل أن يُبعث، وإن كان أهل الكتاب ينتظرونه ويقرون بحضور زمنه، فلم يكونوا يحددونه شخصياً لهذا الأمر، وربما لم يتوقع الكثير وخصوصاً اليهود أنه من خارجهم.

ولا يعني هذا أن النبي ﷺ كان عادياً كسائر الناس. حاشا وكلا، فقد كان مصطفى ﷺ من الله - تعالى - قبل ولادته، ولكن الناس لم يعلموا بنبوته، ولا هو علم بذلك ولا قال به إلا بعد البعثة.

ومع اصطفاء الله له فقد حماه الله قبل الولادة وبعدها، وأدبه الله منذ صغره واتصف بأفضل الصفات وأزكاها وآواه الله في يتمه، وعصمه من الخطأ والشرك ودفع عنه شر الإنس والجن، وكان الناس يرون تميزه في الأخلاق والصفات، ويرون فيه كمالاً وأمانة ليست في غيره، وكان جده عبدالمطلب يتوقع له شأناً، لكنه لم يقل على الإطلاق لا هو ولا غيره بنبوته، وبالتالي فإن أحداث السيرة من الولادة إلى البعثة ينبغي أن تدرس في إطار هذا التصور الزكي النقي للمصطفى ﷺ دون معرفة أحد من الخلق بأنه نبي، وبعيداً عن أي ذكر منه ﷺ لنبوته، مع معرفة كماله واصطفاء الله له دون علم الناس بهذا في هذه المرحلة.

القسم الثاني من العهد المكي: وقد امتد قرابة ثلاثة عشر عاماً، وبيئتئ

بنزول الوحي على رسول الله ﷺ وينتهي بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة.

وهذا القسم من العهد المكي لم يؤمر فيه الرسول ﷺ بقتال المعاندين له.

وأمر بالدعوة سرّاً في أول المرحلة ثم أمر بالجهر بالدعوة والصدع بها.

وعاش خلالها ﷺ مرحلة من الأذى الشديد الذي أصابه من طغاة قريش ومشركيها، كما عاش ذلك المستضعفون من أصحابه، حتى أمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة في مرحلتين مختلفتين، ودفعتين متفرقتين.

شهدت هذه المرحلة وجود مدافعين عن الرسول ﷺ منهم عمه أبو طالب، ولم يكن مسلماً، وزوجته خديجة ﷺ وهي أول المؤمنين به وبناته وأصحابه الكبار أبو بكر وأمثاله، وشهدت وفاة أهم المدافعين عنه عمه أبي طالب وزوجته خديجة ﷺ، وحزنه عليهم، كما شهدت محاولات الرسول ﷺ الهجرة إلى الطائف والبحث عن قبائل خارج مكة وفي أسواق العرب المجاورة لها لعلها تؤويه وتتصره.

كما شهدت إسلام الأوائل من الصحابة في مكة وإسلام أشخاص معينين من خارجها رصدتهم كتب السيرة وعنونت لذلك كعلامات بارزة في أحداث هذه المرحلة.

كما شهدت حادثة الإسراء والمعراج، وهي من أهم الأحداث، في مكة التي عزت النبي ﷺ ورفعت منزلته، حيث كشف الله لرسوله ﷺ فيها من المعجزات والوقائع الحاضرة والمستقبلية ما لم يعلمه قبل تلك الرحلة.

وفي نهاية هذه المرحلة جاءت بيعة العقبة الأولى والثانية، وهاجر الرسول ﷺ بعدها إلى المدينة، وسبقه ولحقه أصحابه ﷺ من مكة ومن خارجها.

ولذلك فإن سمات المرحلة المكية واضحة، وخصوصاً فيما تنزل فيها من آيات في كتاب الله ومن أحكام شرعية، ومن طريقة للتعامل مع الأعداء ومجادلتهم والحوار معهم تختلف إلى حد ما عن المراحل التالية بعد الهجرة إلى المدينة.

حيث وقعت حوادث معينة وأخذ الصراع فيها مع المشركين والكفار منحى آخر وخصوصاً بعد الإذن بقتال المشركين.

وفي الوقت الذي تُعدّ فيه هذه المرحلة في معظم أحداثها مرحلة جهاد وقتال ومعارك ضد أعداء الله ورسوله فإنها تعد في الوقت نفسه مرحلة بناء للمجتمع المسلم الجديد في المدينة المنورة، بناءً شرعياً نظامياً، بدأ بمعاودة المدينة التي أسست لتكوين مجتمع مدني مشترك مع غير المسلمين إن أرادوا السلام، هدفه العدل وحفظ الحقوق الإنسانية والدفاع عن المدينة، وبناء اقتصاد تنموي عام، ركز على تشجيع الإنتاج والعمل والجدية، سواء بتشجيع الزراعة واستصلاح الأراضي عن طريق التشريع أو الإقطاع، أم النشاء النبوي على المنتجين والدعاء لهم أم العمل على البناء بلا مبالغة الذي بدأه الرسول ﷺ بنفسه ببناء مسجد قباء والمسجد النبوي وحجرات أمهات المؤمنين، وما تلاه من بناء دور ومزارع المهاجرين، والتشجيع العام على الإنتاج حتى في الاحتطاب، وتشجيع التجارة وتبادل المصالح مع المناطق الأخرى داخل الجزيرة العربية، وداخل المدينة وتأسيسه ﷺ سوق المدينة، والخروج من حصار يهود الاقصادي للمسلمين في سوق بني قينقاع.^(١)

كما شهدت هذه المرحلة تنظيمًا إدارياً للمدينة.

كان ﷺ مع منزلة النبوة رأس الدولة وقائدها، له مساعدون من كبار الصحابة. وكان ﷺ حريصاً على إقامة العدل والإنصاف بين الناس مسلمهم وكافرهم، يؤمن كل مستقيم مقيم غير معتد ولا آثم.

(١) انظر: عبدالعزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، الطبعة الأولى - الدوحة، قطر: مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي ١٩٨٥م.

ولذلك مرحلة المدينة ليست جهاداً ومغازي فقط، كما يظنها البعض، بل هي بناء ونظام وترتيب اجتماعي واقتصادي، مع الجوانب الأخرى العسكرية. ونستطيع القول إن ذلك كله صحبه تخطيط دقيق حكيم مصيب من المصطفى ﷺ.^(١)

ولعل لهذا العهد المدني محطات معينة تفصله إلى أقسام محددة، فلدينا (غزوة بدر) محطة كبرى يختلف فيها وضع الأمة الإسلامية ما بعد بدر عمماً قبلها.

وكذلك غزوة الأحزاب تعد محطة أخرى، حيث بدأ الميزان يتأرجح لصالح المسلمين، إذ إنه بعد الأحزاب أصبح المسلمون هم المهاجمين لقريش بعد أن كانت هي الغازية للمدينة.

وتأتي (غزوة الحديبية) وصلحها لتفتح الطريق للدعوة الإسلامية في كل الجزيرة العربية وخارجها، ولينطلق فيها دعاة الرسول ﷺ إلى القبائل كافة دون خوف أو وجل.

ولتنطلق رسائل الرسول ﷺ بعدها إلى ملوك العالم في كل اتجاه إلى الروم والفرس والقبط والحبشة وغيرها.^(٢)

يلي ذلك الفتح الأكبر، فتح مكة، حيث سقط أكبر عدو للرسول ﷺ وللنفة المؤمنة، وتوجه رسول الله ﷺ بعد ذلك لتأكيد دعائم الإسلام وترتيب أوضاع الجزيرة العربية التي دانت كلها له، فنظمها وبث فيها العلم

(١) انظر: عبدالعزيز العمري، مبادئ التخطيط والإدارة في السيرة النبوية، الطبعة الأولى - الرياض: مطبعة سفير ١٤٢٨هـ.

(٢) انظر: محمد بن عبد الله غبان، مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ، رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم التاريخ والحضارة في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة؛ وانظر: عون الشريف قاسم، نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ، دراسة في وثائق العهد النبوي؛ ومحمد حميد الله، في كتابه وثائق العهد النبوي والخلافة الراشدة.

والعدل ووزع الأمراء والقضاة والمعلمين،^(١) استعداداً للانطلاق العالمية الكبرى في كافة أنحاء الأرض.

وتأتي المحطة الأخيرة، حجة الوداع،^(٢) ليبين الرسول ﷺ للبشرية جمعاء الحاضر منها والغائب أنه أدى رسالة ربه ولتجيبه جموع الحاضرين: (نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة) صلوات ربي وسلامه عليه، وليستعد ﷺ للقاء ربه بعد أن جاءه نصر الله والفتح، ويلقى الرفيق الأعلى بعد ذلك وهو في حجر عائشة ﷺ وحُجرتها ليقول الصديق ﷺ كلمة الحق في الموقف الصعب: ((من كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت))،^(٣) وليساهم الصديق ﷺ ومعه أصحاب رسول الله ﷺ في توصيل رسالة النبي ﷺ للناس كافة بتوحيد الله وإخلاص العبادة له والقضاء على المرتدين والانطلاق في أرض الله فاتحين حاملين راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلى الأنحاء كافة، ولتسعد أمة الإسلام حتى اليوم بتلك الجهود المباركة لأصحاب محمد ﷺ وتلاميذه، ولتسعد وتشهد البشرية بذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

تلك أبرز ملامح السيرة النبوية ومحطاتها التي ينبغي أن يخرج دارس السيرة بتصور عنها، ولا شك أنه داخل ذلك تأتي جملة أحداث مختلفة فيها دروس ومواقف للاستفادة والقدوة والوعي تحمل الخير والرحمة للمطلع عليها.

(١) انظر الفصل الخاص بـ (الولاية على البلدان في العصر النبوي)، من كتاب الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين لعبدالعزیز العُمري، ص ٣٩.

(٢) انظر: حجة الوداع.. دراسة جامعة للأحاديث والآثار الواردة في حجة النبي ﷺ والجمع بينها على طريقة أهل الحديث والفقهاء للإمام عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: خالد أبو صالح - الرياض: دار الوطن ١٤١٦هـ.

(٣) انظر: موضوع (وفاة الرسول ﷺ)، من هذا الكتاب.

ومن المعروف أن المجتمع المدني في العهد النبوي مرّ بمراحل أكثر فيه عدد الصحابة وازدادوا بالتدرج، تنوعت قبائلهم ومناطقهم، واختلفت أعمارهم وتنوعت مشاركاتهم، منهم من شهد المشاهد كلها، ومنهم من شهد بدرًا واستشهد فيها، ومنهم من أسلم قبل الفتح ومنهم من أسلم بعد الفتح، لكل منهم موقف وحديث ولكل حادثة رجال لكل منهم دوره، حيث بدأت غزوة بدر بثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً ووصل العدد إلى ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك.

كان في ملامح هذا العهد بناءً لمجتمع ودولة امتدت يمينًا وشمالاً حتى غطت الجزيرة العربية وشارفت على الخروج منها، واستعدت لتلك الانطلاقة العالمية بعد أقل من سنتين من وفاته ﷺ.

شهد هذا العهد تدرجاً في أحكام الشريعة سواء في التحريم مثل الخمر والربا أم في الواجبات مثل صيام رمضان والحج وغيرها أم في التنظيم وترتيب ولايات الدولة الإسلامية وعمالها وموظفيها.

كما شهدت صراعاً مع قوى معادية كانت في أولها مع قريش والمنافقين ويهود المدينة وخيبر، ومع قبائل مختلفة، وفي آخرها احتكاك مع الروم والفرس أعظم قوتين في العالم في أيامه.

كل هذا التصور في التدرج والتغيير والبناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري وما يشمله من ملامح حياة الرسول ﷺ والأمة معه، ينبغي أن يكون حاضراً في ذهن المطلع على السيرة النبوية وعلومها، ليدرك الظروف المختلفة والمحيطات بأحداث السيرة العطرة.

مصادر السيرة النبوية

إن سيرة النبي ﷺ حديث عن أخبار ماضية، من باب الرواية التي يلزم الإنسان التحقق منها، بالأساليب العلمية الصحيحة، وهي رواية عن أفضل الخلق وأحب الناس، فلا بد من معرفة مصدر الخبر ومن أين جاء.

ولا شك أن المصادر بأقسامها المختلفة تنوعت، وهي التي استقى منها المؤلفون في السيرة أخبارهم ورواياتهم.

وأهمية الخبر تقترب بمصادره، وأمانة في نقله، وحين الحديث عن مصادر سيرة النبي ﷺ يتبادر إلى الذهن، أن قسمًا كبيرًا منها متفرق يرتبط بالقرآن وعلوم شرعية وأدبية مختلفة، منها:

القرآن الكريم وعلومه:

القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، اشتمل في العديد من سوره وآياته أخبارًا عن رسول الله، وبعض أحداث سيرته ﷺ وأخبارًا كثيرة عن عصره، وعمًا قبله ابتداءً من آدم عليه السلام، نجد فيه حديثًا عن الجاهلية وأوضاعها، والعرب وأصنامها، والضلالة وامتدادها، وعن حال العالم عامة وأحوال قريش خاصة، وما فيها من جهالة وضلال، تضمن حوار رسول الله ﷺ مع قريش، وحواره ﷺ مع اليهود والنصارى، وقصص كثيرة كانت تحدث بين رسول الله ﷺ وأناس مختلفين من أصحابه، أو من أعدائه، تنزلت بها آيات من القرآن بينات.

كما نجد ارتباطًا لأسماء بعض سور القرآن الكريم بحياة الرسول ﷺ

وسيرته.

ودراسة أسباب النزول من أهم ما يخدم المتعلم لسيرة الرسول ﷺ، ولو استعرضنا أسماء السور في القرآن الكريم لوجدنا ارتباطاً بين أسماء تلك السور وبين حياته ﷺ، فنجد في سورة الأنفال ارتباطاً بأحداث غزوة بدر، كما نجد في سورة التوبة حديثاً عن غزوة تبوك (غزوة العسرة) وعن المؤمنين والمنافقين، والحديث عن أول مسجد بني في الإسلام (مسجد قباء)، وفي سورة الإسراء الحديث عن الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وسورة (الأحزاب) سميت بتلك الغزوة، نجد وصفاً دقيقاً لحال المؤمنين وتكالب الأعداء عليهم، ولبيت النبوة وأوضاع أمهات المؤمنين، مع التأكيد فيها على التأسى بالرسول ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٣١) [الأحزاب].

كما ترسم المستقبل لدور أمهات المؤمنين ﷺ في تعلم ما يتلى في بيوتهن ﴿وَأذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤) [الأحزاب]، حتى يقمن بهذا الدور بعد وفاة الرسول ﷺ.

سورة (محمد) سميت باسمه ﷺ، وقد ألف علماء الأمة كتباً في أسمائه ﷺ ومعانيها.^(١)

وفي سورة (الفتح) يأتي الحديث عن صلح الحديبية وغزوتها، وكيف أن الله - سبحانه وتعالى - جعلهما فتحاً، في وقت ظن البعض أنها هزيمة، وفيها الآيات العظيمة المتعلقة بصفات رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه، دفاع من الله عنهم إلى يوم الدين وجمع بين الصحابة ونبیهم ﷺ:

(١) انظر: الموضوع الخاص بأسمائه ﷺ، من هذا الكتاب.

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢٩)

[الفتح].

سورة (الحجرات) ارتبطت التسمية بحادثة وفد بني تميم، حينما جاؤوا لرسول الله ﷺ ضمن وفود قبائل العرب فكانوا ينادونه ﷺ بشيء من الجفاء ونداء غير منضبط، كما ينبغي لرسول الله ﷺ.

سورة (المجادلة) فيها حديث عن امرأة كانت تجادل رسول الله ﷺ، وكما قالت عائشة ﷺ كنا في الدار قد يفوتنا بعض كلامها. (١)

وفي سورة المنافقين فضح الله ﷻ ما قالوا في رسول الله ﷺ: ﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨) [المنافقون]. ورد الله ﷻ عليهم وفضحهم.

وفي سورة (التحریم) حادثة مرتبطة ببيت النبوة برسول الله ﷺ وبأمهات المؤمنين، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنَعِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ نُوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيْلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)

[التحریم].

(١) ابن كثير، كتاب التفسير، ج ٢/١٨٣٥.

وفي سورة (المزمل) و(المدثر) ارتباط بالحديث عن مبعث رسول الله ﷺ ، وعن دخوله إلى داره مرتجفاً وحديثه لخديجة ﷺ : زملوني زملوني دثروني دثروني فإذا بالآيات تنزل على رسول الله ﷺ ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ١﴾ [المزمل]. ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيثُ ١﴾ [المدثر]. إلى آخر ما ورد في تلك السور.

وفي سورة (عبس) ذكراً للأعمى (ابن أم مكتوم) وحادثته مع رسول الله ﷺ ، وكيف أن الله ﷻ أدب رسوله ﷺ ، ولذلك يقول ﷺ ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)).^(١)

وفي سورة (العلق) ارتباط بالحديث عن بدء نزول الوحي على رسول الله ﷺ ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ﴿أَفْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ ٥﴾ [العلق].

وفي سورة (الفيل) حديث عن حادثة الفيل قبل الإسلام ، وجيش أبرهة الحبشي ومحاولته هدم الكعبة المشرفة في مكة المكرمة ، في العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ ، ويوافق سنة ٥٧٠م.^(٢)

والحديث عن تجارة قريش وأحلافها ينطلق من سورة (قريش) ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ٢ ﴿اقْرِيشًا﴾. وفيها تركيز على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والحلف بين قريش والقبائل قبل مبعث الرسول ﷺ وبعده يرتبط بأحوال العرب قبل البعثة ، وأهم الأحداث التي جرت حينذاك.

ويأتي الرد على الكفار في سورة (الكافرون) حينما فاضوا الرسول ﷺ وقالوا نعبده الله عاماً وتعبدوا الهتنا عاماً ، فيأتي الرد عليهما تكراراً وتأكيدياً

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: موضوع (مولد الرسول ﷺ) ، من هذا الكتاب.

لمبدأ التوحيد عند الرسول وتبرئته من الشرك في هذه السورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا
الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ
مَّا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون].

والتأكيد على الفرق بين الكفر والإيمان، وأن المسلم لا يشرك بالله في
يوم ولا ساعة ولا لحظة ولا ثانية، وأن الشرك ليس فيه مفاوضة أو أنصاف
حلول.

والأمثلة كثيرة يصعب حصرها، حيث سيرد الحديث عمّا ورد في القرآن
الكريم من آيات مع حوادث السيرة النبوية في موضعه.

"والقرآن وهو يعرض بعض آياته للحديث عن الرسول ﷺ يعرض لك
عرضاً تحس معه إحساساً حقيقياً أن كل جملة من آياته تفيض
بالحركة".^(١)

ولا بد من التأكيد دائماً على أن مصدرنا الأول في دراستنا لسيرة
المصطفى ﷺ هو القرآن الكريم الذي نجده يسير معنا من قبل مبعث رسول
الله ﷺ مثل سورة [الشرح] والحديث عن يُثم الرسول ﷺ إلى أن تأتي وفاة
رسول الله ﷺ، حيث أشير لها في ثنايا آيات متفرقة،^(٢) أو سور سميت
بحادثة مرتبطة بسيرة الرسول ﷺ.

وقد ارتبطت بالقرآن علوم خاصة تخدمه، وتقربه لأفهام الناس، ولكي
نفهم الآيات وأسباب نزولها وارتباطها بحياة الرسول ﷺ لا بد أن نتابع ذلك

(١) شقرة، محمد إبراهيم، السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة، ط١- الرياض:
مكتبة المعارف ١٤١٨هـ.

(٢) انظر: موضوع (وفاة الرسول ﷺ)، من هذا الكتاب.

من خلال كتب التفسير المختلفة، سواء منها ما ركّز على المعاني، أم ما ركّز على الآثار وأسباب النزول، أم ما جمع بينهما.

ومن أهم ما يُرجع إليه في تفسير الآيات بالآثر، تفسير الإمام الطبري رحمه الله، أو تفسير ابن كثير رحمه الله أو غيرهما، كما أن كتب أسباب النزول تعد مصدراً مهماً لا غنى عنه للباحث في السيرة.

كتب الحديث: ^(١)

تعد كتب الحديث من أهم مصادر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ويأتي في مقدمتها (صحيح البخاري)، الذي يحوي كثيراً من أخبار السيرة مجموعة في (كتاب المغازي) من الجامع الصحيح، كما يحوي أخباراً متفرقة ذات صلة بأحداث السيرة، في أبواب الصحيح المتفرقة التي يظهر من عناوينها موضوعات أخرى كالعبادات والمعاملات وغيرها، لكنها ذات صلة بأحداث السيرة، كما أن (كتاب المناقب) عند البخاري يحوي مناقب مختلفة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمهات المؤمنين وآل البيت، ولبعض القبائل والمجموعات التي عاصرت النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يُستغنى عن تلك الروايات في معرض الحديث عن الروايات المرتبطة بها.

ومن الأمثلة على أهمية روايات صحيح البخاري نجد فيما يتعلق بغزوة بدر مثلاً: (باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من يقتل ببدر)، تضمن أحاديث عن من يقتل من المشركين، قالها قبل المعركة ووقعوا وقتلوا كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر البخاري (باب قصة غزوة بدر)، (باب إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم)، وهنا يربط البخاري بين الآيات والأحاديث وتفسير تلك الآيات من خلال أحاديث صحيحة (باب عدة أصحاب بدر)، (باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على

(١) سيأتي ذكر للشواهد الواردة في مواقعها من الكتاب.

كفار بدر)، (باب قتل أبي جهل)، (باب فضل من شهد بدرًا)، (باب شهود الملائكة بدرًا) (باب تسمية من سمى من أهل بدر)، كما يضع بابًا في غزو الخندق وغير ذلك من الأمثلة التي يصعب حصرها، فهذه بعض أبواب داخل كتاب المغازي في الجامع الصحيح تابعة للحديث عن غزوة بدر وما ورد فيها، تبين لنا أهمية روايات البخاري في الجامع الصحيح لأحداث السيرة.

ومن المعروف أن فقه البخاري في صحيحه لا يقل عن عمله في الجمع والرواية، فالبخاري لديه فقه خاص للأحاديث يتمثل في عناوين أبوابه في كتبه يُستكشف منها مقدار علم البخاري ﷺ وفقهه للحديث.

كما أن ابن حجر في فتح الباري وغيره شرح أحاديث البخاري، وتوسع في الحديث عن السير، وقد استخرج الشنقيطي كتابًا جمليًا في مجلدين عنوانه "السيرة النبوية في فتح الباري"^(١).

كما يزودنا "كتاب الجهاد والسير" عند الإمام مسلم في صحيحه بثروة كبرى من الروايات الخاصة بالسيرة النبوية في كتب متفرقة في ثانيا صحيحه، ذات علاقة بسيرة النبي ﷺ جمعها في كتابه، وفي هذا القسم أحاديث وروايات عن معظم غزوات الرسول ﷺ والكثير من الحوادث التي شهدها النبي ﷺ، ولا يستغني دارس السيرة النبوية والكتاب فيها عن الاطلاع على مثل هذه الأبواب داخل صحيح مسلم، ومن الأمثلة على ذلك (بَاب كُتِبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مُلُوكِ الْكُفَّارِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ)،^(٢) (بَاب فِي

(١) انظر: د. محمد الأمين محمد الشنقيطي، السيرة النبوية في فتح الباري - الكويت: ١٤١٥هـ.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله ﷻ، ج ١٦٦/٥.

غزوة حنين^(١)، والأمثلة كثيرة يصعب حصرها.

والاطلاع على "شرح النووي لصحيح مسلم" يفيد القارئ والباحث في السيرة، كذلك فإن بقية كتب الحديث ومصادره المختلفة ذات أبواب خاصة بالسيرة وحياة النبي ﷺ، حيث توجد في كتب السنن المختلفة أبواب في مناقب الرسول ﷺ، ومناقب أصحابه.

وكتب المسانيد ثرية بالروايات ذات العلاقة بالسيرة وأحداثها، ومن ذلك "مسند الإمام أحمد"، الذي يحوي أغزر مادة في السيرة النبوية، حيث يورد الرواية مرتبطة بالراوي من الصحابة، وليست رواياته مبوبة حسب الموضوعات والأحداث كغيره، وهؤلاء الرواة هم شهود الأحداث بأنفسهم، مما يعطيها قيمة تاريخية علمية مهمة.

وبعض تلك الروايات في المسانيد وكتب السنن تحتاج إلى طريقة خاصة لمعرفة الصحيح من الضعيف منها، وللعلماء مناهجهم التي طبقوها فيما كتبوا عن سيرة الرسول ﷺ.

ولعل من الكتب المهمة في هذا الجانب ما ألفه الهيثمي (ت، ٨٠٧هـ) في كتابه "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد"^(٢).

كتب السيرة والمغازي:

خُدمت سيرة الرسول ﷺ بكتب متخصصة منذ القرن الأول الهجري، فيما عُرفَ بعلم السيرة والمغازي، وطيلة العصور الماضية لم يتوقف التأليف في حياة الرسول ﷺ الذي بدأ منذ أيام الصحابة والتابعين ﷺ في مدونات مختصرة لأحداث ذات علاقة بالسيرة النبوية.

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، ج ٦٦/٥.

(٢) الهيثمي: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٨هـ.

ومن أقدم من كتب في سيرة النبي ﷺ عروة بن الزبير بن العوام ﷺ أمه أسماء بنت أبي بكر وخالته أم المؤمنين عائشة ﷺ تأهل بين بيت النبوة وبيت أبي بكر الصديق ﷺ، في بيت الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة ممن شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ واستقى الأحداث وكثيراً من روايته من خالته أم المؤمنين عائشة ﷺ ومن أمه أسماء بنت أبي بكر، وكانت وفاة عروة بن الزبير ﷺ سنة ٩٢هـ.^(١)

وممن ألف في السيرة من علماء القرن الأول الهجري سعيد بن المسيب ﷺ (ت، ٩١هـ) الذي عمل على جمع مرويات السيرة، كما فعل الشيء نفسه وهب بن منبه (ت، ١١٤هـ) وكذلك أبو المعتمر التميمي (ت، ١٤٣هـ)،^(٢) وابن شهاب الزهري (ت، ١٢٤هـ)،^(٣) وموسى بن عقبة (ت، ١٤١هـ).^(٤)

ويعد محمد بن إسحاق (ت، ١٥١هـ)^(٥) من أشهر من كتب في سيرة النبي ﷺ. ووصلنا معظم كتبه وقد عاش جزءاً من القرن الأول الهجري وجزءاً من القرن الثاني الهجري، وقد شُرح كتابه عدة شروحات منها شرح ابن هشام

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤/٤٢١؛ وقد قامت سلوى مرسي الطاهر، بإصدار كتاب بعنوان: "بدايات الكتابة التاريخية عند العرب أول سيرة في الإسلام، عروة بن الزبير - بيروت: أصدرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٥م، جمعت فيها الكثير من مرويات عروة بن الزبير في السيرة من المصادر المختلفة.

(٢) انظر: أبو المعتمر التميمي ومروياته في السيرة، رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، من الباحث عبدالعزيز بن محمد العجلان، للعام الجامعي ١٤٢٢هـ، أشرفتُ عليها في حينه.

(٣) جمَع د. محمد عواجي مرويات الإمام الزهري في المغازي في مجلدين، في طبعة أولى - نشرتها عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٢٥هـ.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٦/١١٤.

(٥) محمد بن إسحاق بن يسار، انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب، ج٣٨/٩. وقد أخرج كتابه وحققه محمد حميد الله، ط٢ - قونية، تركيا: مؤسسة الوقف الخيرية ١٤٠١هـ.

(ت، ٢١٨هـ) المشهور بسيرة ابن هشام،^(١) الذي يعد أكثر كتب السنة شهرةً عبر العصور الإسلامية، وأكثرها انتشاراً، سواء بشكل مخطوط أم مطبوع وشُرح عدة شروحات أهمها السهيلي (ت، ٥٨١هـ)^(٢) في كتاب "الروض الأنف" في شرح السيرة النبوية لابن هشام"، كما أن الواقدي (ت، ٢٣٠هـ) له كتاب جيد وهام في المغازي يعد ثرياً جداً فيما احتوى من معلومات.

كما دون عمر بن شيبة (ت، ٢٦٢هـ)^(٣) في كتابه "تاريخ المدينة" عن حياة رسول الله ﷺ وعن حياة الخلفاء الراشدين.

وكذلك جمع أبو بكر بن أبي شيبة (ت، ٢٣٥هـ) وهو من شيوخ البخاري في كتاب "المغازي" من مصنفه قسماً كبيراً ومهماً من أخبار السيرة،^(٤) وهذا مما يؤكد أن الكتابة في السيرة النبوية كانت مصاحبةً للتأليف في السنة النبوية، وإن كان كل فن منها عُرفَ بمؤلفات مستقلة وموسوعات كثيرة يصعب حصرها.

ويعد كتاب الصالحي الشامي (ت، ٩٤٢هـ)،^(٥) "سبل الهدى والرشاد" من

(١) هو محمد بن عبد الملك بن هشام الحميري، وانظر: مقدمة التحقيق، ص ١٧، بقلم مصطفى السقا وآخرون.

(٢) أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد الخثعمي. انظر: ترجمته، ص ٥، بقلم المحقق طه عبدالرؤوف سعد - بيروت: دار المعرفة ١٣٩٨هـ.

(٣) هو عمر بن شيبان النميري البصري؛ انظر: ترجمته، بقلم محقق كتابه: فهيم محمد شلتوت، في مقدمة الكتاب.

(٤) انظر: المغازي لابن أبي شيبة، أبي بكر عبدالله بن محمد، دراسة وتحقيق وتخريج الدكتور عبدالعزيز بن إبراهيم العمري، ط ١ - الرياض: دار إشبيلية للنشر والتوزيع ١٤١٩هـ.

(٥) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، وقد طبع في عشرة أجزاء، حققه عدد من العلماء بإشراف ونشر لجنة إحياء التراث الإسلامي في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وهو من أفضل ما نشره المجلس.

أوسع ما كتب عن السيرة، وقد أشار في مقدمته إلى أنه استفاد من ألف كتاب في السيرة وغيرها كمصادر لكتابه، وقد ألفه في القرن العاشر الهجري، وبالتالي تهيأت له الاستفادة من مؤلفات كثيرة سبقته.

وقد ألفت كتب متعددة في اختصار سيرة الرسول ﷺ من ذلك سيرة النبي ﷺ المختصرة، لأبي الحسين بن زكريا، ومجالس في سيرة النبي ﷺ لابن رجب الحنبلي، وجوامع السيرة لابن حزم الأندلسي، والرسالة الكاملة في السيرة النبوية لابن النفيس، ومختصر سيرة النبي ﷺ للمقدسي، والمقتضى من سيرة المصطفى ﷺ للحسن بن حبيب.^(١)

ووسيلة الإسلام بالنبي عليه السلام لابن قنفذ القسطنطيني.^(٢)

وقد صنفت مؤلفات دقيقة في قضايا معينة تخص السيرة مثل كتاب المقرئزي "إمتاع الأسماع بما ورد للرسول ﷺ من الأبناء والحفدة

(١) ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت، ٧٧٩ هـ)، المقتضى من سيرة المصطفى، تحقيق مصطفى الذهبي - القاهرة: دار الحديث ١٤١٦هـ؛
ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ). جمهرة أنساب العرب، راجعه لجنة من العلماء، ط ١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ؛
ابن رجب، أبو الفرج عبدالرحمن الحنبلي (ت، ٧٩٥ هـ) مجالس في سيرة النبي، تحقيق ياسين محمد السواس ومحمود الأناؤوط، ط ١ - دمشق: دار ابن كثير ١٤٠٨هـ؛
ابن زكريا، أبي الحسين أحمد بن فارس، سيرة النبي ﷺ المختصرة، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط ١ - بيروت: عالم الكتب ١٤٠٩هـ؛
ابن النفيس، علي علاء الدين بن أبي الحزم القرشي، الرسالة الكاملة في السيرة النبوية، تحقيق عبدالمنعم عامر وأحمد هريدي - القاهرة: وزارة الأوقاف المصرية ١٤٠٨هـ؛
المقدسي، عبدالغني بن عبدالواحد الجماعلي الحنبلي (ت، ٦٠٠ هـ) الدرر مختصر سيرة النبي وسيرة أصحابه العشرة، حققه خالد عبدالرحمن الشايع، ط ٢ - دار بلنسية ١٤٢١هـ.
(٢) القسطنطيني: أبي العباس أحمد بن الخطيب الشهير بابن قنفذ، وسيلة الإسلام بالنبي ﷺ، تعليق سليمان الصيد المحامي، ط ١ - بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٤٠٤هـ.

والمتاع"،^(١) و(القرمانية) قاعدة في ذكر ملابس النبي ﷺ وسلاحه لابن تيمية،^(٢) كما وضعت كتب في أحذية الرسول، وفي شعر الرسول، وفي كتاب الرسول وفي شعراء الرسول وفي عهوده وفي عماله وفي رسله وفي تركته،^(٣) ومن ذلك الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة ﷺ للسيوطي،^(٤) وكتاب الوفاة للنسائي^(٥) وغير ذلك.^(٦)

كما تعددت المؤلفات والأبحاث عن كتاب السيرة ومنهجيتهم في تدوينها.^(٧)

المؤلفات الحديثية:

كثرت المؤلفات الحديثية في سيرة المصطفى ﷺ بلغات العالم المختلفة وباستمرار دون توقف، ولا شك أن هناك من يؤلف في هذه الساعة في سيرة النبي ﷺ وجوانب منها، ومن المؤلفات الحديثية التي يمكن أن يستفيد منها

(١) تقي الدين أحمد بن علي. انظر: تحقيق محمود محمد شاكر للكتاب، نشر لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة (د.ت).

(٢) ابن تيمية: أحمد بن عبدالحليم، (القرمانية) قاعدة تتضمن ذكر ملابس النبي ﷺ وسلاحه ودوابه، ط١- الرياض: دار أضواء السلف ١٤٢٢هـ.

(٣) من ذلك ما كتبه حماد بن إسحاق، تركة النبي ﷺ، دراسة وتحقيق د. أكرم ضياء العمري، ط١- المدينة المنورة: ١٤٠٤هـ.

(٤) السيوطي: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن، الرياض الأنيقة في أسماء خير الخليقة، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط١- بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

(٥) النسائي: أحمد بن علي بن شعيب، كتاب الوفاة وفاة النبي ﷺ، تحقيق دار الفتح، ط١- الشارقة: ١٤١٥هـ.

(٦) للمزيد من التفاصيل راجع: فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها - دمشق: دار القلم ١٤٢٥هـ.

(٧) للمزيد من التفاصيل انظر: عبدالرحمن السندي، السيرة النبوية عند البيهقي - مع دراسة مقارنة لأبرز مؤرخي السيرة المعاصرين له في المشرق خلال القرن الخامس الهجري، ط١ - الرياض: عمادة البحث العلمي جامعة الإمام ١٤٢٦هـ.

القارئ الشاب كتاب "من معين السيرة النبوية" للشيخ صالح الشامي،^(١) وكتاب الدكتور أكرم العُمري "السيرة النبوية الصحيحة"^(٢) وهو كتاب مميز يُقعد للكتابة في السيرة ويؤرخ لها ويعتمد على ما صح من الروايات في جمعه لها وتحليله، وكتاب "السيرة النبوية" لأبي الحسن الندوي^(٣) وموضوعاته وتحليلاته وترتيبه نفيس جداً وهو كتاب شامل في مختلف جوانب السيرة، و"دراسات في السيرة" للدكتور عماد الدين خليل،^(٤) ويتناول جوانب محددة وهو غير شامل، و"السيرة النبوية دروس وعبر" لمصطفى السباعي^(٥) وهو محدد وفي الدروس والفقهِ مختصر نافع، ويعد كتاب الدكتور مهدي رزق الله "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية"،^(٦) موسوعياً شاملاً لا غنى لمعلمي السيرة النبوية عنه واختصاره "صفوة السيرة"،^(٧) وهناك كتاب مشهور تداولته الأيدي وانتشر بكثرة وترجم إلى عدة لغات، وهو كتاب المبار كفوري "الرحيق المختوم".^(٨) جيد، وفي تصوري أن ما سبق ذكره من كتب أفضل منه في مجاله، وإن كان من أكثرها

(١) صالح أحمد الشامي، من معين السيرة، الطبعة الأولى - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

(٢) د. أكرم ضياء العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ط ٣ - المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم ١٤٢٥هـ.

(٣) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ط ١٠ - القاهرة: دار الشروق ١٤١٥هـ.

(٤) د. عماد الدين خليل، دراسات في السيرة، ط ١٥ - بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٢٢هـ.

(٥) مصطفى السباعي، السيرة النبوية، دروس وعبر، ط ٩ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٦هـ.

(٦) مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ط ١ - الرياض: مركز الملك فيصل ١٤١٢هـ.

(٧) مهدي رزق الله أحمد، صفوة السيرة النبوية، ط ١ - الرياض: دار إمام الدعوة ١٤٢٧هـ.

(٨) صفي الرحمن المبار كفوري، الرحيق المختوم - المنصورة: دار الوفاء (دون تاريخ).

انتشاراً، وما كتبه الدكتور محمد أبو شهبه، "السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة"،^(١) وما كتبه الدكتور مهدي رزق الله في كتابه "صفوة السيرة النبوية"، وما كتبه محمد الصوياني في كتابه "السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة".^(٢)

وكذلك كتاب الصادق الأمين محمد لقمان السلفي.^(٣)

كما وجدت ملخصات حديثة مختلفة للسيرة منها: خلاصة السيرة المحمدية لمحمد رشيد رضا،^(٤) وموكب السيرة النبوية لمحمد المختار ولد أباه.^(٥)

ويأتينا الباحثون كل يوم بكتب جديدة في مجال السيرة، وقد كتب بعض الباحثين في قضايا معينة مثل: وثيقة المدينة لأحمد الشعيبي، وكتاب النبي لمحمد مصطفى الأعظمي، وكتاب الوحي لأحمد عبدالرحمن عيسى، وشعراء حول الرسول لعبدالله محمد أبو داهش، ومحاولات اغتيال النبي ﷺ لعبد المنعم الهاشمي، وغير ذلك من الموضوعات التي يصعب حصرها، كما كتب عدد من المستشرقين في السيرة ولا أستحسن قراءتها لعامة

(١) عثمان محمد الخميس، كنوز السنة، ط٢ - الكويت: غراس ١٤٢٨هـ.

(٢) محمد الصوياني، السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، قراءة جديدة، ط٣ - الرياض: العبيكان للنشر ١٤٣٠هـ.

كما أن للمؤلف نفسه كتاب بعنوان: "القصيمية" دراسة نقدية لنصوص السيرة النبوية، كتبه في بداية عمله في السيرة، واقتصر على مرويات جزء من العهد المكي حتى الهجرة الثانية إلى الحبشة - (الرياض: دار طيبة ١٤٠٩هـ).

(٣) السلفي، محمد لقمان، الصادق الأمين، ط١ - الرياض: دار الداعي ١٤٢٧هـ.

(٤) ولد أباه، محمد المختار، موكب السيرة النبوية، ط١ - الدوحة: دار إحياء التراث ١٤٠٥هـ.

(٥) السلفي، محمد لقمان، الصادق الأمين، ط١ - الرياض: دار الداعي ١٤٢٧هـ.

الناس^(١) فكثير منهم وإن كتب بطريقة حسنة إلا أن قصور نظرهم وعدم اعتقادهم بنبوة محمد تجعلهم غير دقيقين في حديثهم كما أن كثيراً منهم بعيدين عن المنهج العلمي، ويسيوون الأدب في حق النبي ﷺ، كما أسأؤوا الأدب مع أنبيائهم قبل ذلك.

كما أن هناك كتباً متخصصة في حوادث معينة من السيرة النبوية، أو في مرويات لحادثة أو غزوة بذاتها، وقد أُخرجت مجموعة كبيرة من الأبحاث حول مرويات السيرة كرسائل علمية من قبل الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وغيرها ومن ذلك ما أخرجهُ عدد من الباحثين، حول موضوعات معينة سبق ذكر عدد منها على شكل رسائل وأبحاث علمية ضمن الحديث عن كيفية دراسة السيرة النبوية.^(٢)

وتكثر المؤلفات الخاصة بحوادث معينة، ففي كل غزوة العديد من الكتب التي يصعب حصرها، وهناك عدد من المؤلفات في الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية من السيرة، مثل ذلك، وفي الحوادث الأخرى كالهجرة أو الإسراء والمعراج أو الغزوات أو حجة الوداع أو الوفاة، ما يصعب حصره سواء منها ما أُلّف قديماً أم حديثاً.

(١) راجع كتاب الرسول في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، ط٢ - جدة: دار المنارة ١٤٠٦هـ؛

وعماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية - الدوحة: دار الثقافة ١٤١٠هـ؛

وعبدالمتعال الجبري، السيرة النبوية وأوهام المستشرقون، ط١ - القاهرة: مكتبة وهبة ١٤٠٨هـ؛

وجوستاف بفانموللر *Gustave Pfannmuller* (مستشرق ألماني) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ترجمة محمود حمدي قنديل، ط١ - البحرين: مكتبة ابن تيمية ١٤٠٦ هـ.

(٢) انظر موضوع كيفية دراسة السيرة وقائمة المصادر والمراجع من هذا الكتاب.

وقد تبع ذلك عدد من المؤلفات في فقه السيرة في مقدمتها فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي،^(١) وفقه السيرة للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي^(٢) وفقه السيرة لمحمد منير الغضبان^(٣) وفقه السيرة للدكتور زيد بن عبدالكريم الزيد،^(٤) وهو من أحدثها جميل في بابه واسع في محتواه، وغيرها من المؤلفات في فقه السيرة مما يصعب حصره.

كما أن جغرافية السيرة، حظيت ببحوث ودراسات مختلفة، وخصوصاً الحديث منها لمعرفة الأماكن المرتبطة بالسيرة وحوادثها، منها ما كتبه عاتق البلادي في معجم الأماكن الواردة في السيرة النبوية وفي أودية مكة المكرمة، وكذلك ما كتبه محمد الياس عبدالغني عن بيوت الصحابة حول المسجد النبوي، وكذلك ما سطره عماد الدين خليل في أطلس السيرة النبوية، وما رسمه سامي المغلوث في الأطلس التاريخي لسيرة النبي ﷺ.^(٥)

* * * * *

-
- (١) محمد الغزالي، فقه السيرة، ط٧ - القاهرة: دار الكتب الحديثة ١٩٧٦م.
 (٢) محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية - دمشق: دار الفكر ٢٠٠٨م.
 (٣) محمد منير الغضبان، فقه السيرة النبوية، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
 (٤) د. زيد بن عبدالكريم الزيد، فقه السيرة، ط٣ - الرياض: دار التدمرية ١٤٢٨هـ.
 (٥) المغلوث، سامي بن عبدالله بن أحمد، الأطلس التاريخي لسيرة النبي ﷺ، ط٢ - الرياض: مكتبة العبيكان ١٤٢٤هـ

المؤلفات عن الشمائل النبوية

من المعروف أن هناك موضوعات في شمائل الرسول ﷺ داخل كتب الحديث، وكتب السيرة مبنوثة فيها.

كما أنه قد أفردت مؤلفات خاصة في الشمائل والدلائل بعضها أسئلت من الموسوعات الحديثية وبعضها ألف أصلاً في هذا الباب.

ومن أكثر المؤلفات عن الشمائل النبوية انتشاراً كتاب "الشمائل النبوية" للترمذي، وقد حققه وخرج أحاديثه ناصر الدين الألباني رحمته الله،^(١) وكتاب "الأنوار على شمائل النبي المختار"، للبعثي (ت، ٥١٦هـ)،^(٢) وكتاب ابن حبان (ت، ٣٦٩) "أخلاق النبي"،^(٣) وكتاب ابن حجر الهيتمي (ت، ٩٧٤هـ) "أشرف الرسائل إلى فهم الشمائل".^(٤) وكتاب "أوصاف النبي ﷺ" للإمام الترمذي،^(٥) وغيرها من كتب الشمائل التي ربما استخرج بعضها من كتب السنن والأحاديث.

وقد تبعها عدد ضخم من المؤلفات الحديثية في هذا الباب أكثر ترتيباً

(١) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، مختصر شمائل النبي ﷺ، اختصار وتحقيق ناصر الدين الألباني، ط٢ - المكتبة الإسلامية بالأردن ومكتبة المعارف بالرياض ١٤٠٦هـ، وكذلك طبعة أخرى للشمائل النبوية، تحقيق ماهر ياسين فحل، ط١ - بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٤٢١هـ.

(٢) البعثي، الحسين بن مسعود، الأنوار في شمائل المختار، تحقيق إبراهيم اليعقوبي.

(٣) البيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين، الدلائل النبوية، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، ط١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ.

(٤) تحقيق وتعليق سميح عباس، ط٢ - بيروت: دار الجيل (د.ت).

(٥) شهاب الدين بن حجر الهيتمي، أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل، تحقيق أبو الفوارس أحمد بن فريد المزيدي، ط١ - بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ.

وتحقيقاً،^(١) من ذلك ما يتعلق بشخصية الرسول ﷺ مثل ما كتبه بسام عطية أحمد فرج "نبينا ﷺ رأي العين" - دراسة مستمدة من القرآن وصحيح السنة النبوية -^(٢) وكذلك ما كتبه محمد علي الهاشمي عن شخصية الرسول ﷺ ودعوته في القرآن الكريم،^(٣) وما كتبه عقيل بن حسين عقيل بعنوان "محمد ﷺ من وحي القرآن".^(٤)

وهناك كتب متعلقة بدلائل النبوة^(٥) ومعجزات الرسول ﷺ، منها ما ألفه البيهقي في "دلائل النبوة"، وفيه أحاديث كثيرة تحتاج إلى شيء من التحقيق والتخريج و"دلائل النبوة" لأبي نعيم الأصبهاني (ت، ٤٣٠هـ)^(٦) و"دلائل النبوة" لابن أبي الدنيا (ت، ٢٨١هـ)، و"الخصائص الكبرى" للسيوطي، و"الشفاء تعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض (ت، ٥٤٤هـ)،^(٧) وكتاب "خصائص النبي ﷺ" لسراج الدين أبي حفص عمر بن

-
- (١) انظر: صالح الشامي من معين الشمائل، ط١- بيروت: المكتب الإسلامي ١٤١٨هـ، وكذلك أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد عبدالعزيز الحداد، ط١- بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٤١٦هـ؛ وكذلك محمد جميل زينو، الشمائل المحمدية، ط١- مكة المكرمة: (د.ت)
- (٢) فرج، بسام عطية أحمد، نبينا رأي العين - دراسة مستمدة من القرآن وصحيح السنة النبوية ومزينة ببعض الفوائد العلمية والتربوية، ط٢- عمان: دار الفاروق ١٤٣١هـ.
- (٣) الهاشمي، محمد علي شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، ط٤ - بيروت: دار البشائر الإسلامية ١٤٢٤هـ.
- (٤) عقيل، عقيل حسين، محمد من وحي القرآن، ط١- دمشق: دار ابن كثير ١٤٣٢هـ.
- (٥) أبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دلائل النبوة، تحقيق عبدالبر عباس ومحمد رواس قلعة جي، ط١- بيروت: دراسات ابن كثير ١٩٧٠م.
- (٦) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الخصائص الكبرى - بيروت: دار الكتب العلمية.
- (٧) اليحصبي، القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي - بيروت: دار الكتب العلمية (د.ت).

علي المشهور بابن الملقن الشافعي (ت، ٨٠٤هـ).^(١)

وكتاب "اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ" لمحمد بن عبد الله الخيضي.^(٢)

وهي مؤلفات شاملة تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحقيق والتخريج لما يُنسب للرسول ﷺ.

كتب الطبقات:

وتعد كتب طبقات الصحابة خصوصاً وكتب الطبقات عمومًا من أهم مصادر السيرة، ومنها "الطبقات الكبرى" لابن سعد (ت، ٢٤٠هـ)،^(٣) حيث يحتوي الجزء الأول من هذا الكتاب سيرة النبي ﷺ. وفي هذا القسم روايات في الشمائل انفرد بها ابن سعد كما توجد روايات مرتبطة بأصحاب الرسول ﷺ وطبقاتهم في الترجمة لهم ينفرد بها المؤلف؛ حيث كان ابن سعد متقدماً في التأليف في طبقات أصحاب رسول الله ﷺ، كما يعد كتاب الإمام أحمد بن حنبل (ت، ٢٤٢هـ) "فضائل الصحابة"^(٤) من كتب التراجم الغنية بالروايات المتعلقة بالسيرة، و"كتاب

(١) ابن الملقن الشافعي، سراج الدين أبي حفص عمر بن علي، خصائص النبي ﷺ، تحقيق أبي عبدالرحمن عادل بن سعد، ط١- القاهرة: مكتبة أبي حذيفة السلفي ١٤٢١هـ؛ وانظر من المؤلفات الحديثة: العبادي، عبدالله عبدالرحيم، خصائص سيد المرسلين منذ مبعثه إلى يوم الدين، ط١- الدوحة: دار الثقافة ١٤٢٧هـ.

(٢) الخيضي، محمد بن محمد بن عبد الله، اللفظ المكرم بخصائص النبي ﷺ، تحقيق محمد الأمين بن محمد محمود بن أحمد الجكني، ط١- المدينة المنورة وبريدة: دار البخاري ١٤١٥هـ؛

وانظر من المؤلفات الحديثة: العبادي، عبدالله عبدالرحيم، خصائص سيد المرسلين منذ مبعثه إلى يوم الدين، ط١- الدوحة: دار الثقافة ١٤٢٧هـ.

(٣) محمد بن سعد، كاتب الواقدي، الطبقات الكبرى - بيروت: دار صادر.

(٤) الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله عباس، ط١- مكة: جامعة أم القرى ١٩٨٣م.

التاريخ" ليحيى بن معين (ت، ٢٣٣هـ)،^(١) وكتاب ابن عبد البر (ت، ٤٦٣هـ) "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"^(٢) وكذلك كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير (ت، ٦٣٠هـ) من المصادر الثرية في السيرة، كما أن كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر العسقلاني (ت، ٨٥٢هـ)^(٣) كتاب موسوعي في دراسة السيرة من خلال حياة الصحابة رضي الله عنهم.

بالإضافة إلى كتب الأعلام المختلفة ومنها "سير أعلام النبلاء" للذهبي (ت، ٨٤٧هـ)^(٤) و"تاريخ دمشق" لابن عساكر (ت، ٥٧١هـ)،^(٥) وكتب رجال الحديث مثل "تهذيب التهذيب" لابن حجر (ت، ٨٥٢هـ)،^(٦) و"تهذيب الكمال" للمزي (ت، ٧٤٣هـ)،^(٧) ومختصراتها، وغير ذلك من كتب التراجم المختلفة.

-
- (١) يحيى بن معين بن عوف بن زياد بن بسطام، يحيى بن معين وكتابه التاريخ، ط ١ - مكة: مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى ١٣٩٩هـ.
- (٢) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستيعاب في أسماء الأصحاب، حاشية علي الإصابة - القاهرة: ١٣٢٨هـ.
- (٣) شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد، الإصابة في تمييز الصحابة، ط ١ - القاهرة: دار السعادة ١٣٢٨هـ.
- (٤) الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء - بيروت: دار الرسالة ١٤٠٢هـ.
- (٥) ابن عساكر، أبي القاسم علي بن حسن، صورة من نسخة الكتاب في (١٩) مجلد، أصدرتها مكتبة الدار بالمدينة من المخطوط الأصلي في المكتبة الظاهرية بدمشق، ١٤٠٧هـ.
- (٦) شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، تهذيب التهذيب - حيدرآباد: دار الكتاب العثمانية ١٣٢٨هـ.
- (٧) جمال الدين أبي الحجاج المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ط ١ - دمشق: دار المأمون للتراث ١٤٠٢هـ.

كتب التاريخ العام:

إن مؤلفي كتب التاريخ العام ربطوا قلوب الأمة وعلمائها من خلال موسوعاتهم التاريخية بالتوحيد للخالق ﷻ ومن أمثال هؤلاء الطبري (ت، ٣١٠هـ) في كتابه "تاريخ الأمم والملوك"،^(١) وابن الأثير (ت، ٦٣٠هـ) في "الكامل"،^(٢) وابن كثير (ت، ٧٧٤هـ) في "البداية والنهاية"،^(٣) والذهبي (ت، ٨٤٧هـ) في "تاريخ الإسلام"^(٤) وابن خلدون (ت، ٨٠٩هـ) في "العبر"^(٥) وغيرهم، حيث تبدأ تلك المؤلفات في الغالب بالحديث عن بدء الخلق وعن خلق آدم وعن الأنبياء السابقين، ثم تأخذ في الحديث عن رسول الله ﷺ وأحداث عصره مسلسلة حسب السنوات الهجرية. وقد استخرجت من بعض هذه الكتب أقسام وكتب كاملة في السيرة النبوية مثل السيرة النبوية عند الطبري،^(٦) والسيرة النبوية لابن كثير،^(٧) وكذلك السيرة النبوية للذهبي وغيرهم.

-
- (١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تاريخ الطبري، ط١- القاهرة: المطبعة الحسينية.
- (٢) أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ - بيروت: دار صادر ١٣٨٥هـ.
- (٣) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، الطبعة الثالثة - بيروت: مكتبة المعارف ١٩٧٨م.
- (٤) أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء - القاهرة: وزارة الثقافة.
- (٥) عبدالرحمن بن محمد الحضرمي، تاريخ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت: مؤسسة الأعلمي ١٣٩١هـ.
- (٦) الإمام محمد بن جرير الطبري، السيرة النبوية لابن جرير الطبري، تحقيق جمال بدران، ط١- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية ١٤١٤هـ.
- (٧) الإمام أبو الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد - بيروت: دار المعرفة ١٣٩٦هـ.

كتب الأدب:

كتب الأدب العربي تحوي جملة من أخبار السيرة النبوية، وخصوصاً ما يرتبط بها من شعر أو خطب أو أمثال أو حكم، أو غير ذلك مما يتصل بالسيرة في جانب اللغة والأدب والبلاغة والحكمة، ففي مجال الخطب مثلاً نجد ما تقدم خطباً من خطب الرسول ﷺ لبلاغته وحكمته وتميزها عن بقية الخطب.

كما أنها تذكر الأمثال والحكم التي وردت عن رسول الله ﷺ وهو أبلغ الناس ﷺ، وبعضاً منها أورد قصصاً محددة أخذت من سيرة النبي ﷺ في مجال استشهاد معين بالكرم أو الرحمة أو الحكمة أو السياسة أو غير ذلك.

وكذلك في موسوعات الشعر نجد قصائد لشعراء الرسول ﷺ ومناسباتها، ولعل من أشهر الكتب في هذا المجال، ما كتبه ابن عبد ربه (ت، ٣٢٨هـ) في "العقد الفريد"،^(١) والنويري (ت، ٧٣٣هـ) في "نهاية الأرب"،^(٢) والقلقشندي في صبح الأعشى (ت، ٨٢١هـ) وغيرهم.

كما تعد دواوين الشعراء وخصوصاً شعراء الرسول ﷺ كديوان حسان ابن ثابت وغيره مصادر مهمة للسيرة.

كتب السياسة الشرعية:

هي من الكتب المهمة في الفقه الشرعي، وخصوصاً ما يرتبط بإدارة الدولة وسياسة الأمة، وشواهدا في الغالب من أحداث السيرة النبوية

(١) الفقيه أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان - بيروت: دار الفكر.

(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الله، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق أبو الفضل إبراهيم - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٥هـ.

والقياس عليها، ومن حوادث عصر الراشدين، وأمثلتها كثيرة فيما ألف في الأحكام السلطانية، مثل ما كتبه الماوردي (ت، ٤٥٠هـ) في كتاب "الأحكام السلطانية" ^(١) وأبي يعلى الفراء (ت، ٤٥٨هـ) في كتابه "الأحكام السلطانية" ^(٢) وما كتبه ابن تيمية (ت، ٧٢٨هـ) ^(٣) وغيرها، ولعل من أهم الكتب في مجال السياسة الشرعية من خلال السيرة النبوية ما كتبه الخزاعي (ت، ٧٤١هـ) في كتابه "تخريج الدلالات السمعية" ^(٤) وشرحه للكتاني في كتابه المشهور "التراتب الإدارية" ^(٥) أو نظام الحكومة النبوية، أما المؤلفات الحديثة في السياسة والإدارة في الإسلام فتحتوي مادة ثرية في هذا الجانب.

ويمكن أن يلحق بها كتب الأموال مثل كتاب "الأموال" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت، ٢٢٤هـ) ^(٦) و"الخراج" لأبي يوسف (ت، ١٨٢هـ) ^(٧) وكتاب "الأموال" لابن زنجوية (ت، ٢٥١هـ) ^(٨) و"الخراج" ليحيى

-
- (١) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية - بيروت: دار الفكر.
(٢) محمد بن الحسين الفراء، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط٢ - لبنان: دار الفكر ١٣٩٤هـ.
(٣) أحمد بن عبد السلام الحراني، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ج٤ - بيروت: دار المعرفة ١٩٦٩م.
(٤) أبو الحسن علي بن محمد التلمساني، تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تحقيق أحمد محمود سلامة - القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٤٠١هـ.
(٥) عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الفاسي، نظام الحكومة النبوية، المسمى التراتيب الإدارية: بيروت: دار الكتاب العلمي.
(٦) أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، ط٢ - القاهرة: دار الفكر ١٣٩٥هـ.
(٧) القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، ط٥ - القاهرة: المطبعة السلفية ١٣٩٦هـ.
(٨) المرجع السابق.

ابن آدم (ت، ٣٠٣هـ)، و"الاستخراج في أحكام الخراج" لابن رجب الحنبلي (ت، ٢٠٢هـ). وغيرها من الكتب المتخصصة التي اعتمدت شواهدا في الإدارة المالية للدولة الإسلامية من السيرة النبوية.

كتب الأنساب:

عرفت كتب الأنساب كمصادر مستقلة في موضوعها ولعل من أشهرها "أنساب الأشراف" للبلاذري (ت، ٢٧٩هـ)^(١) الذي حوى كثيراً من أخبار الصحابة وأبنائهم ومشاركتهم مع الرسول ﷺ في حياته، وكذلك زوجاته ﷺ وعلاقات المصاهرة فيما بينهم وبين الرسول ﷺ ومع بعضهم، وكذلك كتاب "نسب قريش" لمصعب الزبيري (ت، ٢٣٦هـ)،^(٢) ومن كتب الأنساب الأخرى التي تعرضت للعرب عموماً، ومن خلال ذلك للمهاجرين والأنصار وغيرهم من أصحاب النبي ﷺ مثل "جمهرة أنساب العرب" لابن حزم (ت، ٤٥٦هـ)،^(٣) و"الأنساب" للسمعاني (ت، ٥٦٢هـ)،^(٤) وغيرها مما يصعب حصره.

كتب المعارف العامة:

وهي كتب حاوية جمعت أخباراً متفرقة، فيها ما يفيد الباحث في علم السيرة وما يذكره بحدث معين أو نسب ذا صلة بالسيرة ورجالها، ولعل من

(١) أبو الحسن حمد بن يحيى بن عامر، أنساب الأشراف، الجزء الأول تحقيق محمد ضمير الله - القاهرة: دار المعارف ١٩٥٩م.

(٢) أبو عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري، من أنساب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال - القاهرة: دار المعارف ١٩٨٢م.

(٣) أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، ط١ - القاهرة: دار المعارف.

(٤) أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور، الأنساب، تحقيق عبدالرحمن يحيى المعلمي، ط١ - بيروت: نشر محمد أمين دمج ١٤٠١هـ.

أشهرها المعارف لابن قتيبة (ت، ٢٧٦هـ)،^(١) و"المحبر" لابن حبيب (ت، ٢٤٥هـ)،^(٢) ومقدمة ابن خلدون وغيرها من موسوعات المعارف العامة.

كتب البلدانيات:

وقد تكون كتباً ألفت أصلاً في تاريخ البلدان، وأهمها ما ألفت في تاريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد تعرضت لأجزاء كبيرة من السيرة، ولعل من أشهرها "وفاء الوفاء في تاريخ دار المصطفى" للسهمودي (ت، ٩١١هـ)،^(٣) و"تاريخ المدينة" لعمر بن شيبان النميري (ت، ٢٦٢هـ)،^(٤) و"الدرة الثمينة في أخبار المدينة"،^(٥) لابن النجار (ت، ٦٤٣هـ)، والعباسي في "عمدة الأخبار في مدينة المختار"،^(٦) والمرآغي (ت، ٨١٦هـ) في "تحقيق النصر في تلخيص معالم دار الهجرة"،^(٧) والمطري (ت، ٧٤١هـ) "التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة"، والفيروز أبادي (ت، ٨٢٣هـ) "المغانم المطابة في معالم طابة"،^(٨) والسخاوي (ت، ٩٠٢هـ) في "التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة

(١) أبو محمد عبدالله بن مسلم، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط٢ - القاهرة.

(٢) أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية، كتاب المحبر، تحقيق أيلزه، ليختن شتاين - بيروت: دار الآفاق.

(٣) عبدالرحمن بن محمد الحضرمي، مقدمة ابن خلدون، ط٤ - بيروت: دار الهلال ١٣٩٨هـ.

(٤) نور الدين علي بن أحمد، وفاء الوفاء، بإخبار دار المصطفى، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، ط٣ - بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠١هـ.

(٥) أبو زيد عمر بن شيبان النميري البصري، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، نشر السيد حبيب محمود أحمد، المدينة المنورة.

(٦) الإمام الحافظ محمد بن محمود، أخبار مدينة الرسول ﷺ، تحقيق صالح جمال، ط٢ - مكة: دار الثقافة ١٤٠١هـ.

(٧) أحمد بن عبدالحميد، عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق محمد الطيب الأنصاري وحمد الجاسر.

(٨) زين الدين أبو بكر بن الحسين بن عمر، تحقيق النصر في تلخيص معالم دار الهجرة، تحقيق محمد عبدالجواد، ط٢ - المدينة المنورة: المكتبة العلمية ١٤٠١هـ.

الشريفة" وابن زبالة (ت، ١٩٩هـ) في "أخبار المدينة"^(١).

وكذلك الأزرقى (ت، ٢٥٠هـ) في "أخبار مكة"،^(٢) والفاسي (ت، ٨٣٢هـ)، في "كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين"،^(٣) والفاكهي (ت، ٢٧٢هـ) "أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه"،^(٤) وابن فهد (ت، ٨٨٥هـ) في "إتحاف الورى في أخبار أم القرى"،^(٥) وابن فهد الهاشمي (ت، ٩٢٢هـ) في غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام.^(٦)

ويدخل في هذا السياق المعاجم الجغرافية العامة مثل "معجم البلدان" لياقوت الحموي (ت، ٦٢٦هـ)،^(٧) والحميري (ت، ٧٥٠هـ تقريباً) في "الروض المعطار في خبر الأقطار" وغيرها^(٨) من كتب البلدانيات ومعاجم المعالم الجغرافية.

-
- (١) محمد بن أحمد، التعريف بما أسست الهجرة من معالم دار الهجرة - المدينة المنورة: المكتبة العلمية ١٤٠٢هـ.
- (٢) أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصالح ملخص - بيروت: دار الثقافة ١٣٩٩هـ.
- (٣) أبو الطيب التقي محمد بن أحمد الحسني، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد محمود الطناحي - القاهرة: نشر محمد سرور الصبان ١٣٨٨هـ.
- (٤) أبو عبدالله محمد بن إسحاق، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق، د. عبدالمملك بن عبدالله بن دهيش، ط١ - مكة: مكتبة النهضة ١٤٠٧هـ.
- (٥) محمد بن محمد بن محمد بن فهد، إتحاف الورى في أخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى ١٩٧٧م.
- (٦) عز الدين عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي، غاية المرام بإخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي، ط١ - مكة المكرمة: جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ.
- (٧) ياقوت شهاب الدين أبي عبدالله، معجم البلدان - بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- (٨) محمد عبدالمنعم، الروض في خبر الأقطار، ط٢ - بيروت: مكتبة لبنان ١٩٨٤م.

كتب الفتوح:

ويأتي في مقدمتها "فتوح البلدان" للبلاذري (ت، ٢٧٩هـ)^(١) و"فتوح الشام" للأزدي (ت، ٢٣١هـ)،^(٢) وإن كانت بعض الكتب المؤلفة في الفتوح تخصصت بمنطقة بعينها إلا أنها من خلال الحديث عن المشاركين فيها تقوم بالحديث عن مشاركة هؤلاء الصحابة في حياة الرسول ﷺ أحياناً، كما أنها تتحدث عن إخبار الرسول ﷺ بفتوح تلك البلدان في المستقبل، ومناسبة حديثه، والوقائع المصاحبة لذلك الحديث الذي يبشر به الرسول ﷺ الأمة في وقت مبكر من حياته.

وفي ختام الحديث عن مصادر السيرة النبوية لا بد من الإشارة إلى وجود دراسات مستقلة عن هذه المصادر ولعل من أفضلها ما كتبه الدكتور فاروق حمادة - أثابه الله - في كتابه المعنون "مصادر السيرة النبوية وتقويمها"^(٣)، وخصوصاً الطبعة الأخيرة من الكتاب التي احتوت على زيادات مهمة ومفيدة، ولعل القارئ يطلع عليها لمزيد من المعرفة بالمؤلفات في السيرة والسنة على وجه الخصوص وفي أحداث السيرة والخصائص النبوية وغيرها وما استجد منها.

كما أن من المفيد أن نذكر أن مصادر السيرة تختلف بعضها عن الآخر في تحري الدقة في رواياتها وأسلوبها في التصنيف والترتيب للأحداث، كما أن المتقدم من المؤلفين إذا عرف سنده أولى من غيره، علماً أن المتأخرين من

(١) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان - بيروت: دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ.

(٢) محمد بن عبد الله، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر - القاهرة: مؤسسة سجل العرب ١٩٨٠م.

(٣) انظر: د. فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ط ١ - دمشق: دار القلم ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م؛ وانظر: د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/ ٤٧.

المؤلفين في الغالب عالة على من سبقهم، إلا أن الكثير من المتأخرين أجادوا الجمع والتصنيف والترتيب والشرح والأخذ عمّن سبقهم وطرح الموضوعات بأساليب معاصرة وطرق عرض حديثه، ودراسة لفقهِ الحدث والربط بينه وبين الواقع.

أحوال العرب في العصر الجاهلي

ببعثة النبي ﷺ سطع النور وانقشع الظلام وساد التوحيد والعلم والمعرفة، والحق والعدل، ولذلك عرف ما قبل الإسلام بالعصر الجاهلي تمييزاً له. ولمعرفة فضل الإسلام على العالم عامة والعرب خاصة، لا بد من معرفة الأحوال قبيل الإسلام في المجالات كافة، إذ أن الإسلام جاء مهيمناً على الحياة ليس على المسار الديني فحسب، بل على المسار الدنيوي، بأخلاقه ومعاملاته وعاداته وسائر تشريعاته وسلوكياته، ولما كانت الجزيرة العربية عامة هي مسرح أحداث السيرة بالدرجة الأولى، فإنه لا بد من الاطلاع على أوضاعها، ومعرفة أحوالها قبل مبعث النبي ﷺ، فبلاد العرب من الناحية الجغرافية شبه جزيرة كبرى، تحيط بها البحار من جهاتها الثلاث، الغربية والجنوبية والشرقية، وسطها صحراء قاحلة محدودة المياه والموارد، وإن وجدت مناطق حضرية داخلها فهي جُدُّ محدودة، مقارنة بمساحتها الكبرى، إلا أنها تعد مناطق واحات زراعية منتجة، كما وجد في جنوبها منطقة اليمن وعمان وهما مناطق جبلية زراعية معتدلة إلى حد ما، صعبة التضاريس كثيفة السكان وأهم مناطقها وأقاليمها ما يلي:

الحجاز:

وهي منطقة جبلية تمتد من جنوب بلاد الشام إلى أطراف اليمن، سميت بذلك لحجزها بين تهامة ونجد قراها قليلة الزرع والماء، سوى ما عرف عن الطائف، أهم مدنها مكة المكرمة ثم الطائف، ويليها يثرب، وخيبر، وتيماء، ووادي القرى، وفدك وغيرها.

نجد:

وتقع إلى الشرق من الحجاز، وتمتد جنوباً إلى أطراف اليمن وشمالاً إلى صحراء السماوة وبادية الشام وتمتد شرقاً إلى البحرين منطقة الأحساء،

وهي موطن رئيسي لعدد من القبائل العربية المشهورة والشرسية، التي تعتمد على الرعي والفروسية، وتعد من أقسى بلاد العرب صيفاً، وأحسنها ربيعاً، وأقساها شتاءً، ويرى البعض أن جبلي طي وما يقع إلى الشمال منها تتميز عن بقية نجد، وتأتي منطقة القصيم حالياً في وسط نجد.^(١)

العروض (اليمامة):

جنوبي نجد، هو ما يعرف حالياً بمنطقة العارض وتشمل الرياض وما حولها من منطقة اليمامة، ويُدخلها الكثير من الجغرافيين في نجد ويعدونها تبعاً لها وهذا هو الصحيح،^(٢) وتمتد إلى نواحي حضرموت وعمان.

اليمن:

وتقع إلى الجنوب من الحجاز، ويعد القدماء ما كان جنوب الطائف يمناً، بحكم الاتجاه وإن كان ليس كذلك بحكم الجغرافيا والإدارة، وتصل إلى حدود البحر في ناحية الجنوب، وتتصل بتهامة في الغرب، وبحضرموت وعمان في الشرق، كانت من أغنى بلاد العرب في الزراعة والإنتاج وأكثرها سكاناً، ذات أمطار غزيرة ومنافع متفرقة وذات مدن وتجمعات حضرية، أشهرها صنعاء ومأرب وعدن وغيرها.^(٣)

تهامة:

وهي الأرض الساحلية المنخفضة غربي الحجاز واليمن، وتشمل مناطق سهول ساحلية اشتهرت بشدة الحر وقلة الماء مع وجود شيء من الزراعة وتقييم

(١) انظر: محمد بن ناصر العبودي، معجم القصيم، ج ١/٢٣.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، ج ١١/٩١١؛ انظر: عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، حدود اليمامة، ج ١/١٧.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥/٤٤٨.

بها بعض القبائل للرعي والزراعة المحدودة، وتشمل مدناً ساحلية منها جازان حالياً وما يقع شمالها وجنوبها على الساحل.

البحرين:

وتشمل مناطق الواحات الزراعية شرقي العارض ونجد، وشمال عمان وتمتد بالقرب من السواحل الشرقية للخليج، فيها عدد من الحواضر أهمها هجر، وهي كثيفة المياه تسودها الزراعة ويتوافر فيها الإنتاج، إضافة إلى وجود قبلي حولها، يعمل على الرعي وتربية الأنعام، ذات صلة بفارس في كثير من مواردها واقتصادها وثقافتها.^(١)

مناخ بلاد العرب:

في الجملة صعب شديد الحرارة، سوى المرتفعات الجبلية، قليل الإنتاج سوى ما عرف في اليمن والطائف والبحرين، واليمامة، والواحات القليلة. عماد حياتها الاقتصادية على الرعي الذي يقل في الصيف، وتسود معظمه قبائل عربية دون أي تنظيم سياسي يجمعها أو يوحدتها، لغتها العربية واحدة وثقافتها متنوعة وأعرافها متقاربة.

السكان:

عرب على وجه الإجمال، سوى أخلاط قليلة من الغرياء في المدن بالدرجة الأولى، ويكثر الفرس في البحرين، وفي اليمن هناك أخلاط محدودة من الفرس والحبشة كانوا يتنازعون السلطة في حواضرها قبيل مبعث الرسول ﷺ.^(٢)

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٠؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١/٣٤٧.

(٢) انظر: عبدالرحمن الشجاع، اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٧.

كانت الكيانات القبلية تشكل الكتل البشرية ومنها القوة العسكرية تسود بينهم الصلات الحسنة أحياناً، والنزاعات القوية والحروب أحياناً أخرى.

عصبيتهم فيما بينهم قوية وشديدة، يتفاخرون بأصولهم وأنسابهم.

وترجع قبائل العرب إلى قسمين رئيسين ربعية ومضر، وهم العرب (العدنانية)، ومن أشهر قبائلها قريش وكنانة وأسد وقيس وتميم وهوازن وخطفان، ومن أشهر قبائل ربعية (القحطانية) بكر وتغلب والأوس والخزرج وجهينة وسليم، وقبائل اليمن وخزاعة.^(١)

بعض الكيانات القبلية كانت تسكن الحواضر، وغالبيتها تعيش حياة البادية والترحال. كانت الأمية والجهل تسودان بلاد العرب كافة دون استثناء، ولم يكن أهلها جديرين بوضعهم الطبيعي في ذلك الزمان بأي منافسة مع مجاورهم من أصحاب الحضارات الأخرى كالفرس والروم، وخصوصاً في مجالات التعليم والحضارة كالتب والعمارة وغيرها من مقومات الحضارة المادية البشرية، وكذلك في الجوانب الاقتصادية والعسكرية والسياسية وجوانب القوة المختلفة.

الجوانب الدينية:

كان معظم العرب وثنيين تنتشر بينهم عبادة الأصنام ولها مراكز مشهورة في بلاد العرب كافة، يفدون إليها ليقدموا لها العبادة والقربان ويطلبون منها العون والمساعدة كل حسب طريقته، ولم تسلم منها منطقة في بلاد العرب على الإطلاق حتى مكة موطن الحنيفية، وقد اشتهرت أصنام

(١) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٧.

معينة لديهم، ورد ذكرها في القرآن الكريم، قال - تعالى - : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم].

وقال - تعالى - : ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ الْهَتَكَ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح].

وُجِدَت مجموعات من يهود، تركزوا في منطقة المدينة المنورة (يثرب) وفي خيبر، وهي قبائل يهودية مشهورة منهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وكانوا يسكنون المدينة، إضافة إلى يهود خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى، الذين يشكلون تجمعا لا يستهان به.^(١)

كما وجد بعض أفراد ومجموعات عرفوا بالموالي، يعودون لأصول غير عربية - في الغالب - في مختلف المراكز الحضرية، وقد شاركت الفئات المختلفة من عرب ويهود وموالي في أحداث السيرة النبوية دون استثناء.

وقد انتشرت النصرانية بين بعض القبائل العربية، وكانت نجران من أهم مراكزها في بلاد العرب.^(٢)

كما عمّت النصرانية قبائل معينة مثل قضاة بحكم قربها من بلاد الروم، وتميم وتغلب وغيرها.^(٣)

كانت النصرانية بين العرب كغيرهم قد تعرضت للتحريف وتحوّلت إلى

(١) صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، ج٢/١٤؛

وانظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي ١ "قبل البعثة"، ط٣ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ.

(٢) راجع: محمد بن عوض العتيبي، نجران في عصر النبوة والخلافة الراشدة، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ والحضارة، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، للعام الجامعي ١٤٣٠هـ، غير منشورة.

(٣) عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج٣/٩٥٧.

وثنية، يعبدون فيها عيسى ابن مريم ويقدمون قسوسهم ورهبانهم ويقدمون أوامرهم على أوامر الله، قال - تعالى -: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَحَدًّا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣١) [التوبة].

وقد عُرف نصارى العرب بشيء من العلم والثقافة أكثر من غيرهم من المجموعات وتبادلوا ثقافتهم مع الروم وعرب الشام والعراق وخصوصاً المناذرة والغساسنة. (١)

الحياة الاجتماعية:

وتتأثر كثيراً بالحياة الدينية والمعتقدات السائدة، وقد ساد بين العرب دون استثناء شرب الخمر ولعب الميسر وأكل الربا، كما كان الرجال لا يتورعون عن الزنا، الذي كانت الحرائر تكرهه. (٢)

وكان بعض منهم يقتل أولاده خشية إملاق، قال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٣١) [الإسراء]. (٣) وفي بعضهم نزل قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَأَلَتْ ﴾ (٨) [التكوير]. (٤)

كما كانوا يكرهون البنات، قال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ﴾

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣/١٥٥، ٣٨٧.

(٢) راجع: محمود شكري الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، ج ٢/٤.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ١/١١١٦.

(٤) انظر: ابن كثير وتفسيره، ج ٢/١٩٦٥.

ظَلَّ وَجْهَهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ [النحل].^(١)

ولا يورثونهن^(٢) كما كانوا يعددون الزوجات بلا حدود بل وبعض النساء تعدد الأزواج.^(٣)

كما كان بعضهم يلجأ إلى الاستبضاع وهو أن يصيب الرجل امرأة غيره في طهر لم تجامع فيه حتى تحمل منه ولداً نجيباً.^(٤) وهو ما عرف عندهم بنكاح الرهط وهي المرأة التي يقع عليها جماعة من الرجال، فإذا حملت ألحقت ولدها بأحدهم.^(٥)

كما كان بعضهم يتزوج امرأة أبيه غصباً عنها وكانوا يجمعون بين الأختين.^(٦) فجاء التوجيه القرآني في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء].

وقد وجدت بعض الأخلاق والعادات الحسنة عند العرب في الجاهلية منها إكرام الضيف والشجاعة والفروسية وقوة البديهة والذكاء وحب الحرية.^(٧) أما في مجال اللغة فكانت العربية في أوج قوتها وفصاحتها وبلاغتها مع

(١) انظر: ابن كثير وتفسيره، ج ١/١٠٥٦.

(٢) ابن كثير، تفسير، ج ١/١١١٦.

(٣) انظر: جواد علي، المفصل، ج ٥/٥٣٩؛ وانظر: حديث عائشة عند البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ج ٦/١٣٢.

(٤) جواد علي، المفصل، ج ٥/٥٣٨؛ وانظر: حديث عائشة عند البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ج ٦/١٣٢.

(٥) انظر: محمود شكري الألويسي، بلوغ الأرب، ج ٢/٤.

(٦) انظر: ابن كثير تفسيره، ج ١/٤٥٣؛ جواد علي، المفصل، ج ٥/٥٢٩.

(٧) انظر: جواد علي، المفصل، ج ٥/٤٠٢؛ محمود شكري الألويسي، بلوغ المرام، ج ١/٤٦.

اختلاف محدود في اللهجات.^(١)

وكان البيان والبلاغة شديدة عندهم.

كان أقوى الشعراء وأخطب الخطباء وأبلغ البلغاء ذوي شرف في كل القبائل بلا استثناء، يتفاخرون بشعرهم ويتنافسون بنثرهم، لغتهم أحسن لغة وأبلغها وأفصحها ومن ذلك جاءت معجزة رسول الله ﷺ في كتاب الله، متحدية لهم في أقوى جانب عندهم، كما كانت بلاغة رسول الله ﷺ في حديثه أروع البلاغة، عجزوا عن مجاراتها أو الإتيان بمثلها ناهيك أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال - تعالى -: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء].

وما تزال معلقاتهم وقصائدهم وخطبهم^(٢) من أروع ما شهدته اللغة العربية وأبدعها.^(٣)

(١) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص ١٢٣.

(٢) انظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، الجزء الأول.

(٣) انظر: أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، ج ١٣/٢؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، وجواد علي، المفصل، ج ٢٥٠/٩.

أحوال العالم الدينية في العصر الجاهلي

لا شك أن العالم كبير وواسع ويصعب الإحاطة به على وجه العموم، وبالدرجة الأولى يمكن الحديث عن المناطق المتاخمة لبلاد العرب والتي أثرت وتأثرت في عصر السيرة النبوية وقد أوضح القرآن الكريم وبإيجاز الأوضاع العامة للعالم في قوله - تعالى - : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم].

وفي الناحية الدينية، وهي الأساس المتحكم غالباً في تصرفات الناس كانت الديانتان السماويتان اليهودية والنصرانية ذاتي علم وكتاب وتراث.^(١)

اليهودية:

ديانة حملها أتباع موسى عليه السلام من ذرية يعقوب - إسرائيل - حيث أنزلت عليه التوراة، وكانوا على التوحيد، وُجدَ فيهم أنبياء في أوقات متفرقة. وقد حرقوا التوراة وقتلوا أنبياءهم بغير حق، اشتهر من ملوكهم داود وسليمان النبيين الصالحين.

تفرقوا في الأرض بعد سقوط دولهم، حيث أقام قسم منهم في يثرب وخيبر انتظاراً لمبعث النبي ﷺ، لكنهم جحدوا وعاندوا وتكبروا وكفروا وعادوا رسول الله المبعوث للعالمين، وخالفوا وصية أنبيائهم، سيئو الأدب مع الله، اشتهروا بأنهم أهل كتاب، حيث لديهم التوراة والأسفار المختلفة، أقرب إلى الحق من الوثنيين، ومع ذلك استحقوا غضب الله بسوء أدبهم مع الله واتهامهم لله بالفقر والبخل، قال - تعالى - : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ

(١) تمت الإشارة إلى الوثنية عند العرب، من خلال الحديث عن أحوال العرب قبل الإسلام من هذا الكتاب، وكذلك عند الحديث عن موطن الرسول ﷺ، من هذا الكتاب.

أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿٦٤﴾ [المائدة] ، وقال - تعالى -
 -: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
 ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
 قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ [التوبة].

كما أنهم قتلوا أنبياءهم وكفروا بآيات الله وحرفوها ، قال - تعالى - :
 ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ
 الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالِ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ
 أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ
 وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضِ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
 وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ [البقرة].

كانوا يؤذون الناس بغير حق ويستبيحون دماءهم وأموالهم ، قال - تعالى -
 -: ﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا
 يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنِ سَكِيلٌ
 وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ [آل عمران].

كما أنهم قدسوا أحبارهم وقدموا أقوالهم على الله وأوامره ، قال - تعالى -
 -: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
 مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ
 عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ [التوبة].

كما حرفوا التوراة عمداً ، قال - تعالى - : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ
 بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ
 أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٦﴾ [البقرة].

ومع ذلك فقد كانوا يزعمون انتظار نبي آخر الزمان ليتبعوه ويعرفوا الحق الذي بعث به محمد ﷺ، قال - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩) [البقرة].

النصرانية:

ديانة من يزعم إتباع عيسى ﷺ، من أكثر الديانات انتشاراً في العصر الحاضر، وهم فرق متعددة، كانت سائدة في الشام والعراق ومصر والحبشة وأوروبا الجنوبية والشرقية، ومدعومة بقوة الروم السياسية والعسكرية والمالية.^(١)

وأدى دخول الروم فيها إلى توثينها وإدخال الشرك فيها منذ القرن الرابع الميلادي على يد [قسطنطين الأكبر]، حيث خرجت عن التوحيد وبدأت بتأليه المسيح وأصبح من لا يعبد المسيح يعد خارجاً على العقيدة الرسمية للكنيسة، وقوتها السياسية دولة الروم، وخدمها من غساسنة العرب أو ملوك الحبشة، ودخل الصراع بين النصارى في تفصيلات مختلفة حول طبيعة المسيح، وأخذ يكفر بعضهم بعضاً ويحارب بعضهم بعضاً، فوقع الصدام بين نصارى الروم ونصارى مصر وقام العداء بينهم.^(٢)

وكان نصارى العرب في الجاهلية غالباً من اليعاقبة^(٣) الذين يرون - والعياذ بالله - أن الله هو المسيح وليس ابناً، وهم الذين رد عليهم القرآن، قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ

(١) انظر: فاروق الدملوجي، تاريخ الأديان، ص ٥٨٣.

(٢) لمزيد من المعلومات انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٦.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص ٥٠٣.

الْمَسِيحُ بِنْتِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة].

كما كان جزء من نصارى فارس والعرب وخصوصاً في العراق نساطرة،^(١) ويختلفون عن نصارى الروم وهم جميعاً كما قال الله - تعالى - : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة].

وجملة القول في كل أتباع النصرانية في العصر الجاهلي أنهم دخلوا الوثنية من أوسع أبوابها قبل بعثة النبي ﷺ ، كحالهم اليوم في عبادة المسيح وتأليهه.

المجوسية:

تقوم ديانتها على عبادة النار بالدرجة الأولى، إضافة إلى بعض مظاهر الطبيعة كالقواكب والشمس وغيرها.^(٢) كانت لهم معابدهم الخاصة المنتشرة في إيران وسائر بلاد فارس، حيث تقف معها دولة الفرس وتحميها وتنتشرها في كل أنحاء الإمبراطورية الفارسية وما يخضع لها، وقد دخلت بلاد العرب وانتشرت بالدرجة الأولى في منطقة البحرين شرقي الجزيرة العربية، حيث وجد جماعة من الفرس أثرت على السكان المحليين، وانتشرت معابدها وما يتبعها من أساطير وكهان.

وكانت الزرادشتية ديانة سابقة للمجوسية قيل إن المجوسية تطورت عنها.^(١)

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص ٥٠٢.

(٢) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٦.

(١) مهدي رزق الله، صفوة السيرة النبوية، ص ٥١.

البوذية:

ديانة وثنية تعتمد على عبادة الأصنام وتقيم لذلك الهياكل والمعابد ويخدمها الكهنة والسحرة والمشعوذين،^(٢) وكانت تنتشر في الهند وما ورائها من جنوب وشرق آسيا إلى الصين.

وتقوم هذه الديانة في زعمهم على تعدد الآلهة والصراع، قال - تعالى - : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء]. وقد صاحبها في موطنها الديانة الهندوسية، التي أغرقت في زعم تعدد الآلهة وكثرتها حتى وصلت إلى الملايين عندهم.^(٣)

وتُعدُّ الوثنية العربية وعبادة الأصنام سائدة في شتى أصقاع بلاد العرب، وخصوصاً في مكة المكرمة، إلا أن البعد الفلسفي لم يكن بعمق الوثنيات الأخرى، فلم تكن لدى العرب ثقافة مكتوبة حول آلهتهم المزعومة وإنما كان في غالبه تقليداً أعمى وزعم بأنها تقرب إلى الله.

قال - تعالى - : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر]، وأصروا على التمسك بأصنامهم، قال - تعالى - : ﴿وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ ءِلهَتَكُمْ وَلَا نَدْرَأُ وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح]، وأغرقوا في التقرب لأصنامهم والإشراك بها، قال - تعالى - : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا

(٢) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٧.

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٨.

يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأنعام].

وكانوا ينكرون البعث، قال - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ [الجاثية].

* * * * *

الحالة السياسية في العصر الجاهلي

من المعلوم لكل ذي عقل، أن الرسول ﷺ جاء بدين التوحيد، وإخلاص العبادة لله، وأنه أقام دولة؛ أسس لها نظاماً ساسها بالشرع والدين، وأقامها بالعدل، حتى صارت في آخر حياته ذات كيان قوي، تمكنت بعد وفاته ﷺ من أن تُسقط الدول المجاورة لها، وتُضعف بعضها، وتُسيطر على مناطق شاسعة منها؛ لتتشر التوحيد، وتُحيي الناس على عبادة خالقهم، بعد أن سرقهم الطغاة وأضلوهم، وبالتالي فلا بد من إمامة سريعة بالوضع السياسي لبلاد العرب وما جاورها، قبيل مبعث رسول الله ﷺ.

أحوال العرب السياسية:

قبل أن نبدأ الحديث عن الدعوة الإسلامية، وما تبعها من قيام الدولة، لا بد لنا أن نلمَّ إمامة سريعة بشيء عن الحكومات والنظم التي سبقت الإسلام، سواء في مهبط الإسلام الجزيرة العربية، أم في البلاد التي استطاع المسلمون فتحها ونشر الإسلام فيها وتنظيم أمورها الداخلية خلال عصر الخلفاء الراشدين في فارس والعراق، أم في الشام ومصر وغيرها؛ حتى نستطيع أن ندرك الفرق بين هذه النظم التي كانت قائمة قبل الإسلام، وبين التنظيم الجديد لهذه البلدان والأقاليم خلال عهد الرسول ﷺ وما تلاه.

لم يكن هناك نظام واضح محدد في الجزيرة العربية، وخصوصاً في وسطها، ولم تكن هناك دولة يشار لها بالبنان، حيث سادت الأنظمة والأعراف القبلية، ومع ذلك فقد عرف في وسطها وجود مملكة لبني حنيفة، وإن كانت اسمية لا يتضح لها نظام وقد كتب رسول الله ﷺ لملكها هوذة بن علي الحنفي.^(١)

(١) انظر: كتب الرسول ﷺ لملوك العالم (كتابه لهوذة بن علي الحنفي)، من هذا الكتاب.

كما عُرِفَت مملكة في البحرين غير واضحة المعالم أيضاً، وإن كان الأرجح أنها خاضعة للفرس ونفوذهم إلى حد كبير،^(١) وقد كتب الرسول ﷺ لملكها المشهور [المنذر بن ساوي العبيدي]،^(٢) الذي أسلم وأسلم معه جمع من العرب والفرس من أهل البحرين.^(٣)

ولا يمكننا - في هذا النطاق - معالجة حال بلاد العرب السياسية أو نظمها الإدارية دون أن نفرق بين ممالك كانت قائمة - كما في اليمن - وبين مدن ذات طابع سياسي أقل تنظيمًا وإدارة كما في مكة والمدينة قبيل الإسلام. ولا بد لنا من معالجة وجيزة للحال السياسية والإدارية للقبائل البدوية المنتشرة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية.

الأعراب:

توجد في بلاد العرب الكثير من القبائل المنتشرة، وكانت كل قبيلة تنقسم إلى عدة أفخاذ وبتون يجمعها رابط أساسي هو رابط الدم والقرابة بالدرجة الأولى، ويفرقها هذا الرابط أيضاً.

وكانت كل قبيلة تدير شؤونها بنفسها، وتحل مشكلاتها عن طريق زعماء القبيلة وحكامها. وهذه القبائل في العادة ترفض الخضوع لتنظيم سياسي معين، إلا أنه يوجد في كل قبيلة زعيم معين تهب إليه عند الحاجة، فيتشاورون فيما بينهم، ويتخذون قراراً جماعياً في مجلس ذلك الشيخ،^(٤) ومع

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٩.

(٢) انظر: كتب الرسول ﷺ لملوك العالم (كتابه للمنذر بن ساوي العبيدي)، من هذا الكتاب.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٩ - ٩٠.

(٤) د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، الجزء الأول "الدولة العربية قبل الإسلام"، ج ١/١٥٨، بدون مكان الطبع: ١٩٦٠م؛

د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط ٥ - بيروت: ١٩٨٠م، ص ٥٠.

ذلك فإنه لم تكن هناك جهات رسمية تنفيذية تقوم بأعباء الإدارة والتنظيم ومتابعة الأوامر، إذ لم يكن هناك موظفون معينون أو دواوين أو ما إلى ذلك،^(١) إلا أنه في حال تعرض القبيلة لهجوم معاد من إحدى القبائل الأخرى، كعادة العرب في العصر الجاهلي، فإن القبيلة بكاملها تهب للدفاع عن نفسها وتستعد استعداداً كاملاً لمثل هذه الأمور، وهكذا فإننا لا يمكن أن نلمس نظاماً سياسياً معيناً لدى هذه القبائل يمكن أن يوجه دفة الأمور بدقة في شؤون القبيلة.

وقد جرت في الجزيرة العربية عدة محاولات في بعض القبائل لإقامة مملكة أو نظام ملكي، عن طريق تتويج أحد أفراد القبيلة ملكاً، إلا أن معظم هذه المحاولات لم تنجح، كما حدث في بني حنيفة.^(٢)

مكة والمدينة:

لا بد لنا من الإمام بما كانت عليه الأحوال السياسية في مكة والمدينة قبيل الإسلام، وكان هناك تأثير لهذه الأحوال على بعض تطبيقات النظم الإسلامية فيما بعد، خصوصاً أن مكة والمدينة أرض الإسلام الأولى.

كانت تعيش في مكة وما حولها قبيل الإسلام بعض القبائل أهمها قريش.^(٣) ومكة منذ القدم كانت مقدسة لدى العرب عموماً، يفد إليها الحجاج من مختلف بلاد العرب، وبذلك فهي ذات مكانة وحرمة خاصة، كما أن أهل مكة كانوا تجاراً حاذقين ينتقلون للتجارة بين اليمن والحجاز

(١) مولوي: س. ا. ق. حسيني، الإدارة العربية، ترجمة د. إبراهيم أحمد العدوي، مراجعة عبدالعزيز عبدالخالق، مكتبة القاهرة (بدون تاريخ)، ص ٢٣.

(٢) د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ج ١/١٦٠.

(٣) المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ترتيب وضبط يوسف أسعد داغر، ط ٢ - بيروت: دار الأندلس ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ج ٢/٣٣.

والشام والعراق وغيرها، فيما عرف برحلة الشتاء والصيف،^(١) التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله - تعالى -: ﴿لَا يَلْفُ قَرِيْشٍ ۖ ﴿١﴾ إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ ﴿٢﴾﴾ [قريش].

وهم بذلك يكتسبون خبرات سياسية واجتماعية تميزهم عن القبائل الأخرى، رغم أن الطابع العام في مكة كان يشبه النظام القبلي، حيث لا توجد حكومة مركزية معينة مسؤولة عن إدارة البلد وتنظيمها، وهناك ما يعرف بـ(دار الندوة) يجتمع فيها كبار القوم من قريش يتباحثون فيها حول أهم شؤونهم الحربية والاجتماعية والتجارية،^(٢) كما أن هناك اجتماعات أخرى جانبية تناقش فيها هذه الأمور، تعقد في الغالب في حلقات حول الكعبة،^(٣) إلا أنه لم تكن هناك إدارة تنفيذية تقوم بالمهام المتفق عليها إلا في الأحوال النادرة، فمثلاً في حال الحرب يعطون الراية إلى شخص أو أشخاص معينين، وفي حال التفاوض مع قبائل معينة لعقد حلف، يُختار أشخاص معينون يقومون بتنفيذ المهمة،^(٤) كما كان هناك قواد مختصون بقيادة القوافل التجارية، أما ما عدا ذلك فلا نكاد نلمس نظاماً سياسياً معيناً يدير شؤون البلد إدارة كاملة، كما في بعض الممالك المجاورة لبلاد العرب، بل على العكس نرى أهل مكة يرفضون أن يملكوا عليهم رجلاً

(١) انظر: الموسوي، محمد بن عبد الله المعروف بـ(كبريت)، رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد الطنطاوي، ط٢ - بيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ١٣٨٥هـ؛ الحليسي: نواف بن صالح، رحلة الشتاء والصيف - قريش ومنهجها التجاري والاقتصادي - ط١، ١٤١٤هـ، د.م.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤/٤٤.

(٣) مولوي. س. أ. حسيني: الإدارة العربية، ص ٢٨.

(٤) صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٤٦.

منهم أرسله (قيصر الروم) ويتهكمون به.^(١)

ولعل ذلك مما ساعد على وجود الظلم والفساد في المجتمع المكي.^(٢)

أما في المدينة المنورة، فكان الوضع مختلفاً عن مكة إلى حد ما، حيث كان يسكن المدينة خليط من العرب من الأوس والخزرج وجماعات مختلفة من اليهود،^(٣) على رأسهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وقد كان لهذا التنوع في السكان دور كبير في اضطراب الأمور فيها، وعدم وجود نظام سياسي يحكم المدينة قبيل الإسلام، فهناك اضطرابات متكررة نظراً للحروب التي كانت تقوم بين الأوس والخزرج بين الحين والآخر،^(٤) بتحريض من يهود المدينة.

أما يهود المدينة أنفسهم فكان لديهم شيء من التنظيم الداخلي فيما بينهم، يدل على ذلك انتشار حصونهم وتنظيمها، ووجود زعماء محددین يتحدثون باسمهم.

وبالنسبة للعرب في المدينة من الأوس والخزرج، فقد كانوا في الغالب

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٤٤، حاشية (٢)؛ وابن حبيب، المنق في أخبار قريش، ص ١٥٤؛ والزييري، نسب قريش، ص ٢١٠؛ شلبي: رؤوف، المجتمع العربي قبل الإسلام - القاهرة: دار الكتب الحديثة ١٩٧٧م، ص ١٣٧.

(٢) محمود شاكر، السيرة النبوية، ص ٣٣.

(٣) جواد علي، المفصل، ج٤/١٣١؛ محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، ص ٥٥، ٦٨.

(٤) جواد علي، المفصل، ج٤/١٣٨؛ صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٤٨؛ محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، ص ١٤٦.

يعتمدون على التنظيم القبلي السائد عند الأعراب في البوادي، رغم أنهم سكان مدن وقرى إلا أنهم تنظيمياً يصطبغون بالصبغة القبلية، وبذلك سهل على اليهود السيطرة عليهم،^(١) وإيقاع المشكلات بينهم، واستمر الوضع في المدينة دون إدارة أو تنظيم مسئول عن شؤون البلد ومصالحها المختلفة حتى ظهور الإسلام.

(١) د. محمد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم، ط٢ - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩م، ص ٥٠.

ممالك العرب قبل الإسلام

مملكة الحيرة:

كانت قائمة قبيل الإسلام في مدينة الحيرة في العراق في المناطق المجاورة للفرات، يسكنها العرب إضافة إلى بعض الفرس والأنباط،^(١) إلا أن السيطرة فيها كانت للمناذرة وملوكهم، وكانوا يخضعون لكسرى فارس خضوعاً تاماً، حتى أنه يمكننا أن نطلق عليهم تسمية (عرب الفرس). إلا أن سكان الحيرة في الغالب من النصارى،^(٢) وبهذا يخالفون الفرس في الديانة. ولم يمنع هذا من تبعيتهم للفرس، ومن أشهر ملوكهم (النعمان بن المنذر) الذي قام كسرى فارس بإعدامه تحت أقدام الفيلة حينما تجرأ على مخالفته،^(٣) وهذا يعطينا دلالة قوية على تحكم الفرس بهؤلاء الملوك، ويعتقد كثير من المؤرخين أن مملكة الحيرة قامت بغرض حماية الحدود الغربية للإمبراطورية الفارسية من هجمات الأعراب، بل إن أكثر المصادر العربية تسمي ملك الحيرة أحياناً عامل كسرى على الحيرة^(٤) وتعدده والياً من قبل كسرى على هذه البلاد.

(١) جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس - القاهرة: دار الهلال (بدون تاريخ)، ص ٢٢٤.

(٢) د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٤؛

جورجى زيدان، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢/٧٨.

السيد عبدالعزيز السالم، تاريخ العرب قبل الإسلام - الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة (بدون تاريخ)، ص ٢٤٣؛ جواد علي، المفصل، ج ٣/١٥٥.

(٤) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، نشره قصي محب الدين الخطيب، ط ٥ - القاهرة: المطبعة السلفية ١٣٩٦هـ، ص ١٥٤؛ والبلاذري: أبوالحسن أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان - بيروت: دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ، ص ٢٤٤.

وقد اشتبك المسلمون مع مملكة الحيرة أثناء الفتح الإسلامي للعراق، واستطاع خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يدخل الحيرة بعد أن صالح واليها من قبل كسرى (إياس بن قبيصة الطائي)،^(١) وقد كانت هذه المملكة مسرحاً للعديد من العمليات الحربية التي وقعت في بداية البعثة النبوية بين الفرس والروم،^(٢) نظراً لقربها من الحدود بين الدولتين.

أما التنظيم الإداري في هذه المملكة فلا شك أنه كان قائماً، إلا أنه لا يمكننا تحديد هذا النظام بدقة، على الرغم من معرفتنا بأن هناك ملكاً معيناً يدير شؤون هذه البلاد، يعاونه بعض القواد ومجموعات كبيرة من الجنود،^(٣) يستعين بهم ملك الحيرة في حروبه التي كانت في الغالب موجهة لصالح مملكة الفرس.^(٤)

مملكة غسان:

وجدت مملكة الغساسنة في الشام قبل الإسلام بفترة طويلة،^(٥) وقد تردد اسم هذه المملكة العربية كثيراً في المصادر الإسلامية؛ نظراً لارتباطها الشديد بالأحداث العظيمة التي صاحبت الفتح الإسلامي في بلاد الشام،

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٤، أبو يوسف، الخراج، ص ١٥٤.

(٢) جورجى زيدان، المصدر السابق، ص ٢٤٠؛

وانظر: ولد داه محمد، جزيرة العرب مصير أرض وأمة (قبل الإسلام)، ط ١ - الرياض:

مطابع الفرزدق ١٤٠٧هـ، ص ١٦٩.

(٣) د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج ١/٧٦.

(٤) نينا فكتور بيغولفيسكيا، العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن

السادس الميلادي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت: المجلس الوطني

للفنون والآداب ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ٩٧.

(٥) محمد أحمد باشميل، العرب في الشام قبل الإسلام، الطبعة الأولى - بيروت: دار الفكر

١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ص ١٨٦.

حيث إن ارتباط هذه المملكة بالروم، جعل الروم يدفعون بهم عدة مرات لمواجهة الجيش الإسلامي الفاتح في معارك عديدة، منفردين أو مشاركين للروم (بحكم ديانتهم) في تلك المعارك، كاليرموك وغيرها.

وقد كان الفساسنة حكماً على مناطق محددة في الشام شبه مستقلة مركزها دمشق، إلا أنهم كانوا يخضعون لملوك الروم خضوعاً كاملاً، ويعدون جزءاً من مملكة الروم، ويعين ملوكهم من قبل ملك الروم نفسه،^(١) ويستفيد منهم الروم عسكرياً، حيث يستخدمونهم بالدرجة الأولى في مواجهة المناذرة في الحيرة الذين كانوا كثيراً ما يعتدون على الحدود الشرقية للروم.^(٢)

وقد دانت مملكة الفساسنة بالنصرانية، وهي الدين الرسمي للدولة البيزنطية، إلا أنه كان هناك خلاف مذهبي بينهما،^(٣) ومع ذلك فقد استفاد منهم الروم في ضبط الحدود الشرقية والجنوبية لإمبراطوريتهم مما يلي بلاد العرب والساسانيين،^(٤) كما اشتركوا مع الروم في صد هجمات المسلمين على الشام أثناء الفتوحات الإسلامية لتلك البلاد.

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٢/٨٣؛ محمد أحمد باشميل، المرجع السابق، ص ١٩٣.

(٢) ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المغربي، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر - بيروت: مؤسسة الأعلمي ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ج٢/٢٧٩؛ السيد عبدالعزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٩٩؛ محمد أحمد باشميل، المرجع السابق، ص ٢٠٢؛ جواد علي، المفصل، ج٣/٣٨٧.

(٣) د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٤٢؛ ومحمد أحمد باشميل، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٤) نينا فكتور بيغوليفسكييا، المرجع السابق، ص ٢١٧؛

د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج١/٥٦.

وقد تردد الكثير من الشعراء العرب على ملوك الغساسنة في الشام، مادحين، وحفظت بعض قصائدهم شيئاً من تاريخ هؤلاء الملوك،^(١) غير أنه يصعب علينا معرفة الحال الإدارية لهذه الدولة، إلا أنه يمكننا أن نعدّها جزءاً من إمبراطورية الروم، وتنظيمها العام، ونطلق عليهم تسمية (عرب الروم)، ويبدو أن المراكز الرئيسية المحصنة في بلاد الشام التي تقع في نطاق مملكة الغساسنة كانت تدار بصفة مباشرة من قبل موظفين تابعين للقسطنطينية.^(٢)

وقد كان آخر ملوك الغساسنة في الشام هو جبلة بن الأيهم الغساني^(٣) الذي قاوم المسلمين واشترك إلى جانب الروم في معركة اليرموك وغيرها، ثم أعلن إسلامه فيما بعد، إلا أنه ارتد حين أراد عمر أن يقتص منه لأعرابي بلطمه، فهرب إلى القسطنطينية وعاد إلى النصرانية وبقي عليها حتى مات، سنة ثلاث وخمسين من الهجرة^(٤) وكانت نهاية مملكة الغساسنة في الوقت الذي انتهت فيه سيطرة الروم على الشام بعد الفتح الإسلامي العظيم أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

اليمن؛

قامت في اليمن في الجاهلية ممالك عربية اشتهرت بقوتها وتعددت ملوكها، إلا أن الأحوال في اليمن قبيل الإسلام قد تغيرت، إذ استولى عليها الأحباش

(١) د. السيد عبدالعزيز السالم، المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٢) د. صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ج ١/٥٦؛ د. جواد علي، المفصل، ج ٣/٤١٩.

(٣) انظر: تفاصيل قصته عند ذكر كتاب الرسول ﷺ إليه ﷺ في موضوع كتب الرسول ﷺ للملك العالم، من هذا الكتاب.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨/٦٣؛ السيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص ٢٢٦.

بتحريض من الروم، ونازعوا أهل البلاد من العرب، إضافة إلى الفرس ومن ينوب عنهم، وكان لهذا التنازع دور كبير في اضطراب الأحوال في هذه المنطقة بعد سقوط حكم الحميريين على يد الأحباش،^(١) ومن ثم تولى الأحباش حكم اليمن لمدة من الزمن، استطاعوا خلالها أن يمدوا سلطانهم إلى مناطق تهامة المجاورة لليمن، وحاولوا الوصول إلى مكة لولا حادثة الفيل^(٢) التي وردت في القرآن الكريم.

كانت معاملة الأحباش التعسفية لأهل اليمن دافعاً لهم لطلب النجدة من فارس للمساعدة على طرد الأحباش من اليمن.^(٣) وقد قام كسرى بإرسال مجموعة كبيرة من المساجين الفرس إلى بلاد اليمن استطاعوا بمساعدة السكان المحليين طرد الأحباش من اليمن وإقامة حكومة مشتركة بين العرب من أهل اليمن والفرس الذين أرسلهم كسرى، جعلوا رئاستها إلى سيف بن ذي يزن الحميري الذي لم يلبث إلا قليلاً حتى استطاع بعض الأحباش قتله غيلة،^(٤) وانقضى بذلك ملك حمير، وصارت اليمن بأيدي عمال من الفرس^(٥) استمروا عليها حتى هاجر الرسول ﷺ، فأرسل إلى حاكم اليمن [بإذان] فأسلم، وأسلم من كان معه من الأبناء^(٦) ودخلت اليمن

(١) د. السيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص ١٣٢: د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٥٢.

(٣) السيد عبدالعزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٤٦: د. جواد علي، المفصل، ج ٣/٥٢٦: د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٤) جواد علي، المفصل، ص ٥٢٧: د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص ٣١: د. السيد عبدالعزيز السالم، المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢/٨٥: د. صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص ٣١: جواد علي، المفصل، ص ٥٢٤.

(٦) ابن هشام، المصدر السابق، ج ١/٦٩.

في الإسلام، وأصبح لها دورها الرئيسي، ثم حدثت نكسة أثناء الردة حين خرج الأسود العنسي الكذاب متنبئاً، إلا أن المسلمين من الفرس وبعض القبائل الأخرى ممن بقي منهم على إسلامه استطاعوا القضاء على الأسود العنسي الكذاب،^(١) وإعادة اليمن إلى الإسلام.

فارس؛

قامت فيها دولة قوية منذ القدم مرت بمراحل حضارية متطورة في تلك الأيام، إلا أن ما يهمننا معرفته عن مملكة فارس هو السنوات الأخيرة التي سبقت احتكاك هذه الدولة بالإسلام عن طريق الفتوح، ومحاولة معرفة طبيعة هذه الدولة والنظم السائدة فيها باختصار شديد.

قام نظام الحكم في فارس على تنظيم ملكي استبدادي يميز بين الناس، فالملك الساساني في نظرهم صاحب حق إلهي يستطيع أن يفرض ما يريد من نظام وأن يوقع ما يشاء من عقوبات في حق مخالفه،^(٢) كما أن الملك الفارسي يشرف بنفسه على بقاء التفرقة بين الناس والأسر حسب النظام الطبقي الموضوع، وكل من يحاول مخالفة ذلك يتعرض لعقوبات خطيرة قد تصل إلى القتل، ومن ينتمي إلى الأسرة الملكية لا يمكنه أن يتزوج من العامة وإلا تعرض لتلك العقوبات الصارمة.^(٣) وبناء على هذه

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج ١ - ج ٣/٢٦٤، القاهرة: المطبعة الحسينية (بدون تاريخ).

(٢) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٠؛ محمد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم، ص ٥١؛ ول ديورانت قصة الحضارة، ج ٢ م ١، الشرق الأدنى، ترجمة محمد بدران، الطبعة الثالثة - القاهرة: ١٩٦١م، ص ٤١.

(٣) د. يحيى الخشاب، تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام - القاهرة: (بدون تاريخ)، ص ٤٠؛ صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٠.

التفرقة الطبقيّة، كان الكثير من الظلم يقع على رعايا الدولة الفارسية، وعلى وجه الخصوص عامة الشعب.

وقد كانت الدولة تعتمد على جيش قوى منظم يتميز أفراده عن بقية الناس في اللباس، وألزم العامة أن يؤديوا التحية لرجال الجيش بالسجود لهم،^(١) كما أن الجنود ملزمون باحترام قوادهم واحترام الأشراف الأعلى منهم درجة، كان الملك يدير دفة المملكة بنفسه، يساعده حكام الولايات وهم المسمون بالمرازبة،^(٢) إضافة إلى بعض الأمراء في الأقاليم وهم من ملاك الأراضي الواسعة، ويسمون الدهاقين، والذين يتردد ذكرهم كثيراً في المصادر الإسلامية أثناء الحديث عن الفتوح في فارس، ولا شك أن هؤلاء الدهاقين كانوا يؤدون أموراً إدارية تخدم مصلحة الدولة، ويقومون بجباية الضرائب من الفلاحين والعمال وإرسالها إلى خزينة الدولة في العاصمة.^(٣)

كي يخدموا الملك وحاشيته في ترفهم العظيم الذي لم يكن له نظير، حيث اشتهر عن ملوك الفرس جمعهم للكنوز والذخائر وإسرافهم الشديد في الملابس والأطعمة حتى كان يضرب بهم المثل،^(٤) بل إن الدهاقين أنفسهم كانوا ينفقون النفقات الطائلة على لذاتهم وشهواتهم.

وكان هذا الترف الشديد لدى الملك نفسه وأمراء الأقاليم يدفعهم إلى فرض الضرائب الباهظة على المزارعين والعامة، وبالتالي كان الشعور

(١) د. يحيى الخشاب، المصدر السابق، ص ٤٨؛ ول ديورانت، المرجع السابق، ص ٤١٧.

(٢) آرثر كريستسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة د. يحيى الخشاب، مراجعة عبدالوهاب عزام - القاهرة: ١٩٥٧م، ص ٨٨.

(٣) د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ٣٥؛ ول ديورانت، المرجع السابق، ج ١م، ص ٤٢١؛ آرثر كريستسن، المرجع السابق، ص ١١٢.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج ١/١٩٣، ١٩٤، ٣٠٣.

بالظلم لدى الرعايا شديداً نتيجة ما يدفعونه من ضرائب عن مختلف المحاصيل الزراعية، إضافة إلى ما يدفع من ضرائب عن النشاط التجاري، وما يشبه الجزية على الرؤوس يدفعها عامة الشعب عدا رجال الدين والأشراف والجنود فهم معفون من الجزية.^(١) ولا شك أن إدارة هذه الضرائب وضبطها كانت تحتاج إلى مجموعة من الموظفين، وإلى عدد من الدواوين لضبط هذه الأمور وحسن تصريفها، كما أن هناك بعض المفتشين الذين ترسلهم العاصمة إلى الأقاليم ليفحصوا سجلاتها وشؤونها الإدارية والمالية،^(٢) ويضبطوا ما يدفعه الناس من ضرائب.

وقد عانت الدولة الفارسية في أواخر أيامها وقبيل الفتح الإسلامي من حروب شديدة وقاسية مع الروم أثرت عليها، ما دفعها لفرض المزيد من الضرائب على رعاياها،^(٣) وبالتالي زاد السخط من الرعية على النظام الفارسي، ومهد لدخول الإسلام في بلاد فارس.

الروم:^(٤)

من المعروف أن مصر والشام وشمال إفريقيا كانت ولايات تابعة لإمبراطورية الروم، ومركزها القسطنطينية وتمتد شرقاً ووسطاً وأوروبا، وقد كان المسيطر الفعلي على الحكم في هذه المملكة هو الإمبراطور نفسه الذي كان له الحق في اتخاذ القرارات، يساعده في عمله لجنة فرعية تعمل

(١) د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٦.

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ٢ م ١ ص ٤٢.

(٣) آرثر كريستسن، المرجع السابق، ص ١١٢.

(٤) سميت سورة من سور القرآن الكريم باسم الروم، وأشارت إلى الحروب الدائرة بينهم وبين أعدائهم من الفرس.

وتقتضي هذه الضرائب بطبيعة الحال وجود العديد من الموظفين والكتابة، إضافة إلى الدواوين التي تحفظ فيها سجلات الضرائب وغيرها وتضبطها، كما وُجد لدى الروم ملتزمون يقومون بجباية الضرائب والخراج لأنفسهم، مقابل التزام بمبالغ معينة يدفعونها إلى خزينة الدولة، وهم بهذا يوقعون الظلم على الناس، حتى يستطيعوا الالتزام بهذه المبالغ التي ضمنوها للدولة.^(١)

وبما أن الديانة العامة للدولة هي (النصرانية) فقد كان لرجال الدين مكانة خاصة في الدولة، كما أن الكثير من الضرائب كانت تفرض على الناس لصالح الكنيسة، إضافة إلى أن الكنيسة ورجالها يقومون بمعاينة كل من تسول له نفسه مخالفة أوامرهم،^(٢) وتكثر الخلافات القائمة بين الكنائس بعضها مع بعض، وتؤدي إلى المنازعات والخلافات العقائدية التي تصل إلى مراحل قوية من العداة بين بعض الولايات وبعضها، نتيجة اتباع مذاهب مختلفة، وقد حاولت الدولة فرض المذهب اللاهوتي السائد في القسطنطينية^(٣) على باقي الولايات^(٤) وخصوصاً في مصر، مما أوجد عداة شديداً بين الأقباط والروم.

(١) نورمان بيتز، المرجع السابق، ص ١٣٥؛ مراد محمد علي، الأساليب الإدارية في الإسلام، ص ٤٧؛ د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٤٣.

(٢) د. أسد رستم، المرجع السابق، ج ١/١٣٨.

(٣) كان المذهب السائد في القسطنطينية هو المذهب المنوفستي - المونوفيزي - والذي يختلف مع الأرثوذكس في تفسير طبيعة المسيح. وقد لاقى هذا المذهب دعماً من هرقل في مواجهة المذاهب الأخرى خصوصاً في مصر والشام ضد اليعقوبية والقبطية والأرمنية (د. عبدالقادر أحمد اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية - بيروت: ١٩٦٦، ص ٩٨).

(٤) نورمان بنز، المرجع السابق، ص ١٠٢؛ رنسيمن، المرجع السابق، ص ١٢٨.

وهكذا نرى أن معظم الولايات في الدولة البيزنطية قبيل الفتح الإسلامي كانت تعيش تنظيمًا عسكريًا خاصًا وصارمًا ، ولا سيما مع بدء الفتوحات الإسلامية.

هذا بالإضافة إلى أن كثيرًا من الناس في الدولة البيزنطية كانوا يحسون بالاضطهاد والظلم ، نتيجة لنظام الضرائب وتدخّل الدولة في الشؤون الدينية وتأييدها لبعض المذاهب الدينية على حساب بعض المذاهب الأخرى ، كل هذا أوجد مناخًا خاصًا سبق الفتوح الإسلامية لهذه البلاد ومهد لها.

العالم وانتظار الرسول

كان إبراهيم عليه السلام وأبناؤه من بعده موحدين، ودعا الله ﷻ أن يجدد التوحيد في بنيه، وفي ساكني البيت الحرام، فكانت دعوته في القرآن الكريم قال - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَلْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]. ولذلك كان الأحناف ينتظرون استجابة دعوته.

العرب:

كان غالبية العرب في الحجاز خصوصاً وثنيين لا صلة لهم بعلوم السماء وكتب الله السابقة إلى الأنبياء إلا قليلاً منهم عرفوا ذلك، ودلت إشارات مختلفة لبعض من كان منهم على الحنيفية بمعرفتهم بقرب زمن نبي يبعث، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل الذي عرف ما نزل على الرسول ﷺ حينما عرضت خديجة خبره عليه فقال: ((هذا الناموس الذي أنزل على موسى ليتني، فيها جذعاً إذ يخرجك قومك))،^(١) وكان يكتب من الإنجيل بالعبرانية،^(٢) وكان من أقرب الناس في مكة إلى دين إبراهيم وأخلاقه، اشتهر بالرحمة والتوحيد وإحياء المؤودة.

وكذلك كان زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان على الحنيفية يعيب على قريش عبادة الأصنام، ولا يأكل مما ذبح على النصب، وقد درس اليهودية والنصرانية ولم يقتنع بها، وقال: (اللهم إني أشهدك إني على دين إبراهيم)،^(٣) ولا يستبعد أن يكون عنده علم بقرب مبعث النبي ﷺ خصوصاً

(١) انظر: موضوع نزول الوحي على الرسول ﷺ، من هذا الكتاب.

(٢) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج ١/٢٦٣؛ وانظر: صحيح البخاري، باب كيف بدء الوحي، ج ١/٢.

(٣) انظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج ١/٨٣؛ وصحيح البخاري، باب زيد بن عمرو بن نفيل، ج ٤/٢٣٣.

أنه التقى بعلماء أهل الكتاب في الشام وغيرها، كما كان منقذاً لموؤدات من البنات يتكفل بهن ويمنع أهلن من وأدهن،^(١) وهو شاعر له أبيات تدل على توحيده لله يقول فيها:

أرب واحــــد أم أــــلــــف رب
أديــــن إذا تقســــمت الأمــــور
عزــــلت الــــلات والعــــزى جمیعاً
كــــذلك یفعل الجــــلد الصبــــور
فلا عــــزى أديــــن ولا ابنتیها
ولا صــــنمی بــــنی عمــــرو أزور^(٢)

ومنهم قس بن ساعدة الأيادي، الذي رآه الرسول ﷺ في سوق عكاظ وسأل عنه وقد تحدث عن القس مع قومه حينما جاءوا إلى المدينة، ودلت الروايات على أنه كان يشير إلى قرب مبعث نبي، ويطلب من الناس الإيمان به وتصديقه حين يبعث،^(٣) وهو شاعر اشتهر بأبياته الوعظية، ومنها:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأصغر والأكابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وقد ذُكر شيء من ذلك عن أمية بن أبي الصلت، إلا أنه مات كافرًا، وقد عاش سنوات في حياة النبي ﷺ ووصله خبره ولم يظهر منه إسلام رغم

(١) انظر: صحيح البخاري، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، ج٤/٢٣٢.

(٢) السيرة النبوية، لابن كثير، ج١/١٤٢.

(٣) انظر: محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/٨٠؛ انظر مهدي رزق الله، صفوة السيرة،

قربه من مكة، حيث يقيم في الطائف وما حولها.^(١)

وكذلك الشاعر المشهور لبيد بن ربيعة ذُكر عنه شيء من ذلك، ومنه إيمانه بالله وبالبعث وهو القائل:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

في أبيات مشهورة، وقد أسلم، وأدرك زمن عثمان، ومات معمرًا بعد ذلك.^(٢)

وقد نقلت بعض الكتب والمصادر أخباراً كثيرة عن كهان العرب،^(٣) تتحدث عن مبعث النبي ﷺ أرى الإعراض عنها وعدم ذكرها، فقد نهينا عن متابعة أقوالهم، والسيرة ليست بحاجة لأي شواهد من هذا النوع.

وبالتالي يمكن القول إن وتشيي العرب وخصوصاً منطقة الحجاز، ما كانوا يؤمنون بالأنبياء ﷺ قبل محمد ﷺ، وبالتالي ما كانوا يؤمنون بقرب مبعث نبي آخر الزمان، أو يذكرونه أو ينتظرونه، سوى من ذكرنا من أفراد قلائل، تركوا ما عليه القوم وعرفوا هذا العلم من كتب اليهود والنصارى، وهؤلاء الأحناف الذين كانوا على توحيد إبراهيم عليه السلام.

اليهود:

أقام يهود في المدينة وخيبر انتظاراً لمبعث الرسول ﷺ^(٤) فلما ظهر من

(١) محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج ١/٨٥.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٣/٣٢٦.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٣٤٤.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢١١؛ وانظر: الطبري، تفسيره للآية ٩٨ من سورة البقرة.

غيرهم كفروا به. وقد أشارت الآيات إلى ذلك في قوله - تعالى - : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة].

وجاءت أخبار كثيرة عن يهود وعلمائهم زمن النبي ﷺ تبين معرفتهم التامة بصفاته ﷺ. (١) وقد أدت هذه المعرفة السابقة إلى إسلام عدد منهم، على رأسهم [عبدالله بن سلام] ﷺ (٢) وثعلبة بن سعيبة القرظي في نجر من يهود المدينة. (٣) والله - سبحانه - وقوله الحق يؤكد وجوده مكتوباً عندهم مع الإشارة لوجوب اتباعه ﷺ مع معرفة صفته وما يأمر به.

قال - تعالى - : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

كما أكد ﷺ معرفتهم للنبي ﷺ بقوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة].

وقد كان كفار يهود المعاندون له يعرفون حقاً أنه نبي، وعلى رأسهم

(١) انظر: السقا، أحمد حجازي، نبوة محمد في الكتاب المقدس، ط١ - القاهرة: دار الثقافة العربية ١٣٩٨هـ.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٢/٣٢٠.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٤٤؛

ابن حجر، الإصابة، ج ١/٣٣؛ وابن الأثير، أسد الغابة ج ١/٢٤٠.

[حيي بن أخطب] وغيره من زعماء يهود المدينة الذين عرفوا أنه صادق وأنه نبي هذا الزمان واتخذوا العداة موقفاً^(١).

والاستشهاد بنصوص التوراة والإنجيل في هذا الموضوع محل نظر عند البعض، إلا أنني أرى أن الاستشهاد ببعض ما بقي منها من الحق عندهم يخدم سيرة الرسول ﷺ مع استشعار الدقة والمنهج العلمي والحدود الشرعية.

وعندهم ما يوافق ما جاء في القرآن الكريم من ذكر مكة بمسمى بكة في قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران).

وقد بقيت حتى الآن إشارات في التوراة إلى بيت الله وبعث محمد وأتباعه فيه في المزامير (٨٤: ٥ - ٦ - ٧).

(طوبى لأناس عزهم بكة، طُف بيتك في قلبه عابرين في وادي البكيين يعبرونه ينبوعاً).

والنص كما يظهر يشير إلى مكة والبيت الحرام والطواف به.

“Blessed is the man whose strength is in thee in whose Heart are: the ways of them passing through the valley of (Baca) make it well”

(*Psalms ١٩-٥-٧٦*)^(٢)

وقد دلت نصوص في التوراة العربية مما بقي فيها من الحق على وجود نبي من بني إسماعيل، ففي سفر التكوين (١٧ - ٢٠) ما نصه:

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٢٢٠.

(٢) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٥٢ نقلاً عن:

Jewish Encyclopedia. Y. ١١ P. ٤١٥.

(وأما إسماعيل فسمعت وها أنا أباركه وأنميه وأكثره جداً وولد اثني عشر رئيساً وأجعل نسله أمة عظيمة).^(١)

وفي سفر التثنية ١٨ - ١٥ (يقيم لكم الرب إلهكم نبياً من بينكم من إخوانكم بني قومكم فاسمعوا له "..... سأقيم لهم نبياً من بين إخوانهم مثلك، وألقي كلامي في فمه فينقل لكم إليهم جميع ما أكله به. وكل من لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي أحاسبه عليه)^(٢) والمقصود من ذرية إسماعيل، فهو أخو إسحاق، واليهود يعترفون أنهم يحملون كتاباً محرفاً وأنهم يقومون بتعديله كما يزعمون بحكمتهم ولباقتهم.^(٣)

كما ورد في أسفار اليهود: "وسوف أزلزل كل الأمم وسوف يأتي (حمده) لكل الأمم وسوف أملاً هذا البيت بالمجد كذلك قال رب الجموع" - (سفر حجي ٩ / ٧-٩).^(٤)

وقد قال الله عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة].

وفيهم ورد قوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السِّنْتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ

(١) انظر: ص ١٩، الكتاب المقدس، العهد القديم.

(٢) انظر: ص ٢٣٧، الكتاب المقدس؛ وانظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٥٤؛ وقد قارنت ما نقله الندوي بنصوص العهد القديم فوجدت تفاوتاً في بعض الألفاظ مما يوحي باختلاف كل طبعة عن الأخرى، حسب الترجمة أو الهوى وتعتمد التحريف.

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٥٥ نقلاً عن:

Jewish Encyclopedia. Vol. 4P. ٥١٩.

(٤) انظر النصوص كاملة عند عبد الأحد داود في: محمد ﷺ كما ورد في كتابات اليهود، وقد أشار إلى وجود الاسم حمده ويعني محمد في النسخ وإلى تحريفها إلى (الأمنية) في بعض النسخ الجديدة، ص ٣٧.

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ [آل عمران].

النصارى؛

كانت لهم السيطرة في مصر والشام وعامة بلاد الروم، وانتشرت بين العرب خصوصاً في شمال الجزيرة العربية تميم وقضاعة وغيرها،^(١) وفي نجران مركز النصرانية جنوب الجزيرة العربية، وقد دل القرآن الكريم على أن عيسى عليه السلام حدث أتباعه عن محمد عليه السلام فطلب منهم أتباعه كما جاء في قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَاءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف].^(٢)

ومن المعروف في قصة إسلام سلمان الفارسي التي رواها البخاري في صحيحه أن سلمان عليه السلام قد أخبره أحد علماء النصارى في الشام بقرب مبعث نبي آخر الزمان، وأوصاه باتباعه، وأنه عليه السلام استُرِقَ حتى صار في مُلْكٍ يهودي في المدينة، ولما سمع كلام النبي عليه السلام ورأى علامة النبوة التي أخبره بها علماء النصارى آمن بالرسول عليه السلام واتبعه.^(٣)

وقد عمل عدد ممن اهتدى من النصارى في العصر الحديث في البحث عن ما ذكر عن محمد عليه السلام، من كتب النصارى، وكان معهم القس المصري سابقاً إبراهيم خليل أحمد الذي نشر كتاباً بعنوان "محمد في التوراة والإنجيل"، واعتمد فيه على الكتاب المقدس بجزأيه العهد القديم والعهد الجديد، ومما قال: "يحتوي الكتاب المقدس على نصوص شديدة

(١) انظر: موضوع الحالة الدينية قبل مبعث الرسول عليه السلام، من هذا الكتاب.

(٢) انظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ج ١/١٣٢.

(٣) انظر قصة إسلام سلمان الفارسي، في موضوع المعاشون للرسول عليه السلام، من هذا الكتاب.

الوضوح حول رسالة وشخصية الرسول الأُمي ﷺ وضوحاً بيئاً لا لبس فيه".^(١)

ويمكن الاستدلال بالآيات الواردة عن أهل الكتاب في اليهود كما في النصارى كما في قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]

وقد كتب عبدالأحد داود المسمى [ديفيد بنجامين كلداني]، وكان قسيساً نصرانياً فأسلم، كتاباً حول الموضوع بعنوان: "محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى".^(٢)

وقد كتب عدد من المسلمين عن الموضوع منهم المرحوم الشيخ أحمد ديدات في كتابه ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ، وقد نشرت منه ملايين النسخ باللغة الانجليزية والعربية،^(٣) ومن النصوص الباقية إلى الآن ما ورد في إنجيل يوحنا (٥: ١٦): "فأنا ذاهب إلى الذي أرسلني، ولا أحد منكم يسألني: إلى أين أنت ذاهب؟ والآن قلت لكم، فملاً الحزن قلوبكم صدقوني، من الخير لكم أن أذهب، فإن كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزي".

وكذلك ما ورد في إنجيل متى (٢١: ٤٢) و(٤٣، ٤٤): "أما قرأتكم في الكتب المقدسة: الحجر الذي رفضه البنّاءون صار رأس الزاوية؟ هذا ما صنعه الرب، فيا للعجب!

(١) إبراهيم خليل أحمد، محمد في التوراة والإنجيل، دار المنار ١٤٠٩هـ، ص ٣٠.

(٢) البروفسور عبدالأحد داود، محمد ﷺ كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ترجمة حمد فاروق الزين، ط١ - الرياض: مكتبة العبيكان ١٤١٨هـ.

(٣) ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد، كتيب نشر باللغة الإنجليزية عشرات المرات وترجمة إبراهيم خليل أحمد إلى اللغة العربية، ويمكن لأي شخص أن يجد نص الكتاب ويحمله من مواقع الإنترنت حيث يوجد في الكثير من المواقع العربية والإنجليزية (www.eshared.com).

لذلك أقول لكم: سيأخذ الله ملكوته منكم ويسلمه إلى شعب يجعله يثمر، من وقع على هذا الحجر تهشم. ومن وقع هذا الحجر عليه سحقه.

وقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذا اللبنة فقال أنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)).^(١)

ورد في إنجيل يوحنا (١٦: ٧، ٨) (صدقوني، من الخير لكم أن أذهب، فإن كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزي. أما إذا ذهبت فأرسله إليكم. ومتى جاء وبخ العالم على الخطيئة والبر والدينونة)، وقد ورد في نسخة أخرى من إنجيل متى: "قلت لكم حتى متى جاء وقت حدوثه تذكرت أنه سبق أن أخبرتكم به. ولم أقل لكم هذا منذ البداية لأنني كنت معكم أما الآن عائد إلى الذي أرسلني ولا أحد منكم يسألني أين تذهب؟ عندما أخبرتكم بهذا ملاً الحزن قلوبكم، ولكني أقول لكم الحق، من الأفضل أن أذهب لأنني إن كنت لا أذهب لا يأتاكم المعين".^(٢)

ومن الغريب أن الكتاب الذي راجعته كتاب تفسير للأناجيل وللعهد القديم لما جاء عند النص المذكور تجاوزه ولم يفسر المعين المذكور في النص، وتجاهله وتحدث عن موضوع آخر وهو موت المسيح للتكفير وليمحو خطايا الناس.^(٣)

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، ج ٤/١٦٢.

(٢) النص في "التفسير التطبيقي للكتاب المقدس"، شرح إنجيل يوحنا (١٦: ٦، ٧)، ص ٢٢٩٦، ٢٢٩٧.

(٣) انظر: ص ٢٢٩٦، من التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، وللمزيد من التوضيح حول هذا النص وغيره راجع: عبدالأحد داود، الذي كان قسيساً فأسلم في كتابه محمد ﷺ كما ورد في كتب اليهود والنصارى، ص ٢٣.

وتؤكد الأبحاث أن اللفظة الأصلية في إنجيل يوحنا كانت (*Periglytos*) أي أحمد أو محمد وأنها حُرِفت عمداً في اللاتينية إلى (*Paracletc*) المعزي لإبعاد الناس عمداً عن أحمد الأصلية في الإنجيل وصرفهم عن الحقيقة،^(١) كما ورد في النص: "فمتى جاء روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما سيحدث سيمجدني لأنه يأخذ كلامي ويقوله لكم"^(٢) (يوحنا: ١٦: ١٣).

ولعل هذا مما يوافق قوله - تعالى - ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [سورة النجم].

وفي الإنجيل ما يوافق الحديث عن بعثة النبي ﷺ، ومما ورد في إنجيل يوحنا (١٥: ٢٥): "ومتى جاء المعزي الذي أرسله إليكم من الأب، روح الحق المنبثق من الأب، فهو يشهد لي، وأنتم أيضاً ستشهدون، لأنكم من البدء معي"، وكذلك في (يوحنا ١٦: ١٣): فمتى جاء روح الحق أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما سيحدث".

(١) عبدالأحد داود، ص ١٤٢.

وقد أورد عبدالوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء أنه في سنة ١٨٩٤م ناقش المستشرق الإيطالي كارلو نيلنو - الفونسو (ت: ١٩٣٨م) - عن معنى بيريكليتوس" فأجاب أن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها المعزي. فقلت: أنا أسأل الدكتور كارلو نيلنو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً؟ فقال: معناه (الذي له حمد كثير). فقلت: هل ذلك يوافق أفعال التفضيل من حمد؟ فقال: نعم؛ فقلت: إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد. فقال: يا أخي أنت تحفظ كثيراً، ثم افترقنا وقد ازددت بذلك تثبناً في معنى قوله - تعالى - حكاية عن المسيح: ((ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد))؛

انظر: النجار، قصص الأنبياء - القاهرة: دار التراث (د.ت)، ص ٤٧٣.

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد، ص ١٦٩.

وقد أكد القرآن الكريم أن صفة الرسول ﷺ وأصحابه ممثلة في التوراة والإنجيل معروفة لدى أهل الكتاب من اليهود والنصارى وذلك في قوله - تعالى -: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح].

ومن النصوص الثابتة في سفر أشعيا (٢١: ١٣) عنوان: "على العرب" وفيه: "بيتوا في صحراء العرب يا قوافل الدادانيين، هاتوا ماء للعطشان يا سكان تيماء، استقبلوا الهارب الجائع بالخبز، هم هاربون من أمام السيوف، من أمام السيف المسلول والقوس المشدودة وويلات الحرب".^(١)

ولعل هذا النص يشير إلى الوحي الذي نزل على النبي العربي الأمين محمد ﷺ - والأمر في نظري هذا - محل اجتهاد، فيه إشارة إلى هروب اليهود من بلاد العرب أمام سيف النبي ﷺ وسيوف أصحابه من بعده، إشارة إلى سقوطهم وخروجهم بعد ذلك من خيبر زمن عمر باتجاه الشام مروراً بتيماء،^(٢) قبيل الفتح الإسلامي زمن السيف المسلول والقوس المشدودة زمن (الفتح الإسلامي) وهذا استشعار للنص قد يكون محل نظر. والله أعلم.

وكذلك يمكن استشعار الحديث عن سيطرة المسلمين على بيت المقدس زمن عمر بن الخطاب ﷺ ولعل من ذلك ما ورد في إنجيل متى (٢١: ٥):

(١) الكتاب المقدس، ص ٤٨٥.

(٢) انظر: موضوع فتح خيبر، من هذا الكتاب؛ والبلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٨.

"قولوا لابنه صهيون هو ذا مليكك يأتيك وديعاً ركباً على أتان و جحش بن أتان"، ومن المعروف من زعماء النصرانية فيها أن عمر كان متواضعاً ركباً على حماره، وقد ذكر علماءهم في حينها أنهم يجدون صفته في كتبهم^(١) فاعل هذا ما يشير إليه النص السابق - وهذا اجتهاد مني -.

وقد لاحظت أن بعض من حللوا النص، ومنهم عبدالأحد داود، لم يتطرقوا إلى ربطه بفتح بيت المقدس أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.^(٢) بل ربما بعضهم ربطه بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة شمالاً، وهذا اجتهاد محل نظر في تصوري.

وما من شك على الإطلاق بورود شيء من الحديث عن فتح المسلمين للبلاد في الكتب السابقة عند اليهود والنصارى، ولعل ما يصدق ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء]، والزبور من الكتب السابقة للنبي صلى الله عليه وسلم نزل على داوود وتلاه يهود.

وقد ورد في صحيح البخاري شيء من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فيما روى عبدالله بن عمر رضي الله عنه: "أنه قيل لعبدالله بن عمرو، أخبرنا بعض صفة رسول الله في التوراة، فقال إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمة، أنت عبي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تجزي بالسيئة الحسنة، وتعفو وتغفر، ولن

(١) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٥؛ والطبري، تاريخه، ج ٤/١٥٩.

(٢) عبدالأحد داوود، محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في كتاب اليهود والنصارى، ص ٨٩، ٩٠.

أقبضه حتى أقيم له الملة العوجاء، فأفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، بأن يقولوا لا إله إلا الله".^(١)

ولعل هذا الحديث يقابله فيما تبقى من بعض الحق عند يهود ما ورد في سفر أشعياً.

عبدالرب "سفر أشعياً" ٤٢: ١ - ٨:

"ها عبدي الذي أسانده، والذي اخترته ورضيت به! جعلت روحي عليه، فيأتي للأمم بالعدل، لا يصيح ولا يرفع صوته، ولا يسمع في الشارع صراخه، قسبة مرضوضة لا يكسر وشعلة خامدة لا يطفئ، بأمانة يقضي بالعدل، لا يلوي ولا ينكسر، حتى يقيم العدل في الأرض، فشريعته رجاء الشعوب، هذا ما قال الرب خالق السماوات وناشرها باسط الأرض مع خيراتها، وواهب شعبها نسمة الحياة روحاً للسائرين فيها".

"أنا الرب دعوتك في صدق وأخذت بيدك وحفظتك. جعلتك عهداً للشعوب ونوراً لهداية الأمم، فتفتح العيون العمياء، وتخرج الأسرى من السجون والجالسين في الظلمة من الحبوس أنا الرب، وهذا اسمي".

وقد ورد هذا النص في إنجيل متى (١٢: ١٨) منسوباً إلى النبي أشعياً، وحاولوا ربط الصفات الواردة بالمسيح عليه السلام.^(٢)

ولعل فيها إشارات كثيرة لما ورد عن النبي ﷺ في القرآن من أنه المصطفى والسراج المنير.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السخب بالأسواق، ج ٢١/٣.

(٢) انظر: الكتاب المقدس، إنجيل متى بعنوان: "الله المختار"، ١٢: ١٨، ص ٢١.

وقد ورد نص في أسفار اليهود سفر التثنية ٣٣. جاء فيه: "وهذه هي البركة التي بارك فيها موسى رجل الله نبي إسرائيل قبيل موته فقال: "أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من جبل سعير وتجلى من فاران"، والنص ما يزال في العهد القديم المتداول وفاران هي منطقة مكة المكرمة،^(١) حيث نزل الوحي على رسول الله ﷺ، ولعل هذا النص مع ما فيه من تحريف يمكن حين قراءته تذكر ما ورد في القرآن الكريم في قوله - تعالى -: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينَانَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [سورة التين]، وفي سفر التكوين ٢١: ٨ - ٢٠ ما يؤكد على أن فاران هي موطن هاجر وابنها إسماعيل بعد أن أخذهما إبراهيم إلى صحراء فاران. وفي النص إشارة إلى بئر زمزم وشرب هاجر وطفلها منه.

طرد هاجر وإسماعيل ٢١: ٨ - ٢١:

"وكبر الصبي وفطم، وأقام إبراهيم وليمة عظيمة في يوم فطام إسحق، ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يلعب مع ابنها إسحق، فقالت لإبراهيم: أطرد هذه الجارية وابنها! فابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق". وساء إبراهيم هذا الكلام، لأن إسماعيل، كان أيضاً ابنه. فقال له الله: لا يسوؤك هذا الكلام على الصبي وعلى جاريته. اسمع لكل ما تقوله لك سارة، لأن بإسحق يكون لك نسل. وابن الجارية أيضاً أجعله أمة لأنه من صلبك".

(١) انظر: الحموي، معجم البلدان، ج٤/٢٢٥؛ وانظر: موسوعة ويكيبيديا العالمية الالكترونية، التي وصفت فاران بأنه جبل حراء بمكة المكرمة.
(www.ar.wikipedoa.com)

فبكر إبراهيم في الغد وأخذ خبزاً وقربة ماءً، فأعطاهما لهاجر ووضع الصبي على كتفها وصرفها، فمضت تهيم على وجهها في صحراء بئر سبع. ونفذ الماء من القربة، فألقت هاجر الصبي تحت إحدى الأشجار ومضت فجلست قبالتها على بعد رميتي قوس وهي تقول في نفسها: "لا أريد أن أرى الولد يموت". وفيما هي جالسة رفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الصبي، فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها: "ما لك يا هاجر؟ لا تخافي. سمع الله صوت الصبي حيث هو. قومي احملني الصبي وخذي بيده، فسأجعله أمة عظيمة"، وفتح الله بصيرتها فرأت بئر ماء، فمضت إلى البئر وملأت القربة ماء وسقت الصبي".

وكان الله مع الصبي حتى كبر، فأقام بالصحراء، كان رامياً بالقوس. وحين أقام بصحراء فاران، زوجته أمه بامرأة من أرض مصر.

ولا شك أن هذا النص تعرض لتحريفات كثيرة، ومع ذلك بقيت إشارات تصدق ما ورد عن إسماعيل ونبع الماء له في فاران (مكة) وتؤكد ما ذكره الرسول ﷺ عن إسماعيل في قوله: ((ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً)).^(١)

ومن المؤكد أنه لم يُعرف إدعاءً بنبوة لأي إنسان في فاران منطقة مكة في أي زمن بعد عيسى عليه السلام، بل إن الله حمى هذا المكان من ظهور أي مدّعٍ للنبوة، فمع ظهور متبئين بعد الرسول في اليمن ونجد واليمامة، فإنه لم يظهر أي مدّعٍ للنبوة في مكة لا قبل الرسول ﷺ ولا بعده، وهذا من حماية الله له.

وقد ورد في سفر حبقوق (٣: ٦)، وهو من أسفار العهد القديم (التوراة) ما

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، ج ٣/٢٢٧.

نصه: "اللَّهُ يَجِيءُ مِنْ تَيْمَانَ، الْقُدُوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، غَطَى جَلَالَهُ السَّمَاوَاتِ وَامْتَلَأَتْ الْأَرْضُ مِنَ التَّهَلُّلِ لَهُ. يَجِيءُ كَلِمَعَانَ الْبَرْقِ وَمِنْ يَدِهِ يَسْطَعُ النُّورُ وَفِيهَا تَسْتَتِرُ عِزَّتُهُ. قَدَامَ وَجْهِهِ يَسِيرُ الْوَبَاءُ وَوَرَاءَ قَدَمَيْهِ الْمَوْتُ، يَقِفُ فَتَهْتَزُّ الْأَرْضُ، وَيَنْظُرُ فَتَرْتَعِدُ الْأُمَمُ تَتَحَطَّمُ جِبَالُ الدَّهْرِ، وَتَتَخَسَفُ تَلَالِلُ الْأَزْلِ، حَيْثُ سَارَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ".^(١)

وقد تحدثت كثير من المصادر عن تغيير أصاب هذا السفر في طبعته الأخيرة، وأنه اختُزل في أصله المطبوع في بيروت سنة ١٨٨٤م على نص جاء فيه: "وامتلأت الأرض من تحميد أحمد ملك يمينه رقاب الأمم". وفي النسخة المطبوعة في لندن ١٨٤٨م، ونسخة بيروت ١٨٨٤م: "لقد أضاءت السماء من بهاء محمد وامتلت الأرض من حمد زجرك في الأنهار، واحتدام صوتك في البحار، يا محمد ادن لقد رأتك الجبال فارتاعت".^(٢) لعل في هذا تصديقاً لقوله ﷺ: ((نصرت بالربعب مسيرة عام)).^(٣)

كما ورد في إنجيل متى (١١: ١٤) بشارة من عيسى بالقادم من بعده في قوله: "وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي".

وفي إنجيل لوقا (١: ١٤): "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة" ويؤكد العلماء، على أن الترجمة محرفة وأنها في الأصل: "اقترب السلام للأرض وتيسيره بين الناس محمد".^(٤)

(١) ص ١١٧٤، من العهد القديم.

(٢) انظر: مجلة البشارات، العدد الأول. نقلاً عن:

<http://www.hurras.org> بتاريخ ٢٧/١١/٢٠١٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، (ج ٤/١٢).

(٤) انظر: عبدالأحد داود، ص ١٣٨؛

وأحمد أحمد على السقا، غصن الرب في سفر أشعيا النبي، ص ٥٤.

وضمن الأناجيل المعروفة أنجيل برنابا (*Gospel of Barnaba*)،^(١) وهو إنجيل مشهور اكتشف في الفاتيكان في أوائل القرن السادس عشر الميلادي،^(٢) وقد طبع بعد ذلك باللغات الإيطالية والأسبانية والإنجليزية في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي.^(٣)

وتشير بعض الدراسات إلى أن البابا جلاسيوس سنة ٤٩٢م قبل بعث النبي ﷺ قد أشار إلى إنجيل برنابا ووضعها ضمن قائمة الكتب المنهي عنها.^(٤)

ويصرّ كثير من المنتمين للكنيسة على إنكارهم لهذا الإنجيل وما ورد فيه - لوضوح ما فيه من أخبار عن الرسول ﷺ كما سيأتي - مع أن طبعاته الأولى كانت قبل قرابة ٣٠٠ سنة باللغات الأوروبية: الأسبانية والإيطالية والإنجليزية، ولم يعرف في العالم العربي وبين المسلمين إلا من خلال تلك الطباعات الأوروبية منذ قرابة مئة سنة تقريباً.

والملاحظ لمن يطالع هذا الإنجيل تشابه بعض ما ورد فيه بما ورد في القرآن من التوحيد والنهي عن الشرك ومن بشرية المسيح ﷺ، ورفضه أن يُعبدَ أو أن يُنسبَ ابنٌ لله ويؤكد على أنه رسول بشر ابن لمريم ﷺ من لحم ودم.

وقد وردت إشارات واضحة لمحمد ﷺ في إنجيل برنابا، مع التصريح

(١) إنجيل برنابا (*Gospel of Barnaba*) ترجمه من الإنجليزية إلى العربية الدكتور خليل سعادة، ١٩٠٨م، نقلاً عن النسخة الإنجليزية التي ترجمها لونسدال راغ ولورا راغ من النسخة الإيطالية الأصلية التي سرّبت من مكتبة الفاتيكان، وقد قدم للترجمة وعلق عليها الدكتور أحمد حجازي السقا - أربد. الأردن: نشرتها دار الأمل ٢٠٠٥م، وقد حظيت الترجمة بعناية خاصة من الشيخ محمد رشيد رضا في المنار سنة ١٣٢٦هـ.

(٢) www.ar.wikipedia.com

(٣) www.ar.wikipedia.com

(٤) انظر: إنجيل برنابا، ترجمة الدكتور خليل سعادة، ص ٩٨.

باسمه كما هو محمد ، ومن ذلك ما ورد في الإصحاح الثالث والستين بعد المئة :

"وذهب يسوع مع تلاميذه إلى البرية وراء الأردن ، فلما انقضت صلاة الظهر جلس بجانب نخلة وجلس تلاميذه تحت ظل النخلة ، حينئذ قال يسوع: أيها الإخوة إن سبق الاصطفاء لسر عظيم حتى أني أقول لكم الحق: إنه لا يعلمه جلياً إلا إنسان واحد فقط ، وهو الذي تتطلع إليه الأمم الذي تتجلى له أسرار الله تجلياً ، فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم ، لأن الله سيظلهم كما تظلنا هذه النخلة ، بلى: إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا تقي رحمة الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان.

أجاب التلاميذ: يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب: إنه محمد رسول الله ، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها ، كما يجعل المطر الأرض تعطي ثمراً بعد انقطاع المطر زمناً طويلاً فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله وهي رحمة ينثرها الله رذاذاً على المؤمنين كالغيث".^(١)

ولعل هذا الكلام يذكرنا بقوله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء] ١٠٧ ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف] ٦

كما جاء في الإصحاح الرابع والعشرين بعد المائة ما نصه: "لما كان الله

(١) إنجيل برنابا ، ص ٢٩٣ .

واحدًا كان الحق واحدًا، فينتج من ذلك: أن التعليم واحد وأن معنى التعليم واحد فالإيمان إيدًا واحد، الحق أقول لكم: إنه لو لم يمح الحق من كتاب موسى لما أعطى الله داود أبانا الكتاب الثاني، ولو لم يفسد كتاب داود لم يعهد الله بإنجيله إليّ، لأن الرب إلهنا غير متغير ولقد نطق رسالة واحدة لكل البشر، فمتى جاء رسول الله يجرى ليظهر كل ما أفسد الفجار من كتابي حينئذ أجاب من يكتب: يا معلم ماذا يجب على المرء فعله متى فسدت الشريعة وتكلم النبي المدعي؟ أجاب يسوع: إن سؤالك لعظيم يا برنابا، لذلك أفيدك أن الذين يخلصون في مثل ذلك الوقت قليلون لأن الناس لا يفكرون في غايتهم التي هي الله، لعمر الله الذي تقف في حضرته إن كل تعليم يحول الإنسان عن غايته التي هي الله لشر تعليم، لذلك يجب عليك ملاحظة ثلاثة أمور في التعليم: أي المحبة لله وعطف المرء على قريبه وبغضك لنفسك التي أغضبت الله وتغضبه كل يوم، فتجنب كل تعليم مضاد لهذه الرؤوس الثلاثة لأنه شرير جدًا".^(١)

ومن الشواهد في إنجيل برنابا في الإصحاح الثامن بعد المائةين:^(٢)

"فقل له: من كان ابن إبراهيم هذا؟ أجاب يسوع: إن غيرة شرفك يا الله تؤججني ولا أقدر أن أسكت، الحق أقول: إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيًّا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض".

وقد ورد في إنجيل برنابا شيء من خصائص الرسول ﷺ ومن ذلك موقفه في الشفاعة الكبرى للخلق يوم القيامة، ومع أنه من الواضح أن في النص

(١) إنجيل برنابا، ص ٢٥١.

(٢) إنجيل برنابا، ص ٣٢٧.

تحريف ففيه كلام من بقايا الحق نطلع عليه، على ألا نتجاوز ما ورد في الأحاديث الصحيحة من خصائص الرسول ﷺ.

يصف برنابا هذا الموقف للرسول ﷺ نقلاً عن كلام عيسى عليه السلام في الإصحاح الرابع والخمسين والخامس والخمسين في نص طويل يتفق في مضمونه مع حديث الشفاعة، ويختلف في بعض ألفاظه، وهي محل نظر، وما ورد يؤكد معرفة تلاميذ عيسى عليه السلام وبرنابا واحد منهم بهذه المكرمة والخاصية للمصطفى ﷺ، وقد جاء فيها (٥٤: ١٢: ٣٣)، ((ثم يحيى الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصرخون: أذكرنا يا محمد، فتتحرك الرحمة في رسول الله لصراخهم، وينظر فيما فعله خائفاً لأجل خلاصهم، ثم يحيى الله بعد ذلك كل مخلوق فتعود إلى وجودها الأول، وسيكون لكل منها قوة النطق علاوة، ثم يحيى الله بعد ذلك المنبوذين كلهم الذين عند قيامتهم يخاف سائر خلق الله بسبب قبح منظرهم، ويصرخون: أيها الرب إلهنا لا تدعنا من رحمتك، وبعد هذا يقيم الله الشيطان الذي سيصير كل مخلوق عند النظر إليه كميت خوفاً من هيئة منظره المريع، ثم قال يسوع: أرجو الله أن لا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم، إن رسول الله وحده لا يتهيب هذه المناظر لأنه لا يخاف إلا الله وحده.

ويذهب رسول الله ليجمع كل الأنبياء الذين يكلمهم راغباً إليهم أن يذهبوا معه ليضرعوا إلى الله لأجل المؤمنين، فيعتذر كل أحد خوفاً ولعمر الله إني أنا أيضاً لا أذهب إلى هناك، لأنني أعرف ما أعرف وعندما يرى الله ذلك يذكر رسوله كيف أنه خلق كل الأشياء محبة له، فيذهب خوفه ويتقدم إلى العرض وباحترام والملائكة ترنم: تبارك اسمك القدوس يا الله إلهنا، ومتى صار على مقربة من العرض يفتح الله لرسوله كخليل، لخليله

بعد طول الأمد على اللقاء، ويبدأ رسول الله بالكلام أولاً فيقول: إني أعبدك وأحبك يا إلهي، وأشكرك من كل قلبي ونفسي، لأنك أردت فخلقتني لأكون عبدك، وخلقت كل شيء حباً فيّ لأحبك لأجل كل شيء وفي كل شيء وفوق كل شيء، فليحمدك كل خلقتك يا إلهي، حينئذ تقول كل مخلوقات الله: نشكرك يا رب وتبارك اسمك القدوس، الحق أقول لكم: إن الشياطين والمنبوذين مع الشيطان سيكون حينئذ: حتى أنه ليجري من الماء من عين الواحد منهم أكثر مما في الأردن، ومع هذا فلا يرون الله، ويكلم الله رسوله قائلاً: مرحباً بك يا عبدي الأمين، فاطلب ما تريد، تتل كل شيء، فيجيب رسول الله: يا رب أذكر أنك لما خلقتني قلت: إنك أردت أن تخلق العالم والجنة والملائكة والناس حباً فيّ ليمجدوك بي. أنا عبدك، لذلك أضرع إليك أيها الرب الإله الرحيم العادل أن تذكر وعدك لعبدك، فيجيب الله كخليل يمازح خليله، ويقول: أعندك شهود على هذا يا خليلي محمداً؟ فيقول باحترام: نعم يارب، فيقول الله: اذهب وادعهم يا جبريل، فيأتي جبريل إلى رسول الله ويقول: من هم شهودك أيها السيد؟ فيجيب رسول الله: هم آدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وداود ويسوع بن مريم، فينصرف الملاك وينادي الشهود المذكورين الذين يحضرون إلى هناك خائفين.

فمتى حضروا يقول لهم الله: أتذكرون ما أثبتته رسولي؟ فيجيبون: أي شيء يا رب؟ فيقول الله: إني خلقت كل شيء حباً فيّ ليمدني كل الخلائق به، فيجيب كل منهم: عندنا ثلاثة شهود أفضل منا يا رب، فيجيب الله: ومن هم هؤلاء الثلاثة؟ فيقول موسى: الأول الكتاب الذي أعطيتني. ويقول داود: الثاني الكتاب الذي أعطيتني، ويقول الذي

يكلمكم: يا رب إن العالم كله أغره الشيطان فقال: إني كنت ابنك^(١) وشريكك، ولكن الكتاب الذي أعطيتيه قال حقاً: إني أنا عبدك، ويعترف ذلك الكتاب بما أثبتته رسولك، فيتكلم حينئذ رسول الله ويقول: هكذا يقول الكتاب الذي أعطيتيه يا رب، فعندما يقول رسول الله هذا يتكلم الله قائلاً: إن ما فعلت الآن إنما فعلته ليعلم كل أحد مبلغ حبي لك، وبعد أن يتكلم هكذا يعطي الله رسوله كتاباً مكتوباً فيه أسماء كل مختاري الله، لذلك يسجد كل مخلوق لله قائلاً: لك وحدك اللهم المجد والإكرام لأنك وهبتنا لرسولك^(٢).

ولعل هذا مع تحريفه يوافق في بعض معناه قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة]

وهذا الحوار الرباني مع عيسى عليه السلام يكون يوم القيامة.

كما توجد شواهد كثيرة من إنجيل برنابا فيها أحاديث للمسيح عليه السلام شبيهة بأحاديث رسول الله ﷺ، ومن ذلك وصف الجنة في الإصحاح التاسع والستين بعد المئة، من ذلك وصف الجنة: "لم ترَ عينا إنسان ولم تسمع أذناه

(١) هذا يؤكد براءة عيسى من الشرك به وأن ذلك من الشيطان ويؤكد عبوديته لله تعالى.

(٢) انظر: إنجيل برنابا، ص ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦.

ولم يدرك قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه" (١).

وهذا موافق لقول الله - تعالى - : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة] ، وهذا مصداق لقول المصطفى ﷺ عن الله - تعالى - : ((أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)) (٢).

كما يتفق إنجيل برنابا مع ما عند المسلمين في القرآن والسنة عموماً دون التفصيل فيما يرتبط بالمسيح نفسه ورفعته إلى السماء ، وذلك في الإصحاح السادس عشر بعد المائتين فيما نصه : " فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد " (٣).

وهذا يوافق قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبُّهُمُ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء] .

ونحن لا نشك أن التحريف وقع في كتب اليهود والنصارى الأصلية وما تفرع منها باعترافهم هم ، ومع ذلك فإن الحق واضح عند بعضهم ، خصوصاً أن الرسول ﷺ إنما دعاهم لتوحيد الله واحترام الأنبياء السابقين وتقديرهم والسير على مبادئهم من تقدير الله وتعظيمه ، والوصاية بشرعه الذي جاء به أنبياءه السابقون : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] .

(١) إنجيل برنابا ، ص ٢٩٨ .

(٢) متفق عليه . انظر : صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة السجدة ، ج ٦ / ٢١ .

(٣) إنجيل برنابا ، ص ٣٣٤ .

وقد كان الأمر واضحاً عند رسول الله ﷺ في مكاتبتة لهرقل وغيره من
زعماء النصارى في زمانه.

* * * * *

مثقفو الغرب المعاصرون ونظرتهم للنبي ﷺ

يلاحظ أن عدداً كبيراً من المثقفين الغربيين خلال القرنين الماضيين شهدوا بصدق الرسول ﷺ أو أشاروا إلى شيء من ذلك في كلام منصف إلى حد ما ، وإن اختلفنا معهم في النصوص والمضمون أحياناً. وقد كان كثير من الدارسين الأوربيين لشخصية الرسول ﷺ غير منصفين،^(١) يقول درمنغم: "من المؤسف حقاً أن بالغ هؤلاء المتخصصين في النقد أحياناً فلم تزل كتبهم رسماً، وكانت كتبهم عامل هدم على الخصوص".^(٢)

وقد اهتمت عدد من المؤلفات بهذا الموضوع وأوردت شواهد له.^(٣)

ولعل القرن الثامن عشر أكثر القرون بداية لظهور حقائق علمية في الغرب تتصف الرسول ﷺ في عيون الأوربيين، كما ذكر رودنسن مكسيم: (*Rudensn Maxim*) في قوله: "بظهور عدد من المؤرخين الأوربيين المستتيرين في القرن الثامن عشر بدأت تكتمل معالم صورة، هي صورة محمد الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع".^(٤)

(١) الكردي: راجع عبد الحميد، شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي، ط١- عمان: دار الفرقان ١٤٠٦هـ، ص ١٥؛

انظر: محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط٥ - القاهرة: دار المنار ١٣٦٧هـ.

(٢) درمنغم: إميل، حياة محمد، ترجمة عادل زعيتير، ط٢ - المؤسسة العربية للدراسات ١٩٨٨م.

(٣) انظر: الحسيني الحسيني معدي، الرسول ﷺ، في عيون غربية منصفة، ط١ - القاهرة: دار الكتاب العربي ٢٠٠٦م؛

وانظر: عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص ٢٢٥؛ وانظر: أحمد بن حجر آل بوطامي، الإسلام في نظر منصفى الشرق والغرب وعدنان النحوي، النبي العظيم والرحمة المهداة.

(٤) الحسيني معدي، ص ١٢٩.

ويشير الكاتب الإنجليزي جورج برنارد شو: (George Bernard shaw)، إلى بداية تفهم أوروبا لمحمد ﷺ رغم محاولة تشويه صورته في قوله: "إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد، وبدأت تعيش دينه، كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية مما اتهمها به من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى".^(١)

كما يشير مارسيل بورزار (Marcel Pourzar) إلى ظهور الحق حول محمد ﷺ ودينه رغم التشوية فيقول: "سبق أن كُتب كل شيء عن نبي الإسلام ﷺ فأنوار التاريخ تسطع على حياته التي نعرفها في أدق تفاصيلها، والصورة التي خلفها محمد ﷺ عن نفسه تبدو، حتى وإن عُمد إلى تشويهها، علمية في الحدود التي تكشف فيها وهي تندمج في ظاهرة الإسلام عن مظهر المفهوم الديني وتتيح إدراك عظمتة الحقيقية".

"لم يكن محمد ﷺ على الصعيد التاريخي مبشراً بدين وحسب، بل كان كذلك مؤسس سياسة غيرت مجرى التاريخ، وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق".^(٢)

لقد كانت دراسة حياة الرسول ﷺ مؤثراً كبيراً على بعض الغربيين رغم محدودية مصادرهم للدراسات وتشويه بعضها للحقائق، إلا أن وميض الحق بين الأسطر أعطى بعضاً منها انطباعاً قوياً صادقاً أثر على مجرى حياتهم بقوة، فهذا ألفونس لامارتين (Alphonse de lamartine) يقول ما نصه:

"أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، من ذا الذي يجرؤ على تشبيهه

(١) الحسيني معدي، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص ١٠٥.

(٢) الحسيني معدي، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص ١١٤.

رجل من رجال التاريخ بمحمد! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرسًا لتبليغ الرسالة وصلواته أركان العقيدة. إن الرسول والخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقديس الصور هو محمد، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق".^(١)

ويؤكد إدوارد بروي (Eduard Perroy) على أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء وأن شريعته إلهية شاملة ونظام اجتماعي خلاق فيقول: "جاء محمد بن عبدالله ﷺ، النبي العربي وخاتم النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد، كانت الشريعة "في دعوته" لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضاً الأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد أعداء المسلمين.. ونشر الدين الحنيف.. وعندما قبض النبي العربي ﷺ، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل".^(٢)

كما يدافع لايبنتز Leibniz عن الرسول ﷺ وعن الوحي المنزل ويؤكد على وجود الكثير من العلامات الدالة على صدق نبوته في قوله: "بقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ﷺ ليس اقتباساً،

(١) المصدر السابق، ص ٤٢.

(٢) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص ١١٢.

بل قد أوحى إليه به ولا ريب بذلك، طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم. وإنني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، والإيمان القلبي الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائل لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد ﷺ وأنه قد أوحى إليه".

إن الديانة النصرانية التي ودَّ محمد ﷺ إعادتها لأصلها النقي كما بشر بها المسيح ﷺ تخالف التعاليم السرية التي أذاعها بولس (Paul) والأغلاط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى. ولقد كانت آمال محمد ﷺ وأمانيه أن لا تخصص بركة دين إبراهيم ﷺ لقومه خاصة، بل تعم الناس جميعاً، ولقد صار دينه الوسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبثوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام.^(١)

ولعل من أهم ما لفت نظر بعض عقلاء الغربيين قضية التوحيد، وهي جوهر الدين الذي دعا إليه الرسول ﷺ وأخبر ﷺ أنها دعوة الأنبياء جميعاً، كما جاء ذلك في آيات قرآنية متعددة وأحاديث نبوية.

يقول فولتير (Voltaire): "إن عقيدة محمد خالية من الشك والغموض، والقرآن شهادة مجيدة على وحدانية الله".^(٢)

ويقول روم لاندو (Rom Landau): "لم ينسب محمد ﷺ في أيّام يوم من الأيام إلى نفسه صفة إلهية أو قوى أعجوبية؛ على العكس، لقد كان حريصاً على النص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس".

(١) الحسيني معدي، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، مصدر سابق، ص ١٥٢.

(٢) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص ١٦٧.

كان محمد ﷺ تقيًا بالفطرة، وكان من غير ريب مهياً لحمل رسالة الإسلام التي تلقاها.. وبالإضافة إلى طبيعته الروحية، كان في سره وجهه رجلاً عملياً عرف مواطن الضعف ومواطن القوة في الخلق العربي، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية ينبغي أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطاً وإلى المدنيين الوثنيين، وفي آن معاً، على نحو تدريجي.. وفي الوقت نفسه كان محمداً ﷺ يملك إيماناً لا يلين بفكرة الإله الواحد.. وعزماً راسخاً على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب.

كانت مهمة محمد ﷺ هائلة، كانت مهمة ليس في ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية "وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين الرسول العربي ﷺ"، أن يرجو النجاح في تحقيقها بمجهوده الشخصي، إن الإخلاص الذي تكشف عنه محمد ﷺ في أداء رسالته، وما كان لأتباعه من إيمان كامل فيما أنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد ﷺ بأنه ضرب من الخداع المتعمد، ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق "ديني" متعمد استطاع أن يعمر طويلاً. والإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا يزال يكتسب في كل عام، أتباعاً جديداً، وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحداً.^(١)

ويؤكد **توينبي (Arnold J. Toyubee)**: على قضية التوحيد عند الرسول وما يرتبط بذلك من التشريع ونظام تبعها سلطة تنفيذية أو لقوة وإقامة للعدل فيقول: "لقد كرّس محمد ﷺ حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية (وهما الوحدانية في الفكرة الدينية،

(١) الحسيني معدي، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص ١٥٠.

والقانون والنظام في الحكم)، وتم ذلك فعلاً بفضل نظم الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوجدانية والسلطة التنفيذية معاً.. فعدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم بأسرة من سواحل الأطلسي إلى شواطئ السهب الأوراسي..^(١)

ويستشهد واشنطن إيرفينغ (*washington Irving*) بحادثة فتح مكة ليؤكد أن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء فيقول ما نصه: "كان محمد ﷺ خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعو الناس إلى عبادة الله".

كانت تصرفات الرسول ﷺ في: "أعقاب فتح" مكة تدل على أنه نبيٌ مرسلٌ لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توجَّ نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو".

"لقي الرسول من أجل نشر الإسلام كثيراً من العناء، وبذل عدة تضحيات، فقد شك الكثير في صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحاً كبيراً، وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك وتخلي عن كل متع الحياة وعن السعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة".^(٢)

ويؤكد إدوارد رمسي (*Edward Ramsay*) رسالة النبي ﷺ وتركيزه على التوحيد فيقول: "جاء محمد للعالم برسالة الواحد القهار، ليخرج

(١) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص ١١٦.

(٢) الحسيني معدي، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص ١١١.

الناس من الظلمات إلى النور، فبزغ فجر جديد كان يُرى في الأفق، وفي اليوم الذي أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد ما فقد من العدل والحرية أتى الوحي من عند الله إلى رسول كريم، ففتحت حججه العقلية السديدة أعين أمة جاهلة، فانتبه العرب، وتحققوا أنهم كانوا نائمين في أحضان العبودية^(١).

وتقول كارين أرمسترونج (*Karen Armserong*): "وعلى هذا، فإن كان ذلك النصر السياسي هو الإنجاز الوحيد لمحمد فمن حقه علينا أن يحوز إعجابنا لكن نجاح محمد اعتمد على الرؤية الدينية التي نقلها العرب، والتي اعتنقتها بدورها الرعية من شعوب الإمبراطورية، وذلك لأنها لبت حاجة روحانية لديهم، غير أن محمداً والمسلمين الأوائل لم يحققوا انتصاراتهم بسهولة كما يحلو للبعض أن يتخيل، ولكنهم اشتبكوا في معارك شرسة يائسة، ولولا أن الاعتبار الأول للنبي ورفاقه المقربين كان للدين، ما كتب لهم البقاء"^(٢).

وكثير من الغربيين يصف الرسول ﷺ بالمصلح وبصاحب الرؤية، ويمتدحه وإن لم يؤمن به، يقول جولد تسهير *Goldziher*: "... الحق أن محمداً كان بلا شك أول مصلح حقيقي في الشعب العربي من الجهة التاريخية، ففي هذا العصر نرى النبي يستخدم حنكته المفكرة ورويته الدقيقة وتبصره العالي، في مقاومة خصومه الذين شرعوا في معارضة مقاصده وغاياته في داخل موطنه وخارجه"^(٣).

(١) المصدر السابق، ص ١٠٣.

(٢) كارين أرمسترونج، سيرة النبي محمد، ص ٧٣.

(٣) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص ١٤٨.

وقد ضاق بعضهم ذرعاً بعدم إيمان الغربيين بنبوة الرسول ﷺ واعتبر ذلك عاراً عليهم، يقول توماس كارليل (Tomas Carlyle): "لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متحدث هذا العصر أن يصغى إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداع مزور".^(١)

وهذا المؤرخ الأمريكي المشهور ول ديورانت (Will Durant) الذي عرف عندهم بأنه أبو التاريخ يقول: "يبدو أن أحداً لم يُعَنِّ بتعليم محمد ﷺ القراءة والكتابة.. ولم يُعرف عنه أنه كتب شيئاً بنفسه.. ولكن هذا لم يُحلِّ بينه وبين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفاً قلماً يصل إليه أرقى الناس تعليماً، كان النبي من مهرة القواد.. ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكاً، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم، وإذا ما حكمنا على العظمة.. كان محمد من أعظم عظماء التاريخ".^(٢)

ويشير بعضهم إلى مثالية الرسول ﷺ وكماله وإلى قصر أوروبا عما جاء به ﷺ.

يقول الأديب الألماني جوته (Johann Wolfgang von Goethe): "إننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد...، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي محمد... وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد".^(٣)

ويشير برناردشو (Bernard Shaw) الكاتب الإنجليزي الشهير إلى مناسبة تعاليم الرسول ﷺ للعصر الحاضر، وفي هذا إيمان بشريعته وصلاحتها

(١) المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٢) الحسيني معدي، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص ١٢٨.

(٣) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص ١٧٤.

لكل الأزمنة، وقد انطلقت قبل ١٤٠٠ سنة فيقول: " يجب أن يُسمَّى منقذ الإنسانية، وإنني أعتقد لو أن شخصاً مثله تولى الحكم المطلق في العالم المعاصر، لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب به ما هو في أشد الحاجة إليه من سلام وسعادة".^(١)

ويشير غوستاف لوبون (*Gustave Le Bon*) الطبيب والمؤرخ الفرنسي إلى بدايات لدى الغرب لإنصاف النبي ﷺ فيقول: "إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمداً مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثير عن الاعتراف بفضله..."

"استطاع محمد ﷺ أن يبدع مثلاً عالياً قوياً للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص.. ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى..."

"لا شيء أصوب من جمع محمد لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة. ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد".^(٢)

ويمتدح ايتين دينيه (*Etienne Dinet*) سول الله ﷺ وشخصيته وتميزها فيقول:

"إن الشخصية التي حملها محمد ﷺ بين برديه كانت خارقة للعادة وكانت ذات أثر عظيم جداً حتى إنها طبعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح

(١) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٢) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص ١٥٤.

الإبداع وأعطاهما صفة الشيء الجديد...^(١).

ويعبر كتاب أوروبيون بعمق عن إعجابهم بالرسول ﷺ ومنهم: جاك بيرك (*Jacques Augustin Berque*)، فيقول: "لا شك أن الإسلام الذي اختار الخالق له محمداً كان جديراً بمحمد وكان محمد جديراً به."^(٢)

الألماني كارل بروكلمان (*Carl Brockelmann*) يقول: "جعل رسول الإسلام الجزيرة العربية نقطة انطلاق لرسالاته العظيمة التي حوربت كثيراً وما زالت، لكن الانتصار دائماً للحق، وما جاء محمد إلا بالحق والحقيقة."^(٣)

ويركز هنري سيروي (*Henri François Serruys*) على شخصية الرسول ﷺ وتعبده لله، فيقول: "ومحمد لم يفرض في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب".

"محمد شخصية تاريخية حقة، فلولا ما استطاع الإسلام أن يمتد ويزداد، ولم يتوان في ترديد أنه بشر مثل الآخرين مآله الموت، وبأنه يطلب العفو والمغفرة من الله ﷻ وقبل مماته أراد أن يظهر ضميره من كل هفوة أتاها فوقف على المنبر مخاطباً: أيها المسلمون، إذا كنت قد ضربت أحداً فهاكم ظهري ليأخذ ثأره، أو سلبته مالا فمالي ملكه، ... وهذا التدوق والإحساس البالغ لفهم محمد لدوره كنبي."^(٤)

ويؤكد هنري دي كاستري (*Henry De Castrie*) تصديقه لرسول الله

(١) المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٤) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص ١٧٠.

بعد بحث دقيق حول شخصية الرسول ﷺ فيقول:

" إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية علني أجد في هذا البحث دليلاً جديداً على صدقه وأمانته المتفق عليها بين جميع مؤرخي الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحي".

"ثبت إذن أن محمداً لم يقرأ كتاباً مقدساً ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه.."^(١)

أما الروسي تولستوي (Leo Tolstoy) فيبيدي قناعته بالهدي الذي حمله الرسول ﷺ ويبيدي احترامه فيبيدي في مقالة له بعنوان: "من هو محمد؟": "إن محمداً هو مؤسس ورسول، كان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق جعلها تنجح إلى السكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقدم عليه إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال."^(٢)

ويؤكد وليم موير (Willaim muir) تميز الرسول ﷺ رفعا لفضيلته وأخلاقه، فيقول:

"لقد امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما

(١) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) الحسيني المعدي، مصدر سابق، مصدر سابق، ص ١٠٢.

يدهش العقول، ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل نبي الإسلام محمد".^(١)

وتظهر لدى بعض الغربيين قناعة بنبوة رسول الله ﷺ، بل يؤكد بعضهم أنه خاتم الأنبياء وأنه جدير بهذا الشرف العظيم، يقول العالم الفرنسي كليمان هوارت (Clément Huart):

"لم يكن محمد نبياً عادياً، بل استحق عن جدارة أن يكون خاتم الأنبياء ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلماً".^(٢) وقد امتدح كثير من الغربيين موقف النبي محمد ﷺ من النصرانية والديانات السماوية الأخرى، وإنصافه لأهلها واحترامه للمسيح عليه السلام فهذا جورج برنارد شو (George Bernard show)، يقول:

"لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأوروبا بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي".

"وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحاً قوياً، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم".

"لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً سوى محمد، كان صاحب رسالة

(١) المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧١.

وباني أمة، ومؤسس دولة.. هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحيدها على مدى التاريخ".^(١)

كما يؤكد آخرون إنصاف الرسول للديانات الأخرى فتقول الكاتبة الإيطالية لورا فيشيا فاغلييري (*Laura Veccia Vaglieri*) ما نصه:

"كان محمد المتمسك دائماً بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة، لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعاً الأناة دائماً اعتقاداً منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور.. لقد عرف جيداً أن الله لا بد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري".^(٢)

وأشار بعض النصارى إلى موقف الرسول ﷺ من عيسى عليه السلام، واحترامه له في السنة والقرآن المنزل عليه، يقول المستشرق الفرنسي لويس سيديو (*Louis Pierre*):

"لقد حل الوقت الذي توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة الأمر في زاوية من آسية فارتقت إلى أعلى مقام، فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون، ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد".

"... لم يعد محمد نفسه غير خاتم لأنبياء الله ﷺ وهو قد أعلن أن عيسى ابن مريم كان ذا موهبة في الإتيان بالمعجزات، مع أن محمداً لم يعط مثل هذه الموهبة، وما أكثر ما كان يعترض محتجاً على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة".^(٣)

(١) الحسيني المعدي، مصدر سابق، ص ١٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٧؛

وانظر: <http://www.islam-love.com> بتاريخ ٢٧/١١/٢٠١٠م.

(٣) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص ١٣٤.

وهناك آراء كثيرة لبعض من اهتدى من نصارى الغرب بعد بحث طويل تحدثوا عما تعرفوا عليه من حقيقة النبي ﷺ مما دفعهم إلى الإيمان به وتصديقه وهي شواهد كثيرة يصعب حصرها.

وفي توقعي أنه بسبب الاتصالات الحديثة والترابط بين العالم وسرعة وصول المعلومة سيكون أمثال هؤلاء المهتمين المطلعين على حقيقة الرسول ﷺ كثر، وسيصعب تضليل الناس كما كان يفعل ذلك سابقاً، بسبب الوسائل الحديثة التي أتاحت للعالم أجمع الاطلاع عن كثب على مصادر أكثر صدقاً عن حياة الرسول ﷺ.

ولعل من هؤلاء المهتمين السيدة ايفلين كوبولد (Lady E. Cobold) التي أسلمت وزارت المدينة وسجلت انطباعاتها في قولها:

".. هذه هي مدينة الرسول ﷺ .. تعيد إلى نفسي ذكرى جهوده في سبيل لا إله إلا الله، وتلقى في روعي صبره على المكاره واحتماله للأذى في سبيل الوجدانية الإلهية".

"كان العرب قبل محمد ﷺ أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد ﷺ بعث هذه الأمة بعثاً جديداً يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً..."^(١)

ومن هؤلاء د. دوران (Dr. M. H. Durran)، الذي كان قسيساً فأسلم، حيث يقول:

"أستطيع أن أقول بكل قوة أنه لا يوجد مسلم جديد واحد لا يحمل في نفسه العرفان بالجميل لسيدنا محمد ﷺ، لما غمره به من حب وعون وهداية

(١) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص ١٤٧.

والهام فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا وحباً بنا حتى نقضي أثره".
 "... وأخيراً أخذت أدرس حياة النبي محمد ﷺ فأيقنت أن من أعظم الآثام
 أن نتكر لذلك الرجل الرياني، الذي أقام مملكة لله بين أقوام كانوا من
 قبل متحاربين، لا يحكمهم قانون، يعبدون الوثن، ويقتربون كل الأفعال
 المشينة، فغير طرق تفكيرهم، لا بل بدل عاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت
 راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة وحكومة واحدة،
 وأصبحت تلك الأمة، التي لم تتجب رجالاً عظيماً واحداً يستحق الذكر منذ
 عدة قرون، أصبحت تحت تأثيره وهدية ألوفاً من النفوس الكريمة التي
 انطلقت إلى أقصى أرجاء المعمورة تدعو إلى مبادئ الإسلام وأخلاقه ونظام
 الحياة الإسلامية وتعلم الناس أمور الدين الجديد".^(١)

ويعد ألكسندر ويب: (Alexander Russell webb)، أحد من درس الإسلام
 وشخصية نبيه ﷺ، وتأثر بذلك البحث ودخل في الإسلام عن قناعة، بعد
 دراسات مقارنة فدعا الغربيين لمثل هذه الدراسات العلمية المحايدة فقال:

"لم أجد في الأنبياء جميعاً أعظم ولا أكمل من محمد ﷺ وتعالوا
 أناقشكم في ذلك، أو اقرأوا كل شيء عنه وعن دينه وقارنوا بينه وبين
 سابقه وبين رسالته العظيمة ورسالاتهم".

"اقرأوا بفهم ومحايدة، ستجدونه أعظم رسول، ستجدون رسالته أعظم
 الرسالات جميعاً".^(٢)

(١) الحسيني معدي، الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، ص ١٢٢.

(٢) الحسيني معدي، مصدر سابق، ص ١٧١.

عصر الرسول ﷺ

إن الحديث عن سيرة الرسول ﷺ يتطلب منا تحديد عصره الذي عاش فيه بدقة، وهو ما يعرف عند الباحثين بزمن الدراسة أو الإطار الزمني، وإن كان ما يرتبط بعلم السيرة النبوية يبدأ قبل ولادة الرسول ﷺ، ولذلك فإن البداية الزمنية لعصر الرسول ﷺ قبل ولادته بفترة يصعب تحديدها؛ لارتباط ذلك بحياة قريش في مكة، وبوالدي رسول الله ﷺ وبجده وقومه، وما جرى لهم من حوادث، إضافة إلى بعض الإرهاصات الأخرى التي سبقت مبعث النبي ﷺ، وأذنت بقرب رسالته ومبعثه رحمة للعالمين.

ويرى الكثيرون أن مولده هو بداية عصره ﷺ، وهذا هو الأرجح خصوصاً ما يتعلق بحياته وسيرته ﷺ، مع العلم أن عهد الرسالة أو النبوة يعد من بداية بعثته، وهذا لا ينتفي مع الأول إذ إن التاريخ لحياته ليس خاصاً بما بعد البعثة، بل يشمل ما قبل ولادة المصطفى ﷺ، كما أن التاريخ عمومًا والحضاري منه خصوصًا يصعب تحديده بحدث واحد، فالاجتهادات والحوادث مترابطة.

ومولده ﷺ في يوم اثنين من عام الفيل، وهذا ثابت بنص حديث نبوي قال فيه ﷺ ((يوم الاثنين يوم ولدت فيه))،^(١) وذكر كثير من العلماء أن مولده كان في ١٢ من ربيع الأول عام الفيل ويوافق سنة ٥٧١م.

ولا شك أن التحديد الزمني الدقيق لا ينطبق أحياناً على عصر معين يكون امتداده فيما قبله، وخصوصاً في مثل الدراسات التاريخية والحضارية، فكل شخص يرتبط بالبيئة المحيطة، وإن أمكن تحديد عصر

(١) انظر: مسلم في صحيحه، كتاب الصوم، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس، ج ٣/١٦٨.

الرسول ﷺ بدقة من ميلاده إلى وفاته فلا يمكن عزله عن ما سبقه.^(١)
 أما نهاية عصر الرسول ﷺ فهو موضع إجماع تام، حيث كانت بوفاته
 ﷺ ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول الموافق ٨ حزيران/ يونيو
 سنة ٦٣٣ م.^(٢)

ولعل وسط هذا العصر وعقده حادثة الهجرة التي قسمته إلى قسمين
 رئيسيين وكانت في السنة الأولى من الهجرة وتوافق سنة ٦٢٢ م.^(٣)

وكان الرسول ﷺ طيلة عصره محركاً لأحداث غيرت وجه العالم إلى
 يومنا الحاضر، هذا التأثير في تاريخ البشرية لم يكن له مثيل على
 الإطلاق، فمعظم الشخصيات يقتصر تأثيرها على زمانها وأيام أحداثها
 وتمتد أحياناً لفترات متفاوتة. أما عصر الرسول ﷺ وعهده فهو المؤثر على
 كافة أصقاع الأرض دون استثناء وذكره مستمر وحي إلى أن يرث الله
 الأرض ومن عليها.

ولا شك أن زمنه وقرنه وجيله ﷺ أفضل القرون و(الأجيال)، فقد صح
 عنه ﷺ أنه قال: ((بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرن حتى كنت من
 القرن الذي كنت فيه)).^(٤)

* * * * *

(١) انظر: د. عبدالعزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، ص ٣٨؛
 ومحمد عزة دروزة، عصر النبي - بيروت: دار اليقظة ١٣٨٤ هـ.
 (٢) عبدالسلام الترمييني، أزمنة التاريخ الإسلامي، ج ١/ ٢٩.
 (٣) عبدالسلام الترمييني، أزمنة التاريخ الإسلامي، ج ١/ ٣٤٤.
 (٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ج ٤/ ١٦٦؛ وابن أبي شيبة
 في مصنفه، كتاب الفضائل، ما ذكر في الكف عن الصحابة.

موطن الرسول ﷺ

مكة أو أم القرى^(١) هي موطن النبي ﷺ بها ولد، وبها بعث، وفيها تربي وترعرع وتزوج، وعمل وعاش معظم حياته، وربى ذريته، واختار أصحابه.

تقع مكة في بطن وادٍ، حيث وضع إبراهيم زوجته هاجر وابنها إسماعيل، قال - تعالى -: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٧) [إبراهيم].

كانت مكة موطن التوحيد الأول في بلاد العرب منذ أيام سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل ﷺ، حيث دعا إبراهيم لها ولأهله، وبنى الكعبة، وحج الأنبياء من بعده لهذا البيت والحرم.

قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَانْتَجَدُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) [البقرة].

أما طبيعتها الجغرافية فتختلف عن كثير من أجزاء الجزيرة العربية، حيث تحيط الجبال بالوادي من كل مكان.

(١) أشهر من أن تعرف، وكتبت فيها وفي موقعها وجغرافيتها مؤلفات عديدة، منها: الأزرقى: أخبار مكة، والفاكهي: أخبار مكة، وابن فهد القرشي: غاية المرام بأخبار البلد الحرام، وكذلك إتحاف الورى بأخبار أم القرى، والفاصي: شفاء الغرام، إضافة إلى عدد كبير من المؤلفات القديمة والحديثة يصعب حصرها.

وتسكن قريش وأحلافها مكة وهي قبيلة متحضرة ذات أسفار وتجارة، وعلاقات خارجية جيدة مقارنة ببقية القبائل والبلدان،^(١) ويجاورها بالقرب من مكة كنانة والأحباش يعيشون في الأودية القريبة منها، وهم حلفاء لقريش، ويعملون معها في حراسة قوافلها التجارية، التي كانت تربط الشام باليمن ويقوم عليها اقتصاد مكة، مع عمل بسيط في الحرف الأخرى، يأتي في مقدمتها الرعي وبعض الصناعات البسيطة، كما يوجد بعض الموالى في مكة سواء من أصول إفريقية أم رومية أم عربية أحياناً.

وترتبط مكة بأحلاف مختلفة تؤمن قوافلها التجارية، كما ورد في قوله - تعالى -: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش]. وكانت تجارتها مصدر رزق ورخاء، حيث تعد واسطة في التجارة بين أنحاء العرب، وكانت قريش تحاول الوقوف على الحياد في الصراعات القائمة بين قبائل العرب، ومع ذلك دخلت في حروب مع بعض القبائل المجاورة.

اشتهرت مكة بوجود الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة]، وكانت العرب مع وثنياتها تحج إليها.

وكانت الكعبة رمزاً للتوحيد استمر قروناً عديدة، وقبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم دنست الكعبة من الداخل والخارج كما دنس محيط مكة عموماً بأصنام مختلفة، تعبد من دون الله - تعالى - حتى أصبح الشرك والوثنية سائداً في مكة بين أهلها. ولم يعرف التوحيد إلا في نزر قليل من (الأحناف)

(١) طالع: أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول - القاهرة: دار الفكر العربي (بدون تاريخ).

- كما مر ذكره - احتفظوا بالتوحيد لأنفسهم، وأنكروا على الناس عبادة الأصنام، ولم يسمع لهم أحد من أهل مكة.^(١)

كان العرب مع شركهم ينظرون لمكة موطن الحرم نظرة خاصة، يقدسونها ويحرمون الاعتداء فيها، ويرونها آمنة دون غيرها قال - تعالى -:

﴿أولم يروا أننا جعلنا حرمًا آمنًا وننخطفُ الناسَ من حولهم أفيألبطلِ يؤمنونَ
وبنعمةِ الله يكفرونَ﴾ [العنكبوت].

كما اعتبرت أم القرى مركزًا لما حولها، قال - تعالى -:

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا لنُنذِرَ أمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَهَا ونُنذِرَ يَوْمَ الجُمُعِ لَأرَبِّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى].

وقال - تعالى -:

﴿وَالثِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين].

كان لاحترام مكة والكعبة دور كبير في إثارة غيرة أبرهة الحبشي وحفيظته، حيث كان يحكم اليمن وأقام لأهلها بيت (القليس)،^(٢) فكانوا يسخرون منه ويمجدون الكعبة فوصل في حملته المشهورة سنة ٥٧١م.

وهو العام الذي ولد فيه النبي ﷺ، قاصداً مكة لهدم الكعبة، حيث قابله عبدالمطلب جد النبي ﷺ وقال كلمته المشهورة "للبيت رب يحميه".^(٣) وفي رواية "للبيت رب سيمنه" كما سيأتي،^(٤) ومع أبرهة قوة عظيمة، تتقدمها الفيلة فسلط الله عليهم الطير الأبايل^(٥) كما ذكر - تعالى -:

(١) انظر: الموضوع الخاص بحال العرب قبل الإسلام، من هذا الكتاب؛

وانظر: جواد علي، المفصل، ج٤٩/٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣٤/١؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج٩١/١.

(٣) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج٩٢/١.

(٤) انظر: ميلاد المصطفى الحبيب، من هذا الكتاب.

(٥) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٩٠.

تَرَكَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ [الفيل].

كانت مكة مقسمة إلى أرباع بين أقسام قريش وأفخاذها المختلفة، يمكن من خلالها تحديد مواطنهم وبيوتهم وتجمعاتهم داخل مكة، كما كانت لدى هذه الفصائل وظائف محددة في القبيلة، منها السقاية والرفادة، والراية،^(١) كما كانت تفرض العشور كنوع من الضريبة على التجار القادمين لمكة.

واشتهرت مكة بدار الندوة،^(٢) التي يجتمع فيها أهل الرأي المعروفين في قريش بـ(الملا) وهم الزعماء الذين كانوا يسعون لقوة قريش ووحدتها.

لم تكن عشيرة النبي وهم بنو هاشم من أكثر الناس ثراء في مكة، ومع ذلك فهي أعلاها نسباً وأكثرها خدمة لزائري مكة من الحجاج وغيرهم، فكانت لهم السقاية (سقاية الحجاج) والرفادة (إطعامهم) حتى لو اضطروا للاستدانة في بعض الأحيان للقيام بهذه الأمور.^(٣)

وفي كل بطون قريش وجد زعماء وأصحاب رأي وقادة أشداء، كان بعضهم شديد الخصومة والخلاف للنبي ﷺ عندما أظهر دعوته.^(٤)

(١) انظر: الزبيري، نسب قريش؛ وابن حبيب، المحبر.

(٢) الأزرقى، تاريخ مكة، ص ١٠٧، ١١٠؛ ابن حبيب، المنق في أخبار قريش، ص ٨٧.

(٣) انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٥٨؛ والأزرقى، تاريخ مكة، ص ١١٠.

(٤) انظر: موضوع أذى المشركون للرسول ﷺ، من هذا الكتاب؛

وانظر لمزيد من التفصيلات: السويكت؛ سليمان بن عبد الله، محنة المسلمين في العهد

المكي، ط ١ - الرياض: مكتبة التوبة ١٤١٢هـ.

كما كانوا متمسكين بجاهليتهم مدافعين عن ضلالات قريش حفاظاً على موروثهم من عبادة الأصنام وغيرها، كما يظنون بكل جهل وعمى بعيداً عن الحق عصبية باطلة، قال - تعالى -: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

وبذلك كان تفكيرهم ضعيفاً موروثاً بلا عقل، يقلدون مسائل محدودة وتغيب عنهم المسائل الحاسمة.^(١)

كانت مكة تموج بالشهوات، ففي وقت كانت قريش أحرص الناس على أعراض الحرائر من النساء،^(٢) كان يباح للرجال كل شيء، حيث يتشاركون في الجارية الواحدة، يأتون خيام الدعارة التي عرفت فيها صاحبات الخيام من الداعرات اللاتي هن في الغالب من الإماء يتاجرون بفروجهن، ويستحلن ما يأتينهن من مال الزنا.^(٣)

يشربون الخمر ويأكلون الربا ويأتون المعازف والمراقص وكل أسباب الهوى، تغلبهم الشهوات بحكم عدم إيمانهم بالبعث والحساب.^(٤) قال - تعالى -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة].

ولعل تصوير جعفر بن أبي طالب للنجاشي حالهم قبل البعثة أبلغ وصف ينقله شاهد عيان معاصر معاش لهم: (أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٧٨، وانظر: تفسير ابن كثير، سورة النور، ج ٢/١٦٧٩.

(٢) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٩٣.

(٣) محمود شكري الألويسي، بلوغ الأرب في أحوال العرب، ج ٢/٥٢، وانظر: ابن كثير، تفسيره، سورة النور، ج ٢/١٣٣٢.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير، سورة الجاثية، الآية: ٢٤، ج ٢/١٦٩٩؛

وانظر: موطن الرسول ﷺ، من هذا الكتاب.

نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف).^(١)

كان الشُّرك يضرب بأطنابه في مكة، فالكعبة مليئة بالأصنام والصور وساحة الحرم كذلك، لا يكاد يوجد بيت من بيوت مكة إلا وله أصنامه الخاصة.^(٢)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٣٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٧٨.

النسب المختار للمصطفى ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب (شيبه) بن هاشم بن عبد مناف بن مضر بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان بن آدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.^(١)

وما بعد عدنان محل نظر عند كثير من العلماء سوى اتصاله بإسماعيل.^(٢)

وقد ورد أنه ﷺ قال: ((إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار)).^(٣)

وقد كانت قريش كلها تقر بعلو نسب رسول الله ﷺ، وهذا ما قاله أبو سفيان لهرقل حين سأله: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، فقال هرقل: فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.^(٤)

ولا شك أن الله ﷻ قد زكى النسب الشريف باصطفاء محمد ﷺ فزادهم النبي شرفاً ورفعهم إلى يوم القيامة، وليس العكس، قال -

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/١٨٣. والبخاري يحذف بعض الآباء ويوصله إلى عدنان بن إبراهيم عليه السلام، ج ٤/٢٣٨.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد، ج ١/٧١.

(٣) صحيح مسلم، شرح النووي، ج ١٥/٢٦.

(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، ج ١/٥.

تعالى -: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٦٤﴾ [الأنعام].

آباء المصطفى المختار ﷺ

عبد الله بن عبد المطلب:

هو أبو الرسول ﷺ، كان عاشر عشرة من أبناء عبد المطلب من أوسطهم، كان كريماً على والده، فزوجه من آمنة بنت وهب من بني زهرة من أفضل قريش نسباً، عمل مساعداً لأبيه في تجارته توفى في المدينة في أحد رحلاته إلى الشام، وآمنة حامل برسول الله ﷺ وقيل إن عمره حين وفاته خمس وعشرون سنة.^(١)

أم الرسول ﷺ:

آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.^(٢) أفضل امرأة في قريش نسباً، من أتمهن عقلاً، كان والدها سيد بني زهرة، تزوجها عبد الله بكرةً بعد أن خطبها والده عبد المطلب من أبيها، وبنى بها وبقي عند أهلها ثلاثة أيام ثم ارتحلت إلى داره، وحملت برسول الله ﷺ في أيامها الأولى من الزواج الذي لم يستمر طويلاً لسفر عبد الله في تجارة والده إلى الشام حيث توفى، وترملت آمنة وهي شابة ففرغت نفسها بعد ذلك للعناية برسول الله ﷺ الذي ولدته يتيماً، وقد سافرت به إلى المدينة في السادسة من عمره لتزور أحوال جده عبد المطلب من بني النجار، ولتزر قبر زوجها عبد الله، وفي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٥٨: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١/٩٥: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/١٨٣: الزبير، نسب قريش، ص ٢١: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٩١.

(٢) للمزيد من التفاصيل راجع أم النبي للدكتورة عائشة عبدالرحمن؛ وانظر: الهاشمي، حسين بن حيدر محبوب، جمهرة أنساب أمهات النبي ﷺ، ط ١- المدينة المنورة وبريدة: دار البخاري ١٤١٨ هـ، ص ٣٠.

طريق العودة ماتت بالأبواء،^(١) وزار ﷺ قبرها.

روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((استأذنت ربي في زيارة قبر أُمِّي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت)).^(٢)

عبدالمطلب بن هاشم:

جد رسول الله ﷺ لأبيه، كان أشرف قريش في زمانه، من أكثرها مالاً، عرف بمكانة خاصة عندهم، فهو الذي أعاد حضر بئر زمزم بناءً على رؤيا رآها، ونازعته قريش عليها،^(٣) لكن أمر السيطرة عليها كان من نصيبه؛ حيث كان هو وأبناؤه يقومون على سقاية الحاج، كان مفاوضاً لأبرهة حينما قدم لهدم الكعبة، عرض على أبرهة المال وما يريد لعله يرجع عن عزمه غزوته تلك، لكن أبرهة رفض ذلك وأعلن أنه جاء لهدم الكعبة، فقال قولته المشهورة "للبيت رب سيمنه"،^(٤) وردَّ الله كيد أبرهة بالطير الأبايل، قال - تعالى -: ﴿الْمَ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل].

(١) الأبواء: قرية من أعمال المدينة في الطريق القديم إلى مكة بها قبر آمنة أم النبي ﷺ، وفيها وادٍ مشهور من أودية الحجاز يسمى الآن الخريبة. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١/٧٩)؛ عاتق غيث البلادي، معجم الأماكن الواردة في السيرة، ص ١٤.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٧/٤٦.

(٣) انظر: الزبير، نسب قريش، ص ١٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٤٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/١٨٥.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٥٠؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٣٤.

وقد سمي عبدالمطلب النبي ﷺ بعد ولادته محمداً ورعاه، حيث ولد يتيماً، فكان جده عبدالمطلب يعطف ويحن عليه أكثر مما يحن على أولاده الآخرين، متذكراً ابنه المتوفى عبدالله رثياً في محمد ﷺ ما لم يكن يراه في الصغار الآخرين، يقربه إليه ويدنيه منه ويعجب منه ومن حسن أدبه وحكمته في التصرف، ويقول: (إن لابني هذا شأنًا).^(١)

كان يتفقدته ويتابعه ولما حضرت عبدالمطلب الوفاة أوصى ابنه أبا طالب به خيراً، وطلب منه أن يضمه إلى أبنائه ويرعاه، وتوفى وعمر الرسول ﷺ قرابة الثماني سنوات، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب، وهو والد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وكان من أكرم قريش وأشرفها.^(٢)

فأحب أبو طالب النبي ﷺ أكثر من أولاده، فكان يتفقدته في نومه، ويصحبه معه في يومه، ويقدمه على أولاده في الطعام والشراب والملبس والجلوس والكلام وغير ذلك، وقد أثر ذلك في نفس النبي ﷺ، فكان وفيًا لعمه بعد ذلك ولأبنائه وخصوصاً علي بن أبي طالب ﷺ.

كما كان للرسول ﷺ من جده عبدالمطلب عدة أعمام،^(٣) أشهرهم العباس، أسلم وهاجر بعد الفتح،^(٤) وأبو لهب كان كافرًا معاندًا للرسول ﷺ، وحمزة سيد الشهداء،^(٥) وهو أخو الرسول ﷺ من الرضاعة، أرضعتها ثويبة، مولاة أبي لهب إضافة إلى أعمام آخرين لم يشهدوا الإسلام.^(٦)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٦٨.

(٢) انظر ترجمته في الزبيرى: نسب قريش، ص ٣٩.

(٣) الزبيرى، نسب قريش، ص ١٧ (م).

(٤) انظر ترجمته عند: ابن حجر في الإصابة، ج ٢/٢٧١؛

وانظر: ترجمة العباس، من هذا الكتاب.

(٥) ابن حجر، الإصابة، ج ١/٣٥٣؛

وانظر ترجمة حمزة، من هذا الكتاب.

(٦) المصدر السابق.

كما كان للرسول عمّات، أشهرهن صفية رضي الله عنها،^(١) أسلمت مبكرة وهاجرت إلى المدينة، وهي أم الزبير بن العوام رضي الله عنه، ومنهن أم حكيم، وأروى وعاتكة وغيرهن، لم يعرف إسلامهن.^(٢)

ومن أجداده المشهورين:

هاشم بن عبد مناف:

واسمه عمرو، ونعت بهاشم لأنه يهشم الثريد للحجاج، ويقدمه مع اللحم لزوار الحرم، قال عنه الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مسننتين عجاف
وسنت إليه الرحلتان كلاهما
سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وهو أول من نظم رحلة الشتاء والصيف لقريش، تزوج من بني النجار في المدينة، فكان له منهم عبدالمطلب جد النبي رضي الله عنه، كما كان له أربعة من الأولاد، وفي عصره قويت مكانة مكة حتى صارت أهم مدن العرب دينياً وتجارياً، وقد مات في غزة من أرض الشام.^(٣)

عبد مناف:

كان أشرف أبناء قصي بن كلاب وأكثرهم مكانة في قريش، وقد تنافس أبناؤه مع عبدالدار وكادت أن تقع بينهم حرب، فتركوا السقاية

(١) ابن حجر، الإصابة، ج٤/٣٤٨؛ وانظر ترجمتها في: المعايشون للرسول، من هذا الكتاب.

(٢) انظر الزبيري، نسب قريش، ص ١٨.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/١٨٥.

والرفادة لبني عبد مناف والحجابه واللواء والندوة لبني عبدالدار، وساد السلم بينهم.^(١)

قصي بن كلاب:^(٢)

عرف عنه الجد والرأي السديد وكانت له سدانة الكعبة بمكة، كان صاحب جاه في قريش^(٣) من أكثرهم مالاً وولداً، وكانت خزاعة تجاور قريشاً في مكة فجمع قصي قريشاً وأحلافهم معهم، وخاض حرباً ضد خزاعة، فأخرجهم من بطن مكة، ثم أطاعه قومه حتى صار كأنه ملكاً لهم، وهو أول من أقام دار الندوة،^(٤) وهو أول من سن الرفادة في قريش، وكان يكرم الحجاج بالطعام والشراب، وآلت إليه الحجابه واللواء،^(٥) ونقل ابن هشام شيئاً كثيراً من الشعر عنه وعن شرفه.^(٦)

أسماء النبي ﷺ:^(٧)

أشهر أسمائه ﷺ (محمد) وقد ورد في القرآن الكريم في أربعة مواضع وسميت باسمه سورة من سور القرآن:

يقول - تعالى -: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ ۗ ﴾

- (١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/١٨٥.
- (٢) ابن سعد، السيرة النبوية، الطبقات، ج ١/٦٦.
- (٣) الأزرقى، أخبار مكة، ج ٢/٢٥.
- (٤) الأزرقى، أخبار مكة، ج ٢/١٠٩.
- (٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٨٨.
- (٦) المصدر السابق، ج ١/٨٩؛ وانظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٥٥.
- (٧) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٠٤؛ وما كتبه الصالحى الشامى، في سبل الهدى والرشاد بعنوان الباب الثالث في ذكر ما وقفت عليه من أسمائه الشريفة وشرحها وما يتعلق بها من الفوائد، ج ١/٥٠٠.

الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ [آل عمران].

وقوله - تعالى -: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

وقوله - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ [محمد].

وقوله - تعالى -: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].

وقد وضع البخاري في صحيحه في كتاب المناقب باباً سماه (باب ما جاء في أسماء رسول الله) أورد فيه حديثاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب))،^(١) وقد ألفت كتب في أسماء رسول الله.^(٢)

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، ج ٤/١٦٢.

(٢) منها: أسماء النبي في القرآن والسنة، عاطف قاسم أمين المليجي. وأسماء الرسول المصطفى ﷺ وألقابه وكناه، لأحمد بن فارس وهو منشور مشهور؛

وللسيوطي الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة، وهو منشور متداول؛

ولابن القيم فصل نفيس في كتابه جلاء الأفهام، عرج فيه على شيء من هذا؛

انظر: <http://www.ahlalhdeth.com> بتاريخ ٢٧/١١/٢٠١٠ م؛

كما توسع في ذلك الصالحي الشامي، في سبل الهدى والرشاد ج ١/٥٠٠؛

انظر لمزيد من التوسع: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، السيرة والمدائح النبوية، ج ٣١/١، من رقم ١٥٢ إلى ١٥٩، ط ١ - عمان: مؤسسة آل البيت ١٤١٧ هـ؛

وانظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، ج ٤/١٦٢.

كما سُمي أحمد في القرآن الكريم في قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

وفي العهد القديم ما يصدق ذلك "سوف يأتي حمده لكل الأمم وسوف أمتلأ هذا البيت بالمجد".^(١)

وقد عرفت له صفات كثيرة^(٢) اشتهرت كأسماء له ، لكنه قد يشترك مع غيره في الوصف أحياناً ، كالمبشر والنذير والهادي والرحمة والأمين والمتوكل والمزمل والمدثر والمصطفى والمختار والصادق والشفيع ﷺ .

ومعنى محمد وأحمد صاحب المحامد والفضائل. ولا يزال يحمد ويشتم عليه في كل زمان ، قال - تعالى - : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء].

وقد عرف باسمه لدى أهل الكتب ، كما شهد بذلك القرآن الكريم ، وكما شهد بذلك بعض علماء النصارى.^(٣)

وقد كان ﷺ يكنى بأبي القاسم وقد نهى ﷺ الناس أن يتكناوا بكنيته في حياته ،^(٤) ويكنى كذلك بأبي إبراهيم ، كناه به جبريل ،^(٥) ولعل ذلك في آخر حياته بعد ولادة ابنه إبراهيم.

(١) انظر: عبدالأحد داود ، محمد ﷺ كما ورد في كتابات اليهود والنصارى ، ص ٣٦ .

(٢) انظر: صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ ، ج ٤/١٦٤ - ١٦٨ .

(٣) انظر: موضوع العالم وانتظار الرسول ، من هذا الكتاب .

(٤) انظر: صحيح البخاري ، فتح الباري ، ج ٢٢/٣٨٢ ، وصحيح مسلم ، كتاب الآداب ، باب

النهى عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء ، ج ٦/١٦٩ .

(٥) مهدي رزق الله ، صفوة السيرة ، ص ٥٩ .

ميلاد المصطفى ﷺ:

تزوج عبدالله بن عبدالمطلب والد الرسول ﷺ من آمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ، وبقي معها فترة من الوقت وظهر حملها برسول الله ﷺ وتقدمت بها أشهر الحمل فإذا بعبدالله والد الرسول الله ﷺ يموت قبل أن تتم الحمل^(١) وأذن الله للجنين أن يولد في ربوع مكة، رأت أمه قبل مولده ﷺ رؤيا كما ورد عن النبي ﷺ: ((أني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجنل في طينته وسأخبركم عن ذلك أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين)).^(٢)

وقيل إن أمه رأت عند مولده رؤيا وكأنه خرج منها نور أضاءت منه بصرى من أرض الشام.^(٣)

وقيل إن قابله التي ولدت أمه هي الشفاء أم عبدالرحمن بن عوف ﷺ.

ومن المرجح أن يوم مولده لم يحدد بدقة^(٤) مع أنه ثبت عنه ﷺ أنه قال: ((يوم الاثنين يوم ولدت فيه)).^(٥)

وبظروف المولد كان يصعب التحديد، حيث كان عند الناس مولوداً

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج ١/٩٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٥٨.

(٢) ابن كثير، تفسير، ج ١/٢١٢؛ وراجع صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، ج ٤/١٦٢؛ وشرح ابن حجر على الباب.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٥٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٥٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٠٦؛ انظر: د. أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/١٠١.

(٤) انظر: تفصيلات الخلاف عند ابن كثير في السيرة النبوية، ج ١/٢٠٠؛

وعند الطرهوني في صحيح السيرة، ج ١/٢٧١.

(٥) انظر: صحيح مسلم، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ...، ج ٣/١٦٨.

عاديًا يتيمًا لكنه عند الله المصطفى من البشر، وآخر أنبيائه وأفضل عبادہ، وما كان أحد من الخلق يعلم ذلك ساعة ولادته أو أثناء حملہ، وإلا لسعى شياطين الإنس والجن إلى أذاه، فأخفى الله سره، ولم يطلع أحد على ذلك حتى رسول الله ﷺ نفسه، قال - تعالى - : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى].

وقد اجتهد العلماء في تحديد يوم ميلاده فقال بعضهم إنه ولد في الثاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل،^(١) ويوافق سنة ٥٧١ للميلاد،^(٢) وهذا الاختلاف في يوم ميلاده لا ينقص من قدره ﷺ، فهو سيد ولد آدم ولا شك، ولم يذكر أنه ﷺ انشغل بتحديد هذا اليوم، رغم كثرة توجيهاته وسننه ﷺ، ولم يرد في حديث منسوب له كما أعلم أي ذكر لتحديد دقيق لميلاده ﷺ. ومن المؤكد أن وفاته ﷺ كانت يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١هـ، ويوافق الثامن من شهر حزيران سنة ٦٣٢م، وأي احتفال بهذا اليوم فيه تذكير بالوفاة وحزن الأمة ومصابها فيه ﷺ.

وأما مكان ميلاده ﷺ فكانت في دار عمه أبي طالب في شعب بني هاشم، وكانت طوال قرنين كاملين ضمن الدور المجاورة للحرم، انتقلت من مالك إلى آخر، حتى حجت الخيزران أم هارون الرشيد زمن خلافته، فجعلت منها مسجداً، وهي قريبة من الحرم معروف موضوعها حالياً، حيث

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٥٨؛ محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج ١/١٧٣؛ أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٩٩؛ أحمد العسيري، موجز التاريخ الإسلامي، ص ٥٣.

(٢) انظر: ترماني: أزمنة التاريخ الإسلامي، ص ١١.

توجد بها مكتبة مكة المكرمة إلى الشرق من الساحة الملاصقة للمسعى وهو أمر متواتر لدى علماء مكة وأهلها.

وبعد ولادته مباشرة أرضعته ثويبة جارية عمه أبي لهب،^(١) وحضنته بركة الحبشية (أم أيمن)، جارية والده عبدالله، وكان بها باراً طوال عمرها، حيث أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وشهدت وفاته كما شهدت ولادته ﷺ.^(٢) فأتاها أبوبكر وعمر ليعزيها في رسول الله ﷺ، فلما أتيا إليها بكت فقالت: ما يبكيك، قالت: لا أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء فجهدت بالبكاء.^(٣)

وقد أورد البعض أمارات خارقة للعادة حين ولادته ﷺ كثير منها محل نظر. ومن محبة الرسول ﷺ الحقيقية التثبث منها، وعدم إيرادها إلا إذا ثبتت صحتها، وهذا لا ينقص من قدر الحبيب ﷺ، ولو علم الناس شيئاً من نبوته واصطفاء الله له منذ الميلاد لناله من شرارهم أذى كبيراً، ولكن إخفاء أمره رحمة به وحفظاً له، مع أن الله اصطفاه منذ آدم ﷺ وجعله سيد ولد آدم.

وينبغي لمحبي الرسول ﷺ أن يعرضوا عن ما ذكره بعض الجهال من هواتف الجان والشياطين والكهان يوم مولده، فحاشا لله أن يربط الحبيب

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٠٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٢٣.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٢٣؛ وانظر ترجمتها عند: ابن حجر، الإصابة، ج ٤/٢٥٧؛ وانظر تفصيلات عن أم أيمن في موضوع المعاشون للنبي ﷺ، من هذا الكتاب.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أم أيمن ﷺ، ج ٤/١٤٤ - ١٤٥.

المصطفى ومولده يمثل هذه الخرافات.^(١)

أول ما فعلته أمه ومن معها من النساء بعد ولادة الحبيب المصطفى ﷺ أن أرسلت إلى جده عبدالمطلب تبشره بذلك المولود اليتيم، لابنه العزيز عبد الله، فأقبل عبدالمطلب مسرعاً مسروراً وضم الحبيب إلى صدره، متذكراً يتمه وفقد والده عبد الله، فحمله إلى الكعبة وشكر الله ودعاه^(٢) وسماه محمداً، وهو اسم نادر بل شبه معدوم في حينه عند العرب، لكنه اسم اختاره الله لحبيبه وهدى إليه جده عبدالمطلب، وقيل إن أمه سمته أحمد ولا تعارض بين الاسمين. فرح أعمام النبي ﷺ ومنهم أبو لهب الذي أعتق ثوية حينما بشرته بمولد النبي ﷺ،^(٣) كما فرح عمه أبو طالب وفرح العباس بن عبدالمطلب.^(٤)

يتيماً آواه الله:

قبل الحديث عن يتم الرسول ﷺ يتبادر إلى الذهن عناية الله ورعايته له في يتمه، قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى] وبالتالي فقد سخر الله له من البشر من أعانه في يتمه، فكانت أمه آمنة بنت وهب تعطف وتحن عليه، حيث ولدته بعد وفاة والده عبد الله، وكان جده عبدالمطلب محل والده يكفله ويتفقده ويشفق عليه ما بقي من حياته، حتى وصل عمر الرسول ﷺ ثماني سنوات تخلل ذلك رضاعته في بني سعد.

كان عبدالمطلب يُقرب محمداً ﷺ ويدنيه منه ويجلسه إلى جانبه، رغم

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢١٩؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ص ١٧٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٠٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٠١ و ٢٠٩.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٢٤.

(٤) المصدر السابق، ج ١/٢٠٩؛ وابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج ١/١٠٨.

صغر سنه يخصه بذاك المجلس كما يخصه بالطعام في حضرته.^(١)
 إن في يتم الرسول ﷺ من البداية تربية من الله له وتأديباً، ودافعاً له للجد والعمل ورحمة من الله له أعلى وأشمل من رحمة الوالدين بولدهما.
 وقد انضاف إلى يتمه من أبيه يتمه من أمه، حيث توفيت والدته آمنة بنت وهب عندما بلغ النبي ﷺ ست سنين، وكانت في رحلة إلى المدينة عرفها الرسول ﷺ ووعاها، وكان يحدث عن تلك الرحلة. وعند العودة توفيت في الأبواء ودفنت هناك. وقد زار النبي ﷺ قبرها بإذن ربه ونهى عن الاستغفار لها.^(٢)

وحملته مولاته وحاضنته أم أيمن، وواصلت الطريق إلى مكة، حيث أوصلته إلى جده عبدالمطلب، فزاد عطفه عليه ورعايته له، واستمرت حاضنته أم أيمن تتابع وضعه وتقوم على حاله بمتابعة من جده عبدالمطلب، كانت محبة للرسول ﷺ وحنونة عليه عرف لها ﷺ ذلك، وكان يصلها في المدينة بعد الهجرة،^(٣) ويقول عنها (هي أمي بعد أمي). كان عبدالمطلب يجلسه معه على فراشه حول الكعبة ويميزه عن الصغار، وقد حاول بعض أعمامه أن يجلسوه مع الصغار بعيداً عن مجلس عبدالمطلب الخاص، فيقول لهم عبدالمطلب: (دعوا ابني فوالله إن له لشأناً)^(٤) ثم يجلسه بجواره، ولما حضرت عبدالمطلب الوفاة أوصى ابنه أبا طالب والد أمير المؤمنين على ﷺ بكفالة النبي ﷺ، وأن يضمه إلى أبنائه ففعل فكان نعم العم ونعم الراعي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٦٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٣٥؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١١٨.

(٢) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٧/٤٦؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢/٢٠٣.

(٣) ابن حجر، الإصابة، ج ٤/٤٣٢.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٦٨.

الحاني للنبي ﷺ^(١)

كان أبو طالب من أشرف قريش وإن لم يكن كثير المال لكنه كريم النفس عطوفاً، أحب محمداً ﷺ، ولعل حكمة الرسول ﷺ وحسن خلقه وأدبه في صغره أعطت أبا طالب مزيداً من التقدير لرسول الله ﷺ في صغره، فكان يتفقده في نومه وفي طعامه ويخرج به معه في مجالسه، وقد أحس أبو طالب ببركة النبي ﷺ في بيته، وكان ذا عيال يرى تميزه من بينهم في الشرب والأكل والجلوس والمنطق وحسن الأدب والنظافة، مما فطر عليه النبي ﷺ فيزداد أبا طالب حباً للنبي ﷺ.

رضاعة المصطفى المختار:

كان للرسول ﷺ مرضعات منذ ولادته، أولاهن أمه آمنة بنت وهب أرضعته عدة أيام^(٢) ثم أرضعته ثوية جارية أبي لهب^(٣) وكان له منها أخوة من الرضاعة هم عمه حمزة بن عبدالمطلب ﷺ، وابن عمته أبو سلمة المخزومي^(٤).

وقد اعتاد العرب على أن يسترضعوا لأبنائهم من البادية حيث الهواء الطلق، والبيئة النظيفة واللغة السليمة، إضافة إلى الحاجة، وخصوصاً عند الأمهات اللاتي لم يكننَّ قادرات على إرضاع أولادهن كحال آمنة أم النبي ﷺ على ما يبدو، التي قيل إنها لم تستطع إرضاعه ﷺ أكثر من تسعة أيام^(٥).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٧٩: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٤٢.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٢٣.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٢٣: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٠٨.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر: محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ص ١٩١.

وكان أشرف العرب القادرون يختارون لاسترضاع أبنائهم في القبائل فترة الرضاعة، يليها سنوات أخرى من الحضانة والتربية، وخصوصاً مراحل تلقي اللغة حتى السادسة من العمر أو فوق ذلك بقليل.

وكانت قبيلة بني سعد من هوازن تقيم بالقرب من الطائف، وتأتي نساؤها إلى مكة طلباً للولد من قريش، ليقيم بإرضاعهم مقابل المال، وقد جاءت حليلة بنت أبي ذؤيب إلى مكة بحثاً عمّن ترضعه لعلية القوم من قريش، فعرضَ عليها رسول الله ﷺ وعلى غيرها من نساء بني سعد، فكن يرفضه إذا علمن أنه يتيم الأب خشية ألا يحصلن على كثير من المال مقابل إرضاعه، إذ لا أب له، فلما لم تجد حليلة السعدية غيره عادت وأخذته، وهي كارهة أن ترجع دون من ترضعه، لتحصل ولو على القليل من المال مقابل ذلك.

فلما أخذته وقع حبه في قلبها، وأرضعته، فوجدت منه بركة عظيمة مذ أخذته من أمه، حتى قال زوجها لقد صحبت نسمة مباركة.^(١)

وأحست بالبركة في غنمها وفي طعامها وفي سائر أحوالها، وهي تزيد حباً له ورحمة به، حتى أتم سنتين ففطمته من اللبن وقد شب ﷺ وهي متعلقة به.^(٢) فرجعت به إلى أمه في مكة وهي كارهة لذلك، وتود لو يبقى عندها ﷺ فترة أطول. ولما رآته أمه احتضنته وفرحت به وبقي عندها أياماً، ورأت من محبة حليلة وشفقتها عليه ما جعلها تحس بالأمان والاطمئنان عليه عندها.

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٢٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٦٢؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١١١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٦٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٢٧.

وأمام إلحاح حليلة السعدية في أن ترجعه معها ليستكمل وقتاً آخر في بني سعد، وافقت آمنة أم النبي ﷺ على ذلك، فرجع إلى ديار بني سعد، وأقام بينهم بعد ذلك قرابة سنتين، وفي مبدأ الخامسة من عمره عادت به حليلة إلى والدته في مكة لتكمل رعايته وعنايتها به.^(١)

وقد كان له إخوة من الرضاعة من حليلة السعدية ذكر منهم الشيماء.^(٢) وقد أكسبته هذه المدّة لغة سليمة حتى ورد أنه قال: ((أنا أعربكم أنا قرشي واسترّضعت في بني سعد بن بكر)).^(٣)

وقد شارك إخوانه من الرضاعة شظف عيش البادية، كما أنه شارك في رعي الغنم في مرحلة مبكرة من عمره، وإن لم ترد النصوص بذلك، خصوصاً أنه قد قارب الخامسة من العمر في مضارب البادية فإن أمثاله يقومون بشيء من ذلك، وإن كان بحدود وبالقرب من المنزل، وقد دلت الروايات على اختلاطه بالصغار من أمثاله في مضارب البادية، ولا شك أنه حصلت له مواقف استفاد منها ﷺ وساعدت في نشأته، وقد عرف عنه الأدب منذ صغره في هذه المرحلة ﷺ واعتماده على النفس، ولا شك أن في هذه استمراراً لتأديب الله له حيث قال ﷺ: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)).^(٤) وقد قال وفد هوازن للنبي ﷺ بعد غزوة حنين وقد أسرت نساؤهم (إنما في الحظائر - أي الأسر - عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك)،^(٥)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٦٤: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١١٣.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٣٠١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٦٧: وانظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ١٠٣؛

ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١١٢.

(٤) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١١٠.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢/٣٠١.

مشيرين بذلك إلى مجموعة من نساء ذوات علاقة به من الرضاعة، حينما كان في بني سعد، وكان فيهن الشيماء بنت حليمة السعدية أخته من الرضاعة.^(١)

حادثة شق الصدر:

أثناء وجود الرسول ﷺ في ديار بني سعد قبل إعادته إلى أمه، ولعله في سن الرابعة ﷺ، كان يلعب مع الصبيان، فحدثت له حادثة شق الصدر التي وردت بطرق مختلفة وبألفاظ بعضها أشمل وأوسع من بعض، ولعل أصحابها ما ورد في صحيح مسلم عن أنس بن مالك ﷺ: ((أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فأستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، وأعادته في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني مرضعته) فقالوا إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره)).^(٢)

وقد وردت روايات أخرى عن شق صدر الرسول ﷺ عند الإسراء به،^(٣) وهذه لا تعارض تلك فقد تكون حالة أخرى، وما دامت الرواية نقلت عن الرسول ﷺ بسند صحيح فنؤمن بوقوعها، وهي من كراماته ومعجزاته الخاصة ﷺ، وإذا كانت قدرة البشر الجراحية في الوقت الحاضر يمكنها

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٦١: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٢٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، ج ١/١٠١ - ١٠٢؛ وانظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١١٢.

(٣) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار ...، باب المعراج، ج ٤/٢٤٨؛ وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/١٠٨.

شق الصدر فالله ﷻ أعلم وأقدر وأقوى وألطف، وقد آمن السلف بالرواية في وقت لم يكونوا يتخيلون أن يعيش الإنسان بعد شق صدره.

وقد ذكر بعض العلماء أن هذه الحادثة هي المشار إليها في قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح].^(١)

وما أحسن قول ابن حجر في هذه الحادثة: (إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم به دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحيه القدر فلا يستحيل شيء من ذلك).^(٢)

كانت هذه الحادثة من خصائص النبي ﷺ في صباه وقبل مبعثه وإعداداً له للرسالة، وقد ثبتت صحة وقوعها وعلم الرسول ﷺ بها ووعياها كما أنه لم ينقل الحديث عنها بمكة، بل نقل حديثه عنها من أنس بن مالك ﷺ، وهو خادمه في المدينة المنورة.

وفي هذه الحادثة تطهير إلهي لقلب الرسول ﷺ من حظ الشيطان منذ صغره ﷺ وحماية وإعداد مبكر لحمل الأمانة والرسالة.^(٣)

الزيارة الأولى للمدينة:

المدينة المنورة بالرسول في حياته وبقبره ﷺ بعد وفاته، مهاجرة وعاصمة دولته، ومجتمع أصحابه من المهاجرين والأنصار، له معها قصة في صباه ﷺ. ذاك أنه حين بلغ السادسة من العمر رغبت أمه أن تزور أخوال والده من

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج ٢/٢٠٧.

(٢) فتح الباري، ج ١٥/٥٢.

(٣) انظر: تخريج ما ورد حولها من روايات عند ابن كثير في السيرة النبوية، ج ١/٢٢٨.

بني النجار في المدينة ذوي القربى من زوجها وبالتالي ابنها الصغير محمد ﷺ ، ولعلها في الوقت نفسه رغبت في زيارة قبر زوجها عبدالله بن عبدالمطلب والد الرسول ﷺ ، وكان قد مات في المدينة قبل ولادة الرسول ﷺ أثناء رحلة له إلى الشام وكانت آمنة تحس بشيء من العلاقة بين محمد ﷺ وبين أخوال أبيه من بني النجار.

وفي يثرب قضى ﷺ وهو صبي وقتاً بين أخوال أبيه الكرماء من بني النجار، كان فيها يخالط الصغار ممن قاربه في السن يمرح ويلعب معهم،^(١) وكان ﷺ يذكر ذلك بعد هجرته إلى المدينة فقد ورد أن النبي ﷺ نظر إلى دار بني النجار بعد الهجرة قائلاً: ((هنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار)).^(٢)

وكون الرسول ﷺ تعلم العوم عندهم فقد تطلب الأمر أياماً عديدة وفترة كافية لذلك، بقيها في المدينة مع أمه.

وفي طريق العودة من المدينة توفيت والدة المصطفى ﷺ (بالأبواء) في الطريق بين مكة والمدينة - كما ذكرنا سابقاً -.

توفيت الأم الحانية (آمنة بنت وهب) أم النبي ﷺ ودفنت هناك وعرف الرسول ﷺ قبرها،^(٣) وقد مر بقبرها بعد الهجرة فبكى، ففي حديث رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: ((زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج/١٦٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج/٢٣٥.

(٢) شرح المواهب اللدنية، ج/١٦٧؛ وانظر محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ص ٢٠٦؛ وانظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج/١١٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج/١٦٨؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج/١١٦؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج/٢٣٦؛ وانظر ترجمتها في: آباء المصطفى، من هذا الكتاب.

حوله ثم قال: استأذنت ربي في زيارة قبر أُمِّي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت)).^(١)

كان عليه السلام رقيقاً باكياً على أمه، وقد وردت روايات فيها: انتهى النبي عليه السلام إلى رسم قبر فجلس وجلس الناس حوله فجعل يحرك رأسه كالمخاطب، ثم بكى فاستقبله عمر رضي الله عنه فقال ما يبكيك يا رسول الله فقال: ((هذا قبر أمنة بنت وهب استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي، واستأذنته الاستغفار لها فأبى عليّ، وأدركتني رقتها فبكيت، قال: فما رأيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة)).^(٢)

شبابه عليه السلام:

نشأ رسول الله عليه السلام في رعاية جده عبدالمطلب فمات وله من العمر ثمان سنوات، فرعاه وكفله عمه أبو طالب، وعنده عاش عليه السلام بقية صباه ثم شبابه، كان أبو طالب متعلقاً به محباً له. وقد دلت الروايات المختلفة على اصطحاب أبي طالب له في إحدى رحلاته إلى الشام.^(٣) وقد أورد بعض الرواة قصة بحيرا الراهب في رحلة لأبي طالب إلى الشام، وهي رواية أسقطها كثير من العلماء مع أنها وردت بأسانيد مقبولة عند الترمذي وغيره وقد شكك فيها الذهبي^(٤) وابن القيم في زاد المعاد^(٥) وغيرهم من علماء السيرة

(١) رواه مسلم في صحيحه، شرح النووي، ج٤٦/٧.

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١١٦/١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١٨٠/١؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١٢١/١؛ الندوي، السيرة النبوية، ص ١٠٥؛ انظر: المغازي، ابن أبي شيبة، ص ٩١. وانظر تعليق المحقق.

(٤) السيرة النبوية، ص ٥٥.

(٥) ابن القيم، زاد المعاد، ج٧٦/١.

المعاصرين،^(١) وقد استغلها كثير من المستشرقين في محاولة نسبة دعوة الرسول إلى الإسلام لما تلقاه من الراهب، ومحاولة نسبة القرآن لما تعلمه من بحيرا، متجاهلين أبسط القواعد العلمية في العقل والقياس، وصغرسن النبي لو صحت الرحلة والرواية، فأين هم من تواتر نزول القرآن حسب الأحداث التي ذكرتها الآيات طيلة حياته ﷺ إلى آخر أيام الرسول ﷺ؟ لكن العمى عن الحق والكره للنبي ﷺ جعل هؤلاء يتمسكون بمثل هذه الرواية متجاهلين أبسط القواعد العلمية تبعاً لهواهم.^(٢)

كان ﷺ يستشعر المسؤولية الملقاة على عمه أبي طالب ويحاول بجدية تقديم ما يمكنه لمساعدته في إعالة أولاده ولذلك اشتغل ﷺ في رعي الغنم في سن مبكرة، وكان يساعد عمه بما يحصل عليه من مال جراء الرعي قال ﷺ: ((ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله قال: نعم كنت أرهاها على قراريط^(٣) لأهل مكة)).^(٤)

ولا شك أن في رعيه للغنم حكمة ربانية شاركه فيها الأنبياء قبله، فهم رعاة للبشر، ومروا بمراحل تأديبية رباهم الله فيها، ومنها رعي الغنم، وهي تعلم الشفقة والعطف على الضعيف، والتفقد والمتابعة والاهتمام والصبر،

(١) د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج ١/١١١؛ والندوي، السيرة النبوية، ص ١٠٥.

(٢) انظر: فنسنتك وآخرين، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣/٣٩٨؛

، "Achri stristian Bahira legencl. " Zcits Chrif Fur Assyriologie R. Goltheril

٢٠٣-٢٢٨ pp. (١٨٩٨) ١٤: ١٨٩-٢٤٢: pp. (١٨٩٨) ١٣، ١٠٢، ٥٦-١٠٢، ١٣ pp. ١٥١٩٠٠، ١٦

١٦٦-١٢٥ pp. (١٩٠٣)؛ نقلاً عن محمد فارس الجميل، رحلة النبي ﷺ إلى الشام، قراءة

نقدية، ص ٧، بحث غير منشور في حينه.

(٣) جمع قيراط وهو جزء من الدينار (ابن حجر، فتح الباري، ج ١٠/٥)؛ وانظر: ابن سعد،

السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٢٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، ج ٣/٤٨.

وفي ذكره ﷺ لهذا الأمر تواضع لله ومقارنة لحاله مع الأنبياء قبله، الذين مارسوا هذه المهنة قبله.

كما أن هذا العمل من أبواب الكسب الذي يورث عزة النفس، والغنى عن الآخرين، ومساعدة من هو بحاجة النبي ﷺ مع عمه فيما يحصل عليه من مال الرعي، وقد كان الرسول ﷺ جاداً يعلم الصحابة العمل والكسب والإنتاج والاستغناء عن الآخرين، وحياة الكدح.^(١)

كان ﷺ منذ وعى كارهاً للأصنام، مبعضاً لها، لم يشهد شيئاً من مشاهدها التي كانت قريش حريصة عليها، ويشهدها أعمامه لكنه لا يشهد معهم، كما لم يُعرف أنه مسَّ بيده صنماً قط أو أقسم بها، وقد حلف زيد بن ثابت أنه ما مسَّ بيده صنماً قط،^(٢) وقد فكر مرة في أن يشهد سمرراً لشباب قريش فمنعه الله من ذلك وعصمه، حيث أخذته سنة من نوم منعه من الحضور.^(٣)

وعصمه الله من المعاصي قبيل بعثته ﷺ في صباه وشبابه ورجولته ومن كل قبيح.^(٤)

ورد أنه كان ينقل حجارة مع صبيان قريش فرفع إزاره ليضع فيه الحجر فسمع من يأمره بشد إزاره.^(٥) وهذا يعني ستر عورته ﷺ، مع أن هذا ما كان مستتراً عند العرب. حيث ثبت بروايات مختلفة أن العُراة كانوا يطوفون

(١) انظر ما كتبه الشيخ محمد الغزالي في فقه السيرة حول (حياة الكدح)، ص ٥٩.

(٢) الذهبي، السيرة النبوية، ص ٤٢.

(٣) ابن إسحاق، السير والمغازي، ص ٧٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢/٣١٢.

(٤) انظر: جمال ما كتبه الندوي في السيرة النبوية بعنوان: "التربية الإلهية"، ص ١٠٩.

(٥) ابن إسحاق، السير والمغازي، ص ٧٨.

بالبيت، ولذلك نهى قبل حجة الوداع عن ذلك.^(١)

كان ﷺ يحب الشعر ويتذوقه في شبابه، ولم يُعرف أنه قال شعراً على الإطلاق، وهذا يؤكد قول الله - تعالى -: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٦٩) ليس، وهذا يشمل مرحلة ما قبل البعثة، وما بعدها.

كما أنه ﷺ كان يكره الخمر، ورغم انتشارها في مكة فلم يعرف أنه شربها قط.

كما أنه لم يفتن بالنساء كما يفتن الشباب عادة، مع ما كان فيه من نشاط وقوة، حفظ الله غريزته من الهوى.

الصدق والأمانة كانت من صفات الرسول ﷺ في صباه وشبابه،^(٢) وكان عطوفاً رحيماً رغم صغر سنه ﷺ وحقاً كما قال ﷺ: ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)).^(٣)

وكما قال الله - تعالى - عنه: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٣٤) [الأنعام].

حقاً لقد اصطفاه الله وحفظه ورعاه قبل البعثة وبعدها،^(٤) إنها حماية إلهية لم تكن إلا لمحمد ﷺ، وتربية ربانية وتأديب من الباري - جل وعلا - قال - تعالى -: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام].

(١) انظر: صحيح البخاري، باب لا يطوف بالبيت عريان، ج ٢/ ١٧٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ١٨٨.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ١٨٣.

رجولته ﷺ:

لما بلغ الرسول ﷺ مبلغ الرجال كان محل ثقة الناس واحترامهم، فلم يعرف من هو أصدق منه بمكة ولا أكثر أمانة منه حتى أنه عُرِفَ بالصادق الأمين.^(١)

عرف ﷺ بصلته للرحم، وعطفه على الفقراء وأهل الحاجة ويمكن أن نلخص أهم صفاته فيما قالته عنه خديجة ﷺ وقد خبرته عن قرب: ((كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق)).^(٢)

كان يحمل صفات الإنسانية والرحمة والفضائل، أظهر الناس وأبرُّ الناس، وأعدل الناس وأسماهم خلقاً ﷺ.

منذ شبابه ورجولته قبل مبعثه وبعده كان همه العدل والإنصاف، وألاًّ يظلم أحداً من الناس، ولذلك شارك وعمره عشرون سنة^(٣) في معاهدة مع بعض رجال قريش عرفت (بحلف الفضول)،^(٤) حيث تعاقدوا في دار عبد الله ابن جدعان، وكان من أشرف مكة، أن يكونوا يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي حقه، وذلك بعد تعرض أحد تجار اليمن من زبيد لظلم من العاص بن وائل السهمي، حيث اشترى منه بضاعة ولم يعطه حقه وكان نتيجة هذا الحلف رد حق الزبيدي إليه ومنع الظلم بمكة،^(٥) ولولا

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٨٣.

(٢) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ج ١/٣.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ص ١٢٨.

(٤) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ص ١٢٨.

(٥) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٥٧: الندوي، السيرة النبوية، ص ١١٢.

مكانة رسول الله ومنزلته لما دُعي لمثل هذا الاجتماع لعلية القوم، وقد أثنى الرسول ﷺ على هذا الحلف والمعاهدة بقوله ﷺ: ((شهدت في دار عبد الله ابن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمُر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت))^(١) محمد ﷺ أولى الناس بخصومه الظلمة ومنعهم من الظلم،^(٢) سواء كان المظلوم مسلماً أم كافراً.

كان ﷺ له أصدقاء مميزون عرفوا بصدقهم وعلو أخلاقهم في هذه المرحلة، على رأسهم أبو بكر الصديق ﷺ،^(٣) الذي كان قريباً من سن رسول الله ﷺ مألوفاً في قريش إضافة إلى أصدقاء آخرين آمناء ورد ثناء الرسول ﷺ عليهم.

كان ﷺ يحج قبل بعثته على سنة إبراهيم، حيث ألهمه الله ﷻ أن يفيض من عرفات في وقت كان فيه أهل الحرم من قريش وغيرها ممن يعرفون بالحُمس من ساكني الحرم، يفيضون من مزدلفة لكن رسول الله ﷺ كان يخالفهم ويفيض من عرفات.^(٤)

كما ورد أنه شهد حرب الفجار بين قريش وعمره أقل من العشرين سنة،^(٥) وأنه كان يناول النبل لأعمامه، ولم يذكر أنه قاتل بيده مباشرة،

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٢٨؛ مسند الإمام أحمد، ج ١/١٩٠؛ وانظر:

السيرة النبوية لابن كثير، ج ١/٢٥٨؛ وأكرم العمرى، صحيح السيرة، ص ٤١؛ وانظر:

محمد بن رزق طرهوني، صحيح السيرة، ص ١٦٥، ٣٢٩.

(٢) انظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ٦٤.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٥٠.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٩٩.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٨٤؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٢٦.

مع أن سنه حينذاك كانت تؤهله لذلك، ويرى بعض الباحثين أنها حرب في الدفاع عن المحارم وهذا من القيم التي أهتم بها الأنبياء.^(١)

كانت أمانة محمد ﷺ لافتة للنظر وفي قريش من يرغب في تشغيل أمواله ومن يعمل له في التجارة بجعلٍ معين، وكانت خديجة بنت خويلد ﷺ من أثرياء قريش، لا تأمن أي أحد أن يتاجر بمالها، حيث يرغب كثير من الرجال في ذلك، ومع هذا تسأل وتتحسس وتبحث عن أكثر الرجال أمانة ليعمل في مالها، مع وجود خبرة في هذا المجال، فسمعت بمحمد ﷺ وصدقه وأمانته، فحرصت على أن تستأجره ليعمل في مالها بشيء تجعله له من الربح فوافق ﷺ على العمل في مالها بعد أن استشار عمه أبا طالب، فكانت تبعث معه غلاماً لها يسمى ميسرة يراقبه ويستوثق من عمله، إذ لم تجربه من قبل، فسافر الرسول ﷺ في تجارتها إلى عدد من الأسواق المجاورة لمكة في بلاد العرب، منها سوق حُباشة^(٢) وسوق عكاظ،^(٣) حيث اشترى الرسول ﷺ زيد ابن حارثة لأم المؤمنين خديجة ﷺ ولعل ذلك بعد زواجه ﷺ من خديجة.

سمعت خديجة ﷺ من مولاها ميسرة ما يؤكد لها صدق الرسول ﷺ وأمانته وجربته وخبرته، فقد كان متسامحاً حسن المعاملة، محافظاً على حقوق الآخرين، وكانت عهدت الرجال وخبرتهم وميزتهم. والتعامل بالمال يكشف الرجال، فأعجبت خديجة ﷺ بأخلاق النبي ﷺ وأمانته وتقديمه

(١) انظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ج ١/٤٣.

(٢) حُباشة: مكان في تهامة يبعد عن مكة ست ليال إلى الجنوب على طريق اليمن، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢/٢١٠؛ وسعيد الأفغاني، أسواق العرب، ص ٢٥٩؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢/٢١٠. (وقد وقفت على آثار بقرب أحد ريفية في عسير سنة ١٤٢٩هـ ذكر لنا مرافقونا من أهل المنطقة أنها موقع سوق حُباشة).

(٣) الحلبي، السيرة الحلبية، ج ١/٢٣٨؛ وانظر: السهيلي، الروض الأنف، ج ١/٢٨٦.

الأدب والأخلاق على المال، وتؤكد الأخبار نمو مال خديجة ببركة النبي ﷺ وعمله لها بأمانة.

لا شك أن أسفار النبي ﷺ في تجارة خديجة ودخوله أسواق العرب واحتكاكه بالناس وزعماء العرب وأشرف القبائل قد أفاده كثيراً، ونمى خبرته ومعرفته بالناس والقبائل والبلدان وأخبارها، ولذلك كان يذكر بعض ما سمعه في أسواق العرب بين الحين والآخر مثل ذكره وسؤاله عن قُسِّ بن ساعدة وما سمعه منه.^(١)

(١) القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٩٥.

زواجه من خديجة (١)

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، (٢) سيدة شريفة عاقلة حكيمة، والدها خويلد بن أسد من أشرف مكة، قتل في حرب الفجار، تزوجت قبل رسول الله (ﷺ) ثم استقلت، صاحبة مال وفير، عُدت من أثرياء مكة كانت تستأجر التجار للمضاربة في مالها، وكان ممن استأجرتهم رسول الله (ﷺ)، فاخبرته فكان أميناً وبعثت معه في السفر من يرقب حاله فجاءتها الأخبار بأمانته وصدقه وحكمته وكفى بالسفر والمال اختباراً للرجال.

كما أنها ناقشت النبي (ﷺ) وسمعت منه وتعاملت معه، فرأته رفيع الأخلاق حميد السجايا فأحبهت به وبسجاياه، وكانت تسمى عند قومها (الطاهرة العفيفة). (٣)

كانت في الأربعين من عمرها، وقد حرص أشرف الرجال من قريش على خطبتها والزواج بها لكنها ترد الخطاب بأدب، (٤) وكانت تعلم دوافع بعضهم المادية وغيرها فهي صاحبة مال كل يطمع فيها.

ومن خلال عمل الرسول (ﷺ) لها عرفت زهده في المال مع عفته ونزاهته

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٨٧؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٣١.

(٢) وضع البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب تزوج النبي (ﷺ) خديجة وفضلها، ج ٤/٢٣٠؛

وانظر: معمر بن المثنى، أبي عبيدة، أزواج النبي (ﷺ)، تحقيق يوسف علي بدوي - بيروت: دار مكتبة التريبة ١٤١٠هـ، ص ٥٥.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٣٠؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص ١٠٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٦٣.

(٤) انظر: محمد الطرهوني، صحيح السيرة، ص ١٦٧.

وطهارته وسمو أخلاقه فرغبت في الزواج منه.^(١)

ولا شك أن الله ﷻ قد هياً لنبيه الخير، واصطفى له المرأة الصالحة التي رغبت في الزواج منه بمبادرة منها، وبحكمة إلهية.

ومن حيائها لم تستطع أن تفتح النبي ﷺ بهذا الأمر، لكنها بكل أدب بعثت إليه من صويحباتها من تفتحته في ذلك وتلمح له في الأمر، ففاتحته وبينت له رغبة خديجة في الزواج منه، مع شرفها ومكانتها في النسب، وأن رغبتها منه لحسن خلقه وصدق حديثه، وقيل إن نفيسة بنت منية جاءت إلى النبي ﷺ وهي الخاطبة فقالت: ما يمنعك أن تتزوج، فقال ما بيدي ما أتزوج به. قالت: فإن كُفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة إلا تجيب؟ فسأل ﷺ ومن هي؟ قالت: خديجة، قال ﷺ: من لي بذلك فقالت نفيسة عليّ،^(٢) فرغب الرسول ﷺ في الزواج العفيف الصحيح ممن رغبت فيه وممن هياها الله له واختارها.^(٣)

فسارع إلى أعمامه فذهب معه عمّاه حمزة وأبو طالب وبعض أشرف قريش إلى عم خديجة عمرو بن أسد وخطبوا للنبي ﷺ، وخطب عمه أبو طالب في المناسبة فأثنى على الرسول ﷺ وأبدى الرغبة، فأجابها عمها عمرو ابن أسد هو الفحل لا يُقدح أنفه، وتمت الموافقة وقُدّم المهر بعد ذلك من أطيب عريس لأطيب عروس في تاريخ الإنسانية عشرين ناقة من الإبل،^(٤)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٨٩: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٣١: انظر: الطرهوني، صحيح السيرة، ج ١/١٦٧.

(٢) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٣٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر إلى موضوع: "خطبة مباركة" عند: الهاشمي عبدالمنعم، في كتابه "أزواج النبي ﷺ"، ص ٣٥.

(٤) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٦٣.

كانت النساء الجميلات كثيرات وشابات قريش متعدّدات أمام الرسول ﷺ لكن الله اختار له أفضل النساء، وتمّ زواج محمد بن عبد الله ﷺ بخديجة بنت خويلد ﷺ لتصبح أم المؤمنين حبيبة رسول الله أم أولاده وبناته - رضوان الله عليهم - زوجة في الدنيا وفي الجنة.

ابتدأت حياة النبي ﷺ الزوجية مع امرأة عفيفة عاقلة ناضجة حكيمة تقدر الحبيب محمد ﷺ وتقوم بواجبه، تتبادل معه المودة والوفاء، كان يذكر فضلها دائماً بعد وفاتها بزمن مما يثير غيرة أم المؤمنين عائشة ﷺ فعن عائشة ﷺ قالت: "ما غرّت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة وما رأيتها ولكن كان النبي ﷺ يذكرها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة فيقول إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد".^(١)

كان عمر المصطفى ﷺ خمسة وعشرين عاماً،^(٢) قضى معها ﷺ ما يقارب الأربعة وعشرين سنة، وقد روي عن علي ﷺ أن رسول الله قال: ((خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة))،^(٣) وأنجبت له جميع أولاده عدا إبراهيم، حيث رزق منها بالقاسم وكان يُكنّى به ثم زينب ثم رقية فأم كلثوم ففاطمة فعبدة الله، ثم لم يبق إلى بعثته سوى رقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة،^(٤) وهي التي عاشت بعده بضعة أشهر، وقد أسلمت جميع البنات

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب تزويج الرسول ﷺ بخديجة، ج ٤/٢٣١.

(٢) المقرئزي، إمتاع الأسماع، ص ١٠.

(٣) رواه البخاري، باب تزوج النبي ﷺ بخديجة وفضلها، ج ٤/٢٣.

(٤) ابن زبالة، محمد بن الحسن، منتخب من أزواج النبي ﷺ - رواية الزبير بن بكار، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط ١ - المدينة المنورة: المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية ١٤٠١ هـ. ص ٢٣؛

وانظر: ترجمات بنات النبي ﷺ، في موضوع المعاشون للنبي ﷺ، من هذا الكتاب.

ﷺ وهاجرن مع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأسلم أزواجهن المتأخرون فكانت رقية بعد فراقها لابن أبي لهب مع عثمان بن عفان ﷺ،^(١) وكانت زينب مع أبي العاص بن الربيع الذي أسلم متأخراً،^(٢) وكانت أم كلثوم مع عثمان بن عفان ﷺ زوجها إياه النبي ﷺ بعد وفاة رقية،^(٣) وكانت قبله مع أحد أبناء أبي لهب فارقت له لكفره وعناده.^(٤)

وكثرة حديث الأمة عن فاطمة ﷺ وهي أشهر بنات النبي ﷺ من خديجة ﷺ،^(٥) ليس تفضيلاً عن باقي بنات النبي ﷺ لكن لبقائها من بعده، وكونها أم الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ وسيدي شباب أهل الجنة،^(٦) وإلا فكل بنات النبي ﷺ خيار من خيار من آل بيته الأطهار من أهل الجنة ﷺ.

كان ﷺ يحب خديجة ﷺ ويقدمها على سائر نسائه، حتى أن عائشة ﷺ كانت تغار من ذكرها فقالت للنبي ﷺ: هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها فأجابها ﷺ: ((لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء)).^(٧)

وقد ماتت ﷺ ولها من العمر خمس وستون سنة، وحقق هذا الزواج لرسول

(١) انظر: ترجمة عثمان بن عفان ﷺ في موضوع المعاشون للرسول ﷺ، من هذا الكتاب.

(٢) انظر ترجمتها في موضوع: المعاشون للنبي ﷺ، من هذا الكتاب.

(٣) انظر ترجمتها في موضوع: المعاشون للنبي ﷺ، من هذا الكتاب.

(٤) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٦٤.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، باب تزويج الرسول ﷺ، ص ٢٣٠.

(٦) انظر تفصيل الحديث عنها في موضوع: المعاشون للنبي ﷺ، من هذا الكتاب.

(٧) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٦/١١٧؛ وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢/١١٧.

الله ﷺ الراحة النفسية والحضن العاقل المميز للرسول ﷺ ومكانته، اختارها الله - تعالى - واختار رسوله ﷺ لها من بين سائر الرجال قبل مبعثه، وقفت بأمر الله ورحمته مع الرسول ﷺ ساعة نزول الوحي، استعملت عقلها وأحبتة لما تعرف من خلق وصفات فيه، ورحمة الله بالصالحين وحسن ظنها بالله، وأنه لا يخزي الأخيار، راجعت أهل العلم في زمانها [ورقة بن نوفل] حيث أخذت النبي ﷺ لمن يعلم ويثبت، كل هذا كان ثمرة من ثمرات هذا الزواج المبارك ليس على رسول الله ﷺ فحسب، بل على جميع أمة محمد ﷺ، ولا نبالغ إن قلنا إنه أبرك زواج على مستوى الإنسانية. رضي الله عن أمنا خديجة التي أكرمنا الله بها، وبقية أمهات المؤمنين الطاهرات.

حادثة بناء الكعبة:

مكة بلد التوحيد، والكعبة رمز ذلك منذ أيام إبراهيم عليه السلام إلى أن دنسها مشركو العرب بالأصنام والأوثان المختلفة.

وقد تعرضت الكعبة قبل البعثة النبوية بقرابة خمس سنوات لحادثتين أديا إلى تصدعها، حيث كانت قريش تغطي الكعبة بالجلود والصوف، تشكل منها أستار الكعبة، يوصل بعضها ببعض، وكان من عاداتهم في الجاهلية أن يجمروا الكعبة بشيء من البخور، فعلق بعض الجمر بأستارها فاحترقت وتصدعت، ثم تعرضت إلى سيلٍ هدم جوانب منها، فقررت قريش إعادة بنائها من جديد.^(١)

كان أسلوب البناء في مكة بسيطاً عماده الحجارة والطين وسقف من الخشب البسيط، وقد مرت سفينة قادمة من بلاد الروم متجهة إلى الحبشة،

(١) الأزرقى، أخبار مكة، ج١/١٦٠.

ولما وصلت قبالة الشعبية^(١) الواقعة غرب مكة وهي ميناؤها في العصر الجاهلي تحطمت السفينة، وكانت محملة بالأخشاب، ومعها رجل اسمه "باقوم" مشهور بالنجارة فجاءت قريش وأخذت هذه الأخشاب، واستدعت ذلك النجار القبطي ليقوم بعمل سقف الكعبة، وبدأت قريش تهد ما تبقى من الكعبة لتعيد بناءها^(٢) حتى وصلوا إلى أسس معينة معروفة عندهم لا يتجاوزونها ولا يمسونها.^(٣)

وقبل إعادة بناء الكعبة اتفقت قريش على أن لا يستعينوا بمال حرام في البناء،^(٤) وكانوا قبل البعثة يميزون الأشياء المحرمة كالزنا والربا وأكل أموال الناس بالباطل وهذا شيء فطري ما يزال الناس إلى اليوم يعرفون حرمة حتى عند غير المسلمين.

أنفقت قريش على البناء من المال الحلال، واستعانوا بالقبطي (باقوم)،^(٥) وتقاسمت بطون قريش أركان الكعبة وزواياها، حيث اختص كل قوم بجهة من البناء لما يرون في ذلك من الشرف والفخر وحتى لا تذهب بذلك قبيلة دون أخرى أو بطن من قريش دون آخر.^(٦)

وحيثما أتموا البناء اختلفوا في وضع الحجر الأسود مكانه، فكل فريق من قريش يريد أن يذهب بفخر وضع الحجر الأسود في مكانه حتى كادوا

(١) ميناء على البحر الأحمر مقابل مكة يعرف بهذا الاسم إلى اليوم، الأزرقى، أخبار مكة،

ج ١٦٠/١؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣٥١/٣.

(٢) الأزرقى، أخبار مكة، ج ١٥٧/١؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج ٢٢٨/٢.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١٤٥/١.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١٩٤/١.

(٥) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١٤٥/١؛ السهيلي، الروض الأنف، ج ١٢٤/١.

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١٩٥/٢.

أن يقتتلوا.^(١)

ثم اتفقوا أن يحكموا أول داخل للحرم، فكان أول داخل للحرم هو المصطفى ﷺ فلما رأوه صاحوا جميعاً: "هذا الأمين هذا محمد رضينا بالأمين"، وهذه شهادة مباشرة من قومه له حتى من عاداه بعد ذلك.^(٢)

فما كان منه ﷺ إلا أن وضع رداءه، وحمل الحجر الأسود ووضع على الرداء، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف من أطرافه وحملوه، حتى إذا وازى موضعه في الكعبة وضعه الرسول ﷺ بيده الشريفة، فرضي القوم وطابت نفوسهم^(٣) وكانت كرامة لرسول الله ﷺ من بين سائر قريش قبل مبعثه ﷺ في وقت كان فيه على فطرة إبراهيم عليه السلام.

وقد زاد شرفاً ومكانة بين أهل مكة ﷺ بهذا العمل والحكمة والعقل والهدى الإلهي وهو الموحد الوحيد من بينهم، المعصوم من الشرك الذي لم تمس يده الأصنام قط، مع كرهه الشديد لها، ولما تفعله قريش من شرك ومعاصٍ؛ فهو لا يشهد مشاهدتهم ويكره مواسمهم الشركية المتعددة، إلا أن هذا المشهد المرتبط بالكعبة والحجر الأسود لم يفته، لما فيه من خير وكرامة لرسول الله وللحجر الأسود وبيت الله الحرام.

وقد جزم أصحاب السير على أن عمر الرسول ﷺ حين إعادة بناء الكعبة كان خمسة وثلاثين عاماً.^(٤)

لقد كان بناء قريش للكعبة في هذه المرحلة مشهوراً، وقد قصرت بهم

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٩٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٩٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/١٩٧؛ مسند الإمام أحمد، ج ٣/٤٢٥.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢/٣٢٤؛ الذهبي، السيرة النبوية، ص ٧٧.

النفقة والجد عن استكمال بنائها على قواعد إبراهيم وظل هذا الأمر يشغل بال الكثيرين حتى أن عائشة رضي الله عنها بعد فتح مكة، قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألم تر أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم صلى الله عليه وسلم؟))، فقلت: يا رسول الله، أفلا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: "لولا حدثان قومك بالكفر لرددتها على ما كانت عليه" ^(١).

إرهاصات ما قبل البعثة:

اصطفى الله صلى الله عليه وسلم نبيه وأدبه ورباه وعلمه قبل البعثة، بل وقبل الولادة وبعدها، ^(٢) ولم يعلم أحد من البشر بذلك لحكمة يعلمها الله، وإن كانت البشرية قاطبة وأهل الديانات السماوية خصوصاً بانتظاره صلى الله عليه وسلم، وقبيل البعثة حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأمور التي تدل على قرب مبعثه، كما سلك بعض السلوكيات التي فيها مزيد تقرب إلى الله وتفكير في ملكوته.

ففي حديث الإمام مسلم رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث)) ^(٣).

ثم كان من هذه الإرهاصات الرؤيا الصالحة كما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها: ((إن أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)) ^(٤).

(١) حديث صحيح رواه البخاري، كتاب التفسير، باب واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ج١٤٩/٥؛ وانظر: ابن كثير، تفسيره، ج٢٠٧/١.

(٢) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ١٠٩؛ ومحمد علي الصلابي، السيرة النبوية، ج٧٦/١.

(٣) رواه مسلم، في صحيحه، كتاب الفضائل، باب أني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ، ج٥٨/٦.

(٤) من رواية البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ...، كتاب المناقب، ج٣/١؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج٢٣٤/١.

ثم كان رسول الله ﷺ يخرج في شعاب مكة وأوديتها متفكراً في خلق الله، يطوي البطون والأودية متأملاً متفكراً ذاكراً الله - تعالى - موحداً على ملة إبراهيم^(١).

مع ما مضى من عمر الرسول ﷺ قبل الوحي، فإن الوحي لم يكن عنده ولا بمشيئته، كما قال الله - تعالى -: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

ثم إنه حُبب إليه الخلاء ﷺ، حيث كان ﷺ موحداً على ملة إبراهيم الخليل، كارهاً لما عليه قريش، مؤمناً بالله وحده، متفكراً في ملكه، فحُبب إليه الخلوة، واختار لذلك غار حراء^(٢) في جبل إلى الشرق من مكة يعرف اليوم بجبل النور على يسار الخارج إلى الطائف من طريق السيل - اليوم - فكان ﷺ يصوم ويخلو في الغار الأيام والليالي ذوات العدد تقرباً إلى الله - تعالى - حيث هُدِيَ إلى ذلك، ولم يأت به أمر، لكنه سلوك فطري يقرب إلى الله - تعالى - سلكه المصطفى ﷺ، حتى قيل إنه يمكث شهراً من كل سنة وقد حُبب إليه ذلك كما ورد في حديث عائشة ﷺ قالت: ((ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث - يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء)).^(٣)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٣٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٣٤.

(٣) البخاري، الفتح، ج ٢٦/١٩٧؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج ١/٩٧.

وكان ﷺ في هذه المرحلة لم يبعث بعد كما قال - تعالى - : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

كان شهر رمضان أحب الشهور إلى النبي ﷺ خلوة وصياماً قبل مبعثه، وكانت خديجة ؓ تصبر على بُعد النبي عنها في خلوته، وتعلم أنه رجل خير لن يصيبه من الله إلا كل خير، وتواسيه وتشجعه، وكان ﷺ إذا قضى خلوته ورجع إلى مكة بدأ بالحرم^(١) وطاف حول الكعبة متجنباً الأصنام.

كان الغار بوضعه الجغرافي يعطي فرصة قوية للاطلاع على الفضاء ورؤية الأرض من علو ومعرفةٍ عظيم خلق الله تعالى^(٢).

وكان ﷺ منذ أن وعى كريماً معطاءً وقد زاد عطاؤه وكرمه وكثرت مساعدته للمحتاجين عندما قارب الأربعين من عمره، حتى صارت صفة من صفاته التي تميز بها ﷺ، وذكرته بها خديجة عند نزول الوحي، ولعل صدقاته كانت تكثر في شهر رمضان قبل أن يوحي الله له، كما كانت كذلك بعد مبعثه ﷺ : ((حيث كان أجود ما يكون في رمضان ﷺ)).^(٣)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٣٥.

(٢) محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ص ٢٥٦.

(٣) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ...، ج ١/٤.

البعثة والاصطفاء

الوحي:

الوحي بمفهومه الشرعي: (إعلام الله أنبيائه ورسله بما يبلغه الوحي لهم من شرع أو كتاب)^(١) بواسطة أو مباشرة ويعني ما أنزله الله على أنبيائه، وله معنى لغوي يعني الإعلام الخفي والسريع.^(٢)

نزول الوحي:

لم يُعرف عن النبي ﷺ قبل نزول الوحي أي ذكر له، أو حديث عنه مع أنه كان ﷺ يُصنع بعين الله إعداداً لهذا اليوم كما فعل الله بموسى عليه السلام الذي قال الله - تعالى - فيه ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَأَلْقِيهِ إِلَى مَأْوَاهُ بِالْبَاسِطِ يُأْخِذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [٣١]. [طه].

ومع هذا لم يتقول بشيء من عنده أو يتحدث عنه ﷺ أو يتعلم شيئاً من الوحي المنزل على الأنبياء السابقين، أو أشكاله قبل بعثته ﷺ قال - تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى]، ومع ذلك ففي شهر رمضان بعد أن بلغ رسول الله ﷺ الأربعين من عمره نزل عليه الوحي لأول مرة بغار حراء، في جبل النور بمكة المكرمة، قال - تعالى :- ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ

(١) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ٢٣.

(٢) أبو شهبه، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص ٧٣؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية،

وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ [البقرة].

وقال - تعالى -: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٢﴾﴾ [الدخان]، في تلك الليلة المباركة جاء الوحي إلى رسول الله ﷺ وهو كما أوضحت أم المؤمنين عائشة ؓ في حديثها المشهور الذي رواه البخاري عن عروة بن الزبير عن خالته عائشة أم المؤمنين ؓ أنها قالت: ((أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق].^(١)

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد ؓ فقال: زمّلوني، زمّلوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فذكر لخديجة ما رآه وما سمع، وأخبرها وقال: لقد خشيت على نفسي فقالت، خديجة: "كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق"، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءاً قد تنصر في

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج ٢/١؛ وانظر: شرح ابن حجر له في فتح الباري؛ وانظر: ابن كثير في تفسيره، ج ٢/١٠٠٢٠.

الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً؛ إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي^(١).

وورد أنه ﷺ قال: ((بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني زملوني فأنزل الله - تعالي -: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِينَةُ﴾ [سورة المدثر])).^(٢)

لقد هيا الله لنبيه ﷺ امرأة صالحة لمثل هذا الموقف الحساس المتاهي في العظمة، حيث ظهرت حكمتها^(٣) وفطرتها وثقتها بالله - تعالي - حيث تذكرت رحمته بعباده الصالحين، وذكرت صلاح النبي ﷺ فقالت: "كلا والله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق"^(٤) هكذا كانت أخلاق النبي ﷺ التي عرفتها وأكسبتها ثقة بعد ثقتها بالله ﷻ وقيل إن ورقة أوصى خديجة

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٠٣.

(٢) ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٩٣٤.

(٣) الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/١٠٨؛

وانظر: الحربي علي بن جابر، منهج الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية، ط ١ - الزهراء

للإعلام العربي ١٤٠٦هـ، ص ١٧٧.

(٤) من حديث البخاري، سبق تخريجه.

وقال لها: إن زوجك نبي وسيصيبه من أمته بلاء.^(١)

كان هذا الشيخ عالماً بحال الأنبياء، وبما يتعرضون له من أذى قومهم، بل وبهجرتهم وإخراجهم من بلادهم، فأسرع بالحديث عن ملامح مستقبل رسول الله ﷺ وما سيصيبه من أذى قومه، وأبدى استعدادة لمناصرتة والوقوف معه، وقد استدل كثير من العلماء بذلك على أن ورقة يعد من أوائل المؤمنين برسول الله ﷺ،^(٢) كما كانت خديجة أم المؤمنين أول المسلمين من سائر البشر رجالاً ونساءً دون خلاف.^(٣)

إن أول الآيات نزولاً على رسول الله ﷺ وكل الآيات كذلك رحمة من الله - تعالى - تفتح العلم الإلهي للبشرية وسائر أنواع العلوم (إنها القراءة اقرأ) وأي قراءة باسم ربك ومن ربك، إنه الخالق لك وللخلق، والأعلم بكم وبما خلقكم منه ولأجله، إنه الأكرم الذي علم بالقلم وهو أعظم سلاح، أداة الكتابة، ومن يقول هذا؟ إنه الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، يا سبحان الله هذه الآيات وبهذه المعاني والمفاهيم العظمى تنزل على نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا يعرف الشعر ولم يعلمه بشر، ولم يتقوّل من عنده شيئاً قبل ذلك، إنه الطهارة والقلب النظيف، والوعاء الزكي الطاهر المعد لحمل الرسالة الذي لم يدنس، يستقبل الوحي الإلهي بأمر الله، وليس من تلقاء نفسه، إنه الوحي الذي نزل على من قبله من الأنبياء، قال - تعالى -: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١١٣] وقد تتابع القرآن بعد ذلك واتضح الوحي وأنواعه

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٠٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٢٣؛ ابن حجر، الإصابة، ج ٣/٦٣٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٢٦٨ و ٣٩٧.

(٣) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ١٢٠؛ الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/١١٦.

وأحواله في قوله - تعالى - ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ [الشورى]. وقال - تعالى - ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ [يونس]، وقوله - تعالى - ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِّن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطُونَ ﴿٤٨﴾ [العنكبوت]، وقوله - تعالى - ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ [الشعراء]، وقوله - تعالى - ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِن لَّدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ [النمل]، وقوله - تعالى - ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذَهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ [التكوير]، وقوله - تعالى - ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ [الشعراء]، وقوله - تعالى - ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ [النجم].

لقد صحب نزول الوحي على رسوله ﷺ تغيرات كونية، فقد حُرست السماء ومنع الجن والشياطين من استراق السمع كما قال - تعالى - عنهم: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ [الجن]، يقول ابن كثير حول تفسير الآيات: (حين بعث الله نبيه محمد ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً وحفظت من سائر أرجائها وطرقت الشياطين من مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسرقوا شيئاً من القرآن

فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يُدرى من الصادق، وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز ومن يرد أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه).^(١)

لقد كان ردُّ فعل رسول الله ﷺ فطرياً، حينما قيل له اقرأ فقال: ما أنا بقارئ، إنه لم يكن قارئاً ﷺ لم يقرأ قبل ذلك، ولم يدر ما يقرأ إلى أن غطه جبريل عليه السلام، وهذا جزء من تربية ربانية، فما كان ليفعل إلا ما أمره الله به مع حبيبه المصطفى ﷺ، وقد امتثل قراءة ما علمه الله ﷺ وأنزل عليه من الآيات القرآنية المباركة وتعرف على ربه وخالقه، ونزل عليه وحيه وعلمه، وهو الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

كما كانت ردُّ فعل رسول الله ﷺ حينما دخل داره في مكة على زوجته الحنون، في ذلك الجو الحار وهو يطلب الغطاء دثروني دثروني، زملوني زملوني، حتى أصبحت من أسمائه ﷺ المدثر والمزمل^(٢) ونزلت آيات القرآن تتحدث عن هذا الموقف المؤثر الذي راقبه الرب ﷺ وهو يعتني بعبده وحبيبه محمد ﷺ، وسميت باسمها سور تتلى إلى يوم القيامة.

فتور الوحي؛^(٣)

إن الوحي الذي أنزل على رسول الله ﷺ لم يكن باختياره، وكذلك توقفه واستمراره لم يكن باختياره، وليس هذا نقصاً في المصطفى ﷺ، بل هو من

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢/١٩٢٥ - ١٩٢٦.

(٢) انظر: موضوع أسماء الرسول ﷺ، من هذا الكتاب.

(٣) انظر: حديث البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج ٣/١؛ وانظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/١٩٦؛ وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥١.

كمال نبوته وصدقه أنه ﷺ يسير بأمر الله، والله لا يريد به إلا خيراً، قال - تعالى -: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْمُرُ إِنِّ أُنَبِّئُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾﴾ [الأحقاف]. وقد توقف الوحي عن النبي ﷺ فترة محددة،^(١) ومهما اختلف العلماء في تحديدها فإن ذلك لحكمة يعلمها الله، كان يرمى فيها حبيبه محمد ﷺ، بغض النظر عن تقديرها بميزان البشر الزمني، التي أرى عدم الفائدة من تحديدها بدقة. ولعل في الخلاف حولها رحمة.

في هذه الفترة كان النبي ﷺ يتطلع إلى استمرار الوحي واتصاله بجبريل واستمرار نعيم الآيات التي أحس منها الرحمة والهدى، فكان يتردد على غار حراء وما جاوره، يدور في الوديان وبين الجبال واثقاً بالله متطلعاً لاستمرار الصلة به ﷺ وتكرار الوحي، كان الانتظار قاسياً والشوق لآيات الله قوياً والخوف من الله وابتغاء رضاه جعله يخشى ويترقب ويتوجس، وكان الله ﷻ مطلعاً عليه رحيماً به مؤدباً له بقدرته وعلمه وحكمته الإلهية.

وكان من أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ بعد ذلك قوله - تعالى -: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّٰنْ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر].^(١)

ثم كان من ما نزل عليه سورة الضحى^(٢) في قوله - تعالى -: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٤١٢.

(١) ابن كثير، كتاب التفسير، ج٢/١٩٣٤.

(٢) محمد أبو شهبه، الإتقان في علوم القرآن، ج١/١٠؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية،

وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرُ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ [الضحى].^(٣)

ولعل أهم ما فيها أن نعم الله وعنايته برسوله ﷺ كانت معه منذ بداية حياته وقبلها، وأن فضل الله عليه في الدنيا عظيم وفي الآخرة عظيم، وكل دارس لهذه الآيات بدقة في ظل معرفته بالسيرة، يدرك ما فيها من كرامات وخصائص للنبي ﷺ مرتبطة بحياته من أولها إلى آخرها، وبما بعد حياته ﷺ وأن الله لم يودعه ولم يهجره أو يقلبه، وأن الله سيعطيه وينعم عليه حتى يرضى، وكانت نعمة كبرى على حبيبه ﷺ باستمرار الوحي وتتابعه على الرسول ﷺ.

كان شوق الرسول ﷺ للقرآن وتعلمه وحفظه شديداً في بداية الوحي، وفي كل حياته، فنزل قول الله - تعالى - : ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ بِقُرْآنِهِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ [القيامة] وقوله - تعالى - : ﴿فَنُحَلِّيْ أَللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿١١٤﴾ [طه].

والعجب ممن يحاول جاداً أن يبحث عن سبب تأخر الوحي، وكأن الرسول ﷺ أتى معصية أو خطأ متناسياً نفي الآيات لهجر الرسول، وأن الله ﷻ يسيّره برضاه، وأن هذا التأخير في حد ذاته تربية ومزيد إعداد لرسوله ﷻ وليس عقوبة، كما يحاول بعض من كتب بأسلوب فيه شيء من الجفاء مع حال المصطفى ﷺ. وينبغي لكل من طرق الموضوع التعمق في الحدث من خلال الآيات القرآنية.

(٣) ابن كثير، كتاب التفسير، ج ٢/٢٠٥؛ والسيرة النبوية، ج ٢/٤١٢.

بدء الدعوة

حين نزول سورة المدثر كانت واضحة في أمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله وإنذار الخلق الذين بعث إليهم، قال - تعالى -: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ [المدثر]. إنها الرسالة والدعوة، وما تتطلبه من جد وعمل وإنذار وصبر وطهارة إنه إنذار الخلق وقيادتهم إلى الله وتوحيده، والخلوص من الشرك، والاستعداد لذلك بالطهارة والنقاء والبعد عن الشر، وحب الخير للناس إنه القيام بأمر الله ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر]، إنه أمر الله لرسوله بتكبير الله مع العباد.

ومن الطبيعي أن أمر الإنسان بالخير وإن كان لسائر العباد فإنه ينبغي أن يكون مبادراً دون تأخير لأول من يلي الإنسان، وأول وأولى الناس بذلك هي أم المؤمنين خديجة ﷺ التي كانت واضحة في تصديقها لرسول الله ﷺ منذ بداية الوحي ونزول (اقراً)، ومع ذلك فقد أكدت إسلامها مرة أخرى بعد الأمر للرسول ﷺ بالإنذار، وبالتالي فإن أم المؤمنين خديجة ﷺ هي أول من أسلم وآمن بالرسول ﷺ^(١) لم يسبقها بذلك لا ذكر ولا أنثى، كما أنها ﷺ هي أول من صلى مع رسول الله ﷺ^(٢).

كما سارع إلى الإسلام بنات النبي ﷺ، ولذلك فإنهن أسلمن مباشرة مع أمهن خديجة ﷺ، وخصوصاً الكبار منهن، اقتداء بأمهن وتصديقاً بأبيهن، ولعل الأم لها دور في دعوتهن ﷺ وقد نص بعض العلماء على أنه (لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناتها)^(٣).

كما كان في بيت النبوة علي بن أبي طالب ﷺ الذي انتقل إلى بيت النبي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٤٠؛ وابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٤٢٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٤٤؛ الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/١٢٦.

(٣) انظر: محمد أبو شهبه، ج ١/٢٨٤.

ﷺ ليكون في رعاية المصطفى ﷺ، تخفيفاً على والده في عبء النفقة، فأكرمه الله بذلك، وكان من المستجيبين مباشرة لدعوة النبي ﷺ، لم يصل عمره عشر سنوات فكان أول من أسلم من الصبيان وأقام الصلاة مع الرسول ﷺ وخديجة وبنات المصطفى ﷺ.^(١)

وبقاء علي ﷺ في بيت النبوة نال به شرف الحياة مع رسول الله ﷺ قبل مبعثه، واطلع من أموره على ما لم يره غيره وهناك رجل آخر نال شرف العشرة والتعامل مع الرسول ﷺ وهو مولاه زيد بن حارثة ﷺ،^(٢) الذي آثر البقاء مع رسول الله ﷺ على العودة إلى أهله وقال لأهله: شهدت منه ما يجعلني لا أدعه، حينما رغبوا في دفع ثمن له وأخذه معهم وكان مولى رقيقاً لرسول الله ﷺ فبادر الرسول ﷺ بعنقه ودعاه باسمه، فصار يسمى زيد بن محمد، إلى أن حُرِّم ذلك بعد الهجرة فعاد اسمه "زيد بن حارثة"،^(٣) لقد آمن برسول الله ﷺ وصدقه دون تردد، فأصبح كل من هو داخل بيت رسول الله ﷺ مؤمناً به، الزوجة والبنات وابن العم والمولى، فكانوا يصطفون وراء إمامهم رسول الله ﷺ مصلين مصدقين مؤمنين،^(٤) وهذا من رحمة الله لرسوله ومن صدقه، حيث آمن به من في بيته جميعاً، وقد عرفوه حق المعرفة ولم يترددوا في ذلك.

ومع كثرة الكلام بين العلماء حول محاولة ترتيب المسلمين الأوائل^(٥) فإنني لا أشك أن كل من في بيت الرسول ﷺ أسلموا وآمنوا قبل غيرهم، وأولهم خديجة ﷺ قبل نزول سورة المدثر عليه، ولا يستبعد إسلام بقية من في

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٣٠؛ محمد أبو شهبة، السيرة، ج ١/٢٨٤؛ والصلابي، السيرة، ج ١/١٣٧.

(٢) ابن أبي شيبة المغازي، ص ١٣٧.

(٣) ترجمته في موضوع المعاشون للنبي ﷺ، من هذا الكتاب.

(٤) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٤٣٧.

(٥) انظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٣.

بيت النبوة في وقت واحد، فمن الراجح أنه عُرضت عليهم الدعوة في وقت واحد، بعد خديجة ولا يلزم العرض عليهم منفردين على حدة.

وأول من أسلم وآمن برسول الله ﷺ من الرجال أبو بكر الصديق ﷺ،^(١) وهو صاحب رسول الله ﷺ منذ وقت مبكر، ربطتهما علاقة خاصة، عرف كل منهما صدق الآخر وجريه وعرف أمانته،^(٢) وكان الصديق ينتظر مثل هذا الأمر من رسول الله ﷺ، وقد استعدّ نفسياً لقبول دعوة الرسول ﷺ دون أي تلوؤ كما قال ﷺ: ((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما عكم حين دعوته ولا تردد فيه))^(٣) إنه صاحب رسول الله ﷺ بنص القرآن هاجر معه بعد ذلك ونزل فيه قوله - تعالي -: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة].^(٤)

وكانني بهذه الآية لا تخص الهجرة وحدها، إنه ثاني اثنين في الإيمان برسول الله ﷺ وتصديقه واتباعه. ولم يكن إسلام أبي بكر الصديق ﷺ^(٥)

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٣٠.

(٢) انظر: فضائل الصحابة عند البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً، ج/٤١٢/١٩٢.

(٣) انظر: الذهبي، السيرة النبوية، ص ١٣٦؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج/١/٩٥.

(٤) انظر فضل الصديق، عند البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، ...، باب فضل أبي بكر ...، ج/٤١١/١٩٨ - وعند مسلم في صحيحه، وانظر: تفسير ابن كثير، ج/١/٨٨٣.

(٥) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار ...، باب إسلام أبي بكر ﷺ، ج/٤٠٤/٢٤٠.

إسلاماً عادياً يتوقف عند صاحبه، بل كان رجلاً مباركاً تحرك منذ إسلامه داعية للإسلام ولرسول الله ﷺ، كان ينتقى الرجال الصادقين العقلاء ليدعوهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ، وقد أسلم على يد أبي بكر ﷺ معظم العشرة المبشرين بالجنة ومنهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد أبي وقاص، والمقداد بن الأسود وطلحة بن عبيدالله، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ﷺ^(١)

وقد أخذ الإسلام ينتشر سراً بين قريش، وزاد عدد المسلمين وكان بعض المسلمين لا يعرف بإسلام الآخر، وكل من أسلم يعمل داعية لله ورسوله ﷺ، ويعرض الإسلام على من يثق به ممن حوله،^(٢) وقد بدأ خبر إسلام هؤلاء ودعوة الرسول ﷺ يتسرب إلى رجالات قريش،^(٣) لكن عدم جهر الرسول ﷺ بالأمر وعدم عيبه أصنامهم في هذه المرحلة جعل زعماء الكفر في قريش يسكتون ويتغاضون، رغم خروج أخبار الدعوة بحدود.

كان المسلمون الأوائل من أشرف مكة^(٤) وفيهم من المستضعفين من أمثال بلال بن رباح وعمار بن ياسر وخباب بن الأرت وعبدالله بن مسعود، وكان معظم المسلمين من الشباب.

كما كان فيهم عدد من النساء، منهن أسماء بنت أبي بكر الصديق، وفاطمة بنت الخطّاب، وفاطمة بنت المحلل، وفكيهة بنت يسار، ورملة بنت أبي عوف، وأمينة بنت خلف زوجة خالد بن سعيد بن العاص، وسمية أم عمار

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٢٥-١٣٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٥٠.

(٢) صالح الشامي، من معين السيرة، ج ١/١٩٨.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ص ١٩٨.

(٤) انظر: إحصائية محمد شاكر في عدد المسلمون الأوائل، (التاريخ الإسلامي، السيرة النبوية) حيث غلب الأشراف على المستضعفين في الإسلام، ص ٥٨؛ ومن معين السيرة، صالح الشامي، ص ٣٩.

ﷺ وغيرهن،^(١) ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء المسلمات تأثرن بإسلام أزواجهن، وبالتالي تكونت بيوت وأسر مسلمة وسط مجتمع مكة الكبير.

وخلال سنوات ثلاث من الدعوة أسلم ما يقارب الأربعين من الرجال والنساء أشرفاً ومستضعفين، أحراراً وأرقاء،^(٢) ويمكن أن يكون العدد أكبر من ذلك لوجود مسلمين لا يعرف بعضهم بعضاً، والغالبية منهم كانوا من أشرف أهل مكة وشبابها وذوي النسب فيهم.^(٣)

كان الرسول ﷺ من البداية يتوقع شراً من المشركين وشديد أذى لأتباعه وله ﷺ، ولذلك كان تحركه حذراً، وكان الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر الصديق ﷺ حريصين على أن يفدوا رسول الله ﷺ بأنفسهم، ولذلك كانوا يباشرون الدعوة بأنفسهم دون أن يلزم ظهور رسول الله ﷺ إلا عند الحاجة والقناعة من المدعو، فيؤتى به لرسول الله ﷺ،^(٤) مع أنه لم يتوقف بنفسه عن الدعوة فكان العمل مشتركاً.^(٥) وكان المسلمون الأوائل يشاركون بعضهم في تلاوة القرآن والصلوات مختفين في الشعاب والأودية والبيوت،^(٦) وقد عرفوا من خلال تلاوة القرآن والسماع من النبي ﷺ أن أتباع الأنبياء يتعرضون للأذى والقتل.

كان الرسول ﷺ يربي أصحابه على التوحيد وإخلاص العبادة لله - تعالى -

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٥٦؛ وانظر: إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٤؛ وصالح الشامي، من معين السيرة، ص ٣٨.

(٢) من رواية مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عبسة، ج٢/٢٠٨ - ٢١٠؛ وانظر تخريجه عند: إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٥؛ وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/٤٣٦.

(٣) صالح الشامي، من معين السيرة، ص ٤٠.

(٤) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/٤٣٨.

(٥) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١٩٩.

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٤٦، ج١/٢٦٣.

وحمل هم البشرية وربطها بخالقها وإنقاذها من الشرك،^(١) والاستجابة الكاملة لله - تعالى - ونزاهة القلوب، وحب الخير للناس، وتقوى الله والرغبة فيما عنده، وابتغاء الدار الآخرة، واتخاذ الأسباب والتوكل على الله.

وفي هذه المرحلة كان ضمن الداخلين في الإسلام الأرقم بن أبي الأرقم، فكانت داره ملتقى للمؤمنين برسول الله ﷺ وبعضهم ببعض، فيها ينهلون من نبي الرحمة مباشرة، كان النظر إلى الرسول ﷺ والجلوس معه والاستماع إليه نعمة عظيمة صعبة التحقيق، إن لم تكن في مكان محدد بعيداً عن أعين قريش، وخطرهما المحقق بالرسول ﷺ، إنه المري الذي يحتاج إلى جو خاص ليتلو عليهم كتاب الله - تعالى - وليروا بأنفسهم أحياناً نزول الوحي عليه ﷺ، فكان هؤلاء نواة أمة الإسلام الكبرى التي ضربت في كافة أنحاء الأرض حتى اليوم الحاضر، إنهم دعاة الخير وحملته للبشرية. قال - تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف].

استمرت مرحلة الدعوة الأولى ثلاث سنوات وقد عرفت بمرحلة الدعوة السرية^(٢) كان المؤمنون جميعاً ينتظرون مراحل قادمة في الدعوة، تتطلب منهم الاستعداد للبذل والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله، وقد عرفوا أن ذلك من سنن الله مع الأنبياء وأتباعهم، وتربوا على أوائل ما نزل من السور المكية من القرآن الكريم، كما كان الرسول ﷺ يراهم ويحن عليهم قال - تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء].

(١) انظر: علي الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/١٤٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٦٢.

بعد مضي ما يقرب الثلاث سنوات من الدعوة إلى الإسلام وانتشاره بين بطون قريش وشدة تكتّم المسلمين حتى أن بعضهم لا يعرف بعضاً،^(١) نزل عليه ﷺ قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢١٥ ﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ٢١٦ ﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢١٧ ﴾ [الشعراء]، جاء أمر الله - تعالى - لنبيه ﷺ بإظهار دعوته وإنذار قومه في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٨٨ ﴾ وَقُلْ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ الْمَيْتِ ﴿ ٨٩ ﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿ ٩٠ ﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿ ٩١ ﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ ٩٢ ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ٩٣ ﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ ٩٤ ﴾ [الحجر].^(٢)

فخرج رسول الله ﷺ إلى الحرم وهو منطقة فضاء، وصعد على الصفا حيث ارتفع على الصخرة وأشرف على المكان، وأخذ ينادي الناس (وا صباحاه).^(٣) وكان هذا الأسلوب متبعاً عند العرب للدعوة للاجتماع والاستماع لمتحدث في أمر هام وخطير عند الإحساس بذلك، وأخذ ﷺ ينادي في قريش: ((يا بني فهر، يا بني عبد مناف، يا بني عبدالمطلب، يا بني فلان، يا بني فلان، حتى اجتمع القوم فقال رأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ فقالوا ما جربنا عليك كذباً، لقد كانت تلك شهادة عامة من الجميع بصدق الرسول ﷺ فقال ﷺ: فإنني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم، فكان في الحضور عمه أبو لهب فرد عليه بعنف

(١) انظر: أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/١٤٠.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ج ١/١٠٥٣.

(٣) من رواية للبخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة تبت يدا أبي لهب وتب،

وقسوة وتجبر: تَبًّا لَكَ سَائِرَ هَذَا الْيَوْمِ! أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا)).^(١)

فنزل رسول الله ﷺ وقد بلغ علناً أمام أهل مكة جمعاء أمر ربه، وكان رد أبي لهب وهو عمه ومن أقرب الناس إليه رداً قاسياً عنيفاً صعباً وأنزل الله على رسوله ﷺ وفيه آيات تتلى إلى يوم القيامة، قال الله - تعالى -: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد]. لم يكن موقف العناد خاصاً بأبي لهب، بل شاركه فيه امرأته التي استمر أذاها للرسول ﷺ.^(٢)

كما أنه ﷺ قال في تلك الدعوة الأولى: ((يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمه رسول الله ﷺ لا أغنى عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً)).^(٣) كان كلام رسول الله ﷺ واضحاً وقوياً وهو يدعو إلى الله وأنه نذير ولن ينفع أحد إلا الصلة بالله وطلب رضاه، وأن قرابتهم له لن تنفعهم وحدها ولا يملك رسول الله ﷺ شيئاً لمن لم يطلب رضا الله بالإيمان والتوحيد والتصديق.

لقد كانت هذه الدعوة قوية منذ البداية، ذات صدى عال، وصلت أسماع القوم الذين كان أغلبهم معاندين منذ البداية، وربما سمعوا بهذه الدعوة

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٠: وإبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٦.

(٢) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٠.

(٣) انظر: صحيح البخاري، تفسير سورة الشعراء، باب وأنذر عشيرتك الأقربين، ج ١٦/٦؛ وانظر: التخريج عند إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ٥٦.

سابقاً وقبل موقف يوم الصفا، لكنهم تريثوا في الرد، وقد كانت شهادة القوم بصدق الرسول ﷺ وأنهم ما علموا عليه كذباً قط مقدمة حقيقة وواقعية تفيد بأن ما جاء به صدق وامتداد لتاريخ صادق لم يجرب عليه ولا يتوقع منه كذب قط، وبالتالي فإن المعاندين الذين تقدمهم أبو لهب في الرد على رسول الله ﷺ كانوا يعرفون صدقه ولا يشكون فيما قال، لكنهم اختاروا طرق التكبر والكفر والعناد، وأصبحوا خصوماً لرسول الله ﷺ منذ البداية، ولدعوته الصادقة وهو الصادق الأمين، كما عرفوه قبل ذلك. وقد ظهرت من كثير منهم علامات التهديد وإن لم تنقل لنا صراحة، لكنها متوقعة في مثل هذا الموقف.

وما نقل عن أبي لهب لا ينفي حالات أخرى غير مستبعدة لآخرين في هذا الموقف، كما أن هذا الإعلان عن الدعوة لم يتوقف عند حدود مكة، حيث تناقل الركبان الخبر، وكان له أثره خارج مكة في الباحثين عن الحق.

وقد وردت روايات أخرى مفادها أن الرسول ﷺ جمع عدداً من أهل بيته قرابة الثلاثين منهم، وصنع لهم طعاماً فلما أكلوا وشربوا حدثهم النبي ﷺ قائلاً: إني بُعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة وقد رأيت ما رأيتكم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي، فلم يقم إليه أحد منهم سوى علي بن أبي طالب ﷺ وكان أصغر القوم سنّاً وأرجحهم عقلاً وأكثرهم علماً وإيماناً.^(١)

وقد يكون حدوث هذه الواقعة بعد دعوته العامة في الصفا، وهي

(١) انظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص ١٢٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٤٥٦.

الأرجح، وقد تكون قبلها مباشرة، وعلى كل فدعوته لعشيرته الأقربين
وصدعه لقريش وكافة الناس كانا متقاربين وربما لا يفصل بينهما سوى
أيام.

وبهذا ينتهي الجزء الأول من هذه الكتاب، ويليه بإذن الله - تعالى - الجزء
الثاني الذي بدايته أذى المشركين الرسول ﷺ، وما لقي منهم.



القسم الثاني
الاضطهاد
والهجرة والتنمية

قال - تعالى - : ﴿ أَفَمَن أَتَّبَعَ رِضْوَانَ
اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ
جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١١٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ
عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرِهِمْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾
[آل عمران].

أذى المشركين للرسول ﷺ وما لقي منهم^(١)

كانت بداية الأذى من أبي لهب وامراته، وأخذ قومه وخصوصاً الزعماء العتاة المعاندون في المشاركة في أذى رسول الله ﷺ وأصحابه، كان على رأس هؤلاء عمرو بن هشام (أبو جهل) كما أسماه الرسول ﷺ بعدما أصرّ على الكفر والعناد، وكان يكنى عند الجاهليين أبا الحكم.^(٢)

وأما زعيمة المؤذنين رسول الله ﷺ من النساء فكانت امرأة أبي لهب، وتسمى جميلة بنت حرب.^(٣)

إن أذى رسول الله ﷺ استمرّ بعد الجهر بالدعوة عشر سنوات، يضاف إليها ثمان سنوات بعد الهجرة حتى فتح مكة، كان يحمل لواءها عتاة القوم، فإذا سقط بعضهم كما حدث في بدر حملها آخرون، حتى أذن الله بفتح مكة والقضاء نهائياً على قوتها، كانت في بداية الجهر بالدعوة جميلة زوجة أبي لهب من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ، ولما سمعت بنزول سورة "المسد" أتت الرسول ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها حجارة فوقفت عليهما، وهى لا ترى رسول الله ﷺ، فوجهت حديثها لأبي بكر الصديق، وقد أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ. فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو

(١) انظر: ابن أبي شيبه، المغازي، باب ما جاء في أذى قريش النبي ﷺ وما لقي منهم، ص ١٠٧؛ وانظر: البخاري في صحيحه، باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين في مكة، ج ٤/٢٣٨؛

وانظر: سليمان بن عبد الله بن مديد السويكت، محنة المسلمين في العهد المكي، ط ١- الرياض: مكتبة التوبة ١٤١٢هـ.

(٢) انظر: ابن حبيب، المنق في أخبار قريش، ص ٣٤٠، ٣٦٦.

(٣) تفسير ابن كثير، ج ٢/٢٠٤٥.

وجدته لضربته بهذا الفهر، ثم انصرفت وهي تردد (مُذَمَّمًا أَبِينَا وَأَمْرُهُ عَصِيْنَا وَدِينَهُ قَلِينَا)، فقال أبو بكر يا رسول الله ﷺ أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني، (فكان رسول الله ﷺ يقول: ألا تعجبون لما يُصْرَفُ عني من أذى قريش يسبون ويهجون مذمَّمًا وأنا محمد).^(١)

وقد آذى أبو لهب وامراته أم جميل الرسول ﷺ بقية حياتهما حتى هلكا على الكفر.

كانت قريش وكفارها يصبون شتى أنواع الأذى على رسول الله ﷺ ويستهدفون نبيّه ومن معه عن الإسلام، كما كانوا يصدون الناس عن السماع لرسول الله ﷺ بعد أن انتشرت دعوته، ويعقدون الاجتماعات ويحيكون المؤامرات؛ لمنع الناس من السماع لهذا الدين، كما كانوا يوجهون أشد أنواع الأذى الجسدي والمعنوي لرسول الله ﷺ في محاولة منهم للصد عن سبيل الله.^(٢)

عن عمرو بن العاص ﷺ قال: ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوماً ائتمروا به، وهم جلوس في ظل الكعبة، ورسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فقام إليه عقبه بن أبي معيط، فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى وكب لركبته ساقطاً، وتصايح الناس، فظنوا أنه مقتول، فأقبل أبو بكر يشد حتى أخذ بضبعي رسول الله ﷺ من ورائه، وهو يقول: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)، ثم انصرفوا عن النبي ﷺ فقام رسول الله ﷺ فصلى، فلما

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٥٦؛

وانظر: أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص ٢٩٣.

(٢) انظر: الفصل الخاص بموقف زعماء قريش من دعوة الرسول وأذاهم له وللمسلمين في كتاب محمد الشنقيطي. (السيرة النبوية لابن حجر في فتح الباري)، ج ١/٣٩٨.

قضى صلاته مر بهم وهم جلوس في ظل الكعبة، فقال: ((يا معشر قريش! أما والذي نفس محمد بيده! ما أرسلت إليكم إلا بالذبح))، وأشار بيده إلى حلقة، قال: فقال له أبو جهل: يا محمد! ما كنت جهولاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: أنت منهم.^(١)

عن ابن عباس ؓ قال: مرّ أبو جهل، فقال: ألم أنك، فانتهر النبي ﷺ فقال له أبو جهل: لم تنتهرني يا محمد؟ والله لقد علمت ما بها رجل أكثر نادياً مني، قال فقال جبريل: فليدع ناديه. قال: فقال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب.^(٢)

وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: كان النبي ﷺ يصلي في ظل الكعبة، قال: فقال أبو جهل وناس من قريش، قال: ونجرت جزور في ناحية مكة، قال: فأرسلوا فجاءوا من سلاها [جلد رجمها] فطرحوه عليه، قال: فجاءت فاطمة ؓ حتى ألقته عنه، قال: فكان ينتحب ثلاثاً، يقول: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمّية بن خلف، وعتبة بن أبي معيط. قال: قال عبد الله: فلقد رأيتهم قتلى في قليب [بئر] بدر، قال أبو إسحاق: ونسيت السابع.^(٣)

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٠٩؛ والذهبي، السيرة النبوية، ص ١٦٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٩٠.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٠٩؛ ورواه الطبري في تفسيره، ج ١٢/٦٥٨؛ وانظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص ٢١٣؛ والذهبي، السيرة النبوية، ص ١٥٥.

(٣) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار ...، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ج ٤/٢٣٨؛ انظر: غزوة بدر، من هذا الكتاب.

ومع ما لقي رسول الله ﷺ بذاته من أذى قومه فقد كان عمه أبو طالب يمنع عنه الأذى بما يستطيع، وكان لا يزال على دين قريش يحسبون له حساباً، وخصوصاً في بداية الدعوة أملاً منهم أن يكون عوناً لهم على النبي ﷺ كحال أبي لهب، لكنه كان عوناً للنبي ﷺ ومدافعاً عنه،^(١) فوصله ﷺ من الأذى الشيء الكبير مع دفاع عمه عنه.

وفي مراحل متقدمة قرر المعاندون من قريش قتل النبي ﷺ، فسعى رجال منهم إلى أبي طالب فيهم أبو جهل وغيره، وقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا، وضللّ أبناءنا، فإما أن تكفه عنّا وإما أن تخلي بيننا وبينه على ما نحن عليه فنكفيك، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم.

واستمر رسول الله ﷺ في دعوته، ثم جاؤوا أبا طالب مرة أخرى وذكروه بتحذيرهم الأول، وشددوا عليه وقالوا: يا أبا طالب إن لك فينا سناً وشرفاً ومنزلة، وقد نبهناك عن ابن أخيك فلم تنته. وإنا لا نصبر على شتم آلهتنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، فإما أن تكفه عنّا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين وانصرفوا، فعظم الأمر على أبي طالب وخشي من عدوان قومه له، ولم تطب نفسه أن يخذل النبي ﷺ ومع ذلك فقد كلم رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني فذكر له ما قالوا، فأبقي عليّ وعلى نفسك ولا تحملني ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وإنه ربما خاذله أو ضعف عن نصرته، فكان رد رسول الله ﷺ واضحاً في الثبات على دينه، فأظهر عمه الاستمرار في الدفاع عنه وقال:

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٦٥؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٤٦٤.

يابن أخي افعل ما أحببته فوالله لا أسلمك لشيء أبداً،^(١) ثم جاءت قريش مرة أخرى إلى أبي طالب ومعهم (عمارة بن الوليد) أحد شباب قريش، فقالوا: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد - أشد وأقوى - فتى في قريش وأجمله فخذة فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم ألينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آباءك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامك فنقتله، فقال أبو طالب: والله بئس ما سألتموني! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لن يكون أبداً،^(٢) واشتدت القطيعة بين أبي طالب وبين قومه، ثم لجأت قريش إلى محاولة إغراء رسول الله ﷺ بالشهوات والحياة الدنيا، ذلك أن عتبة بن ربيعة، وكان من سادات قريش رأى النبي ﷺ جالساً في المسجد الحرام فقال لسادة قريش: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا (يعني الرسول ﷺ) فأعرض أموراً لعله يقبل بعضها ويكف عتاً؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فحدثه وقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت في العشيرة والمكان والنسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آباءهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال ﷺ: ((قل يا أبا الوليد أسمع)) قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رتيماً [عملاً من الجن] تراه لا تستطيع رده

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٦٦.

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٢.

عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب عليك التابع على الرجل حتى يداوى منه.. حتى إذا فرغ عتبة بن ربيعة من حديثه والرسول ﷺ يسمع إليه بكل أدب ناداه بأحب الألقاب إليه قائلاً: ((أفرغت يا أبا الوليد؟)) قال: نعم، قال: فاستمع مني قال: أفعل، فقرأ عليه رسول الله من سورة فصلت ﴿حَمْرٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ [فصلت] ومضى رسول الله ﷺ حتى وصل إلى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت] حتى إذا أتى الرسول ﷺ السجدة في قوله - تعالى -: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت] وسجد رسول الله ﷺ فاندهش عتبة مما سمع من رسول الله ﷺ ومن سجوده، وقيل إنه لما وصل الرسول ﷺ لقوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت] أمسك عتبة بضم رسول الله ﷺ وأخذ يناشده ويصيح: أنشدك بالله والرحم، ثم استند إلى يديه وأخذ يفرق في التأمل والتفكير، ثم عاد إلى الملاء من قريش فلما رأوه مقبلاً عليهم قال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فجلس إليهم مطرقاً، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: سمعت قولاً واللّه ما سمعت مثله قط، واللّه ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه!! فاعتزلوه؟ فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تُصِبَهُ العرب فقد كُفِيتُموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكُهُ مُلكُكم، وعزه عزكم، وكنتم

أسعد الناس به. قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه! قال: رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.^(١)

والغريب أن عتبة بن ربيعة تيقن صدق رسول الله ﷺ، وعرف القرآن الذي جاء به وسمعه منه مباشرة، ومع ذلك فقد قُتل معانداً مشركاً في صفوف قريش يوم بدر،^(٢) رغم تحذيره لقومه، وأن محمداً سينتصر على من عاداه. وهذا الموقف يبيّن صدق رسول الله ﷺ في دعوته، وأنه ما جاء يطلب الدنيا والمُلْك ولا النساء، ولكنه رسول من عند الله.

كان أبو جهل (عمرو بن هشام) من أشد الناس إيذاءً للرسول ﷺ سواء بنفسه أم بدفعه للآخرين وتحريكهم لإيذاء النبي ﷺ، ذكر أن الوليد بن المغيرة وهو والد خالد بن الوليد سمع القرآن من النبي ﷺ فرقّ ولان قلبه، فعلم بذلك أبو جهل، فأراد أن يبعده من الخير ويحركه في اتجاه معاداة النبي ﷺ وأذاه، فتوجه إلى الوليد بن المغيرة وقال له أبو جهل: يا عم يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله.

فغضب وقال: لقد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً، فقال أبو جهل بعد أن استثاره: فقل في القرآن قولاً يبلغ قومك أنك منكر له قال: وماذا أقول؟ فو الله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن

(١) انظر القصة مع اختلاف في تفصيلاتها عند: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٩٤: ابن

كثير، البداية والنهاية، ج ٣/٥٣:

وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٠٨؛ الذهبي، السيرة النبوية، ج ١/٢٩٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٦٤٢.

لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليعظم ما تحته!!^(١)

ولم يعجب هذا الكلام أبا جهل فحركه مستثيراً قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال دعني أفكر فيه، وبعد جهد وتفكير وتقدير قال: إن هذا إلا سحر يؤثر، ألم تروه يفرق بين الرجل وأهله، والولد ووالده. وفي الوليد نزل قوله - تعالى -: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۚ وَبَنِينَ شُهُودًا ۚ وَمَهَدْتُ لَهُ تَهْيِيدًا ۚ ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۚ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۚ ۝١٦ سَاءَ هُفُهُ ۚ صَعُودًا ۚ ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۚ ۝١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ۝١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۚ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۚ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۚ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ ۚ ۝٢٣ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۚ ۝٢٤ إِن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۚ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۚ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۚ ۝٢٨ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۚ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۚ ۝٣٠ ﴾ [المدثر].^(٢) ولما سمع أبو جهل بقوله - تعالى -: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۚ ﴾، وهو المحرك للوليد تهكم أبو جهل وقال: يزعم محمدًا أن جنوده الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عددًا، أفيعجز كل رجل منكم عن رجل منهم؟^(٣) فأنزل الله - تعالى -: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۚ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَيْنَا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۚ ۝٣١ ﴾ [المدثر]. وهكذا يتنزل القرآن حيًّا على رسول الله ﷺ في حال هؤلاء المعاندين، يرصد ما قالوا ويبادهم برد من لدن

(١) رواه الحاكم في المستدرک، ج ٢/٥٠٦؛ وانظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ١٧٩.

(٢) ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٩٣٨.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣١٣؛ وتفسير ابن كثير، ج ٢/١٩٣٧.

حكيم عليم، إذا استشعر الإنسان القصة والرد الإلهي على هؤلاء علم أنه قرآن محكم منزل على رسوله ﷺ، منجم حسب الحوادث، آيات تتلى إلى يوم القيامة، وقد كان أبو جهل وغيره من عتاة الكفر وأسياد مكة المتكبرين، يتواصون بعدم السماع لكتاب الله فينزل على رسوله قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٦) [افصلت].

كما أنهم إذا سمعوا تكبروا فنزل قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا إِنَّآ عَمَلُونَ﴾ (٥) [افصلت]. وحاولوا أن يسخروا من الرسول ﷺ ويستقصونه ببشريته وفعله ما يفعل الناس فكان رد القرآن عليهم واضحاً في قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (٧) أو يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (٨) انظر كيف ضربوا لك الأمثلة فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً﴾ (٩) [الفرقان]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (١٠) [الفرقان]، وقوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (١١) [افصلت]، وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين﴾ (٨) [الأنبياء]. كما أنكر بعضهم أن يبعث الله بشراً، وقالوا لو كان ملكاً فرد عليهم القرآن في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا

عَلَيْهِمْ مَا يَلْبُسُونَ ﴿٩﴾ [الأنعام]. وطالب بعضهم أن يكون معه ملك، فجاء قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ [الأنعام]. وطلب أولئك المعاندون آيات وعلامات، ليس بحثاً عن الحق ولكن عناداً ومكابرة، قال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ الْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ [العنكبوت]، وفي قوله - تعالى -: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ءَأَوْلَم تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ [طه].^(١)

كما اتهم الرسول ﷺ بأنه يتعلم القرآن من بعض النصارى في مكة أو من غلمانهم،^(٢) فرد عليهم القرآن في قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ [النحل]، وقد حاولوا تفريق جمع المسلمين فانتهموا أتباع الرسول ﷺ بأنهم الضعفاء وأردوا منه فراقهم ليجلسوا معه، فنهاه القرآن عن ذلك وأمرهم بالثبات، وأمر الرسول ﷺ بالصبر معهم قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ [الأنعام]. وأكد القرآن على أن الدعاة يد واحدة، وأمر الرسول ﷺ بالصبر معهم قال - تعالى -: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

(١) راجع تفسير الآيات عند ابن كثير، ج ٢/١٢٣١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ج ١/١٠٧٧.

رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ [الكهف]. وهكذا ينتزل القرآن حياً في كل مناسبة يرد عليهم.

ولم يكتف كفار قريش باختراع العوائق والعقبات أمام الرسول ﷺ، بل استعانوا بيهود وخبرتهم، الذين أصبحوا أعداء رسول الله ﷺ وهو في مكة، بإعانتهم قريشاً قبل الهجرة وبعدها، وطلبوا منهم أن يسألوه عن ثلاثة أشياء معجزة، عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، في محاولة من يهود وقريش تعجيز النبي ﷺ، فنزلت الآيات على الرسول ﷺ في سورة الكهف جواباً على أسئلتهم في قوله - تعالى - ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف]. وفي قوله - تعالى - ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]. وفي قوله - تعالى - ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلِ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف].^(١)

وكان القرآن ينتزل على الرسول ﷺ في تلك المواقف ليرد عليهم، كما زعموا أن لو كان نبيُّ لما كان محمداً، ولكن رجال آخرون هم بها أولى كما زعموا، قال - تعالى - ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْبَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتِ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

واتهموا الرسول ﷺ بأنه جاء بأساطير الأولين في قوله - تعالى - ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ

(١) انظر: تفصيل ابن هشام في السيرة، ج ١/٣٠١ - ٣٠٩.

الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ [الفرقان]،
 واتهموه بالمجنون في قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ
 لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ [الحجر]، وقوله - تعالى -: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزَلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا
 سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥٧﴾ [القلم]، ورد القرآن عليهم في قوله - تعالى -:
 ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ
 ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُونُ ﴿٦﴾ [القلم]، واتهموه بأنه ساحر في
 قوله - تعالى -: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٤﴾
 [ص]، وطالبوا بأمر مختلف في قوله - تعالى -: ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ
 أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا
 مَسْحُورًا ﴿٨﴾ [الفرقان]، واتهموه بأنه كاهن ويأتي بالقرآن من عنده وهو
 من سجعه، فتجدهم الله ﷻ أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو سورة في قوله -
 تعالى -: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ
 اسْتَظَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ [هود]، واتهموه بالشعر وقول
 الأحلام في قوله - تعالى -: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ
 فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾ [الأنبياء]، كما دافع القرآن عنه وعن
 استهزائهم بالنبي وذكره بالأنبياء قبله في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ
 بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
 [الأنعام]، وكان القرآن الكريم يذكر الرسول ﷺ بأن من قبله من الأنبياء
 نالهم حظهم من الأذى واستهزئ بهم من أقوامهم.

وكان من المجادلين للرسول ﷺ والمؤذنين له (أبي بن خلف) الذي أخذ
 عظمًا باليًا وأخذ يفته أمام الرسول ﷺ ويقول: يا محمد أنت تزعم أن الله
 يبعث هذا بعدما أرم^(١) فينزل على الرسول ﷺ ردًا عليه وعلى أمثاله في قوله

(١) أرم: أي بلي وتحلل.

- تعالى -: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس]، وكان أبي بن خلف يشتد في أذى الرسول ﷺ، وخصوصاً إذا طلب منه المشركون ذلك، ويحركونه وقد توجه عقبة بن أبي معيط إلى أبي بن خلف، وقد راه يسمع من النبي ﷺ، فاشتد عليه وطلب منه أذى النبي ﷺ، وإلا فإنه سيقاطعه، فذهب أبي بن خلف إلى النبي ﷺ وآذاه^(١) فنزل على الرسول ﷺ قوله - تعالى -: ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أُنحَدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّتْ لِيَتَنِي لَمْ أُنحَدْ فَلَانَا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان]، وقد قتل أبي بن خلف على يد الرسول ﷺ في غزوة أحد وهو راكباً فرساً كان يركبه في مكة ويتوعد الرسول بقتله على الفرس، فأخبره ﷺ أنه قاتله على نفس الفرس، فكان موت أبي بن خلف على الفرس نفسه كما وعد الرسول ﷺ.^(٢)

وكان أمية بن خلف إذا رأى النبي ﷺ سار خلفه وبدأ يسبه ويلمزه فنزل على الرسول ﷺ قوله - تعالى -: ﴿ وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾ [الهمزة].

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٥٧.

(٢) انظر: غزوة أحد، من هذا الكتاب.

وفي محاولة من المشركين لحل وسط مع الرسول ﷺ كما يزعمون اجتمع نفر من أشرفهم فقالوا للرسول ﷺ: يا محمد (هلم نعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشرك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد أخذنا منه بحظنا، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه).^(١) وهذا العرض يدل على شكهم فيما يعبدون واستهانتهم بقضية التوحيد، التي جاء بها محمد ﷺ والنبيون من قبله، فنزل على الرسول ﷺ قوله - تعالى -: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوتُ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ﴾ (١) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۗ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۖ﴾ [الكافرون].

ومع كل الأذى المعنوي فإن الرسول ﷺ تعرض لتهديد قريش الجسدي فقد أورد ابن هشام: (قال أبو جهل: هل يعضّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللوات والعزى لئن رأيتَه يفعل ذلك لأطأَنَّ على رقبته أو لأعصرنَّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك فقال إن بيني وبينه لخدقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً).^(٢) فأنزل الله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ۚ﴾ (١) ﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ ۖ﴾ (٢) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ۗ﴾ (٣) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۙ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۗ﴾ (٤) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ۙ﴾ (٥) ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۙ﴾ (٦) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۙ﴾ (٧) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۙ﴾ (٨) ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْهَ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۙ﴾ (٩) ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۙ﴾ (١٠) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۗ﴾ (١١) ﴿سَدِّعُ الزَّبَانِيَةَ ۙ﴾ (١٢) ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۗ﴾ [العلق].^(٣)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٦٢.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٩٩.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ج ٢/٢٠١١.

وفي رواية للبخاري أن عروة بن الزبير سأل عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن أشد ما صنع المشركون برسول ﷺ قال: ((رأيت عقبة بن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ﷺ فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)).^(١) وروى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((بينما رسول الله ﷺ عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة طرحتها عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها، فجاءت وهي جويرية فطرحتها عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته، رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأمّية بن خلف، وعقبة ابن أبي معيط وذكر السابع ولم أحفظه فو الذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب قليب بدر)).^(٢)

* * * * *

- (١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً، ج٤/١٩٧ - ١٩٨؛ وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٩٠.
- (٢) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار ...، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ج٤/٢٣٨؛ وانظر: غزوة بدر، من هذا الكتاب.

المضطهدون الأوائل والشهداء

لم يكتف المشركون بأذى الرسول ﷺ بل صبوا جام غضبهم على أصحابه في محاولة منهم لإرجاعهم عن الإسلام وصددهم عن دين الله وتأديب بقية قريش وخصوصاً الشباب، وتخويفهم بما يمكن أن يحصل لهم لو أسلموا كما حصل للمؤمنين ولرسول الله ﷺ، فكان الأذى البدني لمن اتبع الرسول ﷺ جزاءً في الصد عن سبيل الله وإبعاد الناس عن دينهم، لكن هذا لم يؤثر فيهم، وصمد الأبطال منهم، فكانوا أمثلة للمسلمين عبر الزمان تُحتذى في الصبر والتحمل والشهادة في سبيل الله والصبر على دينه، والأمثلة على هؤلاء الأبطال رجالاً ونساءً كثيرة ومنها:

استشهاد سمية (أم عمار) ﷺ:

كانت سمية بنت خياط زوجة ياسر وأم عمار، زوجها ياسر من عنس باليمن، كان حليفاً لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، فزوجه من جاريتها سمية، فولدت له عماراً، ثم أعتقها حذيفة ومات بعد ذلك. وكان ياسر وأخوه عبدالله وزوجته سمية وابنه عمار من أوائل الداخلين في الإسلام من المستضعفين،^(١) وكان أبو جهل قد تسلط على آل ياسر: ياسر وزوجه سمية وابنتهما عمار، وكان يشتد عليهم بالعذاب ويُغرى بهم السفهاء والشبان، وحيث كان مواليهم من بني مخزوم قد غضبوا لإسلامهم، فقد كانوا يشاركون في تعذيبهم، حيث يُخرجون في حر الظهيرة إلى بطحاء مكة فيعذبونهم في رمضائها، ويجلدونهم أمام الناس زيادة في النكال وتهديداً لبقية المسلمين، فكان رسول الله ﷺ يمر بهم وهم على تلك الحال فلا يستطيع خلاصهم فيعزيهم بقوله ﷺ: "صبراً آل ياسر فإن موعدكم

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٦١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٤٩٤.

الجنة"،^(١) وقد اشتدَّ العذاب يوماً بآل ياسر جميعاً وحاول أبو جهل الكلام على النبي ﷺ فأغلظت سمية له القول، فأخذ الحربة وطعنها في موضع عفتها أمام زوجها وابنها فاستشهدت في سبيل الله. وكانت هذه المرأة أول كواكب شهداء أمة محمد ﷺ وسابقتهم ومقدمتهم،^(٢) لتبقى مثلاً للمرأة المسلمة إلى يوم القيامة، وقد ورد في حديث لعثمان بن عفان ﷺ قال: "أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيدي نتمشى بالبطحاء حتى أتى على آل عمار بن ياسر فقال أبو عمار: يا رسول الله الدهر هكذا فقال له النبي ﷺ: ((اصبر، اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت))."^(٣) ثم مات ياسر تحت التعذيب، وقد عاش عمار بعد ذلك تحت التعذيب. وقد عذبه المشركون في أحد الأيام وأجبروه أن ينال من النبي ﷺ، وأن يذكر آلهتهم بخير وهو تحت التعذيب، فلما أفلتوه ذهب للنبي ﷺ حزيناً فقال له: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان قال: فإن عادوا فعد، ونزل قوله - تعالى -: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦) [النحل].^(٤)

بلال بن رباح ﷺ:

بلال ﷺ من أصل حبشي، أمه حمامة، وكان مولى لأمية بن خلف الجمحي أحد عتاة قريش وجبابرتها، من أشدهم أذى لرسول الله ﷺ ولأصحابه،^(٥) أسلم بلال مبكراً، وآمن برسول الله ﷺ فلما علم أمية بن خلف بإسلامه آذاه أشد الأذى، وعذبه، وأذن لبقية مشركي مكة بتعذيبه،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٢٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٩٤.

(٣) الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/٣٠١.

(٤) انظر: تفسير الطبري، ج ٧/٦٥١.

(٥) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٤٩٤.

فكان أمية بن خلف يخرج بلالاً ﷺ إلى الشمس في بطحاء مكة ورمضائها وحرها الشديد فيضع بلالاً مجرد الظهر والبطن على الحصباء، ثم يضع الحجارة الثقيلة على صدره، ويهدده بأنها لا تُزالُ عنه حتى يكفر بالله وبمحمد ﷺ، ويعبد اللات والعزى، ولكن بلالاً أصر على التمسك بالدين، والصبر على الأذى، فيردد: أحد! فيزيد غيظ القوم عليه ويتشددون بالعذاب، وكان يقول (لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم لقلتها)،^(١) كانوا يربطون حبلاً في عنقه ويدفعون به إلى الصبيان ليجروه على الشوك والحجارة في مكة، فلا يزداد إلا إيماناً وتمسكاً بدين الله، (مر به أبو بكر الصديق ﷺ، وأميه بن خلف يعذبه عذاباً شديداً فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ فقال أمية أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى، فقال الصديق ﷺ: أفعل. فعوضه أبو بكر - دفع له مالاً ثمناً له - وكان عمر يقول: (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا).^(٢) وصار بلال ﷺ بعد عتقه من أكثر الناس التصاقاً برسول الله ﷺ. وقد قال ﷺ: ((لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، وأُخِفتُ في الله وما يخافُ أحدٌ ولقد أتت عليّ ثلاثون من يوم وليلة وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد إلا ما يواريه إبط بلال)).^(٣) وبعد الهجرة أصبح مؤذن رسول الله ﷺ واشتهر بهذا اللقب، وبشره الرسول ﷺ بالجنة، كما شارك في جيوش فتح الشام وأصبح من أمرائها في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ^(٤) وكان من صالحى المسلمين ومعلميهم رضي الله عنه وأرضاه.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣١٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب مناقب بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق ﷺ، ج ٤/٢١٧.

(٣) رواه أحمد في مسنده، ج ٢/١٢٠.

(٤) عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج ٣/٨٢٦؛ ابن حجر، الإصابة، ج ١/١٦٥.

خباب بن الأرت رضي الله عنه:

كان رقيقاً لأم أنمار الخزاعية، حداداً يكسب من عرق جبينه، وقد دخل الإسلام مع الأوائل، فكان صابراً محتسباً، وقد بدأ مشركو مكة بكافة الضغوط عليه لعله يرجع عن الإسلام، يروي خباب: (كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أطلبه فقال: والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، قلت: والله لا أكفر به أبداً حتى تموت ثم تبعث، قال العاص: فإني إن بعثت كان لي مال، ثم مال وولد، فتأتيني فأقضيك فأنزل الله - تعالى - قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] وأصر خباب على إسلامه، فأخذ العاص بن وائل وبقية كفار قريش يعذبونه بأمر من مالكتهم، فكانوا يجمعونه على الحجارة المحممة حتى يتأثر لحمه وعصبه، وقد أثرت شدة العذاب في الكثيرين إلا في خباب رضي الله عنه (لم يكن أحد إلا أعطى ما سأله يوم عذبهم المشركون إلا خباباً كانوا يجمعونه على الرضف فلم يستبقوا منه شيئاً)، ^(١) أي يحصلوا على شيء، ويروي خباب يقول: (أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ظهري) ^(٢) بقي أثر العذاب في ظهر خباب وجسده وقد رآه أصحابه بعد تقدمه في العمر رضي الله عنه.

وقد اشتكى خباب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم من الأيام شدة ما يلقي من مالكتهم ومن مشركي مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوسد في ظل الكعبة، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محمر الوجه: ((كان الرجل فيمن قبلكم يُحضر له في الأرض فيجعل فيه

(١) من رواية البخاري في صحيحه، باب ذكر القين والحداد، ج٤/١٣؛

وانظر: تفسير ابن كثير للآية، ج٢/١٢٠٠.

(٢) محمد الصوياني، السيرة النبوية، ص ٦٨، و(الرضف) الحجارة المحممة.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣٥٧.

فِيُجَاءُ بِالْمَنْشَارِ فَيُتَوَضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِأَثْنَتَيْنِ مَا يَصْدَهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيَمِشُطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمَةٍ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، وَمَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَلِيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاَكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ))^(١) وَقَدْ أَخَذَتْ مَوْلَاتُهُ أُمَّ أَنْمَارِ الْخَزَاعِيَّةِ يَوْمًا حَدِيدَةً فَأَحْمَتَهَا فَوَضَعَتَهَا عَلَى رَأْسِهِ حَتَّى شَمَّ مِنْهَا رَائِحَةَ الشَّوَاءِ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَا لَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ انصُرْ خِبَابًا ، فَاشْتَكَتْ مَوْلَاتُهُ رَأْسَهَا فَكَانَتْ تَعْوِي مَعَ الْكِلَابِ ، فَقِيلَ لَهَا: اِكْتَوِي ، فَجَاءَتْ إِلَى خِبَابٍ لِيَكْوِيهَا ،^(٢) فَكَانَ يَأْخُذُ الْحَدِيدَةَ قَدْ أَحْمَاهَا فَيَكْوِي بِهَا رَأْسَهَا بِنَاءً عَلَى طَلْبِهَا - حَيْثُ كَانَتْ تَطْلُبُ ذَلِكَ لِلشِّفَاءِ - لَقَدْ عَاشَ خِبَابٌ ﷺ فَرَأَى بَعِيْنَهُ كَيْفَ يَسِيرُ الرَّاَكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ وَكَيْفَ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْمَنَاطِقُ جِزَاءً مِنَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

كَمَا كَانَ هُنَاكَ عِدَدٌ مِنَ الْإِمَاءِ نَالِهِنَّ عَذَابَ مَوَالِيْهِنَّ مِنْ قَرِيْشٍ ، مِنْهُنَّ حَمَامَةُ أُمِّ بِلَالِ بْنِ رَبِيْعٍ ، وَأُمُّ عَنِيْسٍ ، وَزَنْبِيْرَةُ ، وَجَارِيَّةُ بَنِي الْمُؤْمَلِ وَالنَّهْدِيَّةِ وَابْنَتُهَا ، وَكَانَتَا جَارِيَّتَيْنِ لِامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ مِنْ قَرِيْشٍ ،^(٣) وَقَدْ تَعْرَضْنَ جَمِيْعَتُهُنَّ لِلْأَذَى وَمَحَاوَلَةِ حَرْفَتُهُنَّ عَنْ دِيْنِهِنَّ وَقَدْ كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِيْقِ ﷺ دَوْرٌ فِيْ إِنْقَاذِهِنَّ بِأَنْ اشْتَرَاهُنَّ مِنْ أَهْلِهِنَّ وَأَعْتَقَهُنَّ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ.^(٤)

سعد بن أبي وقاص ﷺ ووالدته:

كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ مِنْ أَوْأَلِ الْمُؤْمِنِيْنَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ أُمَّ هُوَ أَبْرَ النَّاسِ بِهَا قَبْلَ إِسْلَامِهِ ، فَلَمَّا أَسْلَمَ زَادَ فِيْ بَرِّهَا وَلَمْ يَنْقُصْ ،

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ، ج٤/٢٣٩.

(٢) انظر: الصلابي، السيرة النبوية، ج١/٣٠٦.

(٣) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١/٣٤٦.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣١٩.

فلما علمت بإسلامه - وكان مطيعاً لها - أرادت بحكم معرفتها بیره واستجابته لأمرها أن تشبهه عن الإسلام وتوقعه في حيرة، فقالت يا سعد: لَتَدَعَنَّ هذا الدين أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فقال لها: لا تفعلي يا أمّة فإني لا أدع ديني لشيء، فلما رأت إصراره بدأت إضراباً عن الطعام والشراب، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت جاهدة، فاستمرت على ذلك إلى اليوم الثالث وهي لم تأكل، فأصبحت تريه حالها وجهدها لعله يترك دينه، فلما رأى ذلك قال: يا أمه تعلمين - والله - لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني لهذا الشيء، فإن شئت فكلّي وإن شئت فلا تأكلي،^(١) وكانت تذكره بأمر دينه ببر الوالدين، وهو يدرك أن الدين لا يُترك لأجل ذلك، ونزل قوله - تعالى -: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَلَّهُ فِي عَمَامٍ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ۚ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [القمان].^(٢)

وفي آخر السورة قوله - تعالى -: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ انْقِفُوا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [القمان]، لقد كانت قصة سعد مع أمه مضرب مثل للأمة في الأوليات، فمع ما للوالدين عموماً وللوالدة خصوصاً من وصايا في آيات الله وأوامر رسوله ﷺ، إلا أنها لا تتعدى إلى الكفر، ولا تكون وسيلة ضغط لذلك، وقد عاش سعد بعد

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٠٩/١: ابن كثير، تفسيره، ج ١٤٢٦/٢.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ١٤٦٢/٢.

ذلك مع رسول الله ﷺ في كل مغازيه فكان يفتخر به ويقول له: ((هذا خالي فليُرني أُمُرُّ خاله))،^(١) كما قال له في غزوة أُحُد وهو يدافع عن الرسول ﷺ: ((أرْم سَعْدُ فداك أبي وأمي)).^(٢) وقد عاش ﷺ حتى قاد جيوش المسلمين في القادسية وفتح المدائن عاصمة الفرس.^(٣)

عبدالله بن مسعود - الجاهر بالقرآن - ﷺ:

كان من هذيل ويقيم في مكة، وكان غلاماً يرعى الغنم لأحد رجالاتها، وحدث لقاءه بالرسول ﷺ كما وصف في قوله: (كنت غلاماً يافعاً أرى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق ﷺ، فقال: يا غلام هل من لبن؟ قلت: نعم ولكني مؤتمنٌ، قال: فهل من شاةٍ لم ينزُ عليها فحل؟ فأتيته بشاةٍ فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلصْ فقلص قال: ثم أتيته بعد فقلت: يا رسول الله ﷺ علمني من هذا القول قال: فمسح رأسي وقال: "يرحمك الله فإنك عليم معلم".^(٤)

فكان من أوائل المسلمين وهو مستضعف أجير لعقبة بن أبي معيط أحد أشد كفار مكة، ومن أكثرها عداً لرسول الله ﷺ، وكان يقول: لقد

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١/٩٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب سعد بن أبي وقاص، ج ٤/٢١٢؛ وكتاب المغازي، باب إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا...، ج ٥/٣٢؛ وانظر: غزوة أحد، من هذا الكتاب.

(٣) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٣؛ الطبري، تاريخه، ج ٤/١٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢/٢١٤.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١/٤٦٥.

رأيتني سادسَ ستةٍ ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا.^(١)

وقد كان عدد المسلمين أكثر من ذلك بكثير، إلا أن كثيراً منهم لا يعرف بعضهم بعضاً نظراً لسرية الدعوة، والكتمان في هذه المرحلة.

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ضعيف البدن، وكان أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرؤون على ابن مسعود رضي الله عنه ويؤذونه، ومع ذلك فهو صابر شجاع محتسب.

وقد اجتمع الصحابة رضي الله عنهم يوماً في مكة فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر به قط، من رجل يُسمعهم؟ فقال ابن مسعود: أنا! قالوا إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه قال ابن مسعود: دعوني فإن الله يمنعني، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أندية حتى صار عند المقام، فقرأ رافعاً صوته من سورة الرحمن واستمر في قراءتها، فقالوا ماذا قال ابن أمّ عبد؟ فقال بعضهم: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقاموا إليه يضربونه في وجهه وجسمه حتى بلغ ما شاء الله إلى أن يبلغ في تلاوته، ثم انصرف إلى أصحابه وقد تأثر وجهه بضربهم، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولأن شتمت لأعدائهم قالوا: لا حسبك قد أسمعتهم ما كانوا يكرهون،^(٢) وبذلك يكون عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة علانية أمام قريش.^(٣)

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٣٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣١٤.

(٣) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٣٨؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١/٤٦٧.

مصعب بن عمير رضي الله عنه:^(١)

كان من أنعم غلمان مكة، أمه من الأثرياء، ووالده ذو مال وفير، وكانا يحبانه حباً شديداً ويدللانه حتى وصف الرسول ﷺ حاله تلك بقوله: ((ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة ولا أرق حلةً ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير))،^(٢) ولدلّاله كانت أمه تضع الطعام والشراب عند رأسه عند النوم، فإذا استيقظ أكل وشرب، وعندما علم بدعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام - وكان مستخفياً في دار الأرقم - دخل عليه وأسلم وكنتم إسلامه خوفاً من أمه، فكان يتردد على رسول الله ﷺ فيتعلم منه، فرآه عثمان بن طلحة يصلي سراً فأخبر أمه، فأخذوه وحبسوه وأجاعوه وضيقوا عليه في حبسه، حتى خرج مهاجراً إلى الحبشة في الهجرة الأولى.^(٣)

لقد أودى ومنع مما كان ينعم به وجُوعاً وحُبس، ومع ذلك فضل ﷺ الإسلام على رغد العيش، وآثر الآخرة على الدنيا، ولما بايع أهل المدينة الرسول ﷺ بيعة العقبة الأولى بعث معهم رسول الله مصعب بن عمير أول سفير في الإسلام فكان نعم الداعية والمعلم لأهل المدينة، وقد قدم بهم قبل بيعة العقبة الثانية^(٤) التي بايعوا فيها الرسول ﷺ على الهجرة والحماية.

وقد شهد أحداً مع رسول الله ﷺ، وحمل راية رسول الله، واستشهد وهو يحملها وفيه نزل قوله - تعالى -: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ

(١) وضع البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ذكر مصعب بن عمير، ج ٤/٢١٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣/١١٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٦٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣/١٠.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٣١؛ ابن سعد، السيرة من الطبقات الكبرى،

ج ١/٢٢٠؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٤٧.

فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ [الأحزاب]. وكان متزوجاً حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش ﷺ وابنة عمّة رسول الله ﷺ. (١)

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار ...، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٤/٢٥٢؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٢؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٣٢.

الهجرة الأولى إلى الحبشة^(١)

أشدت الأذى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، وكان الرسول ﷺ يواسي أصحابه ويأمرهم بالصبر ويضرب لهم الأمثلة في أتباع الأنبياء السابقين، وكان القرآن يتوالى نزولاً على رسول الله ﷺ بقصص الأمم السابقة ونصر الله للمؤمنين، وكان يعزيهم ويفتح أمامهم باب الأمل واسعاً، في وقت كان الرسول ﷺ يؤكد لأتباعه أنهم منتصرون، وأن الله ﷻ سينشر هذا الدين في كل مكان، وكان هدفهم في هذه المرحلة المحافظة على الدين وتقديمه على كل شيء، ولو أدى الأمر لترك مكة (فراراً بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان).^(٢) وكان الرسول ﷺ على معرفة بالممالك المجاورة لبلاد العرب، وبأوضاعها الدينية والسياسية ومدى العدل بين ملوكهم وأنظمتها واحترامها للإنسان وحقوقه، ومع ارتباط الرسول ﷺ بالله وثقته به وتوكله عليه، فقد كان يأخذ بالأسباب ويأمر بها، وهذا جزء من الدين الذي جاء به، ولذلك فكر الرسول ﷺ في ملجأ يحتمي به المسلمون، ودار هجرة تحميه سواء دار الهجرة المؤقتة أو الدائمة بصحبته ﷺ، وقد كانت الآيات القرآنية تنزل على الرسول ﷺ تشير إلى سعة أرض الله، وإلى الصبر وذلك في قوله - تعالى -: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ [الزمر]،^(٣) وفي قوله - تعالى -: ﴿يُعَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ

(١) انظر: العودة، سليمان بن حمد، الهجرة الأولى في الإسلام (فقه المرويات)، ط ١ - الرياض: دار طيبة ١٤١٩هـ؛

أبو بكر، علي الشيخ أحمد، معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة، ط ١ - الرياض: مكتبة التوبة ١٤١٣هـ.

(٢) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار ...، باب هجرة الحبشة، ج ٤/ ٢٤٤.

(٣) انظر: ابن كثير تفسيره، ج ٢/ ١٦٦.

أَرْضِي وَسِعَةً فَيَأْتِي فَأَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [العنكبوت]،^(١) كما أشير إلى الهجرة في وقت متأخر،^(٢) وفي قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ [النساء].

وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا الملجأ والمخرج بما يعلمه من أحوال الأمم فقال ﷺ لأصحابه: ((لو خرجتم لأرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه)).^(٣)

كان واضحاً في توجيه الرسول ﷺ أن هذا الملجأ مؤقت، وليس دائماً، وأنه لن يصحبهم، بل تكون صحبته في المهجر والمقر الدائم، كما كان واضحاً أنه ﷺ كان يبحث عن الأمان لأصحابه، وأنه أخبرهم بحال الحبشة ومملكها، وأنه عادل لا يظلم عنده أحد، وأن للعدل قيمة عنده، وليس كحال أهل مكة، وقد كانت هذه معجزة للرسول ﷺ كما أخبر: فلم يظلم منهم أحد عند النجاشي، رغم محاولات قريش المتكررة، وكانت الحبشة معروفة للقرشيين، حيث يسافرون إليها للتجارة وأشار رسول الله ﷺ على أصحابه - وقد كثروا وزاد عليهم الأذى - بأن يهاجروا إلى الحبشة، وكان هذا التوجيه لعامة المسلمين القادرين خوفاً عليهم من الفتنة، وكان أول ما ينطبق عليه أمره آل بيته من المسلمين ﷺ، فكان من هؤلاء المهاجرين الأوائل ابنته رقية ﷺ وزوجها عثمان بن عفان ﷺ،^(٤) وغيرهما من المسلمين. ولم يكونوا من المستضعفين وحدهم، بل الأشراف هم الأوائل.

(١) انظر: ابن كثير تفسيره، ج ٢/١٤٤١.

(٢) ابن كثير، تفسيره، ج ١/٥٢٢.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٠.

(٤) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٤.

فخرجوا متسللين سرّاً وهم من كافة الطبقات، فيهم الفقير والغني والصغير والشاب، الرجل والمرأة، وكان عددهم أربعة عشر رجلاً وامرأة،^(١) منهم الزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير، وأبو حذيفة بن عتبة، وأبو سلمة عبدالله بن الأسد وزوجته أم سلمة، وعامر بن ربيعة وعثمان بن مظعون، وسهيل بن بيضاء، وأبو سمرة أبي رهم، وسهلة بنت سهيل بن عمرو، وليلى بنت أبي خثمة وغيرهم.^(٢) وقد وصل هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة ولقوا من ملكها النجاشي أصحابه كل إكرام، وسمع منهم وحماهم، ومنع الأذى عنهم، وقد أسلم ﷺ وصلى عليه الرسول ﷺ^(٣) عند موته.

وكان قبل ذلك من علماء النصراني، ولا شك أنه ناقش المسلمين عما جاء به رسول الله ﷺ وعن دعوته، وأنه نتيجة ذلك دخل في الإسلام وآمن به وصدقه. وقد قرن البخاري باب الهجرة إلى الحبشة في كتاب المغازي بباب آخر أسماه باب موت النجاشي ذكر فيه خمسة أحاديث كلها تدل على إسلام النجاشي، ومنها أن النبي ﷺ حين مات النجاشي قال: ((مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم))،^(٤) وأنه ﷺ قال: ((استغفروا لأخيكم))،^(٥) وفي اليوم الذي مات فيه صفّ ﷺ المسلمين في المصلى فصلى عليه وكبّر أربعاً،^(٦) وقد قالت أم سلمة: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها

(١) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، ج ٤/٢٩٦؛ وانظر: ما جاء في أمر الحبشة، وأمر النجاشي وقصة إسلامه عند ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٦٥.

(٤) البخاري صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، ج ١/٢٤٦.

(٥) البخاري صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، ج ٤/٢٤٦.

(٦) البخاري صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، ج ٤/٢٤٦؛ مسند الإمام

أحمد، ج ١/٢٠١.

خير جار - النجاشي - أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه).^(١)

وكانت هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة النبوية.^(٢) وقد استمرت بضعة أشهر، وصلت في نهايتها أخبار غير صحيحة بأن قريشاً قد أسلمت، فعاد كثير منهم إلى مكة، وعند وصولهم اكتشفوا أن الخبر غير صحيح، ولعل لمشركي مكة دوراً في إيصال الأخبار غير الصحيحة إلى المهاجرين في محاولة لاستدراجهم، وهناك سبب آخر وهو زيادة عدد المسلمين ودخول عدد من أشرف مكة في الإسلام منهم حمزة رضي الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٣) وغيرهم من أشرف مكة ولعل هذه الأخبار أوجدت لدى المهاجرين قناعة بأن أهل مكة لن ينالوا من المسلمين، وأنهم قد عزّوا في مكة، وأن عدد المسلمين صار قوياً بما يمنع الأذى عنهم،^(٤) فقررروا العودة إلى مكة، في شعور منهم أن الأوضاع قد تحسنت، وحينما عادوا إلى مكة لم يدخلوها إلا مستخفين أو في جوار رجال من قريش وقد عاد بعضهم مرة أخرى إلى الحبشة.^(٥)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٣٤: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٤.

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٦.

(٣) انظر: ابن أبي شيبه، المغازي، ص ١٣٥: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٤٢.

(٤) انظر: الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/٣٧٨.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٦٤: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى،

ج ١/٢٠٥.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

لما اكتشف المسلمون إصرار قريش على معاندة الرسول ﷺ وأذى أصحابه وأنه لا صحة لما ظهر من أخبار إسلام قريش، برزت الحاجة إلى خروج عدد آخر من المسلمين الذين زاد عددهم في مكة، خصوصاً بعد سماعهم بأمن أصحابهم المهاجرين الأوائل، فخرج جعفر بن أبي طالب ﷺ ابن عم رسول الله ﷺ في عدد من المسلمين حتى وصل عددهم إلى ثلاثة وثمانين رجلاً وإحدى عشرة امرأة،^(١) وقيل أكثر من ذلك.

وقد وصل أولئك إلى الحبشة وأمنوا والتقوا بالنجاشي أكثر من مرة وظهر لهم صدقه، وحماهم وآواهم، بل ذكر أنه أسلم على يد جعفر بن أبي طالب ﷺ وبايعه نيابة عن النبي ﷺ،^(٢) ولم يرق الأمر لقريش وكانت تربطه ببعض زعمائهم بعض العلاقات، فأرادوا أن يلحقوا الأذى بالمهاجرين إلى الحبشة فأعدوا هدية خاصة للنجاشي، واختاروا وفداً منهم لهذه المهمة كان فيهم عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة،^(٣) وتروي أم سلمة وهي من المهاجرين مع زوجها أبي سلمة،^(٤) فتقول: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار - النجاشي - أمناً على ديننا وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه)،^(٥) فلما بلغ ذلك قريشاً اتّمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فيهم رجلين منهم جليدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم (الجلود) فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقاً إلا أهدوا له هدية - وهي رشوة

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٣٠.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٣٣.

(٤) من رواية ابن إسحاق، المغازي، ص ١٩٤.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٣٤.

واضحة في محاولة لكسبهم للتأثير على قرار النجاشي - ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وأمروهما بأمرهم، وقالوا: لهما ادفعوا إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخيردار عند خير جار، فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم إنه قد ضوى الجأء إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقال بطارقتة حوله: صدقا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا هاء الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: واللّه ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ﷺ فقال له: كنّا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء للجوار ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله - تعالى -، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت: فقال له النجاشي: فاقراه عليّ، قالت: فقرأ عليه صدرًا من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم

إليكما ولا يكادون، قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتيته غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم، قالت: فقال عبدالله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا نفع، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه؟ قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاء به نبينا، كائنًا في ذلك ما هو كائن، قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ يقول: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتاخرت بطارقتة حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيووم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب، وأنى آذيت رجلاً منكم قال ابن هشام: ويقال دبراً من ذهب، ويقال: فأنتم شيوم والدبر: (بلسان الحبشة): الجبل - ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، قالت: فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.^(١)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ٣٣٤ - ٣٣٨، والنص له: وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٦٥ - ١٦٩: وابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/ ٢٤.

إسلام حمزة بن عبدالمطلب ^(١)

في السنة السادسة من البعثة كانت أعداد المسلمين قد زادت في مكة وانتشرت، وكان الأذى مستمرًا من كفار قريش لرسول الله ﷺ ولأتباعه، وكان حمزة بن عبدالمطلب لا يزال على دين قومه، إلا أنه لم يُعرف عنه أذى لرسول الله ﷺ، كما كان يفعل أبو لهب وامراته، وكان فيه حمية للرسول ﷺ فهو عمه، إضافة إلى أنه أخوه من الرضاعة. ^(٢) وقد مر أبو جهل برسول الله ﷺ وشتمه ونال منه وآذاه بما يكره فلم يرد عليه رسول الله ﷺ، وكانت جارية مولاة لعبدالله بن جدعان ترقب الموقف وتسمع ما يقول أبو جهل، وبعد أن انصرف أقبل حمزة بن عبدالمطلب عم النبي ﷺ من رحلة صيد معه سيفه وقوسه، وكان من أشجع قريش وأعز فتيانها، فلما مر بمولاة عبدالله بن جدعان قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام (أبو جهل)، وقصت عليه ما فعل بالنبي ﷺ ^(٣) فغضب غضبًا شديدًا، وانطلق يبحث عن أبي جهل فأقبل نحوه فضرب رأسه بالقوس فشجه ثم قال له: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فرد على ذلك إن استطعت - يقصد الضربة - فقام رجال لينصروا أبا جهل فنهاهم، وقال: دعوا أبا عمارة فوالله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا، ^(٤) (وكان أبو جهل يطمع في تراجع حمزة عن إسلامه) ورجع حمزة إلى بيته، وكان لا

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٩٢؛ وراجع تفصيلاته تحت عنوان "إسلام حمزة"، ج١/٢٩١.

(٢) ورد ذلك في حديث للبخاري، باب عمرة القضاء، ج٥/٨٥؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/١٠٨؛ وانظر: حجة الوداع، من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج٣/٩.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٩٢، تحت عنوان (إسلام حمزة).

يزال متردداً في ما قال وفي الغد توجه إلى رسول الله ﷺ ليسمع منه فسمع من النبي ﷺ ما أنار قلبه، وثبته على الإيمان، ودعا له الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله أشهد أنك لصادق فأظهر دينك فو الله ما أحب أن لي ما أظلمته السماء وأنا على ديني الأول،^(١) وكان إسلامه عزة للإسلام والمسلمين ونصراً ومنعة.^(٢)

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/٤٤٦.

(٢) ابن إسحاق، السير والمغازي، ص ١٧٢؛ محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج ١/٣٠٠؛ مهدي رزق، السيرة النبوية من المصادر الأصلية، ص ٢١٢.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

يُعد إسلام عمر بن الخطاب مرحلة مميزة في الدعوة المكية، وفي سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولذلك خصَّها أصحاب السير بعنوان مميز لما يروونه من أهمية الحدث.^(١)

وقصة إسلامه فيها أكثر من رواية، والذي يظهر أن تلك الروايات غير متناقضة، بل ربما يكمل بعضها بعضاً، من ذلك وقوع الإسلام في قلبه قبل إسلامه بفترة، ذلك أن عمر يقول: (خرجت يوماً إلى البيت فدخلت في ستر الكعبة والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلى وقد استفتح سورة الحاقة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ وأنا أستمع وأعجب من تأليفه فقلت في نفسي هذا والله شاعر كما قالت قريش فقراً قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة]. فقلت في نفسي كاهن فقراً ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة]،^(٢) ويظهر أن هذا الحدث قد أثر في قلب عمر وأقنعه بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحدثت حادثة أخرى رواها ابن إسحاق عن أم عبدالله بنت أبي حثمة زوجة عامر بن ربيعة قالت: (والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شِرْكِهِ، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟ قالت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، أذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً قالت: فقال: صَحَبَكُمُ اللهُ، ورأيت له رقّة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا قالت فجاء عامر لحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبدالله لو رأيت عمر سالفاً ورقته وحزنه

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٣٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٤٢.

(٢) انظر: بعض الخبر عند ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٣٦.

علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم، قال فلا يُسلمُ الذي رأيتِ حتى يُسلمَ حمار الخطاب)،^(١) قالت: يائساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته.

وقد أورد ابن إسحاق: (أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل، وقد أسلمت وأسلم بعلمها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النخام رجل من قومه، من بني عدى بن كعب قد أسلم، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبدالمطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب ﷺ، في رجال من المسلمين، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة فلقبه نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غررتك نفسك من نفسك يا عمر، أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: خنتك لصهرتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد - والله - أسلما وتابعا محمداً على دينه وعليك بهما قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وخنتيه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسَّ عمر تغيب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال:

(١) ابن إسحاق، السير والمغازي، ص ١٨١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٢٩٤.

ما هذه الهينة التي سمعت؟ قالوا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختته سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون أنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بالله ليردنها إذا قرأها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه فقالت له: يا أخي، إنك نجسٌ على شركك، وإنه لا يمسه إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أئد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال يا رسول الله ﷺ: هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبدالمطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: أئذن له فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ حجزته أو بمجمع رداءه ثم جبذها جَذْبَهُ به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة،

فقال عمر: يا رسول الله جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم.^(١)

ومنذ إسلام عمر كان حريصاً على نصره النبي ﷺ وإغاظة قريش. وقد كانت له شخصية قوية مميزة قوية فاعلة، فقد روى ابنه عبد الله بن عمر ﷺ أنه (لما أسلم أبي عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقبل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه قال عبد الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فو الله ما راجعه حتى قام يجرد رداءه واتبعه عمر وتبعته أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش وهم في أنديتهم حول الكعبة ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا، قال: ويقول عمر من خلفه كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاثلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال: وطلح^(٢) (حتى تعب) فقعده وقاموا على رأسه وهو يقول افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، قال فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى، حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا صبا عمر، فقال: فمء، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل قال: فو الله كأنما كانوا ثوباً كشط عنه، قال: قلت: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الرجل: الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك أي

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ٣٤٤ - ٣٤٩؛ وانظر: ابن أبي شيبه، المغازي، ص ١٣٥.

(٢) طلح: أعيا وتعب.

بُنَيَّ (العاص بن وائل السهمي).^(١)

وقد ثبت في روايات عند البخاري كان يؤذي ختته سعيد بن زيد وأخته فاطمة قبل إسلامه فسعيد بن زيد يقول: (لقد رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته وما أسلم).^(٢)

وكان إسلام عمر عزة للمسلمين يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)،^(٣) ويقول أيضاً: (لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا نصلي).^(٤)

وقيل إن المشركين اجتمعوا على عمر عند داره يريدون قتله، فلم يبتعدوا عنه إلا بعد أن أجاره العاص بن وائل.^(٥)

ورغم شدة عمر رضي الله عنه وقوته إلا أن التهديد الجارف جعله يخشى القتل، ففي رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: بينما هو في الدار خائفاً إذ جاءه (العاص بن وائل السهمي) أبو عمرو بن العاص، وعليه حلة حَبْرَة وقميص مكفوف بحريير وهو من بني سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية فقال له: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت قال: لا سبيل إليك، بعد أن قالها أمنت، فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادي فقال: (أين تريدون فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ، قال: لا سبيل إليه فَكَّرَ الناس).^(٦)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٤٩، ٤٣٩؛ وقد ورد في البخاري ما يؤيد أجزاء منها، وقد جرت عدة أبحاث عن إسلام عمر بن الخطاب والروايات الواردة فيها.

(٢) من رواية البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب، ج ٤/٢٤٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، ج ١٤/١٨٦.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج ٣/٣٧٠.

(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام عمر، ج ٤/٢٤٢.

(٦) انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام عمر، ج ٤/٢٤٢.

حادثة انشقاق القمر^(١)

من عناد قريش لرسول الله ﷺ فقد طلبوا منه آية حدوها له، حيث (سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما).^(٢)

وقد وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي (باب انشقاق القمر)، وأورد فيه عدة أحاديث عن انشقاق القمر، ومنها رواية عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى فقال: اشهدوا وذهبت فرقة نحو الجبل)،^(٣) وقال بعض العلماء إنها إحدى الآيات على قرب الساعة،^(٤) وقد حدثت في زمن النبي ﷺ.

ويرى المفسرون أن ذلك الحدث هو الوارد في قوله - تعالى -: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۗ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۗ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۗ حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ ۗ﴾ [القمر].

ومع وجود هذه الآية الواضحة فإن مشركي مكة استمروا على عنادهم.

وقد ذكر زغلول النجار أن علماء الفلك خصوصاً بعد اكتشاف القمر في رحلات فضائية أكدوا: (أن القمر كان قد انشق في يوم من الأيام ثم

(١) وضع البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، ج٤/١٨٦.

(٢) رواه البخاري، صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر، ج٤/٢٤٣.

(٣) رواه البخاري، صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر، ج٤/٢٤٣.

(٤) تفسير ابن كثير، ج٢/١٧٨٨.

التحم، بدليل تمزقات طويلة جداً وغائرة، أي عميقة في جسم القمر تتراوح أعماقها بين عدة مئات من الأمتار إلى أكثر من الكيلومتر، ويتراوح عرضها بين نصف كيلو متر وخمسة كيلو مترات، وتمتد لمئات من الكيلو مترات في خطوط مستقيمة أو متعرجة.^(١)

وهذه معجزة إلهية حسية خارقة للسنن والقوانين،^(٢) حدثت بأمر الله في عهد رسول الله ﷺ في هذه المرحلة المكية كغيرها من المعجزات.

(١) د. زغلول النجار، خواطر في معية خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ص ١٢٠، ط ٣ - القاهرة: نهضة مصر ٢٠٠٨م.
(٢) المصدر السابق.

المقاطعة الظالمة^(١)

كانت قريش تمارس أقسى أنواع العقوبة والإيذاء للرسول ﷺ ولمن يؤمن به أو يدافع عنه وعن أتباعه، وقد جربت كل أنواع الأذى، ومع ذلك كانت الدعوة تنتشر بين القرشيين، وخرجت خارج مكة، بل تجاوزت إلى الحبشة، حيث ثبت إسلام النجاشي وبعض أتباعه وإيمانهم بالنبي ﷺ.^(٢)

وقد عازمت قريش على قتل النبي ﷺ، فحرص عمه أبو طالب على الدفاع عنه، وشاركه في ذلك بنو هاشم وبنو المطلب.

وقد وضع البخاري باباً سماه (باب تقاسم المشركين على النبي ﷺ)، وذكر فيه حديثاً واحداً يؤكد الحادثة ومكان وقوعها، حيث روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال حين أراد حُنيئاً: ((منزلنا غداً - إن شاء الله - خَيْفَ بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر)).^(٣)

ويبدو أنه نتيجة للضغوط وللخوف على الرسول ﷺ فقد اضطر المدافعون عنه إلى التجمع في شِعْب بني هاشم.^(٤) وفي هذه الأثناء اجتمع زعماء المشركين في مكة، وذلك في السنة العاشرة من البعثة،^(٥) واتفقوا فيما بينهم على أن يكتبوا بينهم عقداً، يتعهدون فيه على مقاطعة بني هاشم والمطلب ومن يقف معهم في الدفاع عن الرسول ﷺ، وكان فيه أن لا

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، وذكر حصار قريش رسول الله ﷺ في الشعب، ج ٢٠٨/١؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣٥/١، خبر الصحيفة.

(٢) انظر: الهجرة إلى الحبشة، من هذا الكتاب.

(٣) البخاري، صحيحه، كتاب مناقب الأنصار...، باب تقاسم المشركين على النبي ﷺ، والخيف ما انحط من على الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ج ٢٤٦/٤.

وخيف بني كنانة: هو خيف منى وبه مسجد منى المشهور (محمد شراب، المعالم الأثرية في السنة والسيرة)، ص ١١٠.

(٤) السهيلي، الروض الأنف، ج ١٢٧/٢.

(٥) انظر د. أكرم العمري، السيرة النبوية، ص ١٨٢.

ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئاً ولا يبتاعوا، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً حتى يسلموا رسول الله ﷺ إليهم ليقتلوه، وقد كتبوا ذلك في صحيفة علقوها في جوف الكعبة، في محاولة منهم لإكسابها شرعية وإعطائها قوة تنفيذية بين قريش وأحلافها وقد ذُكر أن ذلك في وقت خرج فيه المسلمون إلى الحبشة، وزادت أعدادهم بعد الصحيفة. وقد استمرت هذه المقاطعة ثلاث سنوات.^(١) واشتد الجوع والأذى، وزادت الحاجة في المسلمين وذوي رحم الرسول ﷺ والمدافعين عنه.

وقد اضطر المحاصرون المقاطعون إلى أكل ورق الشجر والجلود من شدة الحاجة، وكان في بني المطلب وهاشم حمية دفعتهم للدخول مع الرسول والمؤمنين في هذا الحصار وهذه المقاطعة عدا أبا لهب،^(٢) الذي كان مع المشركين مشاركاً في أذى النبي ﷺ، بل ربما قتله لو استطاع، وكان الخوف على حياة الرسول ﷺ خلال الحصار قائماً، ولذلك حرص عمه أبو طالب على متابعة سلامته بنفسه، فكان إذا نام الرسول ﷺ يوقظه أحياناً ويطلب منه تغيير مكانه خشيةً، عليه من الغيلة من قريش.^(٣)

وقد دعا رسول الله ﷺ على قريش، فحدثت فيهم مجاعة حتى اضطروا للميثة، وكانت قريش على قناعة أن ما أصابهم كان بدعاء الرسول ﷺ، فجاء أبو سفيان يناشد الرسول ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ ربه، فكشف الله عن قريش العذاب.^(٤)

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٣٥١.

(٣) انظر: عثمان الخميس، كنوز السيرة، ص ٧٥.

(٤) انظر: د. أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/١٨٣.

وأثناء الحصار كان أفراد من قريش من ذوي رحم المحاصرين تأخذهم الرحمة فيقومون بتهريب الطعام للمحاصرين ليلاً بشكل سري. وكان من هؤلاء حكيم بن حزام بن خويلد، حيث كانت أم المؤمنين خديجة عليها السلام عمته، إضافة إلى آخرين كانوا يُحملون الإبل أحياناً بالطعام فيأتون بها ليلاً في فم الشَّعب فيخلعون الخُطام ويدفعون البعير محملاً بالطعام داخل الشَّعب، وقد كان هؤلاء الواصلون يدخلون في نزاع مع المُصرين على المقاطعة، ففي يوم من الأيام تنازع حكيم بن حزام مع أبي جهل بسبب إرسال حكيم شيئاً من القمح إلى عمته خديجة عليها السلام.^(١)

وبعد ثلاث سنين من الحصار تلاوم بعض عقلاء قريش، واتفق مجموعة منهم على الجهر بإلغاء المقاطعة، ومطالبة قريش بتمزيق الصحيفة، والعودة عن مقاطعة بني هاشم وأتباع النبي عليه السلام، وكان على رأس هؤلاء الرافضين للمقاطعة المطالبين بإلغائها هشام بن عمرو بن ربيعة، وكان من أشرف القوم، فمشى إلى رجال من قريش أنسَ منهم المساندة وكره المقاطعة (فاستثار حميتهم وإنسانيتهم لنقض الصحيفة، والخروج من هذا التعاقد الظالم، ولما كانوا خمسة اجتمعوا وتعاهدوا على نقض الصحيفة).^(٢) وقام زهير بن أمية وأمه عاتكة بنت عبدالمطلب في نادي قريش وقال: (يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يُباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة).^(٣)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣٥٤؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/٣٦٠.

(٢) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ١٣٩.

(٣) انظر: عنوان السهيلي في الروض الأنف، ج٢/١٢٧؛ وابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/٢١.

وحاول أبو جهل جاهداً منع نقض الصحيفة، لكن أصحاب الفكرة غلبوا في الحديث، فقال أبو جهل قولته المشهورة: ((إنه لأمر قُضي بليل)).^(١) وقام المطعم بن عدي بإخراج الصحيفة من الكعبة ليشقها، فوجد الأَرْضَةَ قد أكلتها إلا (باسمك اللهم).^(٢) وكان النبي ﷺ أخبر أبا طالب، بذلك وبطلت الصحيفة وما فيها من ظلم، وعاد الرسول ﷺ ومن معه إلى حياتهم العادية وسط المجتمع المكي، ونشطوا في التجارة بيعاً وشراءً، واستغنوا بذلك بعد أن كانوا مُنعوا منه، ومورست عليهم إجراءات صارمة لعزلهم اقتصادياً واجتماعياً ومعنوياً من أهل مكة.^(٣)

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٧٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٤٥.

(٢) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٩.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٠٩.

وفاة خديجة عليها السلام ^(١)

كانت أم المؤمنين خديجة عليها السلام نعم الزوجة والصاحبة والمواسية والمعينة للنبي عليه السلام، واسته بمالها، وأعانتة بنفسها، أول من آمن به وصدقته، نعم الزوجة لخير الخلق عليه السلام. وقد ضرب الله مثلاً في القرآن الكريم لبعض زوجات الأنبياء حُنَّ أزواجهن - بمساعدة أعدائهم والوقوف مع المشركين، وليس بخيانة زوجية -، كما قال - تعالى -: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحریم]. أما خديجة عليها السلام فهي نعم الزوجة، أثنى عليها رسول الله عليه السلام فقال في الحديث الذي رواه علي بن أبي طالب عليه السلام: ((خير نساءها مريم بنت عمران وخير نساءها خديجة بنت خويلد)). ^(٢) وعن عائشة عليها السلام قالت: (ما غرت على امرأة للنبي عليه السلام ما غرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن). ^(٣) كما روى أبو هريرة عليه السلام قال: (أتى جبريل النبي عليه السلام فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب). ^(٤)

كانت زوجته الوحيدة حتى ماتت، وأم أولاده وبناته، أحسن النساء خلقاً وأحبهن لرسول الله عليه السلام، دفعت عنه كثيراً من الأذى بنفسها، وبتوجيهها

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٤١٥، (وفاة أبي طالب وخديجة).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب تزويج النبي عليه السلام خديجة وفضلها عليها السلام، ج٤/٢٣٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب تزويج النبي عليه السلام خديجة وفضلها عليها السلام، ج٤/٢٣٠ -

٢٣١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب تزويج النبي عليه السلام خديجة وفضلها عليها السلام، ج٤/٢٣١.

لبنائها ﷺ، كما شارك أقاربها في الدفاع عن النبي ﷺ، إرضاءً لها، ولما يعرفونه منها عن صدق النبي وحسن عشرته.^(١)

وفي العام العاشر من البعثة النبوية،^(٢) توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ﷺ، وكان ﷺ راضياً عنها محبباً لها، مبشرها بالجنة في أكثر من موضع وقد كانت وفاتها في العام الذي توفي فيه عمه أبو طالب. وكان خير مدافع عن رسول الله ﷺ، ولذلك سمي هذا العام عام الحزن.^(٣)

وقد أجمعت الأمة على أن خديجة ﷺ خير نساء النبي ﷺ وفي كل خير.^(٤) وقد كان الرسول ﷺ وفيّاً لها بعد وفاتها، فقد كان يدعو لها ويذكرها بخير ويصل ذوي قرابتها وصوحيباتها، وحينما أسر أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت النبي في غزوة بدر أرسلت زينب قلادة أهدتها لها أمها خديجة فداءً لزوجها، فلما رأى النبي ﷺ القلادة تذكرها ورق لها رقة شديدة، وقال لأصحابه: ((إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا))،^(٥) واستجاب الصحابة ﷺ. وكان ﷺ غاية في الأدب ولم يوجه أمراً، إلى أصحابه الذين فعلوا ما يحب وإن لم يكن طلب ذلك.

وقد ورد أن امرأة من صوحيباتها جاءت إلى النبي ﷺ في المدينة، فأقبل عليها وأحسن لقاءها وسأل عن أحوالها، فلما خرجت قالت عائشة ﷺ، وقد عرفت السبب وأحست بشيء من الغيرة: تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال فقال ﷺ: ((إنها كانت تأتينا زمان خديجة وإن حُسن العهد من الإيمان)).^(٦)

(١) انظر: زواج الرسول ﷺ من خديجة ﷺ، من هذا الكتاب.

(٢) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢١١.

(٣) الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/٣٦٧.

(٤) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج ١/٣٩٧.

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٦٥٣.

(٦) رواه الحاكم والبيهقي، محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج ١/٤٠٠؛ وانظر: ترجمة خديجة، من هذا الكتاب.

وفاة أبي طالب

انتهت المقاطعة وألغتها قريش بفعل ذوي الضمائر منهم، وعاد الرسول ﷺ ومن معه من قومه إلى الحياة الطبيعية في مجتمع مكة، واطمأن أبو طالب وهو المدافع الرئيس عن النبي ﷺ كثيراً بعد إلغاء المقاطعة، ولكن التهديد لحياة الرسول ﷺ لم يتوقف.

قبيل وفاة أبي طالب مرض واشتكى في السنة العاشرة من البعثة،^(١) وكان الرسول ﷺ مشفقاً عليه داعياً إياه للإسلام والخير، منذ مبعثه، ولكنه لم يؤمن ويعلن إسلامه. وفي الوقت نفسه لم يتوقف عن مساندة الرسول ﷺ ودعمه والوقوف معه وحمايته روى البخاري ((أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: أي عمّ قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله))، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب، فلم يزا إلا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به هو على ملة عبدالمطلب فقال النبي ﷺ: ((لأستغفرن لك ما لم أنه عنه))،^(٢) فنزل قوله - تعالى -: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة]، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص].^(٣)

وذكر أن أبا طالب دعا النبي ﷺ لاجتماع مع مشركي مكة، فقال: يا ابن أخي إن هؤلاء أشراف قومك اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢١١.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، ج ٤/٢٤٦.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٤٢١.

رسول ﷺ: ((نعم كلمة تعطونهاها تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم))، فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات قال ﷺ: ((تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه))، فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب، ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: والله يا بن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً،^(١) ونزل في ذلك قوله - تعالى -: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تِلْكَ حِينِ مَنَاصِ ۝٣ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۝٤ وَقَالَ الْكُفَرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝٥ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٦ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَيَّ الْهَتِكُ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٧ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ۝٨ أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ۝٩﴾ [ص].^(٢)

وقد كان النبي ﷺ محباً لعمه مشفقاً عليه، يرى معروفه ويشكر له وقوفه إلى جانبه، ويدرك أن لا منقذ من النار لأي كان إلا شهادة أن لا إله إلا الله، وكان ﷺ حريصاً أشد الحرص على أن يقولها أبو طالب، ولكن حضور أبي جهل وأمثاله من شياطين الجن وتأكيدهم على ملة عبدالمطلب، حيث لم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به هو على ملة عبدالمطلب.^(٣)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤١٧؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١١١.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٦٠٠.

(٣) من حديث البخاري، باب قصة أبي طالب، ج ٤/٢٤٧.

ومات على ذلك فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً ، وقال: ((لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك)) فنزل قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص]، وقوله - تعالى -: ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة]، وقد رأى بعض العلماء أن الآية لم تكن في أبي طالب، وإن صح ذلك فهو نهي عام عن الاستغفار لمن مات على غير الإسلام، ولو كانوا أولى قرابة الرسول ﷺ، وهذا واضح من الآية.

ويحاول البعض إثبات إسلام أبي طالب محبة في علي ﷺ، كما يرون. ومحبة علي واجبة على الأمة جميعاً ومحبة الرسول ﷺ مقدمة على ذلك، ولا تضاد بينهما، ومع ذلك فإننا نعلم بلا شك أن أبا لهب عدو لله ولرسوله، ولم يضر الرسول ﷺ ذلك، ولم يضر علي بن أبي طالب، فهو عمه، كما أن أبا طالب عم الرسول ﷺ، ووجود أحاديث صحيحة لدى البخاري وغيره تؤيد عدم إسلام أبي طالب لا يضير أمير المؤمنين علي ﷺ، وما له من مكانة عند الله وعند المسلمين إلى يوم القيامة.

فالشرك حد فاصل في القرابة، ولم نجد علياً ﷺ يقول غير ذلك أو يذكر إسلام أبيه. ودفاع أبي طالب عن النبي ﷺ غير مجحود ولا منكر، لكن أجر الآخرة مقرون بالإيمان بها والإيمان بالله ورسوله، وإن كان هناك ما يدل على تصديق أبي طالب بالنبي ﷺ، إلا أن عدم نطقه بالشهادة وإصراره على ملة عبدالمطلب وهي الشرك حتى آخر لحظة في حياته بمتابعة من الأشرار، وشياطين الإنس وعلى رأسهم - أبو جهل - تجعل أبا طالب في صف عبدالمطلب كما قال، ولعل العباس بن عبدالمطلب، وهو عم رسول الله

وأخو أبي طالب أدرك هذا الأمر ووجه سؤالاً لرسول الله ﷺ ، فقد روى البخاري عن العباس ﷺ قال: للنبي ﷺ: (ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار).^(١)

وقد ناقش ابن حجر الموضوع في الفتح وفي الإصابة، واستفاض في ذلك.

وهنا لابد من التأكيد مرة أخرى أن منزلة علي ﷺ في قلوب المؤمنين عظيمة وعند الله له من المكانة ما لن يزيده أو ينقصه عدم إيمان أبيه ﷺ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر]. ومن المعروف أن القرآن الكريم تحدث عن والد إبراهيم ﷺ أنه كان من عتاة الكفر في زمانه ولم يضره شيئاً، فعلي ﷺ مثله مثل إبراهيم ﷺ في هذا الموقف الذي قال الله فيه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة]، والحديث العلمي عن موقف أبي طالب ووفاته لا يناقض محبتنا لآل البيت والنبي ﷺ وعلي ﷺ، وهي جزء من ديننا وحبنا لهم.

لقد كان أبو طالب مسانداً للرسول ﷺ، وبموته خفَّ دعم النبي ﷺ وضعف مناصروه وتزامن ذلك مع وفاة خديجة فسمي عام الحزن.^(٢)

(١) البخاري، صحيحه، باب قصة أبي طالب، ج٤/٢٤٧.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤١٦؛ عثمان الخميس، كنوز السيرة، ص ٨٠، ٨٢.

رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف

الطائف ثاني مدينة حجازية، وإحدى القريتين اللتين أشار إليهما القرآن الكريم في قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف]، أقرب المدن إلى مكة وأكثرها اتصالاً بها.

كان أهل مكة منذ العصر الجاهلي يملكون بها المزارع والبساتين ويتوجهون إليها في الصيف، يرتبط أهلها بأهل مكة بروابط النسب والمصاهرة وعلاقات القربى إضافة إلى التبادل التجاري طوال السنة،^(١) ويقع بقربها سوق عكاظ، حيث كان الرسول ﷺ يتردد عليه قبل البعثة وبعدها، وكان يعرض فيها دعوته ونفسه على القبائل منذ الجهر بالدعوة.^(٢) وبعد وفاة خديجة ﷺ وعمه أبي طالب، اشتد الأذى على رسول الله ﷺ حتى ضاقت عليه مكة. وقد فقد السند والزوجة، كما كان كثير من الصحابة قد هاجروا إلى الحبشة، فيمم الرسول ﷺ وجهه نحو الطائف،^(٣) حيث قبيلة ثقيف، تحيط بها هوازن. وقد صاحبه في هذه الرحلة زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وصاحبه وألصق الناس به ﷺ.^(٤)

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الطائف كان هدفه الدعوة، فقابل ثلاثة رجال من أشرف ثقيف دعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وأن يناصروه ﷺ، أما الأول فهو عبد يا ليل بن عمرو بن عمير فردَّ عليه ردًّا قبيحًا، وكان مما قال له: هو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة إن كان الله

(١) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٩/٤.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٢٤.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢١١.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٣٢.

أرسلك. والثاني أخوه مسعود قال: ما وجد الله أحداً غيرك يرسله؟! وأما الثالث فهو أخوهم حبيب فقال: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسول الله ﷺ لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك، فيئس رسول الله ﷺ منهم ومن مناصرتهم، وكره أن يبلغ الناس ردهم فيقلدوهم في أذى النبي ﷺ، وقال لهم: ((إذا فعلتم ذلك فاكتموا عنى))، خشية من أذى الآخرين، لكنهم لم يصبروا ولم يكتفوا ولم يكتفوا بالرد السيئ فأغروا بالرسول ﷺ السفهاء والصبيان والعيبد الذين أخذوا يتبعون رسول الله ﷺ يسبونهم، ويرمون قدميه الشريفتين بالحجارة، حتى دميت قدما رسول الله ﷺ، وسال الدم على نعليه، ومعه زيد ابن حارثة يدفع عنه ويستقبل الحجارة بنفسه، حتى شجَّ وجهه ﷺ، واضطر الرسول ﷺ وصاحبه أن يلجأ إلى حائط - مزرعة - لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما من مشركي مكة المؤذنين لرسول الله ﷺ، ولعله سرَّهما ما رأيا من إصابة الرسول ﷺ، وما وقع من أذى أهل الطائف.

وجلس رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة تحت ظل شجرة يستريحان من عناء ما حدث لهما، وتوجه الرسول ﷺ بدعائه المشهور ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟! إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله)).^(١)

(١) انظر: تخريج الدعاء والحكم عليه عند الصلابي، في السيرة النبوية، ج ١/٤٠٧.

وقد جاء غلام نصراني يعمل لابنَي شيبَة في المزرعة - ويسمى (عدّاس) - جاء بقطيف من عنب إلى الرسول ﷺ فوضعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال الرسول ﷺ: ((بسم الله الرحمن الرحيم)) ثم أكل، فاندھش عداس ونظر إلى النبي ﷺ وقال والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: ومن أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال عدّاس نصراني من أهل نينوى، فقال ﷺ: ((من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال ﷺ: ذاك أخي كان نبياً وأنا نبيُّ))، فأكبَّ عداس يقبل رأس رسول الله ﷺ.

كان ابنا ربيعة يراقبان الموقف فقال أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالَا له: يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال عداس: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، فقالَا له: ويحك يا عداس! لا يصرفتك عن دينك فإن دينك خير من دينه.^(١)

وقد أخذ ﷺ الطريق عائداً إلى مكة، وفي قرن الثعالب رفع ﷺ رأسه فرأى سحابة أظلمت فإذا جبريل عليه السلام يناديه ((إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك مما شئت إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين))، فقال ﷺ: ((أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً))،^(٢) لقد كان ﷺ رحيمًا بأمتة ينتظر

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤٢٠: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/٢١٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، ج٤/٨٣: وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من أذى المشركين والمنافقين، ج٥/١٨١.

توبتهم أو أجيالاً أخرى مصدقة من أصلابهم.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى مكة حاول المشركون منعه من دخولها، وتوجس ﷺ منهم شراً، فبعث إلى المطعم بن عدي أن يجيره، فقال: نعم. فذهب الرسول ﷺ إلى بيته ونام عنده وخرج معه في الصباح، ومعه بنوه، متقلدو السيوف، وقال المطعم للقوم: أنا مجير محمداً فطاف الرسول ﷺ وهو في جوار المطعم والقوم لا يستطيعون أن يخفروا ذمته، ولذلك أتى الرسول ﷺ عليه خيراً، لما جاء ابنه جبير في فداء أسرى بدر وقال: ((لو كان المطعم حياً ثم كلمني في هؤلاء لتركتهم له)).^(١)

وفي عودة الرسول ﷺ من الطائف مرّ بنخلة، وهي وادٍ بين مكة والطائف على مسيرة يوم من مكة في ذلك الزمان أما اليوم فهي أقل بكثير ولا تكاد تزيد عن عشرين دقيقة - بالسيارة - والله أعلم، فقام ﷺ من الليل يتهدج كعادته، فمر به نفر من الجن فسمعوا منه القرآن فلما انصرفوا ولّوا إلى قومهم منذرين وقد آمنوا وأجابوا.^(٢) وفيهم نزل قول الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف].^(٣)

وهذا لا ينفي استماع الجن للرسول ﷺ قبل هذه الحادثة أو بعدها. ومن

(١) انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/١٥٣؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢١٦.

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢١٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ج ٢/١٧٠٨؛ تفسير الطبري، ج ١١/٢٩٧.

الراجع أن الرسول ﷺ لم يتحدث عنهم، ولا عن سماعهم للقرآن إلا بعد أن نزلت عليه هذه الآيات.^(١)

* * * * *

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج ٢/١٧٠٨.

الإسراء والمعراج (قبل الهجرة)

الإسراء والمعراج^(١) من الأحداث المهمة والكرامات الخاصة بنبينا محمد ﷺ. ولعل تسمية سورة من سور القرآن الكريم (بالإسراء)، وورود كم هائل من الأحاديث حول الحادثة دليل على أهمية الحدث ومكانته في حياة الرسول ﷺ، وفي النبوة والرسالة.

فالإسراء هو ذهاب الرسول ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس في جزء من ليلة، ورجوعه، في الليلة نفسها بطريقة معجزة ومحددة.^(٢)

والمعراج هو الصعود به ﷺ من بيت المقدس، والعروج به إلى السموات السبع، ورؤيته من آيات الله الكبرى ورجوعه إلى بيت المقدس في الليلة نفسها.^(٣)

والإسراء فيه ربط بين بيت الله الحرام في مكة والمسجد الأقصى في بيت المقدس وارتباط للنبي ﷺ بمن سبقه من الأنبياء ﷺ وارتباط دعوة التوحيد التي جاء بها بدعوات من سبقه ﷺ، فالرب واحد والدين واحد وأصل البشر واحد، قال - تعالى -: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(٤)

(١) أُلِّفَت العديد من الكتب والرسائل حول الحدث قديماً وحديثاً، ولا زال الكثير منها مخطوطاً.

انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي، المخطوط السيرة والمدائح النبوية - عمان، الأردن: مؤسسة آل البيت.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٩٥؛ ابن حجر، فتح الباري، ج ١٥/٤٩؛ ومهدي رزق الله، ص ٢٣٣؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢١٣.

(٣) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٢٠؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢١٣.

[الإسراء] والهدف واحد ، قال - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف].

وقد نصت الآيات على الإسراء في قوله - تعالى - : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء].

ومن الواضح أن الإسراء بجسده وروحه ﷺ ، ولو كان بالروح فقط لما احتاج الأمر إلى جدال مع المشركين والمنكرين ، بل هو بالجسد والروح لنبيه المصطفى ﷺ ، ومن رحمة الله - تعالى - أن الآيات بدأت بالحديث عن تسبيح الله وعبودية الرسول ﷺ لله حتى لا يأتي متقوّل ليصرف الأمر عن موضعه ،^(١) أو يخرج النبي ﷺ عن بشريته وعبوديته لله التي هي تكريم يعتز به - صلوات ربي وسلامه عليه - فهو ما جاء إلا ليقود الناس إلى عبودية الواحد الأحد ، ويثبت نفسه والناس على ذلك ﷺ .

بداية الإسراء حينما كان رسول الله ﷺ نائمًا في بيته بمكة ، فأتاه جبريل ﷺ فأخذه إلى بئر زمزم فشق صدره وطهر قلبه وحشي إيمانًا وحكمة.^(٢) وهذا الشق لا ينافي شقه في مرات غيرها ،^(٣) وأحضر له البراق ، دابة لها سرعة وحركة مخصوصة لا يعلمها إلا الله تعالى .

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/١٠٤ .

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ج٤/٢٤٨؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ ،...، ج١/١٠١؛ وابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٩٨ .

(٣) انظر: حادثة شق الصدر في بني سعد أثناء حضائته فيهم وتخريج رواية أنس بن مالك، في رضاعة النبي ﷺ ، من هذا الكتاب .

وركبه الرسول ﷺ، وما أن ركب رسول الله ﷺ حتى وصل سريعاً إلى بيت المقدس.^(١)

وحين وصل الرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى ربط البراق في الحلقة التي كانت تربط به الأنبياء.^(٢) وهذا جزء من عمل الأسباب مع التوكل على الله وإلا فالبراق تحت أمر رسول الله ﷺ.

وصلى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم أتاه جبريل بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، فاختر ﷺ اللبن، فقال جبريل ﷺ: ((هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوْتِ أُمَّتِكَ)).^(٣)

وقد أورد ابن إسحاق أنه ﷺ وجد نفراً من الأنبياء فيهم إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم ﷺ.^(٤)

إنها الصلاة في حياة النبي ﷺ، وأهميتها لديه، وفي حياة أمته، حيث أمّ الأنبياء بها، كما أن فرضها وتشريعها خمس مرات في اليوم والليلة كان في معراجهم ﷺ،^(٥) ولم يتغير من وضعها شيء في الشريعة،^(٦) فاستمرت على

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٩٧.

(٢) من حديث مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء...، ج ١/١٠٠؛ ومن رواية ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٢٠.

(٣) من رواية مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء، ج ١/١٠٧؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٨٧.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٩٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٩٩.

(٥) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ج ٤/٢٤٨؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ١١٨.

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٠٨؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١١٧؛ وانظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ج ٤/٢٤٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/١٠١.

ذلك ولم يحصل لأي ركن من أركان الإسلام أو فرائضه مثلما حصل للصلاة من هذا التشريع.

ثم عُرج برسول الله ﷺ إلى السماء. وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه باب المعراج^(١) أورد فيه حديثاً مطولاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ذكر فيه معلومات مختصرة عن رحلة الإسراء والمعراج، مع أن تفصيلاتها في روايات أخرى كثيرة.

((فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أُسريَ به، قال: بينما أنا في الحطيم، وربما قال: في الحجر، مُضْطَجِعاً إِذْ أَتَانِي آتٍ فَقَدْتُ، قال: وسمعتَه يقول: فشقُّ، ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعتَه يقول من قصه إلى شعرته، فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي، ثم حُشي، ثم أعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، فقال له الجارود: وهو البراق، فقال: يا أبا حمزة فقال أنس: نعم يضع خَطُوهُ عند أقصى طرفه، فَحُمِلت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك، قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه، فردَّ السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال:

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ج ٤/٢٤٨.

هذا يحيى وعيسى فسلم عليها فسلمت فرداً، ثم قالاً: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال: جبريل قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فردّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء، ففتح فلما خلصت إلى إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه، فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم صعد بي، حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، قيل: ومن هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه، فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، فلما تجاوزت بكى قيل له: ما يبكيك قال أبكي لأن غلاماً بعث يدخل من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح، ثم رُفعت لي سِدْرَةُ المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا

ورقها مثل أذان الفيلة قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة أنت عليها وأمتك، ثم فرضت عليّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أمرت؟ فقلت: بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت، فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى، فقال: مثله، فرجعت، فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال: مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال: مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت، قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: أن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم، قال، فلما جاوزت، ناداني منادٍ أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي)).^(١)

وهذا الحديث عن المعراج فيه شيء من الاختصار، إذ إن رسول الله ﷺ كان يحدث عمًّا رأى أثناء المعراج في أحاديث كثيرة نقلت عنه، سواء منها وصف الجنة أم وصف النار، وقد أعطي ﷺ كنوزًا عظيمة من العلم والآيات شاهدها أثناء المعراج، فكان يحدث عنها الأمة بقية حياته في أوقات

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، ج ٤/ ٢٤٨ - ٢٥٠؛ وانظر:

ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١١٥.

متفاوتة، مما يصعب معه الحديث عما رأى رسول الله ﷺ في معرجه في حديث واحد.^(١)

وقد استشهد كثير من العلماء بما ورد في سورة النجم من آيات وربط بينها وبين المعراج برسول الله ﷺ يقول الله - تعالى -: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتَمْتَدُونَهُ ۝١٢ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٣ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٤ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٥ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٦ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٧ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٨ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٩﴾ [النجم].

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه باب (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس)، أورد فيه حديثاً عن ابن عباس ؓ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾.^(٢) قال هي رؤيا عين أريها الرسول ﷺ ليلة أسري به والشجرة الملعونة شجرة الزقوم.^(٣)

ثم أعيد رسول الله ﷺ من معرجه إلى بيت المقدس ومنها رجع إلى مكة في ليلته.

وحدث ﷺ أهل مكة عن الحدث في صباح اليوم التالي، وأثار استغرابهم واستنكارهم. روى ابن عباس ؓ قال رسول الله ﷺ: ((لما كان ليلة أسري

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٧٢؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٢٠.

(٢) من الآية (٦٠)، من سورة الإسراء.

(٣) البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الإسراء، باب وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، ج ٥/٢٢٧.

بي أصبحت بمكة، قال: قطعت بأمرى وعرفت أن الناس مُكذِبِيٌّ، فقعد رسول الله ﷺ معتزلاً حزيناً، فمر به أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال نعم، قال: وما هو؟ قال أُسري بي الليلة. قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم، فلم يُره أنه يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أتحدث قومك ما حدثتني إن دعوتهم إليك؟ قال: نعم. قال: هيا معشر بني كعب بن لؤي هلم، قال: فتنفضت المجالس، فجاءوا حتى جلسوا إليهما، فقال: حدث قومك ما حدثتني، قال رسول الله: إني أُسري بي الليلة، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للذي زعم، وقالوا: أتستطيع أن تتعت لنا المسجد؟ قال: وفي القوم من سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، قال رسول الله ﷺ فذهبت أنعت لهم، فما زلت أنعت حتى التبس عليّ بعض النعت، فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو دار عقال، فنعتُهُ وأنا أنظر إليه، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب)).^(١)

لقد كشف الله لرسوله في الحال مباشرة عن المسجد الأقصى، فكان يصف لهم كلما سألوا عنه، وهذه معجزة للرسول ﷺ، حيث هياً له ما يصدق قوله عن الإسراء.

كما أن هناك شاهداً آخر مما يمكن أن يكون شاهداً للعقلاء، حيث قال لهم: ((وآية ذلك أنى مررتُ بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأُنفرهم

(١) رواه ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١١٨؛ ورواه مسلم في صحيحه عن ابن أبي شيبة؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤٠٢/١؛ وابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ٢١٥/١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٩٧/٢.

حسُّ الدابة فنَدَّ لهم بغير فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجَّان^(١) مررت بغير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم تُصَوَّبُ الآن من ثِيَّةِ التَّعِيمِ البيضاء يقدِّمها جمل أوزقُّ عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برِّقاء^(٢).

فابتدر القوم الثية التي ذكر، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم بما أخبرهم

به ﷺ .

وسألوا بعد ذلك أصحاب البعير الذي وصف لهم فقالوا: نعم قد سمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه.^(٣)

وقد تميز أبو بكر الصديق ﷺ في صبيحة الإسراء بموقفه من رسول الله ﷺ فقد فرح المشركون بالخبر وهم يعرفون عقل أبي بكر الصديق وتمحيصه للأخبار، لكنهم لا يقيسون بنفس مقاسه وبعد نظره ونظرته للرسول ﷺ .

فسارع أناس من مشركي مكة إلى أبي بكر الصديق ﷺ فأخبروه بما قال الرسول ﷺ من المعراج فقال ﷺ: (والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني بالخبر يأتيه من السماء في ساعة ليل أو نهار فهذا أبعد مما تعجبون منه).^(٤) ثم إن الصديق ﷺ أقبل على النبي ﷺ

(١) ضجنان، جبل ناحية تهامة؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٩٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣/١٣٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٠٣.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٠٣؛ وابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢١٥.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٩٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٩٧.

يسأله أمام القوم ليصدقوه، فكلما تحدث النبي ﷺ وذكر شيئاً قال له: صدقت، فيقول له النبي ﷺ: ((وأنت يا أبا بكر الصديق)).^(١)

إنه موقف العقل والإيمان وبعد النظر. لقد ذكر الصديق ﷺ أن أمر النبوة والصلة بالسماء والأرض ونزول الوحي أعظم من أن يخبرهم برحلة ليلية قطع المسافة فيها من مكة إلى بيت المقدس وعاد في ليلة واحدة.

أثبت الصديق من هذا الحادث تميز مقاييسه، وأن إيمانه بالوحي أعظم من هذا الحادث وأثبت، وأن الرسول ﷺ لا يكذب، وأن كل ما يقوله صدق إذا ثبت عنه، ومن هنا استحق اللقب الذي أطلقه عليه رسول الله ﷺ (الصديق).

وزمن الإسراء بدقة مختلف فيه، فمنهم من يراه في شهر ربيع الأول، ومنهم من يراه في رجب وغير ذلك.^(٢)

والعبرة ليست بالزمن ذاته، ولكنها في الحدث وتشريف الرسول بذلك، والدروس المستفادة منه ومعرفة ظروفه ونتائجه.

(١) الحاكم، المستدرک، ج٣/٦٣؛ وصححه الذهبي؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣٩٩.
(٢) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/٢١٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/١٠٧؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/٤١٨.

العرض على القبائل^(١)

لقد كان من رحمة الله لنبيه ﷺ وما صنعه له وتربيته وتعليمه أن هياً له ما جعله يتعرف على القبائل ومواطنها، فقد عمل الرسول ﷺ في تجارة خديجة ﷺ، وكانت له مكانة عند أهل مكة، فكان يخالط القادمين إليها من مختلف القبائل، كما كان ﷺ من المترددين على أسواق العرب التي يكون كثيراً منها يكون موسمياً، ومنها ما هو مجاور لمكة مرتبط بموسم الحج، حيث تعتبر مكة من أكثر بلاد العرب تجارة وثراء فكانت أسواقها قائمة طوال العام، حيث يقدم العرب إلى سوق عكاظ قرب الطائف،^(٢) ثم ينصرفون منه للحج لقرب زمنه ثم تتصل الأسواق إلى مجنة وذبي المجاز.^(٣)

وكان الرسول ﷺ متردداً على تلك الأسواق قبل البعثة وبعدها، وقد حاول كفار قريش التنقص من الرسول ﷺ ما جاء في قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان].

فرد عليهم القرآن الكريم في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان].

ومن هذه الآيات يتبين لنا أن مشي الرسول ﷺ في الأسواق ليس عيباً، بل

(١) انظر: ابن أبي شيببة، المغازي، في النبي ﷺ حين عرض نفسه على العرب، ص ١٢٤.

(٢) انظر: ناصر الرشيد، سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام.. تاريخه ونشأته وموقعه، ط ١ - القاهرة: دار الأنصار ١٣٩٧هـ.

(٣) راجع: سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط ٣ - بيروت: دار الفكر ١٣٩٤هـ.

من الأمور التي دافع عنها القرآن الكريم،^(١) وكان فيها يتعرف ويطالع ويميز القبائل والرجال وأشرفهم ويسمع ويُسمع قبل البعثة وبعدها.

وحينما بعث الرسول ﷺ وظهرت دعوته حاربه قومه منذ البداية، وكانت دعوته عالمية ليست محصورة بمكة وأهلها، بل هي للخلق من أنفسهم وفيهم.

وتنزل عليه من الآيات من أول البعثة ما يؤكد عالمية رسالته وإنها كما في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء]. وأن الله ﷻ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) [الفاتحة].

ولذلك كانت وجهته ﷻ العالم كله، وما كان ليحصر نفسه في مكة، ومنذ البداية كان يدعو في الأسواق، وبين القادمين لمكة من خارجها، وما قصص إسلام الكثيرين من خارج مكة إلا نتيجة لهذا العرض.

كما كان ﷻ يغشى تجمعات القبائل في موسم الحج، فيعرض دعوة الإسلام عليهم وكان يتبعه أبو لهب، محاولاً إبعاد الناس عن السماع له ﷻ. وكان النبي ﷻ يقول: ((يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون، دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثي به))، فكان أبو لهب يصد الناس عنه ويحصبه ويقول لهم إنه مجنون، فكان بعضهم يرد عليه رداً قبيحاً، ويقول للرسول ﷻ قومك أعلم بك

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج٩/٣٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج٢/١٣٥٣.

ويردون عليه ردًّا قبيحاً.^(١)

وقد ورد عن شاهد عيان قال: رأيت رسول الله ﷺ بذئ المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله ﷻ، وكان وراءه رجل يحصبه، وهو يقول: أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم ودين آبائكم^(٢) كان هذا الرجل عمه أبا لهب وفرق بين من يحصب ومن يصحب.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصحب النبي ﷺ حينما كان يطوف على القبائل وخصوصاً في موسم الحج، فيضيف خبرة أخرى لمعرفته بالقبائل ومواطنها وعددها وقوتها، وكان أبو بكر يسأل أحياناً ((كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة؟)).^(٣)

وقد ثبت أن الرسول ﷺ في السنة العاشرة من البعثة والسنة التي تلتها، أكثر من عرض نفسه على القبائل وخصوصاً بعد عودته من رحلة الطائف وممن عرض نفسه عليهم (غسان، وفزارة، ومرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وعبس، وثلبة، وكنده، وكلب، وبنو الحارث بن كلب وبنو عذرة، وقيس)،^(٤) وقد نقلت المصادر بعض التفاصيل عن تلك اللقاءات.

وممن عرض الرسول ﷺ نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة، فقال أحد أشرافهم وهو بحيرة بن فراس: والله لو أنني أخذت هذا الفتى من قريش

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/١٨٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤٢٤.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤٢٣.

(٣) مسند الإمام أحمد، ج٣/٤٩٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/١٦٦؛ انظر: الصلابي، السيرة النبوية، ج١/٤٤١.

(٤) انظر إلى أسماء هذه القبائل وقصة عرض الرسول ﷺ نفسه عليهما عند ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤٢٤؛ وراجع السمعاني في كتابه الأنساب.

لأكلت به العرب، ثم سأل النبي ﷺ أ رأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: ((الأمر لله يضعه حيث يشاء))، فقال: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك.^(١)

ومما خاطب به رسول الله ﷺ الناس في المواقف: ((هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي ﷺ، فأتاه رجل من همدان فقال ﷺ للرجل: من أنت؟ قال: من همدان قال ﷺ: فهل عند قومك من منعة؟ قال: نعم، ثم إن الرجل خشي أن يخضره قومه، فأتى إلى النبي ﷺ فقال له: آتيهم (يعني قومه همدان)، ثم آتيك من عام قابل وانطلق الرجل))^(٢) لكن وفد الأنصار جاء في رجب قبل الموسم الذي يليه وقابل الرسول ﷺ.^(٣)

وممن قابل الرسول ﷺ من القبائل بنو شيبان بن ثعلبة من بني بكر بن وائل. ففي رواية علي بن أبي طالب ﷺ قال: لما أمر الله ﷻ نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه .. إلى أن قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار فتقدم أبو بكر فسلم، فقال: من القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال: بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس، وفيهم مفروق وقد غلبهم لساناً وجمالاً، وكان له غدירתان تسقطان على تربيته، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤٢٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/١٧١.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد، ج٣/٣٩٠؛ وانظر: ابن أبي شيبه، المغازي، ص ١٢٤.

(٣) ابن أبي شيبه، المغازي، ص ١٢٥؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤٢٤؛ وانظر:

بيعة العقبة الثانية، من هذا الكتاب.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا أخرى لعلك أخا قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله فيها هو ذا. فقال: مفروق إلام تدعوننا يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني وتتصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد)) فقال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا، فقال رسول الله ﷺ: قال - تعالى - ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ [الأنعام].

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، ثم رد الأمر إلى هاني فقال: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وإني أرى تركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أول له ولا آخر لذلك في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، إن الذلة مع العجلة، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً، ولكن نرجع وترجع وننظر، ثم كأنه أحب أن يشركه المشي بن حارثة، فقال: وهذا المشي شيخنا وصاحب حربنا فقال المشي - وأسلم بعد ذلك -: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب فيه جواب هاني ابن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك، وإنا بما نزلنا بين صيرين أحدهما

اليمامة والأخر السمامة فقال له رسول الله ﷺ: ((ما هذان الصريان)) قال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ولا نووي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعوننا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك فإن أحببت أن نوويك ونصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: ((ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله ﷻ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرايتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله - تعالى - أرضهم وديارهم ويعرثكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان اللهم فلك ذلك يا أخا قريش فتلا عليهم رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب] ثم نهض)).^(١)

لقد كان الرسول ﷺ عالمياً في الدعوة، لم يقبل من يحد من دعوته جغرافياً أو بشرياً أو زمانياً، ولذلك لم يقبل من بني شيبان إلا إجابة مُطلقةً دون أن تحدهم حدود فارس بلداً أو سياسة، وذلك سبب لبحث الرسول ﷺ عن ملجأ آخر للدعوة مع تضيق قريش عليه وعلى دعوته ومنعها من الانتشار، كما أن الرسول ﷺ كان صادقاً وفتياً للعهد، لا يريد أن يقبل شرطاً ثم ينقصه، كما كان يؤسس لدولة إسلامية لها قاعدتها التي تنطلق منها إلى العالم كافة لا يحدها سكان ولا تقطع معاهدة أو تخالفها ابتداءً، كما أنه لا يريد شروطاً تجعل السلطة من بعده لقبيلة معينة، أو زعيم معين فهي دعوة ودولة عالمية، الإخلاص والاستجابة فيها لله - تعالى - وحده، وكأنه ﷺ يعلم أن هذه الدعوة ستخوض حرباً مع كسرى فارس في يوم من

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢/١٦٧، ١٦٨؛ والصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٢/٥٩٦ - ٥٩٨؛ والصلابي، السيرة، ج١/٤٤٣، ٤٤٤.

الأيام ولذلك لم يقبل استثناء شيبان، وقد كان موقف بني شيبان واضحاً، لكنه لم يكن كافياً للنبي ﷺ. ومع ذلك فقد أثرت فيهم دعوة النبي وأسلموا بعد فتح مكة، وكانوا من أوائل المشاركين في فتوح فارس والعراق أيام أبي بكر بقيادة المشي بن حارثة الشيباني بعد حوالي ثلاثة عشر عاماً من هذا اللقاء.

اللقاء الأول بالأنصار:

كان الأوس والخزرج من سكان المدينة المنورة،^(١) وقد حدثت بينهم بعض الحروب أشهرها يوم بُعاث،^(٢) وقد كان كل منهم يبحث عن من يحالفه، ويعضده ويساعده في هذه الحرب فكان أول سماع لهم بالإسلام فقد روى البخاري عن عائشة ؓ أنها قالت: (كان يوم بُعاث يوماً قدمه الله لرسول الله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم وجرحوا فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم إلى الإسلام).^(٣)

كانت هذه الحرب باعثاً لهم على السماع من النبي ﷺ حينما قدموا لمكة لطلب المساعدة، كما كانت مما دفعهم للاتحاد خلف النبي ﷺ، وقد عضت الحرب وأكلتهم فوجدوا بعد ذلك في مبادئه الوحدة والسلام.

وكان يهود يعيشون في المدينة مع الأوس والخزرج، ويحدثونهم بقرب مبعث نبي آخر الزمان ويهددونهم به، فقد ذكر أن يهوداً إذا وقع بينهم وبين

(١) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص ١٠٩؛ والنويري، نهاية الأرب، ج ٣١١/١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤٢٨/١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١٧٢/٢.

(٢) أحد أشهر أيام الحروب بين الأوس والخزرج في العصر الجاهلي. انظر: جواد علي، المفصل، ج ١٤٠/٤.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار، ج ٢٢١/٤.

جيرانهم من الأوس والخزرج قتال هددهم يهود وقالوا لهم: (إن نبياً مبعوثاً الآن قد أطل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم). فلما قابل الأوس والخزرج رسول الله ﷺ أثناء عرضه نفسه على القبائل قال بعضهم لبعض: (تعلمون والله إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه).^(١) وفي رواية لابن إسحاق ذكر فيها هذه التفاصيل وغيرها.^(٢)

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله ﷻ إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز وعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النصر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

وعندما لقيهم رسول الله ﷺ، قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله به في الإسلام، أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوثاً الآن قد أطل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا يقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٢٩.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/١٧٦.

أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا.^(١)

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم قُيَاهم رسولَ الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى انتشر بينهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وصلها ذكر رسول الله ﷺ.^(٢)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٢٩.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١/١٧٦؛ مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ج ١/٢٨٨.

بيعة العقبة الأولى

كان الرسول ﷺ يخبر أصحابه بقرب تحديد مكان معين لهجرتهم، يجتمع فيه معهم في ذلك المهاجر، وكان بعضهم قد هاجر فعلاً إلى الحبشة قبل ذلك، وما زالوا هناك، لكن الجميع كان بانتظار المكان الموحد الذي يأذن به الله لرسوله ﷺ بالهجرة ليلحقوا به أو يسبقوه. وقد زاد ضغط قريش لإخراج الرسول ﷺ من مكة ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٧٦) [الإسراء].

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه رأى ذلك المكان، ورؤيا الأنبياء حق، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: ((رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي^(١) إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب)).^(٢)

وثبت أن اختيار المدينة كان بأمر الله وتقديره، ورد عن ابن عباس ؓ في البخاري قال: (بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين).^(٣)

كما أن يهود قد استوطنوا المدينة وما حولها من نخيل وحرّات لمعرفتهم بموطن مهاجره ﷺ، وانتظاراً له لكنهم جحدوا حينما علموا به ﷺ، فعاقبهم الله على يديه.

(١) وهلي: بمعنى وهمي أو ظني.

(٢) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٢٥٢/٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٢٥٢/٦.

وفي العام الثاني عشر من البعثة النبوية اتفق مجموعة ممن أسلم من الأنصار، وكانوا قد عرفوه وعلموا بدعوته قبل ذلك التاريخ بعدة أشهر، على أن يرتبوا للقاء خاص مع رسول الله ﷺ.

كانوا اثني عشر رجلاً،^(١) عشرة من الخزرج واثان من الأوس،^(٢) فيما عرف ببيعة العقبة الأولى.

وقد روى شاهد عيان من أصحاب ليلة العقبة وهو عبادة بن الصامت ﷺ: ((أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: "تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه" فبايعنا على ذلك)).^(٣)

كانت هذه البيعة بيعة دعوة سلمية عمادها التوحيد والطاعة، لم يذكر فيها قتال ولذلك سماها بعض الصحابة ببيعة النساء مقارنة ببيعة الرسول ﷺ للنساء التي لم يرد فيها القتال ولا النصر.

ولذلك فإن هذه البيعة ركزت على الدعوة والأمانة وطاعة الله ورسوله، فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير ﷺ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، أمر العقبة الأولى، ج ١/٢٩٢.

(٢) د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/١٩٧.

(٣) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب وفود الأنصار، ج ٤/٢٥١.

المقرئ بالمدينة مصعب).^(١) وكما كان إمامهم في الصلاة ﷺ.^(٢)

وكان شاباً صغيراً تعلم القرآن، وصبر على الإسلام وثبت عليه، وكان اختيار رسول الله ﷺ له يعني الثقة التامة فيه لأداء هذه المهمة بين أهل المدينة، وهي مهمة النيابة عن رسول الله في الدعوة في المدينة وتم استقباله ﷺ في المدينة ونصرته والدفاع عنه من قبل المسلمين الأوائل من الأنصار.

لقد كانت لمصعب ﷺ جهود كبرى بمساعدة رجال من الأنصار، لنشر الإسلام في المدينة بالحسنى، وخصوصاً بين الأشراف والزعماء الذين لهم تأثيرهم على البقية. روى ابن هشام عن ابن إسحاق بسنده (أن أسعد بن زُرارة ﷺ خرج بمصعب بن عمير ﷺ يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن خالة أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأسيّد بن حُضَيْر، يومئذ سيّداً قومها من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشْرِك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيّد بن حُضَيْر: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضُعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة مني حيث قد علمت كفيئتكَ ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً، قال: فأخذ أسيّد بن حُضَيْر حَرَبْتَهُ ثم أقبل إليها، فلما رآه أسعد بن زُرارة، قال لمصعب ابن عمير، هذا سيّد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه قال مصعب: إن

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٩٣؛ وانظر: حديث البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج ٤/٢٦٣ - ٢٦٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٢٩٣.

يجلسُ أكلمه. قال: فوقف عليهما مُتشمِّتًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلسُ فتسمع، فإن رضيتَ أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفتَ، ثم ركز حربته وجلس إليها، فكلَّمه مُصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلامَ قبل أن يتكلَّم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قال له: تغتسل فتتطهَّر وتطهَّر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحقِّ، ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحقِّ، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلَّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعدُ بن معاذ مُقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيّدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما باسًا وقد نهيتُهما، فقالا: نفعنا ما أحببتَ، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخضروك. قال: فقام سعد مُغضبًا مبادرًا، تخوِّفًا للذي ذُكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعدُ مطمئنين، عرف سعد أن أسيّدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشمِّتًا، ثم قال لأسعد بن زُرارة: يا أبا أمامة، (أما والله) لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمّت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره - وقد قال أسعدُ بن زُرارة لمصعب بن عمير، أي مُصعب، جاءك والله سيّد من وراءه من قومه، إن

يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان - قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عز لنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالوا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلّف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندهم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا (وأوصلنا) وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبةً، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زُرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.^(١)

لقد اجتهد مصعب بن عمير رضي الله عنه أيما اجتهاد عامّاً كاملاً أسلم فيه على يديه عدد كبير من الأنصار، وأعدهم للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة في موسم حج سنة ثلاث عشرة من البعثة النبوية.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٣٦.

لقد صدق مصعب بن عمير رضي الله عنه في هذا العمل وفي غيره وهو من الذين قال
الله - تعالى - فيهم: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ
نَجْبَهُ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب].^(١)

* * * * *

(١) تفسير الطبري، ج ١٠/٢٨٠؛ تفسير ابن كثير، ج ٢/١٤٨٨.

بيعة العقبة الثانية

سبق القول أن رسول الله ﷺ قد بعث مصعب بن عمير ﷺ للدعوة والتعليم الإسلام في المدينة فعمل بجد سنة كاملة، حتى انتشر الإسلام في بيوت الأنصار في المدينة، فكانوا يتدارسون القرآن ويصلون خلف مصعب وينتظرون لقاء النبي ﷺ. ومن المتوقع أن هناك تنسيقاً بين مصعب وبين رسول الله ﷺ ليقدّم بهؤلاء المؤمنين، حيث كانوا أشد شوقاً للقاء رسول الله ﷺ ينتظرون ذلك ويعدون له.

كما كان رسول الله ﷺ ينتظر أمثال هؤلاء المصدقين المؤمنين. ويظهر أنه خلال لقاءات مسلمي الأنصار في المدينة كان يقول بعضهم لبعض كما روى جابر بن عبد الله ﷺ: (متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟) (١).

وقد أورد ابن إسحاق رواية مطولة ووافية في سيرته عن شاهد عيان لبيعة العقبة الثانية بتفصيلات دقيقة حيث روى عن كعب بن مالك ﷺ قال: ((خرجنا إلى الحجّ وواعدنا رسول الله ﷺ من أوسط أيام التشريق قال: فلما فرغنا من الحجّ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيّد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإننا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعونا إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً.

(١) انظر: د. أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/ ١٩٨.

قال: فَمِئْنَا تَلِكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا، حَتَّى إِذَا مَضَى ثَلَاثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ الْقَطَا مُسْتَخْفِينَ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشَّعْبِ عِنْدَ الْعُقْبَةِ، وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا، مَعْنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِنَا: نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ، أُمُّ عِمَارَةَ، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرٍو بْنِ عَدِيِّ، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلْمَةَ، وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ.

قال فاجتمعنا في الشعب نتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه (عمه) العباس بن عبدالمطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب، فقال: يا معشر الخزرج، وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج له إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعك مما تمنع منه أزرنا فبايعنا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان، قال: يا رسول

اللَّهُ إن بيننا وبين الرجال حبلاً ، - يعني اليهود - وإننا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسولُ الله ﷺ ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أُحارب مَنْ حاربتهم، وأسالم من سالمتم))^(١).

لقد كان حضور العباس بن عبدالمطلب دليلاً قوياً على وقوفه ﷺ مع رسول الله ﷺ ومعرفته بسر هذا اللقاء، وهذا يدعم رأي القائلين بإسلامه مبكراً ﷺ،^(٢) وأنه كان يكتب الأمر عن قريش.

كما كان المبايعون من الأنصار ﷺ يدركون تماماً خطورة البيعة وما يترتب عليها، حيث تختلف شروطها عن بيعة العقبة الأولى، فقد كانت بيعة حرب تختلف عن بيعة النساء.^(٣) وكان هذا واضحاً، ومع ذلك فإن العباس بن عبادة الأنصاري أراد للقوم أن يعوا ما يقومون به، فقال: (يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نُهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة؟ قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه)^(٤).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٤٠ - ٤٤٢.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٢/٢٧١؛ وانظر إسلام العباس بن عبد المطلب في القسم الخامس من هذا الكتاب.

(٣) انظر: الغزالي، فقه السيرة، ص ١٦٠.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٤٦.

لقد كانوا صادقين في البيعة، فقالوا لرسول الله ﷺ والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيا فإنا، فقال ﷺ: ((لم نُؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم))،^(١) فرجعوا إلى رحالهم. وقد طلب منهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا له اثني عشر نقيباً من بينهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، كانوا على قومهم.^(٢)

وتذكر رواية أخرى عن كعب بن مالك ﷺ: ((فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجبابب (المنازل)! هل لكم في مذمم والصبابة معه، قد اجتمعوا على حربكم قال: فقال رسول الله ﷺ: هذا أذب العقبة، هذا ابن أزيب، أسمع أي عدو الله أما والله لأفرغن لك)).^(٣)

كانت البيعة ذات معنى عند قريش، وإن لم تعلم بتفصيلاتها، لكنها أحست بها فلما أصبح القوم جاءت جماعة من قريش إلى الأنصار وهم يشكون في الأمر فحدثوا المشركين من أهل المدينة، الذين كان الأمر خافياً عليهم فقالوا: (يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تتشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه، قال وصدقوا لم يعلموه قال: وبعضنا ينظر إلى بعض، قال: ثم قام القوم).^(٤)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٤٦.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/١٩٨.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٤٧.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٤٨.

ثم إنهم أتوا عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين، وكان ما يزال على شركه وكان محل ثقتهم فسألوه وما كان يعلم بالأمر، فقال: إن هذا لأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا، وما علمته كان فانصرفوا عنه.^(١)

وبعد انصراف الناس من منى تيقنت قريش من الخبر، فحاولوا أن يمسكوا بأناس من الأنصار فتمكنوا من القبض على سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه، وربطوا يديه إلى عنقه وجروه إلى مكة وأخذوا يضربونه رضي الله عنه ويؤذونه ويسبونونه، فقال له رجل من قريش يظهر أنه مسلم، أو ممن يعطفون على المسلمين: (ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد، قال: بلى لقد كنت أُجيرُ لجبير بن مطعم بن عدي، وللحارث بن حرب بن أمية، قال له الرجل ويحك فاهتف باسم الرجلين، ففعل سعد، وخرج الرجل إليهما فوجدهما عند الكعبة فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج يضرب الآن بالأبطح وإنه ليهتف باسمكما ويذكر أن بينه وبينكما جواراً، قال: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادَةَ، قال: صدق والله إن كان ليجير لنا تجارتنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده، قال: فجاء فخلص سعداً من بين أيديهم فانطلق).^(٢)

كانت البيعة استعداداً للتضحية بالمال والنفس ودفاعاً عن الله ورسوله ﷺ ودعوته.^(٣)

كما أنها احتاجت إلى تنظيم وترتيب سبقها على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه ومن آمن من الأنصار.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٤٨.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٥٠.

(٣) انظر: عبدالكريم الزيد، فقه السيرة، ص ٢٩٠.

كما كان الأمر واضحاً عند الرسول ﷺ، فهو سيقف معهم كما وقفوا معه: ((الدم الدم والمهدم المهدم)).^(١)

كما أنه لن يدعهم وسيبقى معهم وقد وفى لهم بهذا الأمر بعد فتح مكة وغزوة حنين، حيث قال: ((يا معشر الأنصار ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم)).^(٢)

وقد علمهم الرسول ﷺ الترتيب والنظام والمسؤولية والشورى في وقت واحد بأن طلب منهم أن يخرجوا لهم - بأنفسهم - اثني عشر نقيباً يكونون مسؤولين عن قومهم، فالمرحلة القادمة غير الماضية، والترتيب والتنظيم وتحديد المسؤوليات واستشارة الآخرين من سنته ﷺ.^(٣)

وهكذا كان الأنصار منظمين ومستعدين لاستقبال الرسول ﷺ في دار الهجرة مدينة المختار دار الأنصار ورجالها.

ولا شك أن الأنصار كانوا مرتبين بطريقة جيدة، حيث كتموا الأمر عن بقية قومهم، ولم يعلم بالبيعة إلا المسلمون الصادقون، كما أنهم ﷺ كانوا صادقين في بيعتهم مستعدين لتقديم أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، حيث نجد أن ما يزيد على الخمسين رجلاً من المبايعين شهدوا بدرًا مع النبي ﷺ،^(٤) مع أنها معركة عاجلة عُذِرَ من لم يخرج فيها مع النبي ﷺ. وفي هذا وغيره ما بيّن فضل هؤلاء المبايعين على الإسلام وأهله إلى يوم الدين بما نصروا نبيه وحببيه ﷺ.

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/١٩٨.

(٢) انظر: أحداث غزوة حنين وتوزيع الغنائم، من هذا الكتاب.

(٣) انظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ١٥٩.

(٤) انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ١٥٤.

كان الرسول ﷺ حريصاً كل الحرص على السرية والاحتياط واتخاذ كافة الأسباب الدنيوية، مع أنه ﷺ أعظم المتوكلين على الله، حيث أخفى الموعد ومكان الاجتماع، ولم يعلم به إلا قلة، كل منهم كان له دوره، فعمه العباس جاء معه ليصعبه وليستوثق له، وكان علي بن أبي طالب ﷺ عيناً للنبي ﷺ على فم الشعب، وأبو بكر الصديق ﷺ عيناً على الطريق، كما أنه ﷺ كان حريصاً على اختصار الكلام وحفظ الوقت وخفض الصوت،^(١) ومع أهمية الموضوع وخطورته، فسرعة الإنجاز فيه كانت مهمة مع السرية، ويتضح من محاولات اعتداء قريش وكفارها على سعد بن معاذ وغيره من الأنصار، أن قريشاً كانت مستعدة لإيذاء كل من يؤمن بالله والرسول، سواء من قريش أم من خارجها، وأنها مستعدة لمحاربة الرسول ﷺ حتى لو خرج وترك مكة، وقد كان الأنصار في حوارهم يدركون هذا ويدركون أن العرب وقريش سترميهم عن قوس واحدة.

وكان في بيعتهم الاستعداد للقتال وحماية الرسول ﷺ ودعوته، وإن كان لم يؤمر بعد بالقتال ولم يؤذن له، وكان ﷺ يبين أن هذا الأمر سيأتي دوره بإذن من الله.

وقد كانت هذه البيعة إعلاناً بفتح باب الهجرة لرسول الله ﷺ مستقبلاً وفي أجل قريب - بإذن الله - وفي الوقت نفسه فتح باب الهجرة للمؤمنين ليسبقوا الرسول ﷺ إلى المدينة لتأسيس المجتمع المسلم، ودولته النبوية، ونظامه المدني والعسكري.

ولذلك فإن مشركي مكة شددوا قبضتهم على المسلمين بعد أن عرفوا تفاصيل البيعة، فضيقوا على الصحابة من مسلمي قريش وغيرهم في مكة،

(١) انظر: الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/٤٦٤.

فكانوا يشكون لرسول الله ﷺ فيأمرهم بالهجرة، ويقول: ((إن الله ﷻ قد جعل لكم إخواناً وداراً تآمنون بها))^(١).

هجرة أصحاب الرسول ﷺ:

الهجرة في اللغة العربية: الخروج من أرض إلى أخرى.^(٢) وفي المصطلح الشرعي: هي ترك بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والبلد الذي يسلم فيه دينه،^(٣) انطلاقاً من قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء].

أما سببها فهو الحفاظ على الدين وتطبيقه ونصرته والتجمع مع الرسول ﷺ وأصحابه والاستعداد لنشر الدين وبذل المال والنفس في سبيل الله، وتسهيل عبودية الله لعباده بإقامة نظام يتيح لهم ذلك. وكانت بيعة العقبة ثاني أيام التشريق من السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية.

وقد أمر الرسول ﷺ الصحابة في مكة وخارجها بأن يلحقوا بإخوانهم في المدينة، ومن المؤكد أنه لولا مضايقة قريش لما خرج المهاجرون، وبالتالي فالمهاجرون أخرجوا من ديارهم كما يقول الله - تعالى -: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر].

(١) انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ١٥٣.

(٢) الزبيدي، تاج العروس، ج ٦١١/٣.

(٣) انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٦١١/٣؛

أبو فارس، محمد عبدالقادر، في ظلال السيرة الهجرية إلى النبوية، ط ١ - عمان: دار الفرقان ١٤٠٢هـ.

كما كان الأنصار ﷺ محبين لهؤلاء المهاجرين مواسين لهم، قائمين بحقهم فامتدحهم الله بذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقد ذهب المهاجرون الأوائل ومن ناصرهم بفضل السبق على غيرهم، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْمُكَرَّمِينَ وَأُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُ اللَّهُ إِنََّّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٠].

كان الصحابي الجليل أبو سلمة بن عبد الأسد ﷺ أول المهاجرين من مكة إلى المدينة،^(١) فقد هاجر بأهله إلى الحبشة وعاد قبيل بيعة العقبة، حيث آذته قريش وضيقت عليه، فعزم على الهجرة مرة أخرى ولكن إلى المدينة، فمنعته قريش من اصطحاب زوجته وولده، فقصدت أم سلمة ﷺ قصة هجرة هذا البيت من المؤمنين تقول ﷺ: (لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحلَ بغيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقودُ بي بغيره، فلما رأته رجالُ بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبك هذه؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده،

(١) هو: الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الأسد المخزومي من أوائل المسلمين، زوج أم المؤمنين أم سلمة، قبل النبي ﷺ ابن عمه النبي ﷺ برة بنت عبد المطلب، من أوائل المهاجرين إلى الحبشة، توفيت في المدينة بعد غزوة بدر فتزوج الرسول ﷺ من بعده أم سلمة. انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٢/٣٣٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٦٨.

فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبدالأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابنتنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجادبوا بُنَيَّ سَلْمَةَ بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرَّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كلَّ غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أمسى سنةً أو قريباً منها، حتى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي، أحدُ بني المغيرة، فرأى ما بي فرحماني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخْرِجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقِّي بزوجك إن شئت. قالت: وردَّ بنو عبدالأسد إليَّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت ببعيري، ثم أخذت ابني فوضعتَه في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحدٌ من خُلُقِ الله. قالت: فقلت: أتبلِّغ بمن لقيتُ حتى أقدمَ على زوجي، حتى إذا كنت بالثَّعِيمِ لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبدالدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت أريد زوجي بالمدينة. قال أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبنِيَّ هذا. قال: والله ما لك من مَثْرَكٍ، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يَهْوِي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطُّ، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطَّ عنه، ثم قيَّده في الشجرة، ثم تتحَّى (عني) إلى شجرة، فاضجع تحتها، فإذا دنا الرِّواح، قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويتُ على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو

سلمة بها نازلاً - فادخلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة).^(١)
 كما كان عبدالله بن أم مكتوم رضي الله عنه من أوائل المهاجرين.^(٢) ولا شك أن أعداد المهاجرين توالى وتكاثرت بالتدرج.

وقد نقل الرواة من كانت له حادثة تستحق من وجهة نظرهم النقل، وبعد أبي سلمة وصل إلى المدينة مهاجراً عامراً بن ربيعة مع امرأته (ليلي بنت أبي حثمة بن غانم)، ثم عبدالله بن جحش بأهله وبأخيه الكفيف أبي أحمد^(٣) وزوجته، حتى أغلقت دار بني جحش ولم يبق بها أحد^(٤) حتى النساء منهم هاجرن إلى المدينة، منهن زينب بنت جحش وأم حبيب وأم قيس بنت جحش وغيرهن.^(٥) وكان أبو أحمد الكفيف شاعراً قال أبيات في هجرتهم، ومنها قوله:

إلى الله نغدو بين مشى وواحد

ودين رسول الله بالحق دينها^(٦)

كما هاجر عمر بن الخطاب، ومعه عياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي رضي الله عنه، ويقص عمر القصة فيقول: (أتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار، فوق سرف،^(٧) وقلنا: أينما لم يُصيح

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٦٩.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١/٣٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٧٠.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٧٠.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٧١.

(٦) انظر: المصدر السابق في أبيات طويلة.

(٧) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٧٤.

عندها فقد حُبِسَ فليْمُضٍ صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة عند التَّنَاضِبِ، وحُبِسَ عنا هشام وفُتِنَ فافتتن.

ولما قدمنا المدينةَ نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارثُ بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابنُ عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينةَ، ورسولُ الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالوا: إن أمك قد نذرت أن لا يمسَّ رأسها مُشَطٌّ حتى تراك، ولا تستظلَّ من شمس حتى تراك، فرقَّ لها، فقلت له: يا عيَّاش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القملُ لامتشطت، ولو قد اشتدَّ عليها حرُّ مكة لاستظلت، قال: فقال: أبرِّ قسمَ أمي، ولي هناك مالٌ فأخذه، قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصفُ مالي ولا تذهبُ معهما. قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت، فخذُ ناقتي هذه، فإنها ناقةٌ نجبيةٌ ذلولٌ فالزِّمْ ظهرها، فإن رابك من القوم ريبٌ فانجُ عليها.

فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعقِبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخا ليتحوَّلَ عليها، فلما استَوَوْا بالأرض عدواً عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عيَّاش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارة موثقاً، ثم قالوا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيها هذا.^(١)

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن عمر رضي الله عنه: فكنا نقول: ما الله بقابلٍ ممن افتنن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٧٤ - ٤٧٥.

أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسولُ الله ﷺ المدينة، أنزل الله - تعالى - فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعث بها إلى هشام بن العاصي، قال: فقال هشام بن العاصي، فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى، أصدد بها فيه وأصوب ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها. قال: فألقى الله - تعالى - في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة.^(١)

ثم تتابع المهاجرون ومنهم طلحة بن عبيدالله، وعمار بن ياسر، وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود، وبلال بن رباح، وزيد بن حارثة، وحمزة بن عبدالمطلب، وعبدالرحمن بن عوف، وأبو كبشة، وعبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، والزبير بن العوام وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعتبة بن غزوان، وعثمان بن عفان رضي الله عنه، وغيرهم.^(٢)

ومن أشهر قصص المهاجرين قصة صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه،^(٣) فقد كان في مكة يعمل بالحدادة، فكون مالا نتيجة جهده وعرقه، وقد آمن

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٧٦.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٢٩، ٣٣١.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢٦٦.

برسول الله ﷺ وصدقته ودخل الإسلام مبكراً.

فلما أراد ﷺ الهجرة جاءه كفار مكة وقالوا له: (أتيتنا صلوكاً فقيراً فكثير مالك عندنا وبلغت ما بلغت ثم تتطلق بنفسك، ومالك والله لا يكون ذلك، فقال لهم: أرايتم إن تركت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. فوصف لهم مكان ماله فخلوا سبيله).^(١)

وقيل: إنه لحقه منهم جماعة من الرجال فأخرج من كنانته أربعين سهماً، وكان رجلاً رامياً فقال: (لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهماً، ثم أصير بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلفت بمكة قينتين فهي لكم).^(٢)

ثم واصل طريقه إلى المدينة، وقد قال الرسول ﷺ عنه: ((ربح البيع أبا يحيى)).^(٣)

وقيل إنه نزلت فيه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَبَادِ﴾ (٢٠٧) [البقرة].^(٤)

وقد تحدثت المصادر عن منازل هؤلاء المهاجرين على أصحابهم من الأنصار الذين قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) [الحشر].

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٧٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢/٢٢.

(٣) الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، ص ٣٩؛ الطبري، تفسيره، ج ٢/٣٣٢.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٣١؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢/٢٢.

نزل بعض العزاب على عزاب مثلهم كنزولهم على سعد بن خيثمة الأنصاري رضي الله عنه.

وقد كان الأنصار يتنافسون على إيواء المهاجرين وسكناهم ومواساتهم، حتى أنهم كانوا يقترعون على سكنى من يصلهم من المهاجرين،^(١) وكانت الآيات تنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم في الثناء على المهاجرين والوعد بنصرهم. يقول - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ [النحل]. وفي قوله - تعالى -: ﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(١١٠) [النحل].^(٢)

وقد تحدثت الكثير من الآيات عن المهاجرين رضي الله عنهم.^(٣)

وبعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم كان عدد من المستضعفين الراغبين في الهجرة يتعرضون للحبس والإيذاء فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو لهم، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول: ((اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد ابن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها سنين كسني يوسف)).^(٤)

(١) عبد الحميد طهماز، سيرة النبي، ص ٢٤٦.

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢١/٢.

(٣) انظر: الجمل، أحمد عبد الغني النجولي، هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابه في القرآن والسنة، ط ١ - المنصورة: دار الوفاء ١٤٠٩هـ.

(٤) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب وعاء النبي صلى الله عليه وسلم: اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، ج ١٥/٢.

وقد كان استقبال الأنصار للمهاجرين رائعاً وحميمياً، حيث توزع المهاجرون على بيوت الأنصار، وواسوهم في المسكن والطعام والمال، وضربوا أروع الأمثلة في الإيثار وقدموهم على أنفسهم فأثنى الله ﷻ عليهم في قوله - تعالى -: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصُورُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلِيَّكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه (باب مناقب الأنصار وقول ﷻ) والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا).^(١) والأمثلة على ذلك كثيرة منها: ما حدث قبل هجرة الرسول ﷺ من تنافس الأنصار على استضافة المهاجرين، ومنها ما حدث بعد وصول الرسول ﷺ وقيامه بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. ولعل من أفضل الأمثلة في ذلك قصة عبدالرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع، حيث آخى بينهما النبي ﷺ فجاء سعد بن الربيع لعبدالرحمن بن عوف فقال: يا عبدالرحمن إني من أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال عبدالرحمن: بارك الله لك في مالك وأهلك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ثم تابع الغدو يبيع ويشتري.

(١) البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار وقول الله عز وجل والذين آووا ونصروا والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ج ٤/٢٢١.

ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة^(١) فقال النبي ﷺ: ((مهيم؟)) قال: تزوجت، قال: ((كم سقت إليها؟)) قال: نواة من ذهب، أو وزن نواة من ذهب قال: ((أولم ولو بشاة)).^(٢)

وقد روى أحمد بن حنبل ﷺ عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهناً حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله قال: ((لا ما أتيتهم عليهم ودعوتهم الله لهم)).^(٣)

وقد وضع البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار باباً سماه: (باب قول الله - تعالى - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) روى فيه عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: ((من يَضُمُّ أو يضيف هذا؟)) فقال رجل من الأنصار: أنا فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك وأصباحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيات طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعل يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ((ضحك الله الليلة أو عجب من فعليكما)) فأنزل الله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ

(١) الصفرة نوع من الأطياب الصفراء من الزعفران وغيره يظهر أثره على الوجه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ج٤/٢٢٢.

(٣) ابن كثير، تفسيره، ج١/١٨٥١، تفسير الآية (٨ - ١٠) سورة الحشر؛ مسند الإمام أحمد، ج٣/٢٠٠.

أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾
[الحشر].^(١)

كان الأنصار حريصين على مخالطة المهاجرين ومصاهرتهم، فهذا (حمزة بن عبدالمطلب) عم النبي ﷺ يخطب خولة بنت قيس من بني النجار من الأنصار فيتزوجها، ويقيمان بيتاً مؤمناً عماده مهاجر وأنصارية، كان بيت عم رسول الله ﷺ، وكان يزوره في البيت وتتقل عنه خولة الأحاديث، وقد روت أن رسول الله ﷺ دخل على عمه حمزة فسمعتة يقول: ((إن الدنيا خَصْرَةٌ حلوة فمن أخذها بحقها بورك له فيها، ورُبَّ مُتَخَوِّضٍ في مال الله ومال رسوله له النار يوم يلقى الله)).^(٢)

أهل الصُّفَّة:

وهم عدد من المهاجرين سكنوا حجرة في مسجد رسول الله ﷺ، عرفوا بأهل الصُّفَّة، كانوا عزاباً فقراء لا يجدون ما يأكلون،^(٣) وكان رسول الله ﷺ إذا أتته صدقة بعث إليهم (أهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها)).^(٤)

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ج٤/٢٢٦.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٦/٣٦٤؛ وانظر: محمد الصوياني، السيرة النبوية، ج١/٢٣٧.

(٣) أبو تراب الظاهري، أصحاب الصفة - جدة: دار القبلة ١٤٠٣هـ.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٣/٢٨٧؛ وانظر: الصوياني، السيرة النبوية، ج٢/٢٩؛ وانظر: ما كتبه د. أكرم العُمري عن أهل الصفة في المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى، ص ٨٩.

وكان ﷺ يُجري عليهم كل يوم ((مُدًّا من تمر بين رجلين)).^(١)

وكان رسول الله ﷺ يطلب من ذوي العائلات من الصحابة إطعامهم، فكان الأنصار ﷺ يأخذون بعضاً من أصحاب الصفة إلى منازلهم فيطعمونهم ويواسونهم: ((إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء وإن رسول الله ﷺ قال: من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس، وإن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق النبي ﷺ بعشرة)).^(٢)

وكان بعض هؤلاء يحاول العمل في السوق حَمَّالاً، أو يحتطب أو يؤدي أي شيء ممكن من البيع أو الشراء البسيط، وما كانت ظروفهم تساعدهم ومع ذلك فإن الرجل إذا باع حطباً أو غير ذلك جاء بطعام لأصحابه.^(٣)

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢٨٧/٣.

(٢) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٢٢/٢ - ٢٣: الصوياني، السيرة النبوية، ج ٣٢/٢.

(٣) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٢٤٨/١: وقد أجريت أبحاث كثيرة حول أهل الصفة.

هجرة النبي ﷺ

أبو بكر الصديق ﷺ وأهله ودورهم في الهجرة:

لم يكن رسول الله ﷺ أول من هاجر من الأنبياء، فقد سبقه إبراهيم عليه السلام في الهجرة، قال - تعالى -: ﴿فَأَمِّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَيْحٍ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت].

كما أن اعتداءات المشركين واستفزازهم ومحاولتهم حبسه أو قتله ﷺ كانت وراء هجرته من مكة، وهي أحب بلاد الله إلى الله وإلى رسوله. قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء].

ولا شك أن قوم الرسول ﷺ من كفار قريش تضامنوا على إخراجهم، كما عبر الله عن ذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد].

وتؤكد آية الهجرة والصحبة إخراج الذين كفروا للرسول ﷺ ونصر الله في قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

كما تؤكد الأحاديث أنه ﷺ أخرج من مكة، وكان يدعو على من

أخرجه. ومن ذلك ما رواه البخاري أنه ﷺ كان يقول: ((اللَّهُمَّ الْعَنْ شَيْبَةَ بِنَ رَبِيعَةَ، وَعُتْبَةَ بِنَ رَبِيعَةَ، وَأُمِّيَةَ بِنَ خَلْفٍ كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ)).^(١)

ورسول الله ﷺ يحب مكة أشد الحب، بها ولد وترعرع وتزوج وورث، إضافة إلى ما يعلمه الرسول ﷺ ويعلمه الناس من حرمة مكة، ومكانتها عند الله، فهي أفضل أرض الله وبها كان أول مسجد وضع في الأرض، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٦) آل عمران].

ولعل ما يشهد لذلك قول الرسول ﷺ حينما التفت إلى مكة عند هجرته ((والله إنك لأحب أرض الله إليّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك)).^(٢)

هاجر عدد من أصحاب رسول الله ﷺ في الفترة من بيعة العقبة التي وقعت في اليوم الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٣هـ من البعثة النبوية، الأولى قبل الهجرة، وزادت أعدادهم بالتدرج، وكان أبو بكر الصديق ﷺ مستعداً للهجرة تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ الصحابة بالهجرة، إلا أن الرسول ﷺ كان يطلب التريث من أبي بكر الصديق لأمر يعلمه الله ورسوله، ولا يعلمه الصديق نفسه.

وكان الرسول ﷺ ينتظر الأمر من الله - تعالى - والإذن له بالهجرة بتدبيره

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب (١٣)، ج ٢/٢٢٥. والوباء الذي كان منتشرًا في مكة هي الحمى.

(٢) الزرقاني، المواهب، ج ١/٣٢٨؛ انظر: ابن ماجه، سننه، كتاب المناسك، باب فضل مكة، ح برقم: ٣١٠٨، ج ٢/١٠٣٧.

ﷺ وهو الذي يمكر لرسول الله ويهيئ له ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ (٣٠) [الأنفال].

وكان الصديق ﷺ يستعد لحاجة رسول الله في الهجرة وخصوصاً الرواحل وما يلزمها، قبل أن يعلم أنه رفيقه في الهجرة.

وقد أحست قريش بعد بيعة العقبة بما يعزم عليه الرسول ﷺ من الهجرة إلى المدينة، وخشيت من ذلك خصوصاً بعد أن سبقه عدد من المهاجرين، ولذلك اجتمعوا للمكر بالرسول ﷺ،^(١) كما أشارت الآية الكريمة. وقد أورد ابن إسحاق رواية مطولة عمّا جرى في هذا الاجتماع ونتائجه وما حدث بعده: (ولما رأت قريش أن الرسول ﷺ قد كانت له شيعةٌ وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا له في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ، حين خافوه).

وقد اجتهدوا في وضع الخطط ليحولوا دون هجرة الرسول ﷺ حتى لو أدى ذلك لقتله ﷺ.

قال ابن إسحاق: عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: (لما أجمعوا لذلك، وأتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي أتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٤٨٠؛ ابن كثير، السيرة، ج١/٨٣٤.

إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بتلة،^(١) فوقف على باب الدار، فلما رآوه واقفاً على بابها، قالوا: مَنْ الشيخ، قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يُعْدمكم منه رأياً وتُصْحَأ، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشرف قُرَيْش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً، قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيراً والنابغة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يُصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلاوشكوا أن يشبوا عليكم، فينزعوهم من أيديكم، ثم يُكاثروكم به، حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نُخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنا فوالله ما نُبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسن حديثه وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتهم أن يحلّ على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم عليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبّروا فيه رأياً غير هذا. قال: فقال أبو جهل بن هشام:

(١) البتلة: الكساء الغليظ. ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٨١، حاشية رقم (١).

والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم. قال: فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

فأتي جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابهِ يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسج بردي هذا الحضرمي الأخضر، فتم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

ولما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام، قال وهم على بابهِ: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فاخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم وأخذ الله - تعالى - على أبصارهم عنه، فلا يروونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو تلك الآيات: ﴿يَس ١﴾ وَأَلْقُرْآنَ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَی أَكْثَرِهِمْ

فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيّ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾
 وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾
 ليس]. حتى فرغ رسولُ الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا قد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيبيكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم. قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش مُتَسَجِّجاً بِبُرْدَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً، عليه بُردة. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام عليٌّ ﷺ عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا.

قال ابن إسحاق: وكان مما أنزل الله ﷻ من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]. وقول الله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَّأْنَا بِهِ رِيبَ الْمُتُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور].^(١)

ولعل عائشة رضي الله عنها، ابنة الصديق ثاني اثنين إذ هما في الغار، وأم المؤمنين زوجة المصطفى وشاهدة عيان لبداية أحداث الهجرة، خير من ينقل الحديث عن حادثة الهجرة وبرواية البخاري، وما نقلته رضي الله عنها يعد من أوسع الأحاديث في تفصيلات الهجرة مع ما لحقه من روايات أخرى.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٤٨٠ - ٤٨٤؛ وانظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/٢٢٧؛ وانظر: ابن كثير، تفسيره، ج١/٧٣٤.

عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ، طرقي النهار، بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر، لا يُخْرَجُ مثله ولا يُخْرَجُ، أُنْخَرِجُونَ رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة: وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقدف عليه نساء المشركين وأبنائهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرين أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك، فابتى مسجداً بفناء داره؛ فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فأنهه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن

نخضرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخضرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار - الله ﷻ - والنبي ﷺ يومئذ بمكة، فقال النبي ﷺ للمسلمين: إنني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك؟ بأبي أنت قال: نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمير، وهو الخبط أربعة أشهر، قال: عروة قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنماً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله قال: فإني قد أذن لي في الخروج فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: نعم قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: بالثمن قالت، عائشة فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت (ذات النطاقين)، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف لقين، فيدلج من

عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما، حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدليل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريئاً، والخريت الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، براحتيهما صُبح ثلاثٍ وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل^(١).

ومن رواية عائشة ؓ وغيرها يتبين لنا دور الصديق ؓ وأهل بيته في المشاركة في الهجرة. إنها مشاركة مباشرة من أبي بكر الصديق بنفسه وماله وأهله.

فمن هذه الرواية للبخاري وما يدعمها من روايات نجد أن الصديق ؓ كان صادقاً حينما قال لرسول الله ﷺ: (إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله).^(٢)

إن فرح أبي بكر الصديق بصحبة الرسول ﷺ كان عظيماً وأي صحبة كتلك الصحبة الواردة في القرآن الكريم ﴿ثَانِيكَ أَتَيْنَ﴾^(٣)، حيث نال الصديق من الشرف ما لم ينله أحد من البشر بتلك الصحبة المباركة

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، ج ٤/٢٥٤ - ٢٥٦.

(٢) من رواية البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، ج ٤/٢٥٥.

(٣) سورة التوبة، من الآية ٤٠.

المنصوص عليها في القرآن الكريم ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾^(١).

تلك الفرحة يعبر عنها الصديق ﷺ حينما قال الرسول ﷺ: ((قد أذن لي بالخروج)) فيقول الصديق ﷺ: الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كان مستشرفاً متشوقاً لصحبة خير البشر، في رحلة مباركة جاهز لترك الأهل والوالدين والمال ومرافقة رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ((نعم)).

كانت مرافقة وموافقة نبوية مباركة، ولا شك أن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولذلك فإن هذه الصحبة كانت بعلم الله ورضاه لنبيه بخير رفيق وصاحب.

كان الصديق ﷺ متوقفاً هذه الصحبة، وإن كان لم يعلم بها إلا ساعة وافق له النبي ﷺ على ذلك. وعندها بكى أبو بكر الصديق من شدة الفرح^(٢) ومع هذا فقد كان الصديق محتاطاً للأمر، قد اشترى راحلتين من خاصة ماله لمثل هذا الموقف فقال: يا نبي الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتها لهذا، وكان أبو بكر ﷺ رجلاً ذا مال فكان حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فقال له رسول الله ﷺ: لا تعجل لعل الله يجد لك صاحباً، قد طمع بأن يكون رسول الله ﷺ، إنما يعني نفسه، حين قال له ذلك، فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفها إعداداً لذلك.^(٣)

وقد خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر للهجرة من خوخه لباب صغيراً في ظهر بيت أبي بكر مستخفياً عن الناس الذين ربما كان بعضهم يرقب الباب الرئيس لبيت أبي بكر مظنة وجود الرسول ﷺ فيه بعد بيت الرسول

(١) سورة التوبة، من الآية ٤٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٨٤.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٨٥.

ﷺ وهذه هي الحقيقة، حيث انطلقا منه إلى جبل ثور واختفيا في غار فيه. وحين خروج الرسول ﷺ للهجرة قدم الصديق الراحلة هدية للمصطفى ﷺ الذي يقدر جهد أبي بكر ويحترم بذلك عطاءه، لكنه رفض أن يأخذ الراحلة إلا بثمنها.^(١) إنه ﷺ الكريم عزيز النفس الذي لم يكن في يوم من الأيام عالة على أحد، كما أن أبا بكر ﷺ قد استأجر عبدالله بن أريقط ليكون دليلاً لهما على طريق مجهولة لقريش لا يتوقعها الناس، إذ إنهما كانا ينويان مخالفة الطريق المشهورة، حتى لا يتم العثور عليهما، وهذا بترتيب الصديق مع الرجل الذي كان محل ثقة ومأموناً وإن كان غير مسلم في حينها.^(٢)

ولعل نقل عائشة ﷺ أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق لهذه الروايات الدقيقة عن حادثة الهجرة وتفصيلاتها التي رواها البخاري ﷺ في صحيحه من أثر آل أبي بكر على الدعوة، حيث كانت عائشة ﷺ أفضل من نقل الحديث بتفصيلاته.

كما كان أبو بكر أيضاً ﷺ خير رفيق لرسول الله ﷺ في تلك الرحلة، وظهر منه مواقف مختلفة كان يفدي رسول الله ﷺ بنفسه منها:

إن الرسول ﷺ لما أقبل على غار جبل ثور ليدخله طلب منه الصديق ﷺ الانتظار حتى يتأكد من الغار وسلامته للرسول ﷺ.

وأثناء جلوسهما في الغار إذا جحر فألقمه أبو بكر الصديق ﷺ رجله، وقال يا رسول الله إن كانت لدغة أو لسعة كانت بي.^(٣)

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٨٧؛ انظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ١٧١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٨٥.

(٣) رواه ابن أبي شيبة، في المغازي، ص ١٥١.

كان ﷺ خائفاً مشفقاً على رسول الله ﷺ أثناء وجودهما في الغار، ففي حديث أنس بن مالك ﷺ عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا، فقال ﷺ: ((اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما))^(١).

إن هذا الترقب والخشية وثقة رسول الله ﷺ بالله وتوثيقه أبا بكر وطمأنته ذكر في قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة]. نعم أنزل الله سكينته على رسوله.

وقد خدم أبو بكر رسول الله ﷺ أثناء الطريق، فقد ورد في رواية لابن أبي شيبه عن البراء بن عازب ﷺ، قال: (اشترى أبو بكر من عازب رجلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمله إلى رحلي، فقال له عازب: لا حتى تحدثني كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ، حيث خرجتما، والمشركون يطلبونكما، قال: رحلنا من مكة فأحيينا ليلتنا ويوماً حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل ناوي إليه، فإذا أنا بصخرة فانتبهنا إليها، فنظرت بقية ظل فسويته ثم فرشت لرسول الله ﷺ فروة، ثم قلت: اضطجع يا رسول الله! فاضطجع ثم ذهبت أنفض ما حولي هل أرى من الطلب أحداً، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أريد، فسألته فقلت لمن أنت يا غلام؟

(١) رواه البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج ٤/٢٦٣.

فقال: لرجل من قريش، قال: فسماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم، قال: فأمرته فاعتقل شاة من غنمه فأمرته أن ينفذ ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفذ كفيه، فقال هكذا فضرب إحدى يديه بالأخرى، فحلب كثبة من لبن، ومعى لرسول الله ﷺ أداة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فأتيت رسول الله ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت، ثم قلت: أتى الرحيل يا رسول الله، فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله وبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكني أبكي عليك قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: اللهم اكفناه بما شئت، قال: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها، فوثب عنها، ثم قال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ سهماً منها فإنك ستمر على إبلي وغمي بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لنا في إبلك، وانصرف عن رسول الله ﷺ ودعا له رسول الله ﷺ، وانطلق راجعاً إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلاً، فتنازعه القوم أيهم ينزل عليه.^(١)

وقد كان أبو بكر ﷺ رديف النبي ﷺ، وكان معروفاً للناس لكثرة ترده على الشام، فكان يعميهم عن معرفة الرسول ﷺ وهو مطارد، روى ابن أبي شيبة: عن أنس ﷺ أن أبا بكر كان رديف النبي ﷺ من مكة إلى

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٤٥. وانظر: جزء من الرواية عند البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، ج ٤/٢٥٧.

المدينة، وكان أبو بكر يختلف إلى الشام، فكان يُعرف، وكان النبي ﷺ لا يُعرف، فكانوا يقولون: يا أبا بكر! من هذا الغلام بين يديك؟ قال: هادٍ يهديني السبيل، قال: فلما دُتُوا من المدينة نزلوا الحرة وبعثوا إلى الأنصار، فجاءوا، قال: فشهدته يوم دخل المدينة، فما رأيت يوماً كان أحسن ولا أضوء من يوم دخل علينا فيه، وشهدته يوم مات، فما رأيت كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه ﷺ^(١).

وعند خروج أبي بكر الصديق ﷺ للهجرة حمل ماله كله، خمسة آلاف درهم أو تزيد فدخل والده أبو قحافة وكان عميَ وذهب بصره، فقال لأسماء ابنة أبي بكر: إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه فقالت له: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، ووضعت حجارة في كوة من البيت ووضعت عليها ثوباً ووضعت يده عليها، فقال: لا بأس. وكانت الفضة في ذلك الزمن كتلاً كالحجارة توزن ولا تعد.^(٢) وسكت الشيخ وكان لم يُسلم بعد، حيث كان إسلامه عام الفتح.^(٣)

كانت بنات أبي بكر من المساهمات في رحلة الهجرة، فقد ورد عن أسماء ﷺ قالت: جهزت سفرة النبي ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، فلم نجد لسفرته ولا سقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: واللّه ما أجد شيئاً أربطه به إلا نطاقي قالت: فقال: شقيه باثنين فاربطي بواحد السقاء وبالأخر السفرة، فلذلك سميت ذات النطاقين.^(٤)

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٤؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج ١/٤٨٢.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥٢.

(٣) ابن حجر، الإصابة، ج ٢/٤٦١.

(٤) ابن أبي شيبة، ص ١٤٤؛ ورواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج ٤/٢٥٨.

وقد تعرضت أسماء نفسها للأذى من مشركي مكة بعد خروج الرسول ﷺ للهجرة، تقول أسماء: (لما خرج رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت لا أدري والله أين أبي؟ قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي).^(١)

وكانت أسماء بنت أبي بكر زوجة الزبير بن العوام هاجرت إلى المدينة بعد الرسول وأبيها (وهي حبلى بعبدة الله بن الزبير ﷺ) فوضعت في قباء، فلم ترضعه حتى أتت به النبي ﷺ فأخذه فوضعه في حجره، فطلبوا تمرًا ليحنكوه حتى وجدوها فحنكوه فكان أول شيء دخل بطنه ريق رسول الله ﷺ وسماه عبد الله).^(٢)

كما كان عبد الله بن أبي بكر الصديق ﷺ يختلف بالطعام لرسول الله ﷺ ولوالده الصديق وهم في الغار،^(٣) قبل أخذهما طريق المدينة، كما كان يأتيهما بالأخبار.

كما كان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق ﷺ يروح عليهم بغنم الصديق ليأخذوا من حليبها، وقد سحب الرسول والصديق في رحلة الهجرة.^(٤)

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٨٧.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٢؛ ورواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج ٤/٢٥٩.

(٣) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٠؛ ورواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج ٤/٢٥٦.

(٤) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٠.

علي ؑ وفداؤه الرسول ؑ وأداء أماناته:

حينما تشاورت قريش ليلة الهجرة فيما يفعلونه برسول الله ؑ واتفقوا على قتله مجتمعين اطلع الله نبيه على ذلك، وأمره جبريل أن لا يبيت على فراشه، فدعا علي بن أبي طالب ؑ وأمره أن يبيت على فراشه، وتسجى علي ببيده الأخضر، وخرج النبي ؑ على القوم وهم عند الباب فلم يروه، وأعمى الله أبصارهم عنه فأخذ حفنة من تراب وضعها على رؤوسهم وهو يقرأ من سورة يس ؑ يس ١ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرْنَا أَبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ ليس.ا.

وقد بقي المشركون يرقبون بيت النبي ؑ، وكان بعضهم يرى الفراش وعلي ؑ فيه مسجى، فيظنون به النبي ؑ وينتظرون، مما أعطى النبي ؑ فرصة للخروج مع أبي بكر الصديق ؑ إلى الغار.^(١)

وهذا العمل البطولي من علي ؑ واستعداده لفداء الرسول ؑ يأتي ضمن أعمال جليلة وعظيمة قام بها ابن عم رسول الله ؑ وصهره المبشر بالجنة للنبي ودعوته، وهو الذي تربي على الإيمان في بيت رسول الله ؑ. وقد تضافرت جهود علي مع جهود أبي بكر وأهله لخدمة الرسول ؑ في الهجرة، وأكمل بعضها بعضاً. ولا تناقض في ذلك فهو تكامل وتنافس في عمل الخير، ومحبة الرسول ؑ وخدمته وحمايته.

وقد تأخر علي ؑ عن الهجرة قليلاً بأمر من الرسول ؑ يؤدي الأمانات

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٨٢.

والودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ لقريش، بمن فيهم المشركون، وكان علي ﷺ أهلاً لأداء الأمانة ومحل ثقة رسول الله ﷺ،^(١) والمؤمنين والناس جميعاً.

وقد بقي علي ﷺ ثلاثة أيام بعد رسول الله ﷺ في مكة أدى فيها الأمانات ثم لحق برسول الله ﷺ في المدينة.^(٢)

ويتضح أن قريشاً لا تشك في أمانة الرسول ﷺ وتثق به على أموالها، وكان ﷺ أميناً حق أمين، رغم ظروف خروجه المفاجئة للهجرة، ورغم عدائهم له ومحاولتهم قتله وصاحبه. فقد أدى أماناتهم ﷺ واختار أقرب الناس إليه وأوثقهم عنده للمهمة.

الطريق إلى المدينة:^(٣)

مكث رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق ثلاثة أيام في غار حراء في جبل ثور جنوب غرب مكة عكس اتجاه الطريق إلى المدينة زيادة في السرية وبعيداً عن الطلب.

وقد جعلت قريشُ جائزة مقدارها مائة من الإبل لمن يأتي برسول الله ﷺ حياً أو ميتاً،^(٤) مما دفع الكثيرين للبحث عن رسول الله ﷺ بجدية تامة في كل اتجاه وطريق قريباً من مكة.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٨٢.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٩٣.

(٣) انظر: حديث عائشة المطول عند البخاري في صحيحه، وهو أكثر الأحاديث تفصيلاً عن الهجرة برواية عروة بن الزبير، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج ٤/٢٥٤ - ٢٥٨.

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج ٤/٢٥٦: أكرم العُمري، صحيح السيرة، ج ١/٢١١.

ومع وصول المشركين إلى الغار أكثر من مرة فإن الله حمى نبيه ﷺ.

فلما هدأ بحثُ المشركين وطلبهم، خرج رسول الله ﷺ ليلاً من الغار ومعه أبو بكر الصديق والتقىا بعبدالله بن أريقط دليلهما ومعه الراحلتان، فسلك بهما الطريق من أسفل مكة ثم عارض بهما الساحل، ثم مر بهما على مجازات وطرق وأودية ما كان الناس يسلكونها إلى المدينة،^(١) زيادة في التعمية على المطاردين. وما كانت تلك المسالك مظاناً أن يعبرها المسافر العادي، وكان رسول الله ﷺ مستخفياً، ولذلك استأجر مع أبي بكر هذا الخبير بالطريق الخريث، كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.^(٢) وفي الطريق حدثت لهم عدة حوادث، ومنها ما رواه أبو بكر رضي الله عنه قال: أخذنا علينا بالرصد فخرجنا ليلاً فأحسنا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة.^(٣)

من القصص المشهورة في طريق رحلة الهجرة قصة أم معبد صاحبة الخيمة التي مر بها الرسول ﷺ. وقد ضعّف أكرم العمري معظم الطرق والتفصيلات الواردة في القصة، سوى طريق واحد مختصر جاء في روايته: ((لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان، نزلا بأبي معبد فقالت: والله ما لنا شاة وإن شياهننا لحوامل فما بقي لنا لبن - وقد نسب الخبر لأبي معبد في رواية صحيحة - فقال رسول الله ﷺ: ((أحسبه - فما تلك الشاة؟ فأتي بها فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها ثم حلب عُسًا إناءً فسقاه، ثم شربوا فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال: إنهم ليقولون، قال: أشهد أن ما جئت به حق، ثم قال: أتبعك؟ قال: لا حتى تسمع أنا قد

(١) ألفت عدة أبحاث ودراسات ووقعت عدة خرائط عن الطريق التي سلكها الرسول ﷺ في هجرته إلى المدينة.

(٢) انظر: حديث البخاري الوارد في الهجرة، من هذا الكتاب.

(٣) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ، ج ٤/٢٦٢.

ظهرنا)).^(١)

وللروايات تفصيلات أخرى،^(٢) وقد جاء لها شواهد من أبيات شعرية سمعت بمكة أوردها ابن اسحاق وفيها:

جزى الله ربّ الناس خيراً جزاءه
رفيقين حلاً خيمتي أم معبد
هما نزل بالبرثم تروّحاً
فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهنّ بني كعب مكان فتاتهم
ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وأم معبد بنت كعب من خزاعة.^(٣)

كما أن من أشهر القصص الواردة في طريق الرسول ﷺ إلى المدينة قصة سرقة بن مالك ﷺ التي وردت بعدة طرق عند البخاري وغيره، ومن أكثرها تفصيلاً ما ورد برواية عبدالرحمن بن مالك المدلجي، وهو ابن أخي سرقة ابن مالك بن جعشم، أن أباه أخبره أنه سمع سرقة بن جعشم يقول: ((جاءنا رسل كفار قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر، دية كل واحدٍ منهما، من قتله أو أسرته، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال يا سرقة: إني قد رأيت أنفاً أسوداً بالساحل، أراها محمداً وأصحابه، قال سرقة: فعرفتُ

(١) انظر: د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة، ج ١/٢١٤. وانظر: تخريجه للرواية التي رجح صحتها في نفس الموضوع.

(٢) انظر لمزيد من التفصيلات، الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/٥٠٨: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣/١٨٨.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٨٧.

أَنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فَلَانًا وَفَلَانًا، انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَّتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي، وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكْمَةٍ، فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي، فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ، فَحَطَطْتُ بِرُجْجِهِ الْأَرْضَ، وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ، حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكَبْتُهَا، فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي، حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ، فَعَثَرْتُ بِي فَرَسِي، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي، فَاسْتَخَرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ فَاسْتَقَسَمْتُ بِهَا: أَضْرَهُمْ أَمْ لَا، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي، وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ، تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الْاِلْتِفَاتَ، سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ، حَتَّى بَلَغْنَا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا، ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكُدْ تُخْرِجْ يَدَيْهَا، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً، إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ، فَاسْتَقَسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ، فَنادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقَيْتُ مَا لَقَيْتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ، أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ، وَعَرْضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ، فَلَمْ يَرْزَأْنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي، إِلَّا أَنْ قَالَ: «أَخْفِ عَنَّا». فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ، فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فَهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» (١).

وقد ورد ما يفيد أن الرسول ﷺ أخبره بسقوط ملك كسرى وأنه سيلبس سواريه. (٢).

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج ٤/٢٥٦؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٤٦.
(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة ج ٢/١٩.

وتؤكد الروايات وفاء سراققة بما طلب منه الرسول ﷺ ، وأنه قام بصرف بعض الباحثين عن النبي ﷺ عن المكان الذي يسير فيه.^(١)

إن الإنسان ليعجب أن تأتي هذه البشارة بسواري كسرى في وقت كان الرسول ﷺ مطارداً من المشركين مطلوباً منهم حياً أو ميتاً، حيث جعلت أعظم الجوائز لمن يأتي به.

ومع ذلك فهو يحدث سُراققة عن فتح فارس بلاد كسرى، وأن هذا الإعرابي سيلبس سواري كسرى التي ما كان يجرؤ الأعراب على مشاهدتها بأعينهم أو الوصول إلى المدائن عاصمة كسرى التي تحتضنها، فكيف براعي الإبل هذا يلبسها. وقد قابل سراققة رسول الله ﷺ مرجعه من حنين والطائف في الجعرانة فأطلعته على الكتاب، فيقول رسول الله ﷺ: اليوم يوم بر ووفاء ادنُ فدنا من الرسول ﷺ وأسلم.^(٢)

وقد حدث بالفعل ما أخبر به ﷺ ، فكانت معجزة ضمن عدد من المعجزات النبوية. ففي خلافة عمر ﷺ فتحت المدائن وأتي بالغنائم وفيها سوارا كسرى وتاجه وبساطه وجواهره الغالية.

ويتذكر عمر ﷺ الوعد النبوي ويستدعي سراققة بن مالك وفي مسجد رسول الله ﷺ فيلبسه سواري كسرى، ويقول له قل: ((الله أكبر الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز وألبسهما سراققة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج)).^(٣)

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/٢٥٧؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٤٦.

(٢) البيهقي، دلائل النبوة، ج٢/٤٨٩؛ ابن حجر، الإصابة، ج٢/١٩.

(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢/١٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧/٦٨.

ورفع بها عمر صوته، ثم أركب سراقا وطيف به أسواق المدينة والناس حوله، وهو يكبر ويردد قول عمر، حتى شهد أهل المدينة تلك المعجزة تتحقق بعد قرابة خمسة عشر عاماً من وعد رسول الله ﷺ لسراقا.

ومن الأحداث الأخرى في الطريق إلى المدينة أن ركبا من المسلمين كانوا في طريقهم من الشام ومعهم الزبير بن العوام ﷺ لقوا رسول الله ﷺ فكسا الزبير ﷺ رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً.^(١)

ومن المعروف أن الزبير متزوج من أسماء بنت أبي بكر. وقد خدمت رسول الله ﷺ في إعداد ما يحتاجه للرحلة كما أنه ابن لصفية عمة رسول الله ﷺ. وقد أسلم مبكراً كما ورد أن طلحة بن عبيدالله لقيها أيضاً وهو عائد من الشام فكساهما.^(٢) ولعله كان في القافلة نفسها.

كما ورد أن رسول الله ﷺ مر ببابل لرجل أسلمي بالجحفة وفيها غلام راع فقال لمن هذه؟ قال الغلام: لرجل من أسلم، فالتفت إلى أبي بكر وقال: ((سلمت إن شاء الله))، ثم قال له: ما اسمك قال: مسعود، فالتفت ﷺ إلى أبي بكر وقال: ((سعدت إن شاء الله)).^(٣) وكان ﷺ يحب التفاؤل.^(٤)

وقد ورد أن الرسول ﷺ حين وصل الجحفة^(٥) أدركه الحنين إلى مكة والشوق لها، فأنزل الله عليه قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٨٥﴾ [القصص].

(١) صحيح البخاري، فتح الباري، ابن حجر، ج٧/١٩٣٦.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٢.

(٣) انظر: محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/٤٩٥.

(٤) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٢٥٦.

(٥) الجحفة: قرية بين مكة والمدينة، وهي ميقات أهل مصر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/١١١. (بالقرب من رابع حالياً شمال جدة).

قال ابن عباس: إلى مكة.^(١)

فمكة هي التي اعتادها الرسول النبي ﷺ واشتاق لها سريعاً. وهذه بشارة مبكرة بفتح مكة، كان خروج الرسول ﷺ من مكة مؤقتاً؛ حيث سيعود بإذن الله فاتحاً منتصراً، بعد أن يُخزي الله الكافرين، الذين منعه من نشر الإسلام فيها، وأنا أكتب هذه الأحرف في ساحة الحرم المكي الشريف أواخر شهر جمادى الآخرة ١٤٣١هـ في هذه اللحظات أتذكر صدق ما وعد الله، وكيف علا ذكر الرسول ﷺ وأصبح ذكر المعاندين له شر ذكر، وساحة الحرم غاصة بالموحدين أتباع محمد ﷺ يرفع اسمه بعد ذكر الله في الأذان والإقامة، ويصلى عليه في كل مكان في الحرم وغيره، وتبقى قلوب المسلمين معلقة برسوله ﷺ بعد الله، مبغضة لكل من عاداه من قريش لاعتنة لهم ولن سار على طريقهم في عداة الرسول ﷺ إلى يوم الدين.

الوصول إلى المدينة:

وصل المهاجرون والأنصار في المدينة خبرُ خروج الرسول ﷺ (فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما طال انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أطل رجل من يهود على أطم [حصن أو بيت مرتفع] من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأبي بكر مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني

(١) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب إن الذي فرض عليك القرآن، ج ١٨/٦؛ وابن كثير، تفسيره، ج ١٤٢٧/٢.

عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين الثامن من شهر ربيع الأول^(١) الموافق ٢١ سبتمبر سنة ٦٢٢م،^(٢) فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ حتى أصابته الشمس، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.^(٣) وقد ذكرت بعض الروايات أن الذين استقبلوا رسول الله ﷺ عند دخول المدينة كانوا خمسمائة من الأنصار،^(٤) وبالتالي فإن الذين حضروا إلى قباء بعد وصول الرسول ﷺ للقاءه ربما كانوا العدد نفسه أو قريباً من ذلك، مع أعداد أخرى من المهاجرين قد لا يقلون عن المائة، كما تفيد الروايات. وقد بايعه المهاجرون عند ذلك يستشعرون الخطر والتهديد الذي يحيط بالرسول ﷺ من أعدائه، وبالتالي فهم مستعدون لحمايته وطاعته والتضحية لأجله، وقد بايعه الأنصار مرة أخرى بعد وصوله المدينة، كما تفيد رواية البخاري عن ابن عمر ﷺ.^(٥)

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك ﷺ في البخاري من أفضل ما في هذا الأمر قال: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيها أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بني النجار قال فجاءوا متقلدي سيوفهم، قال: وكانني أنظر إلى رسول الله ﷺ

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٤/٢٥٨؛ ومهدي رزق الله، السيرة النبوية، في ضوء المصادر الأصلية، ج١/٣٢٦.

(٢) انظر: الترماني، أزمنة التاريخ الإسلامي، ص ١٥.

(٣) من رواية البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/٢٥٨؛ واللفظ له. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣٤٣.

(٤) د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج١/٢١٨.

(٥) انظر: حديث البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٤/٢٦٢.

على راحلته وأبو بكر ردفه وملاً بني النجار حوله).^(١)

وقد كان نزول رسول الله ﷺ في قباء على كلثوم بن الهدم من بني عمر ابن عوف، وعلى سعد بن خيثمة، وكان يستقبل الناس في منزل سعد، وهو مكان لسكنى عدد من العزاب من المهاجرين ﷺ.^(٢)

لقد كان وصول الرسول ﷺ إلى قباء في المدينة يوماً مميّزًا اتخذه المسلمون بداية للتأريخ الهجري لما يرون من أهميته.^(٣)

وقد ورد ذكر هذا اليوم بذاته في القرآن الكريم مربوطاً بالحديث عن بناء مسجد قباء في قوله - تعالى -: ﴿لَا نَقُومُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسَّجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٨) [التوبة].

إنه إشارة إلى هذا اليوم بذاته. ولعل ذلك من أسباب اتخاذ المسلمين للتأريخ الهجري، حيث ذكروا أن القرآن الكريم أشار إلى هذا اليوم بذاته، ولذلك رأوا اتخاذ التاريخ الهجري، ورجحوه على غيره من الآراء، كما قال عمر ﷺ: الهجرة فرقّت بين الحق والباطل، فارضوا بها،^(٤) ولذلك رأى الصحابة أنه أول الزمن الذي عز فيه الإسلام.

(١) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، ج٤/٢٦٦.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣٤٣.

(٣) انظر: عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٢/٧٥٨؛ وانظر: البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب من أين أرخوا التاريخ، ج٤/٢٦٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب من أين أرخوا التاريخ، ج٤/٢٦٧؛ انظر: البداية والنهاية، ج٢/٢٥٣؛ وعمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٢/٧٥٨.

بقي ﷺ في قباء أقام - أربع عشرة ليلة -^(١) قام فيها ببعض الأعمال، كان أهمها بناء مسجد قباء - كما ذكرنا - وهو أول مسجد بني في الإسلام، شارك في ذلك رسول الله ﷺ بنفسه. ولا شك أن رسول الله ﷺ صلى بالمسلمين فيه. وكان ﷺ يحث على الصلاة فيه فقال: ((صلاة في مسجد قباء كعمرة)).^(٢)

ولا يعني ربط مسجد قباء بهذه الآية تفضيله على مسجد النبي ﷺ، فكلاهما أسس على التقوى، ومسجد قباء هو المعنى بهذه الآية، وصفات المطهرين وردت في أحاديث كثيرة عن أهل قباء من الأنصار وأنهم كانوا يتبعون الحجارة بالماء في الطهارة.^(٣)

وقد وردت تفصيلات أكثر عن بناء مسجد قباء.^(٤)

ولا شك أن اهتمام الرسول ﷺ ببناء المسجد في قباء وبعد ذلك مسجده في المدينة يدل على مكانة المساجد عند رسول الله ﷺ بأمر الله ﷺ وهي مخصصة لعبادة الله وحده: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) [الجن]. فلا فسوق فيها ولا بيع ولا شراء، ولا اعتداء، وإنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن، ولذلك صارت تؤدي خدمات تعليمية وسياسية وإدارية في عصر الرسول ﷺ تربط العباد بالله ﷺ وتزيد تعاونهم على البر والتقوى يجتمع فيها المسلمون للصلاة والتآلف والمحبة،^(٥) ولذلك فأول عمل

(١) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، ج ٤/٢٦٦.

(٢) متفق عليه، انظر: تفسير ابن كثير، ج ١/٩٠٨.

(٣) انظر: بحث مطول عن الموضوع عند ابن كثير في تفسيره، ج ١/٩٠٨.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٢٩٤؛ السهيلي، الروض الأنف، ج ٢/٢٤٢.

(٥) انظر: د. عبدالعزيز المليم، رسالة المسجد في الإسلام، منيرة عبد الملك بن دهيش، دور المسجد في القرن الأول الهجري، محمود شيت خطاب الوسيط في رسالة المسجد في الإسلام.

قام به رسول الله ﷺ في قباء بناء مسجدها ، لم يكن داراً أو قصرًا أو شأنًا دنيويًا ، وإنما بني لله مسجداً .

وقد صلى رسول الله ﷺ أول جمعة في بني سالم بن عوف قبل وصوله إلى المدينة وكانت أول جمعة في الإسلام. ^(١) وما يزال المسجد حيث صلى ﷺ مشهوراً في المدينة وهو أحد معالمها الرئيسية. ^(٢)

لم يكن بنو النجار وحدهم في الركب والحماية وإظهار القوة مع الرسول ﷺ بل كان بقية الأنصار والمهاجرين في الموكب المهيب ، الذي تجاوز عدده خمسمائة رجل. ^(٣)

كان الوصول للمدينة بداية استقرار للرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين ، وبداية فرح وسرور ونور لأهلها الذين دخل الإسلام معظم بيوتهم ، وقد خرج أهل المدينة حتى إن العواتق فوق البيوت يتراءين يقلن أيهم محمد فما رأين منظرًا شبيهاً به .

وقد خرجت جوارى بني النجار يرحبن برسول الله ﷺ مرددات:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

وروي أنه قال أتحبيني؟ فقلن: أي والله قال: ((وأنا والله أحبكن)). ^(٤)

إنه الحنو الحقيقي والود الصادق للنبي ﷺ من الأنصار صغاراً وكباراً ،

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤٩٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٢٧١؛ مهدي رزق، السيرة النبوية، في ضوء المصادر الأصلية، ص ٢٨٦.

(٢) انظر: عبدالعزيز كعكي، المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة، ج١/١٤٨.

(٣) رواه أحمد في مسنده؛ انظر: محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج٢/٢٥؛ ومهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٢٨٥.

(٤) ابن حجر، فتح الباري، ج١٥/١٢٥؛ وانظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٢٨٦.

ظهر فرحهم حين قدم المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم: ((يقولون الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء رسول الله)).^(١)

وفي رواية أنه عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون: ((يا محمد يا رسول الله يا محمد يا رسول الله)).^(٢)

وبعضهم يردد: (جاء نبي الله جاء نبي الله).^(٣)

وقد شهد البراء بن عازب رضي الله عنه - وهو من علماء الأنصار - دخول النبي ﷺ للمدينة فنقل مشاعر أهلها بقوله: (ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ)^(٤) وحين دخول الرسول ﷺ المدينة تنافس الأنصار رضي الله عنهم في استضافته ونزوله عندهم، كل يريد شرف نزوله رضي الله عنه، فيستوقفونه ويطلبون أن ينزل بينهم، وكل يبدي رغبته وقدرته على إكرامه والدفاع عنه رضي الله عنه، فيقولون: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، يريد كل منهم أن يأخذ بخطام ناقة الرسول رضي الله عنه. فيقول: دعوها فإنها مأمورة، ودارت الناقة عدة مرات حتى بركت في موضع مسجده رضي الله عنه وكان مرئياً لمحبس الإبل وما شاكلها لغلامين من بني النجار، وكان بعض الصحابة يصلي حوله قبل وصول رسول الله ﷺ.^(٥)

ولكثرة الراغبين في استضافة الرسول رضي الله عنه فقد كان محرراً يرغب في

(١) أبو شهبه، السيرة النبوية، ج٢/٢٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث الهجرة، ج٨/٢٣٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي رضي الله عنه وأصحابه، ج٤/٢٦٤.

(٤) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٤؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/٥٥١.

(٥) من رواية البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي رضي الله عنه وأصحابه، ج٤/٢٦٦؛

وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٢٧٢.

إسعاد الجميع، وفي الوقت نفسه لديه الرغبة في النزول على بني النجار
أخوال جده عبدالمطلب.

فإذا بأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه يبادر بحمل رحل النبي صلى الله عليه وسلم من على ناقته
ويدخله داره فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((المرء مع رحله)).^(١)

ويبادر أسعد بن زرارة فيأخذ راحلة النبي صلى الله عليه وسلم،^(٢) لقد كانت منافسة في
إكرام واستضافة أفضل الخلق ذهب بها أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه.^(٣)

* * * * *

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤٩١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٢٧٣.

(٢) انظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٢٨٧.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج١/٢٣٧؛ انظر: ابن كثير، السيرة
النبوية، ج٢/٢٨٠.

المدينة وسكانها

كانت المدينة في العصر الجاهلي تعرف بين العرب بـ(يثرب).^(١) وقد وردت في القرآن الكريم بهذا الاسم ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ [الأحزاب].

وحيثما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة غير اسمها ليصبح المدينة وقد سميت بذلك في القرآن الكريم في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ [التوبة]. وفي قوله - تعالى - : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَحْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِن عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٢﴾ [التوبة].

وللمدينة المنورة أسماء مختلفة فهي طيبة وطابة والمباركة والمشرفة ودار الهجرة. وقد ألفت كتب خاصة عنها وعن ما ورد فيها وفضائلها.^(٢)

وقد شرفت بهجرة الرسول ﷺ إليها ودعائه لها ، ومنه قوله ﷺ : ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ)).^(٣)

وقوله ﷺ : ((اللهم بارك لنا في ثمرنا وفي مدينتنا وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مدننا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونيبك وإني عبدك ونيبك

(١) انظر: بحث مطول عن الموضوع عن ابن كثير في تفسيره، ج ١/٩٠٨.

(٢) انظر: الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة، د. صالح بن حامد الرفاعي، مركز خدمة السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة، ط ١، ١٤١٣ هـ.

(٣) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب: ١٢، ج ٢/٢٢٥.

وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه)).^(١) وقد أحبها الرسول ﷺ وجعل لها ﷺ حرمة وجمى، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((المدينة حرم من كذا إلى كذا لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)).^(٢)

وكما قال ﷺ: ((حُرْمٌ ما بين لا بَنِي المدينة على لساني)).^(٣) وقد وضع البخاري في صحيحه كتاباً سماه: (فضائل المدينة).^(٤)

اكتسبت المدينة المنورة صفة عاصمة الدولة الإسلامية منذ سكنها رسول الله ﷺ، واستمر ذلك في عصر خلفائه الراشدين، فصارت أعظم المدن تأثيراً على العالم قاطبة خلال تلك الفترة وما بعدها، وربما إلى يومنا الحاضر بما تنزل فيها من قرآن وسنة، ووجد من تنظيم وريادة حتى أصبح القرآن إما مدني نسبة إليها أو مكّي نسبة إلى مكة.

وتقع المدينة شمال مكة بحوالي (٤٠٠) كلم باتجاه (الشام). وهي منطقة تكثر بها الحرات البركانية، ويوجد بها العديد من الأودية، وتقوم على الزراعة بالدرجة الأولى في العصر النبوي، وتشتهر بنخيلها وأنواعه المختلفة ويقيم بها عدد من قبائل العرب، إضافة إلى يهود وبعض الأخطاط، كان بها حركة تجارية معقولة في تلك الفترة.^(٥) وهي على طريق تجارة قريش إلى

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضائل المدينة، ج٢/١١٦ - ١١٧

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، ج٢/٢٢٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، ج٢/٢٢١.

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب فضائل المدينة وأنها تنفي الناس، ج٢/٢٢٠.

(٥) انظر: عبدالعزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، ص ٢٠.

الشام، وأهم سكانها حين قدم الرسول ﷺ إليها هم الأوس والخزرج، وهي قبائل عربية متحضرة من الأزديمانية،^(١) لهم صلاتهم القوية ببعض القبائل العربية المجاورة. وتمتد تلك الصلات إلى غساسنة الشام ومناذرة الحيرة.^(٢)

ويقيم الأوس والخزرج في تجمعات سكنية تشكل بطون هذه القبائل.^(٣)

ويسود السلام في الغالب علاقات هاتين القبيلتين، كما توجد مصاهرات بينهما، غير أنه وجدت بينهما الحروب أحياناً كيوم "بُعَاث" المشهور بينهما، الذي روى فيه البخاري عن أم المؤمنين عائشة ؓ قالت: (كان يوم بُعَاث يوماً قدمه الله ﷻ لرسوله وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم).^(٤)

كما أن من أهم العناصر السكانية في المدينة المنورة حين قدمها الرسول ﷺ تجمعات وقبائل يهودية، لا تقل قوة ونفوذاً عن الأوس والخزرج، وقد تكون أقوى من الناحية الاقتصادية والعلمية، حاورهم الرسول ﷺ وناقشهم بأحسن الأساليب وأرقاها.^(٥)

وأشهر قبائل اليهود في المدينة.

بنو قينقاع:

وهم من أوائل اليهود الذين سكنوا الحجاز، وكانوا يقيمون في المدينة المنورة يحالفون الأوس والخزرج، وكانت لهم حصون وأراض يزرعونها

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣١١/١؛ وابن قتيبة، المعارف، ص ١٠٩.

(٢) انظر: محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، ص ٢١٨.

(٣) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣١١/١.

(٤) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، ج ٢٦٥/٤.

(٥) انظر: الحمد، محمد إبراهيم، الحوار في السيرة النبوية - الكويت: وزارة الأوقاف، ١٤٢٩هـ، ص ١٨٧.

فكانوا يسكنون قرب وادي (بطحان)،^(١) وهو من أخصب أودية المدينة المنورة، ولهم فيه مزارع وحصون كثيرة.

وكانوا يملكون أشهر سوق تجاري في المدينة قبيل الهجرة النبوية، ويسمى (سوق بني قينقاع)،^(٢) وكانوا يسيطرون عليه، وهناك أفراد من هذه القبيلة يعملون بالتجارة، وبعضهم يعمل بمهنة الصياغة وبعض الصناعات اليدوية الأخرى، وآخرون يعملون بالزراعة.

وبنو قينقاع هم أول قبائل اليهود التي نازعت الرسول ﷺ في المدينة، ولذلك كانوا أول قوم من يهود أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة المنورة، في السنة الثانية من الهجرة، بسبب اعتداء أحدهم على إحدى نساء المسلمين وتوعدهم للرسول ﷺ.^(٣)

بنو النضير:

هي إحدى قبائل اليهود الذين سكنوا المدينة المنورة، وكانوا يقيمون في الجنوب الشرقي من المدينة على وادي (مذيئيب).^(٤) ويمتلكون عدة مزارع وحصون في المدينة، ومن أشهر حصونهم حصن: (كعب بن الأشرف) الرجل الذي آذى رسول الله ﷺ، فانتدب الرسول ﷺ جماعة من المسلمين لقتله

(١) وادي متوسط ينحدر من الجهة الجنوبية، ويصب في وادي العقيق ناحية زغابة. انظر:

أحمد ياسين الخياري، تاريخ ومعالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، ص ٢٨٣.

(٢) عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج ١/٣٠٤؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ج ٤/١٢٣٨.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٤٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/٦؛ د. عبدالعزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجار، ص ٣١؛ وانظر: غزوة بني قينقاع، من هذا الكتاب.

(٤) مذيئيب: مسيل يصب في وادي بطحان أحد روافد العقيق ناحية زغابة، انظر: أحمد

الخياري، تاريخ معالم المدينة، ص ٢٨٥؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ج ٣/٧٦؛ إبراهيم

العياشي، المدينة بين الماضي والحاضر، ص ٢٨.

فقتلوه،^(١) وقد حاول يهود بني النضير قتل الرسول ﷺ بإلقاء حجارة عليه من على أحد بيوتهم، حينما جاءهم يطلب منهم الاشتراك في دفع قتيلين قتلا خطأ، وذلك حسب معاهدة الرسول ﷺ معهم في الديات والتعاون مع اليهود في ذلك، فأرادوا قتله، فحاصره الرسول ﷺ، وأجلاهم عن المدينة، وغنم أموالهم ومزارعهم،^(٢) وقد أنزل الله - تعالى - فيهم آيات كثيرة من سورة الحشر منها قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]،^(٣) وقد ورد عن ابن عباس ؓ أنه قال عن سورة الحشر (سورة النضير).^(٤)

بنو قريظة:

إحدى القبائل اليهودية الرئيسية التي عاصرت الرسول ﷺ في المدينة، وكانت قد استقرت في المدينة قبل فترة طويلة، وامتلكت الحصون والمزارع وعملت بالتجارة والزراعة، وكانوا أهل ثروة كغيرهم من اليهود، اشتهروا بحصونهم المنيعه.

وكان يهود بني قريظة آخر اليهود في المدينة حرباً للرسول ﷺ، ففي غزوة الأحزاب كان المسلمون في المدينة محاصرين من قبل الأحزاب. وأظهر بنو قريظة الغدر من داخل المدينة، ومالوا لحرب المسلمين مع الأحزاب، مما

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٥١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/١٩٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ج ١/١٨٤٥؛ وانظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الحشر، ج ٦/٥٨.

(٤) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الحشر، ج ٦/٥٨.

جعل المسلمين بين عدوين، عدو يحاصرهم من الخارج: (قريش والأحزاب)، وعدو يهددهم من الداخل: (بنو قريظة)، فلما رحل الأحزاب عن المدينة حاصر الرسول ﷺ بني قريظة حتى نزلوا على حكم (سعد بن معاذ) الذي حكم بقتل الرجال وسبي النساء ومصادرة الأموال،^(١) فانتهت بذلك آخر قبائل اليهود ذات الكيان المستقل في المدينة المنورة.^(٢)

كان اليهود جزءاً من العرب في اللغة العامة ومعظم العادات، لكنهم حافظوا على التعامل بالعبرية فيما بينهم في عباداتهم ومدارسهم.^(٣)

يضاف إلى هذه العناصر الرئيسة مجموعة من الأفراد المجاورين والمحالفين من عرب ويهود وقد كثر المهاجرون من خارج المدينة مما أوجد مزيداً من التنوع في السكان.^(٤)

كانت العصبية سائدة بين قبائل المدينة المختلفة، وكان بعضهم يحالف بعضاً وخصوصاً بين يهود الأوس والخزرج، وكانت الخلافات والنزاعات قائمة باستمرار بين هؤلاء السكان، ولذلك فإن الرسول ﷺ تعامل مع هذا الواقع بأفضل الصور ليحصل على أفضل النتائج ويؤسس لمجتمع مدني سلمي يسع الجميع لمن أراد الحياة الكريمة، كما جعلت رابطة العقيدة بين المسلمين هي الأساس في الولاء، وفي الوقت نفسه مدت جسور التعايش والسلام مع بقية السكان بمن فيهم يهود فيما عرف بعد ذلك بـ(وثيقة المدينة).^(٥)

(١) انظر: غزوة بني قريظة، من هذا الكتاب.

(٢) د. عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص ٣٢، ٣٣.

(٣) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ٧٢.

(٤) د. أكرم العمري، المجمع المدني في عهد النبوة، خصائصه وتنظيماته الأولى، ص ٧٠.

(٥) الشعبي، أحمد قائد، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، كتاب الأمة، العدد (١١٠) - الدوحة: وزارة الأوقاف ١٤٢٦هـ، ص ٢٩؛

وسيرد لها مزيد من التفاصيل في هذا الكتاب.

النزول في دار أبي أيوب الأنصاري

عندما حمل أبو أيوب الأنصاري رَحْلَ النبي ﷺ تشرف بسكنى الرسول ﷺ عنده قرابة تسعة أشهر نال أبو أيوب حظه من خدمة النبي ﷺ وغيره من الصحابة، وكانوا يتنافسون في بعث الطعام إلى النبي ﷺ. وكان أبو أيوب في الوقت الذي يقدم فيه الطعام للرسول ﷺ، يأكل مع أهله ما تبقى من طعام النبي ﷺ، وإن كانوا هم الذين أعدوه ويلتمس موضع أكل النبي ﷺ ليتبارك في موضع يده الشريفة.^(١) وفي يوم من الأيام صنع للنبي ﷺ طعاماً فيه ثوم وبعثه إليه، فلما جاء به إليه، سأل عن موضع أصابع النبي ﷺ فقيل له: لم يأكل ففزع وصعد إليه فقال: أَحْرَامٌ هو؟ فقال النبي ﷺ: ((لا ولكني أكرهه))، قال: فإنني أكره ما تكره.^(٢) وكان النبي ﷺ تأتيه الملائكة ويقول: إني أناجي من لا تتاجي، ((وإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)).^(٣)

وقد ورد عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أنه قال: (لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفلى، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له يا نبي الله بأبي أنت وأمي إني أكره وأُعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فأظهر أنت فكن في العلو، ونزل فتكون في السفلى، فقال: ((يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفلى البيت)). قال فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حب [إناء من فخار] لنا فيه ماء

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٩٩: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٢٧٧.

(٢) وانظر: ابن هشام، السيرة، ج ٢/٤٩٩؛ وانظر: رواية مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، ج ٢/٧٩.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، ج ٢/٧٩.

فقدت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيره ننشف بها الماء خوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.^(١)

وقد أقام رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب حتى بنى مسجده وحجراته ﷺ. وقد ذهب أبو أيوب بهذا الفخر والمنقبة إلى يوم القيامة، كان الصحابة ﷺ يغبطونه على ذلك حيث صارت داره مقر رسول الله ﷺ ومهبط الوحي وملتقى المؤمنين برسول الله ﷺ لعدة أشهر.

ويرون لأبي أيوب منزلة خاصة بهذا الأمر، ولذلك فقد قدم أبو أيوب الأنصاري إلى العراق، وكان بها عبد الله بن عباس ﷺ والياً على البصرة لعلي بن أبي طالب ﷺ، فقدم عليه أبو أيوب الأنصاري فخرج له ابن عباس ﷺ عن داره، وأنزله فيها كما أنزل رسول الله ﷺ في داره.^(٢)

إن إكرام أبي أيوب ﷺ والأنصار لرسول الله ﷺ والمهاجرين معه كان رحمة من الله وتعويضاً عما فعله مشركو مكة من طرد المهاجرين من قبل قريش والسيطرة على دورهم وأموالهم في مكة، فهاهم الأنصار يحسنون استقبال الرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين ويقدمون المواساة لهم، وها هي الأمة إلى يوم القيامة تشني على أبي أيوب الأنصاري بإكرامه الرسول ﷺ.^(٣)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٩٨ - ٤٩٩.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية، ج ٢/٢٨٠.

(٣) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج ١/٢٣٧؛ ابن حجر، الإصابة،

ج ١/٤٠٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢/٤٠٢.

بناء المسجد النبوي

من أوائل أعمال رسول الله ﷺ حين وصوله المدينة تحديد موضع مسجده، فقد بركت ناقته القصواء عند موضع مسجده ﷺ^(١) حيث كان (يصلي به يومئذ رجال من المسلمين وكان مريداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته هذا - إن شاء الله - المنزل، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين ففاوضهما بالمريد، ليتخذ مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً).^(٢)

لقد كان هم رسول الله ﷺ إيجاد مسجد يعبد فيه الله وحده لا شريك له،^(٣) وأن لا يأخذ شيئاً من مال هؤلاء الأيتام ولا من مال غيرهم. ورغم أن الرسول ﷺ يأخذ الهبة والهدية، فإنه في هذا الموضع لم يقبلها، بل أمر ﷺ بدفع الثمن من ماله ولذلك قدر قيمتها ودفع الثمن لهما، ويُعد هذا المسجد أول وقف في الإسلام والموقف هو المصطفى ﷺ.

كان أول عمل قام به الرسول ﷺ اختيار موقع مسجده، وأول بناء عمله الرسول والمهاجرون والأنصار معه هو بناء مسجد قباء في طريق الرسول ﷺ إلى المدينة، ثم بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة، وقد جرى بناء المسجد النبوي زمن الرسول ﷺ مرتين، أحدهما في السنة الأولى من الهجرة، فور وصوله إلى المدينة، والأخرى في السنة السابعة من الهجرة، وكان البناء الأول أقل من الثاني من حيث المساحة، ومن حيث قوة البناء. وقد كان

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٢٧.

(٢) من رواية البخاري في صحيحه واللفظ له، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج ٤/٢٥٤.

(٣) ألفت د. سعاد ماهر كتاب "مساجد في السيرة النبوية" - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

البناء الأول لمسجد الرسول ﷺ بعد اختيار الرسول ﷺ للموقع ودفع ثمنه، وكانت الأرض غير مستوية، وفيها نخل وخرائب وقبور وبعض المياه، فبدأ الرسول ﷺ بقطع النخل واستفاد منه في البناء، كما أمر بتسوية الخرائب وتصفية الماء حتى تم تشييف الأرض وتنظيفها، ثم أمر بالقبور فنبشت وكانت قبور مشركين،^(١) ثم أمر بتسوية الأرض حتى أصبحت صالحة للبناء، وقد شارك ﷺ بنفسه في بناء المسجد، وكان يرتجز مع الصحابة أثناء البناء والصحابة يشاركونه في البناء. وقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ قال: كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين فرأه النبي ﷺ فينفض الغبار عن عمار، ويقول: ((ويُحَ عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار))،^(٢) وفي عمارة الرسول ﷺ للمسجد جعل مساحته (٧٠) ذراعاً طولاً في (٦٠) ذراعاً عرضاً،^(٣) وقد أرسى حيطان المسجد بالحجارة، ثم بنى الجدران باللبن، وجعل عرض الحائط لبنة، وقد طلب المسلمون من الرسول ﷺ أن يظلل المسجد مخافة الشمس فوافقهم على ذلك، فأقام السواري (الأعمدة) من جذوع النخل، ثم طرحت عليها العوارض الخشبية، ثم وضع على السقف خصف الجريد والأذخر - نبات طيب الرائحة - وجعل وسطه رحبة خالية، وقد أصابت المسلمين الأمطار، فجعل السقف يُنزل المطر على المصلين، فاشتكوا إلى الرسول ﷺ من ذلك وطلبوا منه ﷺ (تطين) السقف لحجز المطر عن المصلين، فقال ﷺ: ((نعم ابنوا لي عريشاً كعريش موسى ثمامات - بُتُّ ضعيف قصير - وخشبات، وظلّة كظلة موسى، والأمر أعجل من ذلك))، قيل فما ظلّة موسى قال: ((كان إذا قام أصاب رأسه السقف))،^(٤)

(١) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد ...، ج ١/١١٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٤٩٩.

(٣) وتبلغ مساحة البناء النبوي الأول للمسجد (١٠٦٠) متراً مربعاً. (انظر: عبدالعزيز

كعكي، المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة، ج ١/١٢٤).

(٤) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٣/٣٨٦.

فقام الرسول وأصحابه (بتطيين) السقف وعمل الرسول ﷺ معهم، وجعل رسول الله ﷺ قبلته ناحية بيت المقدس في هذا البناء الأول الذي بني قبل تحويل القبلة.^(١)

وقد جعل الرسول ﷺ للمسجد ثلاثة أبواب. أحدها باب أبي بكر، وهو في الحائط الجنوبي جهة القبلة - الحالية - وذلك لأن القبلة كانت ناحية بيت المقدس، وباب عاتكة ويقال له باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه الرسول ﷺ في الجهة الشرقية. وعندما غُيِّرَت القبلة سدَّ النبي ﷺ الباب الجنوبي. وقد كان ارتفاع السقف في هذه العمارة خمسة أذرع [٢,٢٥ متراً]،^(٢) وقد أعيد بناء المسجد مع شيء من التوسعة بعد غزوة خيبر.^(٣)

وما تزال حدود المسجد النبوي زمن الرسول ﷺ معروفة ومعلمة بعلامات خضراء مكتوب عليها بشكل واضح يستطيع زائر المسجد النبوي رؤيتها وقراءة ما هو مكتوب عليها.

(١) كتبت عدة مؤلفات حول عمارة المسجد النبوي تطرقت للعمارة الأولى، منها: عمارة وتوسعة المسجد النبوي عبر التاريخ، للشيخ ناجي محمد حسن الأنصاري، من إصدارات النادي الأدبي بالمدينة المنورة، ط١ - ١٤١٦هـ؛ وتاريخ معالم المدينة قديماً وحديثاً، أحمد ياسين الخياري، النادي الأدبي بالمدينة المنورة ١٤١٠هـ؛ والمدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، صالح لمعي - بيروت: دار النهضة ١٩٨١م؛ وانظر: الدرّة الثمينة في أخبار المدينة، محمد بن محمود النجار (ت، ٦٤٣هـ)، دراسة وتحقيق د. صلاح الدين عباس، ط١ - مركز بحوث المدينة ١٤٢٧هـ؛ وتحقيق النصر بتلخيص معالم دار الهجرة، الحسين ابن عمر المراغي (ت، ٨١٦هـ)، تحقيق عبدالله عسيلان، ط١ - ١٤٢٢هـ، وكذلك ما كتبه عبدالعزيز كعكي في الجزء الأول من موسوعته (المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة)، ص ١٢٤.

(٢) انظر تفصيلات ذلك عند: عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص ١٧٨-١٨٠.

وقد بلغت مساحة المسجد بعد هذه التوسعة، (١٤١٥) متراً مربعاً. (انظر: عبدالعزيز كعكي، المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة، ج ١/١٢٤).

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/٣٤٥؛ الواقدي، الغازي، ج ٢/٦٣٦.

الأذان

الصلاة لها مكانتها عند الديانات السماوية، ولكل فيها مكان خاص يجتمع فيه المصلون ومواعيد خاصة لذلك، ووسيلة معينة للدعوة لها، وكان فرض الصلوات الخمس في السماء حين عرج بالرسول ﷺ إلى السماء، وقد ناقشه في عددها ومحاولة التخفيف عن أمة محمد ﷺ نبي الله موسى عليه السلام الذي حَبَرَ بني إسرائيل وصعوبة الصلاة عليهم، إلى أن استقر أمر الله على خمس صلوات في اليوم واللييلة تكون بأجر خمسين لأمة محمد ﷺ،^(١) وكان أصحابه ﷺ يصلون في شعاب مكة مستخفين عن المشركين، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة كان أول عمل له في قباء بناء مسجد قباء، وكان أول عمل له في المدينة بناء المسجد النبوي ليكون مكاناً لصلاة المسلمين جماعة في أوقاتها.

ولم يكن في البداية ثمّة وسيلة أو نداء معين لاجتماعهم للصلاة، مع أنه على ما يبدو ثبتت مواعيدها المعروفة لجميع المسلمين، غير أنه كان فيها شيء من السعة في بداية الوقت ونهايته لكل صلاة من الصلوات. وقد وضع البخاري في صحيحه باب بدء الأذان.^(٢)

وقد روى البخاري عن ابن عمر ﷺ: (كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحننون وقت الصلاة ليس ينادى لها).^(٣)

وقد كان المسلمون جادين في البحث عن وسيلة معينة للنداء إلى الصلاة، ومع أن الوحي كان ينزل على الرسول ﷺ فإنه في البداية لم يؤمر بشيء

(١) انظر: موضوع الإسراء والمعراج، من هذا الكتاب.

(٢) انظر: كتاب الأذان، أول أبواب الكتاب، باب بدء الأذان وقوله - تعالى -: ((وإذا ناديتم إلى الصلاة))، ج ١/١٥٠.

(٣) من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب بدء الأذان، ج ١/١٥٠.

محدد في هذا الأمر، ولهذا كان يشاور الصحابة حوله: (فتكلموا يوماً في ذلك فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر أفلا تبعثون رجلاً منكم ينادي بالصلاة؟)، فقال رسول الله ﷺ: ((قم يا بلال فناد بالصلاة)).^(١)

وقد وردت روايات تدل على أن عبد الله بن زيد الأنصاري ﷺ،^(٢) وعمر بن الخطاب ﷺ كل منهما رأى من يلقنه الأذان بالألفاظ نفسها وقال ﷺ: ((إنها الرؤيا)).^(٣)

وقد روى ابن إسحاق: (فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار، استحكمت أمر الإسلام، فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذي تبوءوا الدار والإيمان. وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها، وبغير دعوة، فهم رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنُجحت ليضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة، أخو بلحارث بن الخزرج، النداء، فأتى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مرّ بي رجلٌ عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده،

(١) من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب بدء الأذان، ج ١٥٠/١؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٥٠٨/١.

(٢) انظر: ترجمة عبد الله بن زيد عند ابن حجر في الإصابة، ج ٣١٣/٢.

(٣) انظر: الدارمي في سننه، ج ٣٩١/١؛ مسند الإمام أحمد، ج ٤٣/٤؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج ٥٠٩/٢؛ وقد صححه عدد من العلماء. إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ١٥٠.

فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح... إلى آخر الأذان.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ، قال: إنها لرؤيا حق، إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أمدى صوتاً منك. فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يجرّ رداءه، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأي، فقال رسول الله ﷺ: ((فلله الحمد على ذلك)).^(١)

لقد كان اختيار بلال لهذا الأمر بسبب حسن صوته درساً للأمة كلها في أن يقوم بالعمل الأفضل والأحسن لأدائه.

أصبح الأذان شعاراً خاصاً بالمسلمين إلى اليوم، إذا سمعه المسلم وغيره اقشعرت له الجلود وهربت منه الشياطين، كله ذكر وتكبير وتوحيد لله ﷻ ربما لا يحس بقيمته إلا من فقدته في سفر أو فقد سماعه، تذرّف دمعة المسلم له إذا سمعه بعد افتقاده، ويتهيب ويخشع له قلب الكافر إذا سمعه في بلاد المسلمين.

يتسابق المسلمون فيه بتحسين الصوت ورفعها، وقد أتى الرسول ﷺ على المؤذنين في قوله: ((بلال سيد المؤذنين، والمؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة)).^(٢) فأصبح موضع تنافس بينهم، كل يريد أن يرفعه .

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٥٠٨.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، ج ١/٢٥٤؛ وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١/٣٥٥.

ونال بلال بن رباح رضي الله عنه شرف لقب مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث كان يرفع الأذان في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة وفي سفره معه، وقد رفعه فوق الكعبة يوم فتح مكة وقد توقف عن الأذان بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي اجتماع الجابية أيام الفتوح في الشام طلب منه الصحابة أن يؤذن فيهم بحضرة عمر، كما كان يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سمعوا أذانه بكوا جميعاً واخضلت لحاهم.^(١)

واشتهر من المؤذنين في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، عبد الله بن أم مكتوم وغيره. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن بلال يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم)).^(٢)

وقد صار الأذان شعاراً إسلامياً ورد في القرآن الكريم في قوله - تعالى - :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾﴾ [الجمعة].

إن هذا الأذان بالصوت البشري وبمعان مفهومة سامية عالية فيها ذكر لله ورفع ذكر نبيه صلى الله عليه وسلم، مما يميز المسلمين على غيرهم من الأمم عبر العصور في شتى أصقاع الأرض، فهو شعيرة من شعائر المسلمين في كل مكان، يعرف به إسلامهم، ولا يعذرون بترك الأذان وهم يستطيعون، بل ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بأن يؤذن الراعي وهو في غنمه، فقد ورد أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لأبي صعصعة المازني: ((إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك، فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا أنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة، قال: أبو سعيد سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم)).^(٣)

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١/٣٥٧؛ وانظر: ابن حجر، الإصابة، ج ١/١٦٥.

(٢) البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب أذان الأعمى إذا كان له من يخيره، ج ١/١٥٣.

(٣) البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء، ج ١/١٥١.

المؤاخاة^(١)

كان الرسول ﷺ حريصاً على إقامة روابط خاصة بين المسلمين يواسي بعضهم بعضاً، ويتفقد بعضهم بعضاً، ويعوض بعضهم بعضاً ما فقده من المال والأهل والأصحاب نتيجة إسلامه أو هجرته، ولذلك ورد أن المؤاخاة أول ما كانت في مكة قبل الهجرة بين عدد من المسلمين، منهم عمر وأبو بكر وطلحة بن عبيد الله والزيير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ﷺ، وأن علياً ﷺ قال للنبي ﷺ حينها في مكة: يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي، قال: ((أنا أخوك)).^(٢)

ولما استقر المسلمون في المدينة بُعيد الهجرة عقد ﷺ بين المهاجرين والأنصار أخوة، وقد سُمى الرواة كل صحابي ومن آخى رسول الله ﷺ معه، وكانت المؤاخاة في الغالب بين أنصاري ومهاجر.^(٣) ووجدت حالات من المؤاخاة بين بعض المهاجرين ومهاجرين آخرين ولعلها جاءت في مراحل متأخرة أو لظروف خاصة وإلا فالراجح أنها كانت بين مهاجر وأنصاري. وقد ذكر ابن سعد (أن رسول الله ﷺ قد آخى بين خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار)،^(٤) وهذه على ما يبدو دفعة من المؤاخاة لحقها دفعات أخرى حسب وصول المهاجرين.

وكانت هذه الإخوة للارتفاق والمساعدة والتفقد والتعليم، والتعاون على الخير، ولعل تلك المؤاخاة هي ما أشارت إليه الآيات الكريمة في قوله - تعالى

(١) وضع البخاري في صحيحه، باب كيف آخى الرسول ﷺ بين أصحابه، ج ٤/٢٦٧.

(٢) انظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج ٢/٥٢؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٢٧٠؛

ولمزيد من التوسع راجع: د. أكرم العمري السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/٢٤٠.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٥٠٥.

(٤) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٣٩.

-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَٰلِيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال].

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه باب: (كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه).^(١)

وقد كانت هذه المؤاخاة في أول أمرها يدخل فيها التوارث، حيث يمكن أن يرث بعضهم بعضاً. وقد نُسخ التوارث بعد ذلك بقوله - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال].^(٢)

وقد طابت نفوس الأنصار بعون إخوانهم المهاجرين، وكان كثير من الأنصار يرغب أن يقسم أملاكه مع أخيه المهاجر، وخصوصاً الأصول كالنخيل والبيوت وغيرها، إلا أن المهاجرين مع كرم الأنصار كانوا ذوي عزة، فقد قال كثير من الأنصار (نكفيكم المئونة وتشركونا في الثمرة)،^(٣) وهذا يعني أن يعملوا معهم في المزارع مقابل جزء من الإنتاج.

وقد استمرت هذه المؤاخاة طيلة عهد رسول الله ﷺ فكان كل من الصحابة يشعر نحو من آخى الرسول ﷺ معه بشعور خاص، فكان بعضهم

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، ج ٤/٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٥٧، ٨٥٨.

(٣) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٣٨: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٣٢٨.

ربما أوصى بشيء من ماله للأخري في حياته وعند وفاته، إذ إن التوارث نُسخ،^(١) كما كان بعضهم بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد الفتوح وانسياحهم في الأرض يتراسلون ويتفقّد بعضهم بعضاً ما بين فارس والشام وغيرها استمراراً لهذه المؤاخاة^(٢) التي جعل رسول الله ﷺ أساسها العقيدة ومواساة الأخ المسلم لأخيه المسلم المخصوص.

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١/٢٣٨.

(٢) انظر: رسالة أبي الدرداء إلى سلمان الفارسي والعكس عند الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١/٥٤٨ - ٥٤٩.

بناء الرسول ﷺ بعائشة

كان اختيار زوجات النبي ﷺ من الله رحمة به وبالأمّة، فكانت خديجة ﷺ أكبر منه سنّاً، في وقت كان بحاجة لذلك، حتى إذا نزل الوحي عليه كانت خير معين ومساند، آمنت به وواسته وأعانتة، وأشارت عليه بأحكام الآراء وأكثرها عوناً للرسول ﷺ، ولا شك أن هذا من عناية الله برسوله ﷺ.

أما عائشة ﷺ فكانت المرأة الوحيدة البكر من نسائه، وكانت أصغرهن سنّاً وأكثرهن حفظاً، هيأها الله لنبيه وأمرها وغيرها من أمهات المؤمنين بأمر عظيم، وهو حفظ الشريعة من نبيه ﷺ وتبليغها للأمّة قال - تعالى -: ﴿وَأذْكُرَنَّ مَا يُلْتَمَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤) [الأحزاب].

وقد رأى النبي ﷺ في منامه عائشة مرتين ﷺ، ويقال هذه امرأتك، فعن عائشة ﷺ قالت: قال لها النبي ﷺ: ((أرئيتك في المنام مرتين، أرى أنك في سرقة من حرير ويقال هذه امرأتك، فأكشف عنها فإذا هي أنت فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمضيه)).^(١)

وكانت خطبة عائشة ﷺ بعد وفاة خديجة بفترة قصيرة، وقبل الهجرة بسنتين تقريباً، روى البخاري: (توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ بثلاث سنين أو قريباً من ذلك ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين).^(٢) وهذا يعني أن الخطبة والعقد وعمرها ست سنين والدخول

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدموها المدينة وبنائه بها، ج ٤/٢٥٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدموها المدينة وبنائه بها، ج ٤/٢٥٢.

بها وعمرها تسع سنين.

وكان عقد رسول الله ﷺ في شوال من السنة العاشرة من البعثة، ولم يدخل بها إلا في شوال من السنة الأولى من الهجرة،^(١) وقيل بعد ذلك.^(٢)

ولصغر عائشة رضي الله عنها دور في تكيفها مع طبائع النبي ﷺ وتربيته لها في جوانب كثيرة، حتى أنه في مرضه الذي مات فيه رغب أن تمرضه عائشة، وأن يبقى عندها حتى توفى ﷺ ورأسه في حجرها ﷺ.^(٣)

كانت تحفظ وتعي العلم عنه ﷺ أكثر من غيرها ﷺ، وامتد بها العمر حتى علمت أجيالاً كثيرة من الأمة، رجالاً ونساءً، سُنَّة رسول الله ﷺ.

وكانت أحب نسائه إليه، ولم ترزق بولد، سميت أم عبدالله بابتها أختها عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما وكونها بنت الصديق رضي الله عنه أعطتها فرصة للأخذ من رسول الله ﷺ ومن أبيها ﷺ في وقت واحد، كما أعطى فرصة لالتقاء أبي بكر برسول الله ﷺ في بيتها عندها وفي السفر.

حدثت لها عدة حوادث أعطت دروساً للأمة وأبانت فضلها ﷺ، ومن ذلك حادثة الإفك، ونزول آية التيمم^(٤) وغير ذلك من الأحداث.

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه: (باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومه المدينة وبنائه بها) روى فيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج، فوعكت

(١) الطبري، تاريخه، ج ١/٣٤٠.

(٢) انظر: وفاة الرسول ﷺ، من هذا الكتاب.

(٣) انظر: وفاة الرسول ﷺ وترجمة عائشة، من هذا الكتاب.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير، ج ١/٤٨٩؛ ورواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب وإن

كنتم على سفر، ج ٥/١٨٠.

فتمزق شعري فوقي جُميمة، فأتتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة ومعني صواحب لي فصرخت بي فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفنتي على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأنني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين.^(١)

وقصة خطبة عائشة ؓ قبل الهجرة وردت فيها روايات عدة، منها أنها كانت مخطوبة لأحد أبناء المطعم بن عدي،^(٢) وأن أمه عاتبة على أبي بكر تبعيته للرسول ﷺ، وأظهرت كرهها لزواج ابنها من عائشة مخافة أن يُسلم ابنها، مما جعل الصديق في حل من تلك الخطبة.^(٣)

ومع الأسف فإن بعض المستشرقين ومن يأخذون منهم ينتقدون زواجه ﷺ بها مع صغر سنها.

ومَن هؤلاء؟! حتى يقيسوا عمل الرسول ﷺ ويرون صوابه من عدمه؟ علماً أن زواجه ﷺ بأمر الله ولو كان غير ذلك لآتي ما يوجهه من الله فهو القدوة ﷺ. كما أن المجتمعات البشرية جميعها دون استثناء في تلك الفترة، ولا زال بعضها على ذلك - إلى اليوم - تزوج الصغار المماثلات لسنها ﷺ.

وهذا الأمر يحدث في هذا الزمن في عدد من الدول في العالم، وإن كان

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدموها المدينة وبنائه بها، ج ٤/٢٥١.

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢/١٤٩.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢/١٤٩.

ينبغي ألا يقاس عليه لاختلاف الظروف والعادات.

كما أن الغرب وغيره يعرف طبيياً أن المرأة في سن التاسعة والعاشره تعتبر في كثير من الأحيان ناضجة جسدياً ونفسياً للزواج الصحيح. وهذا خاضع للعرف حسب المكان والزمان. (وحياناً توجد حالات كثيرة للحمل غير الشرعي بأعداد كبيرة في الغرب لمن هم في هذا السن وأصغر منه أحياناً)، وعلى كل فالهجوم في الغالب منطلقه هوى وعداء للرسول ﷺ ومحاولة انتقاصه ﷺ، وأخطاء الآخرين لا ينبغي أن تحمل هذه الحادثة، مع أن استغلال النساء سواء كن قصراً أم كباراً لا يجوز للأغراض المادية، كما هو حادث في معظم حالات الزواج من القصر في العصر الحاضر، والتي يخطئ فيها الكثير ممن هم بعيدون عن السنة أصلاً ويحاولون تبرير أعمالهم وظلمهم للفتيات.

ومن المعروف أن عائشة ؓ بل وآل أبي بكر الصديق ؓ تشرفوا بهذا النسب كما أنها ؓ (زوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة كما ورد في الحديث الشريف).^(١)

* * * * *

(١) انظر: تفصيلات كثيرة عن الحدث وغيره عند الذهبي في سير أعلام النبلاء، ج ١/١٣٥، في ترجمته لعائشة ؓ.

تنمية المدينة ومجتمعها

جاء الإسلام إلى المجتمعات البشرية ليحببها بطاعة الله وتوحيده أولاً، وليرفع من مستوى كرامتها، وليعزز النظام، وليرفع الإنتاج، ويحمي البيئة والأرض من الفساد، ويعمرها بما يصلح للإنسانية، وكانت المدينة نموذجاً لهذا الأمر، حيث نظمها ﷺ بالتشريعات المختلفة، والوصايا والأعمال التنظيمية والتنفيذية المدنية، التي جعلت الجميع يتسابقون للإنتاج والعطاء، بدلاً من الكسل والاعتماد على الآخرين أو التشاؤم والسلبية. وسواء كانت تلك الأمور عامة في الإسلام أم خاصة بالمدينة إلا أن أثرها بدا واضحاً على المدينة المنورة التي نمت وتغيرت حالها بعد الهجرة النبوية المباركة.

وتكمن البداية في أشياء معنوية في الظاهر لها أهمية كبرى، فأولها:

تغيير اسم المدينة:

كانت المدينة تعرف عند العرب قبل الإسلام بـ(يثرب)، ومعناه شيء من التثريب أو اللوم، وقد ورد الاسم في القرآن الكريم في قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب].

وقد كره الرسول ﷺ هذا الاسم وأمر بتغييره إلى المدينة،^(١) ومعروف أن الاسم يعني التمدن والحضارة والاستقرار وما يتبعه من علم وعمل ونظام وعدل وغير ذلك مما يرتبط بالمدنية. وقد سماها الرسول ﷺ بأسماء أخرى مثل طابة وطيبة والمباركة والمشرقة، ودار الإيمان، والحصينة، وكلها أسماء تدعو إلى التفاؤل والنظرة الحسنة وجمال الاسم.^(٢)

(١) راجع الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص ٣٠١.

(٢) صالح الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص ٣٠٥.

محبة المدينة وتحريمها:

لقد حرص الرسول ﷺ على جعل حرمة للمدينة، وحدد لها حدوداً ودعا لها ﷺ، كما ورد عند البخاري في صحيحه أنه ﷺ قال: ((إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها)).^(١) كما دعا ﷺ: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ))،^(٢) ولا شك أن محبة المكان داع للحفاظ عليه ورعايته ودوام الإقامة فيه.

كما كان من التشريعات التي أصدرها النبي ﷺ لحفظ البيئته والحياة الطبيعية في المدينة قوله ﷺ: ((إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة حرام ما بين حرتيها وحماها كله لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها، ولا تقطع منها شجرة إلا أن يُعلف رجل بغيره ولا يحمل فيها السلاح لقتال)).^(٣)

كما ورد عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((المدينة حرم من كذا لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)).^(٤)

كما قال ﷺ: ((حُرِّمَ ما بين لابتي المدينة على لساني)) قال: وأتى النبي ﷺ بني حارثة فقال: ((أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم ثم التفت

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه، ج٤٠/٥؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة، ج١١٢/٤.

(٢) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب لابتي المدينة، ج٢٢١/٢؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها، ج١١٩/٤؛ وانظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص ١٧٦.

(٣) من رواية الإمام أحمد في مسنده، ج١١٩/١.

(٤) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، ج٢٢١/٢.

فقال بل أنتم فيه)).^(١)

لقد جعلت هذه الأوامر النبوية المدينة المنورة ذات حماية خاصة ما يتعلق بالبيئة والحمى وقطع الأشجار والصيد، وقد ساهمت تلك التشريعات والأوامر النبوية على حماية البيئة الطبيعية للمدينة، في ضوء الزيادة السكانية للمدينة المنورة نتيجة الهجرة المتزايدة إليها، وخصوصاً في السنتين الأوليين من الهجرة النبوية.

وقد أتى الرسول ﷺ على أهل المدينة والمقيمين بها والأوين إليها والمهاجرين، كما قال ﷺ: ((إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تآرز الحية إلى جحرها)).^(٢)

وقد وضع الإمام مسلم ﷺ باباً سماه: (باب الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار)، ولعل أشهرها ما تداوله الناس باختصار من حديث طويل: ((والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)).^(٣)

فعن سفيان بن أبي زهير ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((تفتح اليمن، فيأتي قوم يبسون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق، فيأتي قوم

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، ج ٢/٢٢١.

(٢) رواه البخاري ومسلم، وانظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص ٣٢.

(٣) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة، ج ٢/٢٢٢؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار، ج ٤/١٢٢؛ والإمام مالك، في الموطأ ج ٢/٨٨٨؛ وغيرهم. انظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضل المدينة، ص ١٩٠.

يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)).^(١)

وقد وردت أحاديث كثيرة في الدعاء للمدينة بالبركة، من ذلك ما رواه البخاري ومسلم: ((إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مُدّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم ﷺ)).^(٢) كما قال ﷺ: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا وَصَحْحَهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَاهَا إِلَيْنَا الْجُحْفَةَ)).^(٣)

وفي حديث آخر، حيث روى أبو هريرة ﷺ قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا إلى النبي ﷺ فأخذه رسول الله ﷺ قال: ((اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإنني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة، وإنني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه)). قال: ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر.^(٤)

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة، ج ٢/٢٢٢؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الترغيب في المدينة عند فتح الأمصار، ج ٤/١٢٢؛ والإمام مالك، في الموطأ، ج ٢/٨٨٨؛ وغيرهم. انظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضل المدينة، ص ١٩٠.

(٢) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب (١٢)، ج ٢/٢٢٥؛ وانظر: مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب الترغيب في سكني المدينة والصبر على لأوائها، ج ٤/١١٩؛ وانظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة فيه، ص ٢١٥.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، ج ٢/٢٢٥، انظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، جمعاً ودراسة، ص ٢١٥.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة ...، ج ٤/١١٦ - ١١٧؛ والترمذي، ج ٥/٥٠٦؛ الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة، ص ٢١٦.

التنمية السكانية:

كان ﷺ حريصاً على زيادة السكان في المدينة والتوالد بين المؤمنين، ولذلك فقد فرح ﷺ وفرح المسلمون معه بأول مولود للمهاجرين بعد الهجرة النبوية، فقد روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر ﷺ، قالت حملت بعبد الله بن الزبير فخرجت وأنا مُتِمُّ فأتيت المدينة، فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به النبي ﷺ فوضعتة في حجره، ثم دعا بتمر فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمر، ثم دعا له وبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام.^(١) وقد جاءت الآيات القرآنية تأمر بالمحافظة على الولد والتأكيد على رزق الله لهم مع آبائهم في قوله - تعالى - : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١) [الإسراء].

كما جاءت الأوامر النبوية المختلفة، تؤكد على أهمية تكاثر المسلمين مع حسن تربيتهم وإعدادهم ومن ذلك قوله ﷺ : ((تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)).^(٢)

وأول إحصاء سكاني عرف في الإسلام كان في عهد الرسول ﷺ، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال: ((اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس، يقول حذيفة بن اليمان فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل)).^(٣) كان هذا اهتماماً مباشراً لمعرفة الطاقات البشرية وكان ﷺ يوجه كل فرد لما يصلح له.

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة،

ج ٢٥٩/٤؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٢٤٥/٣.

(٣) الخزازي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٢٣٠.

ومن المعروف حث الرسول ﷺ على الهجرة إلى المدينة، ومع ذلك فقد كان حريصاً على ضبط الأمور وأن لا تخرج عن الحدود وتترك المدينة وتنظيمها، وتوقع الخلل في تركيبها السكانية، ولذلك حينما أسلمت بعض القبائل وأرادت الهجرة بكاملها إلى المدينة أمرهم الرسول ﷺ أن يلزموا ديارهم، ويتعلم بعضهم من بعض، ويكونوا مستعدين لأوامره.^(١)

كما أوقفت الهجرة بعد فتح مكة،^(٢) مما يعني الإبقاء على توازن سكاني في المدينة وفي غيرها.^(٣)

ليس هذا فحسب بل إن التوزيع السكاني داخل المدينة كان مهماً، ولذلك لما بنى الرسول ﷺ مسجده النبوي، وعلم الأنصار بفضل الصلاة فيه أراد بنو سلمة أن يتركوا منازلهم في أطراف المدينة ويقتربوا بمساكنهم من المسجد النبوي فلم يحبذ الرسول ﷺ ذلك منهم، كما في رواية أنس بن مالك ﷺ: «أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره رسول الله ﷺ أن تُعرى المدينة، وقال: ((يا بني سلمة ألا تحسبون آثاركم، فأقاموا)).»^(٤)

التنمية المعنوية:

إن زيادة عدد السكان دون الاهتمام بالتنوع والتميز لا قيمة له، ولذلك فإن رسول الله ﷺ كان حريصاً على كل فرد مسلم أن يحس بتميزه ومكانته دون تكبر، مقروناً ذلك بالخشوع لله والخضوع له واللين مع المسلمين والرحمة للعالمين، وذلك يلزم تغذية الروح المعنوية وتقويتها لدى جميع الأفراد، وبناء الثقة في نفس الإنسان منذ أيامه الأولى في الحياة، وتقوية حاله

(١) انظر: عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٢/٤٨٢ - ٤٨٨.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٤٧؛ عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٢/٤٨٣.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب (٥٣)، ج٥/٩٧ - ٩٨.

(٤) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، ج٢/٢٢٤.

النفسية، ابتداءً باسمه الذي ينادى به، حيث حرص الرسول ﷺ على التسمية بأفضل الأسماء،^(١) فضلاً عن تغيير الأسماء القبيحة إلى حسنة والكنى السيئة إلى طيبة، ولذلك فإنه شارك في تسمية عدد من المواليد في أيامه ﷺ من أمثال عبدالله بن الزبير،^(٢) والحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب ﷺ، وغيرهم من المواليد في المدينة بعد الهجرة.^(٣)

كما غير أسماء بعض المهاجرين، فقد كان رجل يدعى جُعيل فسماه عمرو،^(٤) كما كان ﷺ يعطي الشباب وعامة الناس دفعات معنوية من خلال مناداتهم بأحب الأسماء والألقاب والكنى إليهم، فينادي الصغير يا بُني ويناديهم بكناهم، فينادي أخاً لأنس بن مالك صغير فيقول: يا أبا عمير، هذا كله في أحاد الناس وأفرادهم. أما عموم أمه محمد ﷺ فإن الله ﷻ قال عنها: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران]. فهل بعد هذا النداء من ذله أو قعود؟ إنه رفع لشأن أمة محمد ﷺ من بين سائر الأمم أفراداً وجماعات. كما علم الأمة كلها المحبة لبعضهم وللعالم كله والرحمة بكل ذي كبد رطبة وكل كائن حي.

التنمية العلمية:

جاء الإسلام منذ نزول القرآن وأول آياته على الرسول ﷺ الأمي ليذكر بالعلم والقلم ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [٤] عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ ﴿٥﴾ [العلق].^(٥)

(١) انظر: د. عدنان الوزان، موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، ج ٣٥/٥.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المغازي، ص ١٥٣؛ وانظر: رواية البخاري في فتح الباري، ج ١٥/١٠٤.

(٣) انظر: تفصيلات عنهما في موضوع "المعايشون للرسول ﷺ"، من هذا الكتاب.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج ٤/٢٤٥؛ ترجمة جُعال بن سراقه الضمري.

(٥) لمزيد من التوسع راجع كتاب، الحربي، محمد بن أحمد، اقرأ باسم ربك، ط ١ - نادي

في وقت كان العرب يسودهم الجهل والامية والخرافات والأساطير، مع وجود نزر بسيط من التعليم في المراكز الحضرية، ولا يمكن مقارنتها مع غيرها من البلدان والشعوب المجاورة، ولا مقارنتها مع المجتمعات اليهودية والنصرانية في بلاد العرب.

وقد هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وهو يحث على العلم والتعليم،^(١) والتعلم ويرفع من مكانته في نفوس المسلمين. ولا شك أن لذلك الأمر تأثيره على مجتمع المدينة في تميته من الناحية العلمية، فكانت مجالسه مجالس علم.

وقد كان الصحابة يقرأون قوله - تعالى -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَسَحُّوا فِي الْمَجَلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة].

فيدركون أسباب الرقي والرفعة في الدنيا والآخرة وكان الرسول ﷺ المعلم الأول في المدينة يعلم الناس القرآن وأمور الدين التي هي نظام عام وقانون وشريعة للحياة.

وقد وضع البخاري في صحيحه كتاباً سماه: (كتاب العلم)،^(٢) أورد فيه ثلاثة وخمسين باباً، في أحاديث عديدة وشرح آيات مختلفة مثل قوله - تعالى -: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُ ءَانَاءِ أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر].

وقوله - تعالى -: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء].

(١) لمزيد من التوسع راجع كتاب، الوكيل؛ محمد السيد، الحركة العلمية في عصر الرسول ﷺ وخلفائه الراشدون ﷺ، ط ١ - جدة: دار المجتمع ١٤٠٦هـ.
(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، وفيه (٥٣) باباً، ج ١/٢١ - ٤٢.

وقوله - تعالى - : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر].

وقد قال الرسول ﷺ : ((لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها))^(١).

وكان الرسول ﷺ يأمر المتعلم بتعليم الآخرين، فقد حث النبي ﷺ وفد عبد القيس على تعليم قومهم، فقال لهم: ((ارجعوا إلى أهلكم فاعلموهم))^(٢).

عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به))^(٣).

والكتابة في المدينة كانت تتركز بالدرجة الأولى لدى اليهود، الذين كانوا يعرفون الكتابة والقراءة ويعلمونها أبناءهم فيما يعرف بالمدارس^(٤)، وكان تركيزهم على الحروف العبرية يكتبون بها اللغة العربية. وقد تعلم على يهود بعض الأوس والخزرج، ومنهم سعد بن عباد وأبي بن كعب وزيد

(١) رواه صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، ج ١/٢٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم، ج ١/٣٠.

(٣) رواه صحيح البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، ج ١/٢٨.

(٤) راجع محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، ص ٩٩.

ابن ثابت رضي الله عنه وغيرهم ممن عرف من كُتَّاب النبي ﷺ من الأنصار.^(١) وقد عرف المسلمون قيمة الكتابة قبل الهجرة، حيث نجد أن فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد في مكة كانا يقرآن سورة طه من صحيفة بين أيديهم مع خباب بن الأرت، وذلك حين دخل عليهم عمر بن الخطاب واكتشف إسلامهم.^(٢)

وقد كان تعلم القراءة والكتابة من أهداف كثير من الصحابة في المدينة بعد الهجرة. وقد كان عبادة بن الصامت رضي الله عنه يُعلم أصحاب الصفة القراءة والكتابة.^(٣)

وبعد نهاية غزوة بدر كان هناك مجموعة من الأسرى من مشركي قريش ممن يحسنون الكتابة والقراءة لا مال لديهم لفداء أنفسهم من الأسر، فقبل الرسول ﷺ أن يعلم الواحد منهم عشرة من غلمان المدينة الكتابة والقراءة، مقابل أن يطلق سراحه،^(٤) فتعلم يومئذ الكتابة والقراءة جماعة من غلمان الأنصار. وكان هذا الأمر سبباً في كثرة القراءة والكتابة في مجتمع المدينة، ولا شك أن هؤلاء المتعلمين ساهموا بعد ذلك في تعليم غيرهم.

ولعل الحرص بعد ذلك على كتابة القرآن والسنة التي بدأت في أيام الرسول ﷺ تُعد من أهم أسباب إتقان أهل المدينة للكتابة، وكذلك الحال في كُتَّاب النبي ﷺ، الذين ساهموا في كتابة رسائله إلى أمرائه وإلى ملوك

(١) انظر: مصطفى الأعظمي، كُتَّاب النبي ﷺ، ط ١ - بيروت: المكتب الإسلامي ١٤٠١هـ.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٣٤٥؛

وانظر: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من هذا الكتاب.

(٣) د. أكرم العُمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، القسم الأول، ص ٩٦.

(٤) انظر: غزوة بدر، من هذا الكتاب.

العالم الذين وصل عددهم بعد ذلك إلى قرابة ستين كاتباً.^(١)

ولعل أهمية حقوق الآخرين وضرورة توثيقها تعد دافعاً رئيساً للكتابة. وهذا ما أشارت إليه أطول آية في القرآن الكريم التي عرفت بآية الدين في قوله - تعالى - : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُكُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٨٢﴾ [البقرة].

ولفظ كتب ومشتقاتها وما يرتبط بها وردت في الآية تسعة مرات وهذا دليل واضح على الأهمية.

وعُرف أن بعض النساء كنَّ يُجِدْنَ الكتابة ويعلمنها بعض النساء في عصر الرسول ﷺ، ولعل ذلك كان بتشجيع من النبي ﷺ، ولا شك أنه

(١) انظر: كتاب النبي ﷺ مصطفى الأعظمي، ص ١٧٩؛ وانظر: محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة؛ وأحمد عبدالرحمن عيسى، كتاب الوحي، ط ١ - الرياض: دار اللواء ١٤٠٠هـ؛ وجمال الدين أبي عبدالله محمد بن أبي حديدة، المصباح المضيء في كتاب النبي ﷺ.

بإقرار منه، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال للشفاء بنت عبد الله وهي من بني عدي بن كعب من قريش أسلمت وهاجرت إلى المدينة ((ألا تعلمين حفصة رُقِيَةَ النملة كما علمتها الكتابة)).^(١)

وإذا كانت الشفاء قد علمت أم المؤمنين حفصة الكتابة فإنه لا يستبعد أنها علمت غيرها من النساء، كما أنه وجد غيرها من معلمات النساء القراءة والكتابة في المدينة في العصر النبوي.^(٢) ونحن نعلم أن الحث على العلم والتعلم الوارد في السنة النبوية وقبله في القرآن الكريم ليس خاصاً بالرجال دون النساء، بل عامٌ للأمة بكافة أجناسها وأعمارها وفئاتها.

ولعل تصور عدد الكُتَّاب في المدينة قبل هجرة النبي ﷺ وارتفاع عددهم بعد الهجرة بحوالي أربع سنوات، يعطينا انطباعاً عن مدى انتشار الكتابة في المدينة بعد الهجرة، وبتأثير مباشر من الرسول ﷺ وأحكام الشريعة وتطبيقها، حيث من المتوقع أن العدد تضاعف ثلاث أو أربع مرات. ولا شك أن القراءة والقلم الأداة الأولى للعلم هي ما أشير إليه في أول آيات نزلت على المصطفى ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق].

مع التأكيد - في الوقت نفسه - على حال النبي ﷺ وأن أميته معجزة في حقه قال - تعالى -: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآزْتَابِ الْمُبِطُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت].

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣/٢٤.

(٢) انظر: عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، القراءة والكتابة، ص ٣٥.

التنمية الاجتماعية:

كان مجتمع المدينة قبل الإسلام وهجرة النبي ﷺ كأي مجتمع عربي جاهلي تسوده أعراف جاهلية وعادات قبلية، فيها الكثير من الجهل وبعض من تلك العادات كان مستحسنًا.

وأيضا حل الرسول ﷺ، وهو المبعوث رحمة للعالمين، حلت معه الأخلاق العالية والصفات الحميدة التي جاء بها، وأراد الله نشرها بين الناس، وبالتالي بدأت تمتد يد التغيير الاجتماعي في مجتمع المدينة.

ولعل من أهم القضايا المساهمة في التلاحم الاجتماعي وتحديد المسؤولية،^(١) ونشر الصدقة والزكاة ومواساة المحتاجين من الفقراء، حيث عم التكافل الاجتماعي، سواء ما حصل بين المهاجرين والأنصار، أم ما حصل للمحتاجين من عامة المسلمين، بل الصدقة والإحسان على غير المسلمين، إضافة إلى التوجيهات النبوية بالعفة والاستغناء عن الآخرين قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج].

وكانت هناك مصادر للدخل تؤدي لفساد أخلاقي واجتماعي حاربها الرسول ﷺ، من ذلك أعمالٌ فاسدة تتعلق بالجواري ذوات الرايات اللاتي نزل فيهن قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنَيْتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْنُوْا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور].

وأما الزنا فقد جاء الإسلام حاسماً في تحريمه وتشديد العقوبة عليه، وهو من أهم أبواب الفساد الاجتماعي، وضياع الأنساب واختلاط النطف وتفشي الأمراض النفسية، وضياع المسؤوليات وقطيعة الأرحام وجاء التشديد في ذلك

(١) حركات: إبراهيم السياسة والمجتمع في العصر النبوي - المغرب: دار الآفاق الجديدة

يقول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون].

كما جعل للأزواج حقوقاً محددة، وأمر بالاحترام وحسن العلاقة بينهما والمودة والرحمة والإحسان المتبادل، وطبق ﷻ ذلك في تعامله مع زوجاته فكان مثلاً حياً في هذا الجانب.^(١)

وجاء تحريم الزنا ليوقف أضراراً اجتماعية، وفساداً أسرياً وانحلالاً للأواصر الاجتماعية يحدثها الزنا، كما أن في منعه منعاً لانتشار الأمراض الجنسية التي تصيب ممارسيه وتنتقل من زان لآخر ومن زانية لأخرى، ولعل انتشار الإيدز وغيره من الأمراض الجنسية في هذه الأيام يذكر بأهمية تحريم الزنا وفائدة هذا التحريم على الإنسانية جمعاء.

كما كانت الخمر تشكل عبئاً كبيراً على المجتمع، وتعد من مصادر الفخر لدى العرب، مع أنها تجلب المشاكل المختلفة، فجاء الإسلام ليحرّمها تدرّجاً حتى أصبحت من الكبائر،^(٢) فتغير سلوك كثير من الناس بتحريمها.

وقد جاء الإسلام لزيادة الروابط الاجتماعية فجعل صلة الرحم من أعظم القربات إلى الله - تعالى - وتفقد ذوي الأرحام والإحسان إليهم والنفقة عليهم من أبواب الثواب العظيمة مقرونة بالتوحيد والعدل، قال - تعالى - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

(١) الكمداني: أديب، فن تعامل النبي في الحياة الزوجية، ط ١ - دمشق: دار البشائر الإسلامية ١٤٢٥هـ، ص ١٧.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأشربة، باب إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان، ج ٦/٢٤٠.

وَأَبْغَىٰ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ [النحل].

كما جعل بر الوالدين واجباً شرعياً مقروناً بطاعة الله - تعالى - والتقرب إليه، قال - تعالى -: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء].

وجعل حسن العلاقة بالجار واجباً شرعياً، قال - تعالى -: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء].

وجعل التعاون على البر والتقوى سمة اجتماعية عامة، قال - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا مُخْلُوا شَعَتِ اللَّهُ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامِ وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْفَلْتِيدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة].

كل هذا عمل على زيادة التلاحم الاجتماعي وإصلاح المجتمع في المدينة بعد الهجرة، والرقي به وتفقد بعضه بعضاً وعضو البعض عن الآخرين.^(١) قال -

(١) كُتِبَتْ عِدَّةُ مَوْلاَفَاتٍ حَوْلَ التَّغْيِيرِ الاجْتِماعِي مِنَ خِلالِ السِّيْرَةِ النُّبُوِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ كِتابِ حِنا اللِّحام، هِدي السِّيْرَةِ النُّبُوِيَّةِ فِي التَّغْيِيرِ الاجْتِماعِي، ط ٢ - بيروت، ودمشق: دار الفِكر ١٤٢٣هـ.

تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى].

ناهيك عن الوصايا العامة في الأخلاق وحسن التعامل والإعراض عن الجاهلين، قال - تعالى -: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان].

وقال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان].

كما أمر بالدفع بالحسنى عند الضرورة، قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت].

وجعل الأخلاق العالية هدفاً سامياً للفرد والمجتمع.

قال - تعالى -: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْمُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

وجعل الناس سواسية كأسنان المشط، ولم يفرق بينهم، وأعلن القرآن أن أصل البشرية واحد قال - تعالى -: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

وحرّم التكبر والاستعلاء على الآخرين في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ

خَذَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ [القمان].

وجعل صلاح المجتمعات والأرض عموماً هدفاً عاماً للمسلم في قوله - تعالى -
: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ [الأعراف].

وجعل التواصي بالحق والصبر عليه أمراً إنسانياً واجباً في قوله - تعالى - :
﴿وَالْعَصْرَ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

هذه القيم الاجتماعية حلت في مدينة الرسول ﷺ مع الرسول بعد الهجرة،
وأحدثت تنمية اجتماعية لم يعرف تاريخ الإنسانية لها مثيلاً، ولم يتوقف
أثرها في المدينة وحدها وفي عصره ﷺ، بل إن المدينة كانت مدينة طيبة
كما سماها الرسول ﷺ امتد أثرها إلى العالم قاطبة بهذه المعاني التي نقلها
الصحابة وأتباعهم جيلاً بعد جيل، فأنارت العالم فكانت المدينة كالشجرة
الطيبة، قال - تعالى - : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم].

كما أن العبادات الإسلامية كلها دافع للسلوك والقيم ناهية عن الفحشاء
والمنكر ومنها الصلاة، قال - تعالى - : ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ
الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

التنمية الصحية:

كانت المدينة قبل وصول الرسول ﷺ تعاني عدداً من المشاكل الصحية
لدى السكان، منها ما يرتبط بالبيئة، وخصوصاً الحمى المنتشرة بين أهلها

بسبب المزارع وما يرتبط بها من مستنقعات، فدعا لها رسول الله ﷺ: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا وَصَحْحَهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَاهَا إِلَي الْجُحْفَةَ)).^(١) ومن الواضح من الدعاء اهتمام الرسول ﷺ بصحة المدينة وأهلها.

كما أن الرسول ﷺ مرض كغيره من البشر،^(٢) وشجع الناس على التداوي،^(٣) والبحث عن العلاج في قوله: ((ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء)).^(٤)

وداوم على التطيب. وكان يؤكد على العلاج الطبيعي كالعسل وغيره فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: ((الشفاء في ثلاثة: شربة عسل وشربة ماء ومجتم وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي)).^(٥)

كما وقف ﷺ موقفاً حازماً من الخرافات التي تسبب الأمراض النفسية والجسدية من الطيرة والتشاؤم، وأثبت للناس الفأل الحسن، وكان يأمر باستعمال بعض النباتات كالحبة السوداء وغيرها.^(٦)

أما في مجال الطب الوقائي فقد وضع ﷺ أساسه في قوله: ((إذا سمعتم

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب: ١٢، ج ٢٢٥/٢.

(٢) انظر: مؤنس، حسين، التاريخ الصحي للرسول ﷺ سلسلة اقرأ - القاهرة: دار المعارف ٢٠٠٠م.

(٣) انظر: الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب، تحقيق أحمد عبدالرحيم السايح وعمر حمزة، من هدي النبي المسمى "سفر السعادة"، ط ١ - مركز الكتاب ١٤١٧هـ، ص ٢٢٨.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، ج ٢١/٢٥٠.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ج ٧/٢٠، وانظر شرحه عند: ابن حجر، فتح الباري، ج ٢١/٣٤٢.

(٦) انظر: ابن القيم، الطب النبوي، ص ٢٢٩.

بالبطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها)).^(١)

كما أنه وضع قواعد مهمّة في الصحة والطب الوقائي والعلاجي، من خلال الحمية وعدم الإسراف في الأكل وصيام الفريضة والتطوع، ومن ذلك قوله: ((ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يُقْمَن صُلْبُه، فإن كان لا بد فاعلاً فثلاث لطعامه وثلاث لشرابه وثلاث لنفسه)).^(٢)

وكان ﷺ يُقرُّ دعوة الأطباء للمرضى، كما حصل لسعد بن أبي وقاص حين مرض في حجة الوداع.^(٣)

وقد حارب ﷺ الشعوذة وإتيان الكهان للعلاج، وأقرَّ ﷺ الرقية الصحيحة من القرآن والدعاء.

وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ - رضي الله عنها - في غزوة أحد تعالج جروح النبي ﷺ بالرماد حتى انقطع الدم.

وفي أيامه ﷺ أقيم أول مستشفى في الإسلام، حيث أقامت رُفيدة الأسلمية ﷺ في غزوة الخندق خيمة في مسجد رسول الله ﷺ تداوي فيها الجرحى،^(٤) وقد وضع فيها رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بعد جرحه في غزوة الخندق، فقال: ((اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب)).^(٥) كما

(١) صحيح البخاري، فتح الباري، ج ٣٠٣/٢١.

(٢) ابن القيم، زاد المعاد، ج ٦٨/٣.

(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١٤٧/٣؛ والبخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، ج ١٢٧/٥ - ١٢٨.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢٣٨/٣؛ وابن حجر، الإصابة، ج ٣٠٣/٤؛ الطبري، تاريخه، ج ٦٧٣/٣.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢٣٨/٣.

سأهمت أوامر الرسول ﷺ بالنظافة والحرص على الاغتسال في الحد من الأمراض وانتشارها.

وكان لوصاياه ﷺ في نظافة الأكل وطرق حفظه وتغطيته دور في المحافظة على الصحة العامة للإنسان.

وحدث الرسول ﷺ على الختان وبعض الأعمال الجسدية التي تساهم في الحد من الأمراض والجراثيم في قوله: ((خَمَسُ من الفطرة، الختان، والاستحداد، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وقص الشارب)).^(١)

وقد ألفت كتب متعددة في الطب النبوي كلها مبنية على ما ورد عن الرسول ﷺ في سنته،^(٢) كما عقدت عدة مؤتمرات علمية معاصرة عن الطب النبوي، تؤكد التوجه المعاصر للطب البديل.

وقد أثرت تلك التعليمات عمومًا في المدينة المنورة، وتأثر بها أهلها وطبقوها في حياتهم العامة والخاصة، وإن كانت موجهة لعامة الأمة، إلا أن مجتمع المدينة في أيام الرسول ﷺ تأثر بها وأحدثت فيه نقلة قبل غيره وسأهمت في تطويره صحيًا ذلك التطور الذي بدأ لحظة وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، وما يزال أثره إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

التنمية الاقتصادية:

كان رسول الله ﷺ منتجًا منذ صباه، فقد رعى الغنم على قراريط لأهل مكة، لكي يكسب ويساعد عمه أبا طالب في إعاشة أولاده، وقد قال

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خمس من الفطرة، ج ١/١٥٣.

(٢) انظر: ابن القيم، الطب النبوي؛ الذهبي، الطب النبوي؛ ابن جلجل، طبقات الأطباء؛ ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء.

ﷺ : ((ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا كنت أرهاها على قراريط^(١) لأهل مكة)).^(٢) وحين بلغ ﷺ مبلغ الرجال استأجرته خديجة ليتاجر لها في مالها،^(٣) فكانت له رحلات متعددة لأجل التجارة.

ومن أقواله ﷺ في الحث على العمل والإنتاج ((ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)).^(٤)

وكان ﷺ يضرب الأمثلة للصحابة بالأنبياء العاملين الحرفيين المنتجين فقال: ((كان زكريا نجاراً)).^(٥)

وقد وردت عند المحدثين أبواب مختلفة مليئة بالأحاديث النبوية التي تحث على الكسب والإنتاج والعمل، منها عند البخاري (باب كسب الرجل من عمل يده).^(٦)

وعند ابن ماجه (باب في الحث على المكاسب)^(٧) وعند الدارمي (باب في الكسب وعمل الرجل بيده).^(٨)

وكان سلوك الرسول ﷺ مع أصحاب المهن والعاملين في المدينة مشجعاً

(١) جمع قيراط، وهو الجزء من الدينار. ابن حجر، فتح الباري، ج ١٠/٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعى الغنم على قيراط، ج ٤٨/٣.

(٣) انظر: زواج الرسول ﷺ من خديجة وترجمتها، من هذا الكتاب.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل من عمل يده، ج ٨/٣ - ٩.

(٥) سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الصناعات، ح برقم: ٢١٥٠، ج ٢٢٧/٢.

(٦) صحيح البخاري، كتاب البيوع، (١١٣) باباً، ج ٢/٣ - ٤٣.

(٧) سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب، ج ٢٢٣/٢.

(٨) الدارمي، سننه، ج ٢٤٧/٢.

لهم، فهذا هو يستجيب لدعوة خياط إلى طعام،^(١) ويودع ابنه إبراهيم للرضاعة عند امرأة حداد.^(٢)

وكان لهذه التصرفات وغيرها دور في تغيير نظرة أهل المدينة وغيرهم من العرب الذين كانوا يحتقرون بعض المهن كالحدادة، وغيرها.^(٣) وكان للآثار النبوية في هذا الجانب دورها في ما ألفه العلماء المسلمون، حول الكسب والعمل والإنتاج عبر العصور.^(٤)

وقد ساهمت تشريعات الإسلام المختلفة التي طبقها ﷺ في زيادة الإنتاج في المدينة، ونموها الاقتصادي في المجالات كافة ومنها:

تنمية التجارة:

حينما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة كانت التجارة تتركز في يد يهود، لهم السيطرة على أسواقها، وخصوصاً سوق بني قينقاع^(٥) المعروف باسمهم، وهو أشهر أسواق المدينة، حين هاجر الرسول ﷺ إليها، وكان الرسول ﷺ حريصاً على أن لا يُغلب المسلمون على الأسواق واقتصاديات المدينة.

ومن المعروف أن المدينة المنورة بلد زراعي بالدرجة الأولى قبل الهجرة

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ذكر الخياط، ج ٣/١٣.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٤/٩٨.

(٣) انظر: عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، (موقف الإسلام من الحرف والصناعات)، ص ٤٣.

(٤) انظر: الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، على ما كان في عهد الرسول ﷺ من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية؛ وأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلاف (ت، ٣١١هـ)، الحث على التجارة والصناعة والعمل.

(٥) عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج ١/٣٠٤.

النبوية وبعد الهجرة، ولم يمنع ذلك من وجود من يشتغل في التجارة.

والتجارة قبل الهجرة النبوية كانت متركزة في أيدي يهود المدينة أكثر من غيرهم ولذلك سمي بـ(سوق بني قينقاع) باسمهم،^(١) لأنهم كانوا أكثر المشتغلين به والمسيطرين عليه. وتُعد سوق بني قينقاع أهم أسواق المدينة في العصر الجاهلي، وكان الناس يأتونها من كل مكان وتزدحم بهم باستمرار، وكان الناس يتبايعون فيها ويلتقي فيها الشعراء والأدباء، وكان لبعض العرب من الأوس والخزرج نشاط تجاري فيها، مع وجود أسواق صغيرة خاصة بهم، مثل سوق (مزاحم)،^(٢) إلا أن أسواق المدينة وتجارها بصفة عامة كانت أقل من مكة بكثير.

وتمتاز المدينة عن مكة بمنتجاتها الزراعية من التمور وغيرها، مما جعل الأعراب يقدمون إليها لشراء هذه التمور، كما أن أهل مكة وغيرهم يأتون إلى المدينة لشراء التمور والمنتجات الزراعية الأخرى، وبعض المصنوعات البسيطة، وذلك مما أوجد نشاطاً تجارياً ملموساً في المدينة أواخر العصر الجاهلي، وكان اليهود في المدينة يسيطرون على رؤوس الأموال ويقرضون الناس بالربا وكانت الأموال تساعدهم في السيطرة والنفوذ داخل المدينة.

وللأوس والخزرج دور في اقتصاديات المدينة، إلا أن دورهم الزراعي كان أقوى من التجارة.

وحينما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة كان معظم المهاجرين معه من قريش وفيهم نزعة التجارة، فكان الكثير منهم ما أن يصل إلى المدينة حتى يسأل عن السوق، فيشتري ويبيع بحثاً عن الرزق،

(١) عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج١/٣٠٤.

(٢) السمهودي، وفاء الوفاء، ج٤/١٣٠٦.

فبعد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لما قدم المدينة آخى الرسول ﷺ بينه وبين (سعد بن الربيع) فقال سعد بن الربيع: إني من أكثر الأنصار مالاً، وسوف أقسم مالي بيني وبينك، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، فقال له عبدالرحمن بن عوف: لا حاجة لي بذلك، ولكن هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق بني قينقاع، ثم إن عبدالرحمن بن عوف أخذ يتردد على السوق حتى جمع مالاً كبيراً ثم تزوج.^(١)

وكان عمر رضي الله عنه ممن يتاجر في الأسواق بعد الهجرة، حتى أنه حين فاتته حديث رسول الله قال لمحدثيه: (ألهاني الصفق بالأسواق).^(٢)

وحينما يأمر الرسول ﷺ أصحابه بالصدقة كانوا ينطلقون إلى الأسواق للعمل ولو أجراء، يقول أحد الصحابة (كان رسول الله ﷺ إذا أمر بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل فيصيب المد وإن لبعضهم لمائة ألف).^(٣)

وقد أحسن الرسول ﷺ بسيطرة اليهود على التجارة في المدينة عن طريق سيطرتهم على سوق بني قينقاع، فأراد ﷺ أن يجعل للمدينة سوقاً آخر بعيداً عن سيطرة اليهود، فضرب رسول الله ﷺ قباء في موضع (بقيع ابن الزبير) فقال: ((هذا سوقكم))، فأغاظ هذا العمل اليهود وأحسوا بخطر هذا السوق ومنافسته لهم، فجاء كعب بن الأشرف فدخل القبة وقطع أطنابها، فقال رسول الله ﷺ: ((لا جرم لأنقلها إلى موضع هو أغيب من هذا))، فنقلها

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار ...، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، ج ٤/٢٦٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق، ج ٣/١٩.

(٣) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب من أجر نفسه ليحمل على ظهره ثم تصدق به وأجرة الحمل، ج ٣/٥٢، ويفهم من الحديث أنهم اغتوا بعد ذلك حتى وصل بعضهم إلى مئة ألف درهم أو دينار.

إلى موضع سوق المدينة، ثم قال: ((هذا سوقكم؛ فلا ينقص منه، ولا يضرين عليه خراج)).^(١)

منع الرسول ﷺ أن يؤخذ على أحد كراء في سوق المدينة الجديد مما سبب ازدهاره وكثرة الوافدين إليه، كان اختيار الرسول ﷺ لهذا السوق موفقاً، حيث كان بمثابة المدخل للمدينة للقادمين من جهة الشام أو من مكة واليمن أو من مواطن القبائل المجاورة الأخرى، مما جعل سوق المسلمين يتلقى الوفود والتجار حال وصولهم إلى المدينة، وقبل وصولهم سوق بني قينقاع، مما أغضب اليهود، ولا شك أن لهذا العمل دوره في ازدهار التجارة والبيع والشراء بين المسلمين وغيرهم وتحريك الجانب الاقتصادي لديهم.

وزادت التجارة في سوق المسلمين بالمدينة تدرجاً؛ نتيجة نشاط المهاجرين الذين كان أغلبهم من قریش والتجارة تجري في عروقتهم، فكان أبو بكر وعمر وعثمان ؓ ممن يعملون في البيع والشراء، وكان عثمان ؓ وطلحة ابن عبيدالله ممن يبيعون (البُر) في سوق المدينة.

وكان الرسول ﷺ يمر على إلى البائعين في سوق المدينة ويشترى منهم ويحذرهم من الغش، وقد عُرف الزبير بن العوام ؓ تاجراً واشتهر في أسواق المدينة بذلك، وقيل له يوماً بم أدركت في التجارة ما أدركت؟ فقال: لم أشتري معيباً ولم أُرِدْ ربحاً والله يبارك لمن يشارك.^(٢) وقد كان الزبير يشارك في رحلات تجارية من المدينة إلى الشام أيام الرسول ﷺ، فقد لقي الزبير رسول الله ﷺ أثناء رحلة الهجرة في ركب من المسلمين كان الزبير معهم وهم تجار قافلون من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً

(١) السمهودي، وفاء الوفاء، ج٢/٧٤٩؛ عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج١/٣٠٤؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨.

(٢) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٦٩٨.

بيضاء.^(١) وقد كان الكثير من الصحابة يرحلون في قوافل تجارية إلى الشام بعد الهجرة النبوية.

وحدث أن قدمت إلى المدينة تجارة من الشام والرسول ﷺ قائم يخطب على المنبر يوم الجمعة، فانصرف الناس عن الرسول ﷺ وذهبوا إلى العير حتى لم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً فنزل قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَمَّوْا أَنْفَعُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ النَّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ [الجمعة].^(٢)

وقد كان بعض الصحابة ومنهم طلحة بن عبيدالله غائباً في تجارة إلى الشام، فقدموا بعد أن رجع الرسول ﷺ من غزوة بدر، فضرب لهم بسهم من غنائم غزوة بدر،^(٣) كما أنه أهدى من تجارته ثياباً بيضاً للنبي ﷺ وهو في طريق الهجرة، فدخل بها رسول الله ﷺ المدينة.^(٤) وكان كثير من الأعراب فيما حول المدينة يقدمون إليها لشراء التمور وبيع ما لديهم من إنتاج كالسمن والأقط - أي الجُبْن - والأغنام والإبل، فكان للأعراب فيما حول المدينة دور كبير في تشييط التجارة فيها.^(٥)

وقد كانت أسواق المدينة كغيرها من أسواق الحجاز تعرض فيها مختلف أنواع السلع سواء منها المنتجة محلياً أم المستوردة من بلاد أخرى كالشام وغيرها.

وتمتاز أسواق المدينة عن غيرها بكثرة ما يعرض فيها من إنتاج زراعي من

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٢٤٩. (وانظر موضوع الهجرة النبوية).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب البيوع باب فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، ج٣/٢.

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٥٠٩.

(٤) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٢.

(٥) انظر: عبدالعزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر النبي ﷺ، ص ١٢٦.

تمر وحبوب وغيرها من إنتاج المدينة، بالإضافة إلى سلع أخرى كالجلود والسلاح ومختلف أنواع الطعام، وتعرض فيه الإبل والغنم والخيل للبيع وسائر الأنعام، ولها أماكن مخصصة من السوق، فقد كان عبدالله بن عمر رضي الله عنه ممن يبيعون الإبل في (البيع).

وقد عرفت السمسرة في المدينة أيام الرسول ﷺ، وهي الدخول بين البائع والمشتري، وكانوا في سوق المدينة يسمون السماسرة، فقد ورد في حديث عن أحد الصحابة قال (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نسمى السماسرة، فقال يا معشر التجار إن الشيطان والإثم يحضران البيع فشوبوا ببيعكم بالصدقة)،^(١) فدلّ على ذلك تسميتهم بالسماسرة وأن الرسول ﷺ سماهم التجار.

والرسول ﷺ رغم انشغاله بالجهاد في سبيل الله إلا أنه أخذ يراقب أسواق المدينة بنفسه ويصدر توجيهاته لمن يرتاد السوق، فقد زار السوق مرة (ووجد عند أحد البائعين طعاماً فأعجبه حسنه فأدخل رسول الله ﷺ يده في جوفه فأخرج شيئاً ليس بالظاهر فأفف لصاحب الطعام ثم قال: ((لا غش بين المسلمين، من غشنا فليس منا)).^(٢)

وكانت للرسول ﷺ توجيهات كثيرة سار عليها المحتسبون فيما بعد، وكانت أساساً للبيوع في الإسلام كما هو وارد في كتب الحديث والفقهاء،^(٣) وقد أخذ الخلفاء الراشدون والمسلمون من بعدهم أحكاماً كثيرة

(١) رواه الترمذي في سننه، ج٢/٢٥٩.

(٢) رواه الترمذي في سننه، ج٣/٦٠٦؛ ورواه الدارمي في سننه، ج٢/٢٤٨.

(٣) راجع: ابن قدامة، المغني، (ج٤ و٥ و٦)؛ فتاوى ابن تيمية، المجلد التاسع والعشرون، الفقه (البيع).

من زيارات الرسول ﷺ للأسواق، فكان أبو بكر ﷺ يراقب الأسواق بنفسه، وكان عمر ﷺ يراقب الأسواق، ويعين من يراقب معه في حضوره أو في غيابه.^(١)

التنمية الزراعية:

الزراعة من أهم الحرف التي عرفها الإنسان وأقدمها، وذلك لأنها تسدّ حاجة طبيعية لدى الإنسان فهي أهم المصادر الأساسية، يتم عن طريقها تأمين الغذاء للإنسان، كما أنه عن طريقها يتم تأمين بعض الحاجات اللازمة للإنسان في صناعات أخرى ضرورية، تعتمد في خاماتها الأولية على الزراعة، ومن المعروف أن الزراعة في أي مكان أو زمان تتأثر بعدة عوامل منها عوامل بشرية ومنها طبيعية، إضافة إلى الأنظمة والتشريعات المرعية، ومنطقة الحجاز كما هو معروف منطقة محدودة الزراعة واسعة يسكنها العرب بالدرجة الأولى كما تسكنها عناصر أخرى كاليهود والموالي وغيرهم.

وكانت نظرة العرب للزراعة قبل الإسلام وفي الحجاز خاصة تختلف بين الأعراب البادية والحاضرة، فالعرب المتحضرون في الطائف وفي المدينة كانوا يعملون بالزراعة ولا يأنفون منها، أما أهل البادية فكانوا يحتقرون الزراعة ويسخرون من المزارعين. ولعل هناك بعض الظروف والمفاهيم التي دعتهم لذلك وكثير منها خاطئ. وحينما جاء الإسلام أخذ يشجّع على الزراعة والعمل فيها وفي غيرها من الحرف، وجعلها عبادة شريطة أن لا تصرف المسلم عن العبادات الأخرى وعن الجهاد، وقد وردت عدة آيات قرآنية فيها ذكر للزراعة ومنها قوله

(١) د. عبدالعزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر النبي ﷺ، ص ١٢٦ -

- تعالى -: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١٤١)

[الأنعام].

فالقرآن هنا يذكر بالزراعة، كما يدعو الإسلام المزارعين إلى دفع زكاة ما يخرج لديهم من زرع.

ويقول الله - تعالى - في سورة أخرى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ مَحْنُ الزَّرْعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ [الواقعة].

وكان أصحاب الرسول ﷺ يعملون بالزراعة في المدينة، حيث كان الأنصار أصحاب مزارع فلما قدم عليهم المهاجرون ﷺ قال الأنصار للنبي ﷺ: ((يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا النخل، قالوا: (لا). فقالوا: تكفونا المئونة ونشرككم في الثمرة قالوا: سمعنا)).^(١)

وكان الرسول ﷺ يمنح إقطاعات لبعض الصحابة وغيرهم كي يستغلوها في الزراعة،^(٢) فقد أقطع الزبير بن العوام أرضاً بالمدينة استثمارها

(١) انظر: هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، من هذا الكتاب؛

وصحيح البخاري، كتاب ما جاء في الحرث والمزارعة، باب إذا قال اكفني مؤنة النخل أو غيره وتشركني في الثمر، ج ٦٧/٣.

(٢) انظر: مسعود يحيى الآغا، الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي، دراسة مقارنة مع كل من الإقطاعين الجاهلي والأوروبي في العصور الوسطى، الإصدار الثاني - الرياض: سلسلة الجمعية التاريخية السعودية ١٤٢٧هـ؛

العُمري: أكرم ضياء، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة - الرياض: دار إشبيليا ١٤١٧هـ، ص ١٧.

في الزراعة في حياة الرسول ﷺ. (١)

كما أقطع علي بن أبي طالب ﷺ عيوماً نواحي ينبع اشتهرت فيما بعد بكثرة إنتاجها وعمل فيها علي ﷺ بنفسه. (٢)

كذلك فإن الرسول ﷺ أمر الصحابة ﷺ باستغلال الأراضي الزراعية وشجّع على ذلك فقال ﷺ: ((من أحيا أرضاً ميتةً فله فيها عبادة، وما أكلت العانية منها فله منها صدقة)). (٣) وهذا يعني أن ذلك نوع من العبادة.

كذلك حضّ الرسول ﷺ ملاك الأراضي على استغلالها أو دفعها إلى من يستغلها، فقال ﷺ: ((من كانت له أرض فليحرثها فإن كره أن يحرثها فليمنحها أخاه فإن كره أن يمنحها أخاه فليدعها)). (٤) وقد شجّع الرسول ﷺ على استغلال الأراضي ووضع قاعدة شرعية سارت عليها الأمة من بعده في تملك الأراضي حيث قال ﷺ ((من أحيا أرض ميتةً فهي له))، (٥) كما ورد في حديث آخر عن أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت: قال رسول ﷺ: ((من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق)). (٦)

وقد ورد الكثير من الأحاديث مما يرغب المسلمين في الزرع، حتى أن البخاري ﷺ جعل باباً في كتاب المزارعة سمّاه (باب فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه).

(١) انظر: نص الإقطاع وتخريجه عند محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٣١٩.

(٢) عمر بن شيبه، تاريخ المدينة، ج ٢/٢٢٢.

(٣) سنن الدارمي، ج ٢/٢٦٧؛ والعانية: الطير وغيره مما له روح.

(٤) سنن الدارمي، ج ٢/٢٧٠.

(٥) صحيح البخاري، كتاب ما جاء في الحرث والمزارعة، باب من أحيا أرضاً مواتاً، ج ٣/٧٠.

(٦) صحيح البخاري، كتاب ما جاء في الحرث والمزارعة، باب من أحيا أرضاً مواتاً، ج ٣/٧٠.

وقد ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة))،^(١) كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لو قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل))^(٢).

تنمية التعدين:

التعدين هو التقيب واستخراج المعادن الخام من مناجمها والاستفادة منها، وحيث إن بلاد الحجاز لا تخلو من المعادن، فإن التعدين قد عرف في العصر الجاهلي ثم النبوي. ويتبين لنا ذلك من النصوص، حيث ذكر أن (أبا الحصين السلمي) قدم بذهب من معدن، فأتى به النبي ﷺ.^(٣) وهم يطلقون لفظة (معدن) ويريدون به المنجم أو ما يؤخذ منه المعدن.

كما أن الرسول ﷺ أقطع (بلال بن الحارث المزني) معادن القبيلة،^(٤) وهي من أعمال الفرع بالمدينة وهي جبال بين المدينة ويئبُع. وكتب الرسول ﷺ كتاباً لبلال بذلك، وكان من المعادن المعروفة والمستغلة منذ القدم معدن (فَرَّان)،^(٥) وهو لبني سليم، وهو فيما بين نجد والحجاز. وهو منجم للذهب ويسمى عند المؤرخين معدن بني سليم ويسمى حالياً (مهد الذهب)،

(١) صحيح البخاري، كتاب ما جاء في الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، ج ٦/٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/١٩١؛ وانظر: د. عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص ٨٥ - ٨٧.

(٣) ابن حجر، الإصابة، ج ٤/٤٤.

(٤) ابن سلام، الأموال، ص ٣٤٨.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤/٣٤٥.

وهي منطقة مشهورة حالياً بمناجمها شرق المدينة بما يزيد على مائة كيلو متر، وكان معروفاً في العصر النبوي، وكان هناك معدن بناحية كلاب قرب المدينة يقال له (الأحسن)،^(١) وهناك معدن بناحية الفرع على مقربة من المدينة يقال له (بحرآن)،^(٢) وقد ورد ذكر له من خلال نصوص السيرة النبوية مما يدل على أنه كان معروفاً بأنه معدن وقد وصله الرسول ﷺ. يقول ابن هشام: (ثم غزا رسول الله ﷺ يريد قريشاً .. حتى بلغ بحران معدن بالحجاز من ناحية الفرع).^(٣) كما ورد ذكر عن معدن يقع بين مكة والطائف يقال لها (المعدن) معدن (البرم)،^(٤) وتشارك قريش وثقيف في معدن البرم، وربما استغلاله، وبعد الفتح النبوي لمكة وإسلام الطائف، عُرف أن هذا المعدن استمر في العطاء واستفاد منه المسلمون في الطائف وغيرها.

ومن المعروف أن استغلال تلك المعادن كان بدائياً نظراً لإمكانات أهل المنطقة القليلة، وصعوبة الحفر والتقيب في تلك الأيام، لأن الأعمال كلها يدوية والخبرات قليلة،^(٥) ومما لا شك فيها أن تعامل الرسول ﷺ مع بعض أصحاب تلك المناجم (المعادن) فيه شيء من التشجيع، بدليل إقطاعه بعض المعادن، والإقطاع يهدف لاستثمارها والعمل فيها وتنميتها واستخراج معادنها. كما كان للتشريعات المرتبطة بأنصبة الزكاة في الركاز وتدخّل فيها المناجم (المعادن)، دور في تقوية دورها الاقتصادي في حياة الأمة وتهيئة المسلمين لاستغلالها وإدراجها في منظومة الزكاة والأنشطة الاقتصادية.

(١) الفيروز آبادي، المغانم المطابة، ص ٣٨٥.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١/٣٤١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٤٦.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١/١٥٤؛ وانظر: عبدالجبار، منسى العبيدي، الطائف،

ص ٢٠.

(٥) د. عبدالعزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

تنمية الصناعات:

الحدادة:

كانت المدينة كغيرها من مدن الحجاز تحتوي على بعض الصناعات البسيطة وخصوصاً التحويلية، وكان العرب يحتقرون بعضاً منها، فيمتنها الموالى واليهود بالدرجة الأولى ومن ذلك الحدادة.

وحينما جاء الإسلام حاول الرسول ﷺ أن يغير من تلك النظرة، فهو ﷺ يصف زكريا بأنه نجار، ويوصف داود عليه السلام في القرآن الكريم بعمل الدروع وصناعة الحديد، قال - تعالى -: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠) [الأنبياء]، ثم يقول الرسول ﷺ قارناً بحديثه عن داود عليه السلام: ((ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)).^(١)

وقد كان خباب بن الأرت حداداً في مكة قبل الهجرة، ولم يعب عليه الرسول ﷺ، ولعله بعد هجرته إلى المدينة استمر في المهنة نفسها.

وقد استرضع الرسول ﷺ لابنه إبراهيم من امرأة أبي سيف وكان حداداً في المدينة وحدث أنه ﷺ ((أتى إلى أبي سيف وكان ينفخ في كيره وقد امتلأ البيت دخاناً)).^(٢)

وقد اهتم الرسول ﷺ بالتسليح وإعداد القوة بعد الهجرة، وخصوصاً بعد فرض الجهاد، وهذا الأمر ساعد في ازدهار الحدادة إضافة، إلى ازدهار الزراعة بأدوات جديدة كالمحراث وغيره.

ولعل مما يلفت النظر تسمية سورة من سور القرآن الكريم بسورة

(١) رواه البخاري، في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ج ٩/٣.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٩٨/٤.

الحديد، مما يدل على أهمية تصنيعه والاستفادة منه، وفيها قوله - تعالى - : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصِيرَةٍ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

وقد تغيرت نظرة الناس إلى هذه المهنة، مما ساعد في ازدهارها في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول ﷺ وتغير مجتمع المدينة في نموه وحضاريتها.^(١)

الصياغة:

اشتهرت في المدينة، وهي العمل في سبك الذهب والفضة وغيرها من المعادن الثمينة وتحويلها إلى حلي وغيرها. وكان بعض العرب يحتقر هذه الصناعة وبالتالي تخصص بها اليهود والموالي، وأثروا منها ثراءً فاحشاً، وقد ذكر في سبب غزوة بني قينقاع (أن امرأة من المسلمين جلست إلى صائغ من بني قينقاع فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فعمد الصائغ إلى ربط ثوبها إلى ظهرها فلما قامت انكشفت عورتها).^(٢)

وقد دلت نصوص كثيرة على سيطرة يهود بني قينقاع على الصياغة وصناعة الحلي بالمدينة، حتى أن بعض الناس كانوا يعملون لهم. وقد ورد عن علي ﷺ (لما أردت أن ابنتي بفاطمة بنت رسول الله ﷺ واعدت رجلاً صواغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بأذخر أردت أن أبيعته من الصواغين، واستعين به في وليمة عرس).^(٣)

(١) انظر: عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، ص ٢٧٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٤٨؛ وانظر: د. أكرم العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، القسم الأول، ص ١٣٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ما قيل في الصوَّاغ، ج ٣/١٢، ص ١٣.

وكانت لدى نساء الأنصار حلي معقولة، كثيراً ما يتصدقن بشيء منها حين يدعوهن رسول الله ﷺ للصدقة.

وتعد الحلي من الترف، وليست من الحاجات الضرورية، ولذلك لم نجد حظاً عليها، بل ربما ورد شيء من التحذير عن الزيادة في الحلي واقتنائها أو استخدام الذهب والفضة في آنية الطعام.^(١)

ومع ذلك فإن الرسول ﷺ صنع خاتماً من فضة كان يختم به كتبه،^(٢) وهذا بالطبع من عمل صواغ المدينة. وقد اقتدى به بعض الصحابة في التختم بالفضة.^(٣)

الدباغة والخرازة:

تقوم الدباغة على إصلاح جلود الحيوانات ومعالجتها ببعض النباتات والصخور، ونزع الصوف والشعر منها وتنظيفها وتليينها وتبديل رائحتها بما يجعلها جلوداً صالحة للتحويل لأدوات معينة، وهذا ما عرف بالدباغة، وصناعة الأحذية والقرب وغيرها تتم من الجلود الخام فيما يسمى بالخرازة.^(٤)

ويستعمل ثمر شجر القرص وغيره للدباغة، وقد عرف أحد الصحابة بمسمى سعد القرص، وذكر أنه كان يربح من جمع القرص وبيعه، فأمره

(١) مالك، الموطأ، ص ٧٩٩.

(٢) كتاب اللباس، وضع البخاري فيه ستة أبواب منها: باب اتخاذ الخاتم ليختتم به الشيء أو ليكتب به إلى أهل الكتاب، وباب لا ينقش على نقش خاتمه، ج ٥٣/٧ - ٥٤.

(٣) البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ما قيل في الصوَّاع، ج ١٢/٣، ١٣؛ عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج ٤/١١٥٩.

(٤) الزبيرى، تاج العروس، ج ٤/٣١٣.

الرسول ﷺ بلزوم ذلك لما أصابه من الرزق فسمى سعد القرص.^(١)

كما عرفت عدد من النساء المسلمات في المدينة يمارسن الدباغة والخرابة، فهذه أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب يدخل عليها رسول الله ﷺ يبلغها باستشهاد جعفر وقد (رتقت أربعين مناً) لأي أربعين جلدًا مدبوغًا.^(٢)

وقد ذكر عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة ﷺ: إنها كانت تعمل الأديم الطائفي، كما أن أم المؤمنين زينب بنت جحش ﷺ كانت تدبغ الجلود وتخزها وتتصدق بثمنها على الفقراء.^(٣)

وكانت ﷺ ممن يجيد الخرابة ففتتج وتتصدق من ذلك،^(٤) وقد دخلت الجلود في صناعة السرج ولجام الخيل وبعض المحازم المرتبطة بالسلاح مع دخولها في حاجات المزارعين، كالدلاء والسقاء وغيرها، ومن المعروف في زمن النبي ﷺ زيادة الاحتياج لما يرتبط بالسلاح والخيل والزراعة، بعد هجرة النبي ﷺ. وهذا أدى إلى ازدهار صناعة الدباغة والخرابة، إضافة إلى أن عمل عدد من نساء أهل البيت في هذه الصناعة شجع الكثيرين على مزاولتها وتعلمها. وكون نساء من أمهات المؤمنين ينتجن ويساهمن بدور ولو بسيط في الإنتاج بمعرفة الرسول ﷺ وإقراره أدى إلى تشجيع الآخرين على الإنتاج والعمل والتأسي بأمهات المؤمنين سيدات المجتمع المسلم. وكان الرسول ﷺ كما هو معروف في مهنة أهل بيته يرقع ثوبه ويخصف نعله ولا يترفع عن العمل الشريف.

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٢/٥٤، حاشية على الإصابة.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج٤/٤٨٦، ج٤/٣١٤؛ الكتاني، التراتيب الإدارية، ج٢/٥٧.

(٣) ابن حجر، الإصابة، ج٤/٣١٤.

(٤) د. عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص ١٢٦ - ١٣١.

النسيج:

النسيج والخياطة حرفتان متكاملتان تدعم إحداهما الأخرى، فالخياطة لا بد لها من نسيج مسبق والنسيج لا تتم الفائدة منه إلا بالخياطة في الغالب، يقول ابن خلدون: (هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرّفه)،^(١) ثم يقول: (وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل. وأما المنحرف إلى البحر فلا يحتاج أهله إلى دفء).^(٢)

والنسيج حرفة ضرورية احترفها الناس منذ القدم لإيجاد الأقمشة الخاصة بالملابس، كما أنها ضرورية لوجود حاجيات أخرى من الأثاث كبيوت الأعراب (الخيام)، أو البسط وما إلى ذلك من الضروريات. وعند دراستنا للغزل والنسيج في أيام الرسول ﷺ فلا بد من معرفة لإمكانات تلك البلاد من توفر المواد الخام للنسيج في بيئتها، وتوافر الأيدي العاملة، التي تقوم بعمل النسيج، مع الخبرة الفنية والمهارة اللازمة لهذه المهنة، وإن كانت محدودة مقارنة بغيرها.

كان (الصوف) متوفراً بكثرة نظراً لوفرة الثروة الحيوانية، وتتم الاستفادة من هذا الصوف والقيام بغزله، وكانت النساء يقمن بالنسيج في المدينة زمن الرسول ﷺ، فقد ورد في حديث رواه البخاري عن سهل بن سعد ﷺ قال: ((جاءت امرأة ببيردة. قال: أتدرون ما البيردة؟ فقليل له: نعم هي الشملة منسوج في حاشيتها قالت: يا رسول الله إني نسجت هذه بيدي أكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال رجل من القوم: يا رسول الله

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤١١.

(٢) مصدر سابق، ص ٤١٢.

أكسنيها، فقال: نعم، فجلس النبي ﷺ في المجلس ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه فقال له القوم: ما أحسنت سألتها إياه، لقد علمت أنه لا يرد سائلاً، فقال الرجل والله ما سألته إلا لتكون كفني يوم أموت، فكانت كفنه^(١). وقد وضع البخاري باباً لهذا الحديث سمّاه: (باب ذكر النسّاج)^(٢). ويدل هذا الحديث على إجادة بعض النساء للنسيج في المدينة، وأنهن كن يقمن بذلك وينتجن بعض الملابس المنسوجة، وقبول الرسول ﷺ هدية المرأة النسّاجة فخر وتشجيع لها، ولمن يزاول مثل مهنتها في مجتمع المدينة. وقد أشار القرآن إلى الاستفادة من الأصواف، في قوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

و(المغزل) هو: ما يفتل به الصوف بحيث يحول إلى خيوط صوفية ثم تنسج فيما بعد، وقد ورد ذكر (الغزل) في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِءً وَيَبْيِتَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢]^(٣).

وقد وجد رجال يجيدون الحياكة والنسيج، بدليل ما ورد عن سنان بن سعد ﷺ قال: (حكّت للنبي ﷺ جُبة من صوف وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال: انظروا ما أحسنها وما أبهجها فقام إليه إعرابي فقال: يا رسول

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ذكر النسّاج، ج ٣/١٣، ١٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ذكر النسّاج، ج ٣/١٣.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن، ج ٢/١٠٧٢؛ الشوكاني في فتح القدير، ج ٢/١٩٠.

اللَّهُ هبها لي، قال: فكان إذا سُئِلَ شيئاً لم ييخل به فدفعتها إليه وأمر أن تحاك له جبة أُخرى فمات وهي في المحاكة).^(١)

وقد وردت بعض الآثار تدل على أن بعض الصحابة كان يعمل الخبز وهو نسيج يعمل من (إبريسم) وصوف وذكر من هؤلاء الزبير بن العوام وعمرو بن العاص.

ولعل مما يدل على تشجيع هذه المهنة ورود عدة آثار عن أمهات المؤمنين ترغّب المسلمين في تعليم فتياتهن ونسائهن الغزل حيث كانت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها تغزل باستمرار ف قيل لها عن ذلك فقالت: إن المغزل يطرد الشيطان ويذهب بحديث النفس.^(٢) وفي هذا - أيضاً - إنتاج مفيد لصاحبه وللمجتمع، وأمهات المؤمنين تربية الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكانت أعمال النسيج في المدينة تسد الحاجة لبعض الملابس البسيطة، وكان الصوف غير المُصنَّع يستفاد منه في أشياء أخرى كالفرش والوسائد، فقد بعثت امرأة من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم بفراش محشو بالصوف، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها رديه (مخافة أن ينام عن صلاة الليل)،^(٣) نتيجة لليونة الفراش.

كما أن الحبال ضرورية في الحلّ والسفر، وكانت تصنع من الصوف والجلود، وتستخدم بعض الأشجار والنباتات لصناعة الحبال، وهي ما يسمى (المَسَد) وقد وردت في سورة المسد في قوله - تعالى - ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۗ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۗ﴾ [المسد].

(١) الكتاني، التراتيب الإدارية، ج ٢/٥٩.

(٢) الكتاني، التراتيب الإدارية، ج ٢/١١٩ - ١٢٠.

(٣) الذهبي، السيرة النبوية، ص ٣٣١.

والمسد : (شجر يدق كما يدق الكتان فتقتل منه الحبال).^(١)

وكان بعض الصحابة يصنعونها من ليف النخل، وقد اشتهر عن بعضهم التبرع بها في الغزوات، كما أنهم كانوا يصنعون بعض الأثاث من الصوف كالبسط والسجاجيد، وكانت بدائية بسيطة تتسج مما يتوفر من أصواف الماعز وغيرها من الأصواف الخشنة.

وكانت البسط معروفة في المدينة أيام الرسول ﷺ، وكان ﷺ يضطجع على حصير فيؤثر في جلده، فقال له عمر بن الخطاب ﷺ: بأبي وأمي يا رسول الله ألا آذنتنا فنبسط لك، أي نضع البسط فقال ﷺ ما لي وللدنيا.^(٢)

الخواص:

حرفة اشتهرت في المدينة في زمن الرسول ﷺ، وهي نسج بعض الأدوات والأثاث من خوص النخيل، وكانت المدينة بلداً زراعياً اشتهر بالنخيل، وقد استفيد من جريد النخيل في عمل الخوص، فكان الخوص ينسج منه بعض الأشياء كالحصير التي كان الرسول ﷺ يستعملها في بيته وينام عليها، حتى أثرت في جلده،^(٣) وكان الأنصار في المدينة يعملون الخوص، وسلمان الفارسي ﷺ اتخذها حرفة يأكل منها، وقد استمر سلمان الفارسي ﷺ في الخواصة بعد أن أصبح أميراً على المدائن، فكان يقول: إنني أحب أن آكل من عمل يدي، وذلك امتثالاً لما أخبر به الرسول ﷺ.^(٤)

(١) ابن كثير، تفسير القرآن، ج ٢/٢٠٤٥: الشوكاني، فتح القدير، ج ٥/٥١٢.

(٢) الذهبي، السيرة النبوية، ص ٣٢٩.

(٣) انظر: الذهبي، السيرة النبوية، ص ٣٢٩.

(٤) انظر: عبدالعزيز العُمري، الولاية على البلدان في عصر الراشدين، ص ١٧٧: ابن سعد، الطبقات، ج ٤/١٨.

وكانت بعض النساء في عهد الرسول ﷺ ربما تغزل الخوص وتتسجه في المسجد، مما يدل على تشجيع هذا النوع من الإنتاج، وخصوصاً حين نعرف نظافة الخوص وطيب رائحته.

وقد استفيد من ليف النخل في صنع الحبال، فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه كان في خيبر على حمار خطامه من ليف.^(١)

واستفيد من الليف في حشو الوسائد والفرش، يقول عدي بن حاتم: إني مضيت مع رسول الله ﷺ حتى دخلت بيته فتناول وسادة من آدم محشوة ليفاً فقذفها إليّ فقال اجلس على هذه.^(٢) ويذكر أنس أنه دخل على الرسول ﷺ وتحت رأسه مرفقة حشوها ليف.^(٣)

كل هذه الأنواع من إنتاج المنسوجات من خامات متنوعة وردت فيها شواهد من سنة الرسول ﷺ، مما يدل على أنها أنتجت في وقت حظيت بتشجيع من الرسول ﷺ كدعم مادي للأفراد، وحاجات واقعية وتنمية اقتصادية لمجتمع المدينة المسلم.

الخيطة:^(٤)

هي تفصيل الأقمشة والمنسوجات وتقطيعها قطعاً مناسبة للبدن، ثم وصل تلك القطع بعضها ببعض بواسطة الخياطة بالإبرة أو غيرها.

والحاضرة يهتمون بالملابس وشكلها أكثر من غيرهم، يقول ابن خلدون:

(١) الخراعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٧٣٧.

(٢) انظر: وفادة عدي بن حاتم ضمن الوفود، من هذا الكتاب.

(٣) الذهبي، السيرة النبوية، ص ٣٢٨.

(٤) وضع البخاري في صحيحه، في كتاب البيوع، باب ذكر الخياط، ج ١٣/٣.

(وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً، وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها).^(١)

وقد كانت الخياطة معروفة ومشتهرة في المدينة زمن النبي ﷺ، ووجد أناس يتخذون من الخياطة صنعة لهم يكتسبون من ورائها وقد وضع البخاري ﷺ في صحيحه باباً سماه: (باب ذكر الخياطة)، وروى عن أنس بن مالك ﷺ قال: (إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس بن مالك ﷺ فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى الطعام).^(٢) الحديث، ويستدل من هذا الحديث على وجود خياط يعمل بهذه الحرفة أيام الرسول، كما لا يفوتنا أن هنا توجيهاً نبوياً كريماً، حيث كان العرب يحتقرون أهل الصناعات ومنهم الخياط، فاستجاب الرسول ﷺ لدعوته، ليُذْهِبَ ما في نفوس الناس من احتقار لأهل الصناعات عموماً، وتشجيع لهم على الأعمال المنتجة التي تسد جزءاً من حاجة المجتمع.

وكان الرسول ﷺ كثيراً ما يقوم برقع ثوبه بنفسه فقد سُئِلَتْ عائشة ﷺ عن رسول الله ﷺ فقالت: (كان رسول الله ﷺ إذا كان في بيته يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته).^(٣)

وهذا تشجيع على العمل والاكتفاء وقيام الإنسان بحاجاته تربية للذات على الإنتاج وعدم الكسل.

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤١١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، ج ٦٠/٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ذكر الخياط، ج ١٣/٣؛ وانظر: الذهبي، السيرة النبوية، ص ٣٢٤.

تنمية الحيوانات وتربيتها:

يقول الله - تعالى - في سورة النحل: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل].

هذه الآيات الكريمة التي وردت في القرآن الكريم في سورة النحل تدل على فوائد الإنسان من تربية الحيوانات أو (الأنعام)، وأن الإسلام راعى كل ما يفيد الإنسان من الأنشطة الاقتصادية.

ومن المؤكد أن من ذلك الاعتناء بتربية الأنعام ورعيها وتمييتها، وكان من الحرف التي عرفتها المدينة في عصر الرسول ﷺ.

رعي الغنم:

يعتبر رعي الغنم من الحرف الرئيسية في حياة الناس منذ القدم. وقد ارتبط رعي الغنم في أذهان الناس بالنبوة والأنبياء، حيث كان الأنبياء رعاة أغنام قبل أن يرسلهم الله للناس، ومروا بتجربة رعي الغنم واستفادوا منها.

فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم))، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: ((كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة)).^(١) ومن هذا الحديث يتبين لنا أن رسول الله ﷺ حين كان بمكة قبل البعثة اشتغل لفترة من الزمن راعياً للغنم، كما أنه أخبر أن غيره من الأنبياء أيضاً قد رعو الغنم، وقد

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ج ٣/٤٨.

جعل الناس ينظرون لهذه المهنة باحترام خاص، ويعدون لها من أشرف المهن وأنزهها.

وقد اعتنى الإسلام بتنظيم زكاة بهيمة الأنعام وتقييمها وتحديد أنصبتها مما يعني أنها أحد أهم موارد الاقتصاد.

كانت هناك مجموعات من الأغنام تخرج من المدينة للرعي، ثم تعود إليها في آخر النهار، حيث يستفيد أهلها من ألبانها في المساء، ثم تعود للرعي مرة أخرى في الصباح، وكانت هذه المجموعات تسمى (السَّرَّاح)، وكان للمدينة في عصر الرسول ﷺ وأثناء وجوده بها سرح يخرج للرعي خارج المدينة ثم يعود في آخر النهار إليها، وكانت هذه الأغنام تساهم في تأمين الألبان التي وردت أحاديث كثيرة في فضلها، والتشجيع عليها، وبالتالي زاد الاهتمام به وإنتاجه واستهلاكه.

وحدث أنه حين قدم الرسول ﷺ من غزوة العشيرة في السنة الثانية من الهجرة أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له (سَفْوَان)،^(١) من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر ولم يدركه، وقد سميت بغزوة (بدر الأولى).

ففي القرآن يقول الله - تعالى -: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا بِطُغْيَانِهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ وَأَنْ تَحْتَسِبُوا﴾ [النحل: ٦٦]، وكان للرسول ﷺ سبع منائح من الغنم والماعز يراعها ن أيمن ابن أم أيمن، يستفيد من ألبانها.^(٢)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٦٠٠: السهلي، الروض الأنف، ج ٣/٢٢: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٣٦٤: وانظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٢/١٦٣. (سفوان: الأرجح أنه واد بين المدينة وبدر لم يحدد بدقة، انظر: عاتق غيث البلادي، معجم الأماكن الواردة في السيرة، ص ١٥٨).

(٢) الطبري، تاريخه، ج ٣/١٨٤.

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يحلب أحد ماشية غيره إلا بإذنه محافظة على هذه الثروة لأصحابها، فقد روي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يحلبن أحد ماشية امرئٍ بغير إذنه، أوجب أحدكم أن تؤتى مشربته، فتكسر خزانته فينقل طعامه، فإنما تخزن لهم ضرور مواشيهم أطعمتهم، فلا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه)).^(١)

وكان الرعاة يصطحبون معهم الكلاب التي تساعد في حماية أغنامهم من الذئاب، كما تساعد في تجميع هذه الأغنام عند الحاجة، وقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أمسك كلباً فإنه ينقص كل يوم من عمله قيراط إلا كلب حرث أو ماشية، وفي رواية إلا كلب غنم أو حرث أو صيد)).^(٢) وفي هذا رخصة لمربي الأغنام.

والاهتمام بالثروة الحيوانية وتتميتها وحث الرسول ﷺ على الاستفادة منها ومن إنتاجها من أهم الدوافع للمجتمع المدني بعد الهجرة لمزيد من الاهتمام بهذه الثروة الاقتصادية التي تساهم في سد حاجة المجتمع من الطعام بلحومها وألبانها، ومن اللباس والمتاع بجلودها وأصوافها وأوبارها، تبعاً للإشارات الواردة في آيات القرآن الكريم، كما أن تسمية سورة من سور القرآن بسورة (الأنعام) يبين أهميتها في الحياة الإنسانية.

الجمع والاحتطاب:

كان على رأس الأشياء التي تجمع ويستفاد منها (الحطب)، وكان وسيلة

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب في اللقطة، باب لا تحلب ماشية أحد بغير إذن، ج ٣/٩٥.

(٢) البخاري، فتح الباري، ج ١٠/٧٠.

رزق لبعض الناس، حتى أن الرسول ﷺ قال: ((لأن يأخذ أحدكم أحبلاً فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطي أم منع)).^(١) وهذا النوع من الاحتراف لا يتطلب وجود رأس مال، ولا يحتاج الرجل فيه إلى أكثر من فأس وحبل، وقد لا يحتاج إلى هذه في بعض الأنواع من الجمع، وهذه الحرفة من أبسط الحرف لإيجاد مورد رزق يُعز الإنسان ويغنيه عن الناس وهو هدف شرعي.

كما أن جمع العشب وبيعه للصاغة كان سائداً في المدينة زمن الرسول ﷺ، وكان هناك من الصحابة من يجمع (الأذخر) وبيعه.

وقد وضع البخاري باباً في صحيحه سماه: (باب بيع الحطب والكلأ)،^(٢) وكان جماعة من الأنصار يحتطبون الحطب وبيعونه ويشترون بثمنه طعاماً يتصدقون به على أهل الصُّفَّة،^(٣) وكان ﷺ يأمر المحتاجين بالاحتطاب والبيع فهو خير من المسألة، فقد جاء أحد الأنصار فشكى إليه الحاجة فقال له الرسول ﷺ: ((انطلق وأحضر ما تجده في بيتك))، فجاء الأنصاري ببساط وقد فباعهما الرسول ﷺ بدرهمين وأعطاه إياهما وقال له اشتر بدرهم طعاماً لأهلك وبدرهم فأساً ثم أتتني ففعل ذلك ثم جاء للنبي ﷺ فقال له: ((انطلق إلى الوادي واحتطب ثم أتتني بعد عشرة أيام)، ثم أتني هذا الأنصاري بعد العشرة، وقد استغنى، فقال له النبي ﷺ: هذا خير لك من أن تأتي يوم القيامة في وجهك نكته من المسألة.^(٤)

وهذه التوجيهات النبوية لهذا المحتاج، هي توجيه لعامة الناس في الأمة إلى

(١) رواه البخاري، فتح الباري، ج ١٠/١١٩: ومالك في الموطأ، ص ٤٧.

(٢) انظر: فتح الباري، ج ١٠/١١٨.

(٣) د. أكرم العُمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، القسم الأول، ص ١٠١.

(٤) انظر: الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص ٧١٦.

يوم القيامة ، بعزة النفس والغنى عن الناس والعفاف عن المسألة ، والسعي للإنتاج ، بما يسد حاجته ويغنيه عن الخلق ، وهذا يعني دفع الإنسان للإنتاج - بما يستطيع - وألا يكون عالة على الآخرين ، ولا يوجد في أي أمة من أمم الأرض غير المسلمين مثل هذه التعليمات النبوية الشرعية الإلهية لدفع الإنسان للإنتاج والعمل.

الأجراء:

من المعروف أن الأجير هو الشخص المستأجر للخدمة والعمل ، وتختلف نوعية العمل الذي يتفق الأجير مع صاحبه عليه من خدمة أو حماله أو سقاية ، أو غير ذلك من الأعمال الشائعة التي يطلب أصحابها الأجراء ليقوموا عنهم بالعمل.

وقد كانت الإجارة معروفة في المدينة أيام الرسول ﷺ. وقد وضعت كتب الحديث أبواباً للإجارة ، وذكرت ما ورد فيها من أحاديث عن الأجير في العصر النبوي.^(١)

وكان بعض الصحابة ﷺ يحملون للناس الأشياء على ظهورهم مقابل أجر محدد ، فمنهم من يأكل من الأجر ومنهم من يتصدق به.

وكان بعض الصحابة يحب أن يؤدي صدقة حينما يدعوهم الرسول ﷺ لذلك ، فلا يجد مالاً فيذهب إلى السوق يحمل للناس مقابل أجر ، فيأتون به إلى النبي ﷺ ويتصدقون به ، فقد ورد في حديث رواه أبو مسعود الأنصاري ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أمرنا بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل ، فيصيب المدّ وإن لبعضهم لمائة ألف)،^(٢) ويقصد أنهم كانوا فقراء

(١) انظر: صحيح البخاري، فتح الباري، كتاب الإجارة وما تضمنه من أبواب، ج ٣/١.

(٢) صحيح البخاري، فتح الباري، ج ١٦/١٠.

ثم أصبحوا من أصحاب مئات الألوف بعد ذلك.

وقد كان من الصحابة رجل فقير يدعى (أبا عقيل) واسمه حُشْمَان، وقيل غير ذلك، ويلقب بصاحب الصاع، إذ كان ينقل الماء على ظهره ويتصدق بنصف الأجرة. وقد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الصدقة فجاءه أبو عقيل بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة وقال للرسول ﷺ: لقد حملت الماء على ظهري بصاعين أحدهما لي ولعياالي، والآخر جئت به صدقة، فتضاحك المنافقون وقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزل قوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧١) [التوبة]،^(١) وقد حث رسول الله ﷺ على إعطاء الأجير أجره فقال النبي ﷺ: ((قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره)).

وهذا تهديد من الله ورسوله ووعيد للناس لمن لا يعطون الأجراء أجورهم ولن يبخسون منها شيئاً.

وباب الرزق من خلال العمل في الإجارة باب شريف، أقره الرسول ﷺ وطبقه الصحابة ﷺ في حياتهم بتشجيع من النبي ﷺ، وفي ذلك تنمية للذات وعز وكرامة للإنسان.^(٢)

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج٢/٣٨٦؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤/١٣٠؛ ابن حجر، الأصلة، ج٤/١٣٦؛ ابن كثير، تفسير القرآن، ج١/٢٩٧.

(٢) د. عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص ٢٩٣ - ٢٩٥.

القسم الثالث
إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً

قال الله - تعالى - : ﴿ هُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ
﴿ ٣٣ ﴾ [التوبة].

معاهدة المدينة

جاء الرسول ﷺ ليقوم مجتمعاً إنسانياً عادلاً، يحفظ حقوق الإنسان وكرامته وأمنه، وجاء بالدين الصحيح، قال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ (آل عمران).

ومع هذا فقد كان الناس بالخيار في أن يدخلوا الإسلام، لا يكره أحد من الناس على ذلك، قال - تعالى -: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة). فالناس في ذلك أحرار، بعد أن يبلغهم الأمر.

إلا أن ضمان النظام وحياة الناس وأمنهم والعدل فيما بينهم وحفظ حقوق الجميع لا خيار فيه، فهي ملزمة للجميع، ولذلك فإن الرسول ﷺ حين جاء المدينة كان المسلمون فيها أقلية مقارنة مع غيرهم من يهود المدينة ومشركيها، ومع ذلك حرص ﷺ على التفاهم مع الجميع، وكتابة عقد بينهم لضمان الحقوق وحمايتهم، وقيام حياة آمنة مشتركة في المدينة.

ومع أن الرسول ﷺ جعل أساس العلاقة الولاء والبراء، إلا أن التعايش مع الآخرين والاهتمام بالمصالح المشتركة لا يمنع الولاء والبراء والعلاقة على أساس العقيدة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات).

ولذلك سعى الرسول ﷺ لتنظيم العلاقة بين السكان مسلمين وغير مسلمين، وكتب في مرحلة مبكرة معاهدة على ذلك،^(١) ((وكان رسول الله

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/٥٠١؛ لدراسة موسعة عن تخريج الروايات الواردة عن الوثيقة انظر: د. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١/٢٧٦ =.

عند قدومه المدينة وادعَ يهودَ وكتبَ بينه وبينهم كتاباً، واشترطَ عليهم أن لا يمالئوا عدوه، وأن ينصروه على من دهمه))،^(١) وهي ما عرفت بوثيقة المدينة، أو موادة المدينة.

إن هذه الوثيقة أو الصحيفة كما سماها البعض أو الدستور المشترك كما سماها آخرون،^(٢) ثابت كتابتها في بداية هجرة الرسول ﷺ وقبل بعثه للسرايا وغزواته، وورود روايات أخرى لوثائق وكتب حدثت بين الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين وبين يهود وغيرهم من سكان المدينة لا ينفي الوثيقة الأولى أو يناقضها.

وفي هذا إجابة على تساؤل البعض هل كانت صحيفة واحدة أم أنها أكثر من صحيفة؟^(٣)

فهذه الكتب والوثائق الجديدة بعضها تأكيد للوثيقة الأولى بمناسبة خاصة، وبعضها وثائق جديدة تؤكد الأصل الأول ثابتة بروايات يعضد بعضها بعضاً.

ولعل وجود بوادر نقض لبعض بنود الوثيقة من قبل جماعات من يهود مما دعا لتجديدها أحياناً من بعضهم أو إنشاء عهد جديد.

=وقد ضعف أحد الباحثين القول بالوثيقة (انظر: اليامي ضيدان عبدالرحمن، بيان الحقيقة في الحكم على الوثيقة، "وثيقة المدينة" - الرياض: مكتبة المعارف ١٤٠٨هـ. ورأيه محل نظر، فشواهدا كثيرة وثابتة بطرق عديدة وإن اختلفت رواياتها لكن بعضها يعضد بعضاً في إثبات وجود الوثيقة مع التفاوت في ألفاظها ومحتواها والمشاركين فيها من رواية لأخرى.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١/٨٦.

(٢) انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ١٨٠.

(٣) الجميل: محمد بن فارس، النبي ﷺ ويهود المدينة، ط ١ - الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ١٤٢٢هـ، ص ٨٤.

لقد كانت الوثيقة (كتاب مصالحة وحسن جوار على أن يسالموه، ولا يعينوا عليه عدوه، وأن يقفوا بجانبه في وجه من يعاديه ويهدد أمن المدينة المنورة).^(١)

إن هذه المعاهدة تعني إقامة نظام على رأسه النبي ﷺ وتحديد مسؤوليات أمنية ودفاع مشترك على جميع السكان، مع عدم إكراه أحد على دينه، علماً أنه في هذه المرحلة كان تهديد المدينة عموماً والنبي ﷺ خصوصاً قائم بقوة، حيث إن مشركي مكة يصدرون التهديدات الواحد تلو الآخر، وينبغي التنبه إلى أنه في هذه المرحلة المبكرة من الهجرة لم تكن التشريعات قد اكتملت فيما يتعلق بمعاملة أهل الذمة من الجزية وغيرها، ومن الزكاة لأهل الإسلام، مع حفظ الحقوق لهم جميعاً، فالمرحلة مبكرة وسابقة للتشريعات المالية المختلفة التي تحددت في مراحل لاحقة، بواجبات مالية معينة كل حسب حاله.

ولم يكن وراثاً في هذه المعاهدة ولا في غيرها إبعاد أي من يهود أو سكان المدينة من غير المسلمين، ما داموا ملتزمين بشروط المعيشة المشتركة، والسلام الاجتماعي العام لكل سكان المدينة، وما يمكن أن يكون شبيهاً بالمواطنة المشتركة المعاصرة، مع حفظ كل فئة لحقها في الاعتقاد والديانة، دون إكراه على الإسلام.

إن هذه المعاهدة المدنية تعد، مثلاً لتنظيم عادل ومسؤولية اجتماعية ومرجعية نظامية مكتوبة للتحاكم يرجع إليها، وهي تشبه بعض الأنظمة في الدول الحديثة التي تتيح حرية الدين وعدم الإكراه عليه، مع الالتزام بالأمن والنظام المشترك والمسؤولية الجماعية، وهذه المعاهدة اعتبرت أساساً

(١) عبدالحميد طهماز، سيرة النبي، ص ٢٧٣.

في قيام دولة المدينة النبوية وتركيز المسؤولية فيها بيد الرسول ﷺ ، تمهيداً
لتطبيق الشريعة حسب نزولها ، وتأكيداً للمسؤولية بيد أعدل الناس ﷺ .

* * * * *

الإذن بالقتال

من المعروف أن رسول الله ﷺ كان يتلقى الأمر والإذن من الله ﷻ في كل شأنه وأعماله المرتبطة بالدين والتشريع. والقتال باسم الدين من أخطر الأمور، وقد تعرض الرسول ﷺ وأصحابه منذ انطلاق دعوته في مكة لأشد أنواع الأذى، فقد أُوذوا في الله، وسلبت أموالهم وأريق دم بعضهم، وحبس الكثير منهم وشرد آخرون واضطروا لترك بيوتهم وأموالهم في مكة والهجرة إلى الحبشة أو المدينة في آخر الأمر.^(١)

ومع كل هذه الأحوال فإن الرسول ﷺ كان في مكة يدعو أصحابه للصبر والتحمل، واحتساب الأجر عند الله، ويذكرهم بالمؤمنين من الأمم السابقة، ما فعل بهم من أذى وقتل، وفي الوقت نفسه يفتح قلوبهم على الأمل ومبشرات انتشار الإسلام وإتمام الأمر له في كل آفاق الدنيا ودخوله ((في كل بيت حجر ومدن))^(٢) قادم. وأن الأمن للمؤمنين قادم ((ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله)).^(٣)

وأن الممالك الطاغية في زمانه زائلة وسيغنم المسلمون كنوز كسرى.^(٤) وهذا يعني أن الله ﷻ ناصر دينه وعباده الصالحين، قال - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٣٣) [التوبة].

(١) انظر: الهجرة إلى المدينة، من هذا الكتاب.

(٢) انظر: أذى المشركين للرسول ولأصحابه، من هذا الكتاب.

(٣) رواه البخاري، فتح الباري، ج٧/١٩٥؛ ورواه أحمد في المسند، ج٥/١١٠.

(٤) ابن إسحاق، السيرة النبوية والمغازي، ص ٢٤١؛ ومسند الإمام أحمد، ج٤/٨٩، ١٠٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤؛

وانظر: عبدالعزيز العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٢٠.

وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة واستقراره بها لم يدعه المشركون على حاله، بل كانوا يهددونه ويطاردون أصحابه المهاجرين، ناهيك عن استمرار الاعتداء على من في مكة ممن بقي من المسلمين ومن يزورها منهم سواء من القرشيين أم من غيرهم.

وكانت الهجرة إلى المدينة مرحلة جديدة في إيجاد قوة للمسلمين وتجنيدهم للدفاع عن الإسلام وأهله.

ولذلك فإن من شروط بيعة العقبة الثانية ((أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم))، إنها بيعة الدفاع ولو أدى الأمر إلى قتال، ولذلك أدرك أسعد بن زرارة هذا الأمر فحدث الأنصار قائلاً لهم: (إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس).^(١)

كان الأمر واضحاً في تمييز المرحلة الجديدة بعد الهجرة، ولذلك كان المهاجرون والأنصار على استعداد تام للتضحية والفداء والجهاد قبل فرضه، يدركون التبعات على عواتقهم وأموالهم، كما كانت قريش تدرك تبعات المرحلة، حيث انزعج مشركوها كثيراً عندما علموا ببيعة العقبة، وحاولوا منع الرسول ﷺ من الهجرة، لأنها في النهاية تعني الصدام مع هؤلاء المؤمنين المظلومين بعد تكوين قوتهم، قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]. ولإدراكهم للمرحلة القادمة في أمة الإسلام ونمو قوة المسلمين والتخطيط لدفع الأذى قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج].

كان المشركون يعلمون أن الرسول ﷺ لم يقاتل في مكة ولم يأمر

(١) انظر: بيعة العقبة الثانية، من هذا الكتاب.

أصحابه بذلك، وإن كان في بعضهم قدرة، وخصوصاً بعد إسلام عمر رضي الله عنه وزيادة أعدادهم، وقوله: ((أحلف بالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل تركناها لكم أو تركتموها لنا)).^(١)

الإذن بقتال المشركين أو (الجهاد) كما هو مصطلح شرعي هو تشريع رباني بنص القرآن، من أهدافه الدفاع عن المظلومين، وإسماع الناس كلمة الحق والدين بجهاد من يعتدي على دعاة الرسول ﷺ، ويمنع عامة الناس من سماع كلمة لا إله إلا الله، أو يعتدي على أوطان المسلمين وحرماتهم، والجهاد ارتبط بكونه في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله وفي سبيله يقدم المال والنفس وكل شيء.

قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء].

وبعد مدة من الاستقرار في المدينة، وعناية الله بعباده المؤمنين، وصبر منهم والتزام بأمر الله والكف عن القتال، نزل على رسول الله ﷺ آيات قرآنية يأذن الله فيها بالقتال قال - تعالى -: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج].^(٢)

ومن خلال الآية يتضح أن الإذن جاء بعد منع، وأن الإذن ليس فيه فرض ولا إجبار، إنما هو سماح من الله ﷻ وتحدث الآية بوضوح بأنهم ظلّموا، كما تتضمن وعداً صريحاً من الله ﷻ بنصرهم وهو القادر على ذلك، أما أنواع الظلم الذي تعرضوا له فمنه كما قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالنَّاسُ شَرًّا مُّذُنًا﴾ [الحج].

(١) انظر: إسلام عمر بن الخطاب، من هذا الكتاب.

(٢) وضع ابن هشام في السيرة عنواناً خاصاً سماه: بدء قتال المشركين، ج ٢/ ٥٩٠.

صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَّجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَكَ اللَّهُ
مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج] إن سبب إخراجهم دوافع الظلم
والعداء التي جعلت قريشاً ومن تابعها يفعلون بالمؤمنين ما فعلوا.

وماذا سينتج عن هذا الأمر؟ فهي سنة التدافع البشري التي يعلمها الله ﷻ
في بني آدم منذ وجدوا على هذه الأرض، وهي حقيقة قائمة إلى أن يرث الله
الأرض ومن عليها قال - تعالى - : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾
[البقرة].

وتتوالى الآيات على نبيه لتؤكد التمكين للمؤمنين وأن له معنى وهدفاً
هو كما جاء في قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾
[الحج].

كان الرسول ﷺ يعلم أن التمكين والجهاد يحتاجان إلى قوة، وإلى
إعداد الرجال بالدرجة الأولى ثم العتاد وما يرتبط به.

وقد نزل بعد ذلك قوله - تعالى - : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ
فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة].

وفي هذه الآيات أمر من الله ﷻ بقتال الذين يفتنون الناس عن دين الله.

لقد كان القتال لمنع الظلم وليس الاعتداء، ومن هنا نزل قوله - تعالى - :
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُفْتِنُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة].

وفي قوله - تعالى - : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ

وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [النساء].

لقد أصبحت حياة رسول الله ﷺ مقاومة للشرك، مليئةً بالجهاد بمفهومه الشامل وعلى رأسه القتال للمشركين بعد مرحلة الإذن بالقتال، حتى إن كثيراً ممن ألف في حياة الرسول ﷺ وفي سيرته عنون لذلك بما يوحي بغلبة الجهاد والمغازي على السيرة النبوية.^(١)

لقد كان المشركون يقاتلون النبي ﷺ، فلماذا لا يقاتلهم؟ قال - تعالى -: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة].

ولذلك فقد بلغت غزوات الرسول ﷺ وسراياه ما يزيد على (٦٠) ستين غزوة وسرية، منها ثمان عشرة غزوة قادها بنفسه، قاتل في ثمان منها.^(٢)^(٣) وهناك اختلاف بين العلماء في العدد يأتي في التفريق بين الغزوة والسرية،^(٤) أحياناً، أو احتساب الحادثة سريه أو غزوة و ليس في وقوع الحدث أصلاً.

إن الجهاد والمغازي في أيام الرسول ﷺ من أعظم أسباب التمكين لرسول

(١) ممن ألف بهذا العنوان: ابن إسحاق، كتاب المغازي والسير؛ ابن أبي شيبة، كتاب المغازي؛ الواقدي، كتاب المغازي، والبخاري في صحيحه، (كتاب المغازي)، وموسى بن عروة، وعروة بن الزبير وغيرهم.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٣٥٣.

(٣) انظر: مناقشة العدد من خلال المصادر المختلفة عند: بريك أبو مائلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة.. دراسة نقدية، ص ٥٨.

(٤) بريك أبو مائلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٥٤؛ وانظر: روايات ابن أبي شيبة في كتابه المغازي، تحت عنوان: "في غزوات النبي ﷺ كم غزاً"، ص ١٦٩.

الله ﷺ في أيامه وأسباب القضاء على الشرك والجاهلية، كما كانت إعداداً للانطلاقة الكبرى للفتوح الإسلامية التي كان أهم أهدافها منع الظلم عن الناس وإتاحة الفرصة لهم لسماع كلمة الحق مع التأكيد على أنه ((لا إكراه في الدين))^(١) والوعد بأنه كما جاء في قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

وقال - تعالى -: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص].

وقال - تعالى -: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة].

وهو تشريع كفى به أنه أقر من رب العالمين، ودُكر في القرآن الكريم بما يجاوز العشرين مرة، ونزلت فيه أحكام محددة درسها الفقهاء وسارت عليه الأمة، وقد تميز الرسول ﷺ عن معظم الأنبياء السابقين بالجهاد والغزوات ودخوله بنفسه معارك مختلفة وتنظيمه وقيادته لها بكافة جوانبها،^(٢) وتطبيقه للجهاد كما في الشريعة الإسلامية من قوة ورحمة وعدل وحرية في وقت واحد.^(٣)

كما كان لها تضحيات وشهداء بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله.^(٤)

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٢١.

(٢) انظر: خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، ط ٢ - بغداد: مكتبة الحياة ١٩٦٠، ص ٦.

(٣) كولن: فتح الله، الرسول ﷺ قائداً التنظير والتطبيق، ترجمة أورخان محمد علي - القاهرة: دار النيل ١٤٢٥ هـ، ص ١١.

(٤) انظر: قطب، محمد؛ غزوات رسول الله ﷺ وسجل الشهداء، المكتبة العصرية ١٤٢٥ هـ.

وإن أساء بعض المخطئين ممن يعتدون على المسلمين واستخدموا هذا المصطلح لأعمال إجرامية، فإن هذا الخطأ منهم وتحويل المفاهيم أو خطأ استخدامها لا يعني تجاهل الجهاد الإسلامي الحقيقي عبر العصور دون استثناء، وأن تكون الأمة جاهزة للدفاع عن نفسها مستعدة لذلك، وفق ما أمر الله ﷻ وإلا هوجمت واستضعفت الأمة من قبل أعدائها، الذين رأينا في العصر الحاضر كيف فعلوا بالمسلمين في كل مكان، إن الدفاع عن الدين وحماية الوطن ورباه أمام الأعداء جزء مما شرع الله ﷻ في قوله - تعالى -:

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج].

فينبغي ألا ننسى هذا المفهوم وأنه لا يُردع الأعداء إلا بالقوة والجهاد، فمجرد ذكره يربح أعداء الإسلام.

إن الكثيرين يحاولون تشويه المفهوم الإسلامي للجهاد والصاقه بأعمال خارجة عنه ليسلخوا هذا المفهوم عن الأمة، بل ربما كرهوا فيه أبناء المسلمين بما يسمعون من وسائل الإعلام من ربط بينه وبين الاعتداء أو (الإرهاب).

سواء في ذلك الإعلام العالمي الذي بيد أنصار إسرائيل أم بعض وسائل الإعلام المملوكة بأموال مسلمين وتوجهاتها تخدم أعداءه، فقد أكثر من طرق هذا الموضوع بطريقة تخدم الأعداء، ساعدهم في ذلك أعمال بعض المفتونين الذين يعتدون على الناس باسم الدين.

صيام رمضان

عرف الصيام عند أهل الكتاب قبل الإسلام، وما يزال كذلك عند بعضهم مع تحريفهم في كلفه ومدته عن ما جاءهم من شريعة أصلاً، مع وجود بقية من بعض الشعائر المرتبطة بالصيام ((لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَجَدَ الْيَهُودَ يَصُومُونَ عَاشُورَاءَ فَسَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ فَقَالُوا: هَذَا هُوَ الْيَوْمَ الَّذِي أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى فِرْعَوْنَ وَنَحْنُ نَصُومُهُ تَعْظِيمًا لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ ثُمَّ أَمَرَ بِصَوْمِهِ))^(١)

وفي شعبان من السنة الثانية من هجرة المصطفى ﷺ نزل فرض الصيام على المسلمين في قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة]، فأصبح الركن الرابع من أركان الإسلام.

وارتبطت أحكام كثيرة بالصوم وتشريعاته، بعد أن صار ركنًا من أركان الإسلام، ونزلت عدد من الآيات عن الصيام منها قوله - تعالى -: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة، ج٤/٢٦٩.

اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ
وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ
الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
[البقرة].

كما تبع ذلك تشريعات في دخول الشهر وخروجه، وتبعه عيد الفطر وله أحكامه، وأصبح تحري الشهر وصيامه عبر العصور الإسلامية إلى اليوم الحاضر من اهتمامات المسلمين، وأصبح الصغار والكبار يهتمون بهذا الشهر الكريم وقيمون له شعائره الخاصة، من الصيام والقيام ويكثرون فيه أعمال البر والطاعات والصدقة، وألفت فيه الكثير من الكتب والدروس والأعمال العلمية والدراسات المختلفة إلى اليوم الحاضر.

وقد اقترن شهر الصوم بنزول القرآن قال - تعالى - ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة]، ولذلك كان الرسول ﷺ يكثر من تلاوة القرآن خصوصاً في رمضان، كما كان ﷺ يعتكف فيه، وجاءت في الاعتكاف أحكام وتشريعات مختلفة ارتبطت به.^(١)

كما اقترن بوجود ليلة القدر،^(٢) فيه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر]، فكانت الأمة تتحرى هذه الليلة بالأعمال الصالحة من القيام والصدقة والصلة والاعتكاف.

(١) انظر: صحيح البخاري، أبواب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر، ج ٢/٢٥٥.

(٢) ابن كثير، تفسيره، ج ٢/٢٠١٣.

وبالتالي كان الصيام قريباً للقيام وتلاوة القرآن، وصار رمضان شهر الطاعات والقربات والصدقات وسائر أعمال البر الخيرات، وسيظل كذلك عند أمة الإسلام إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

ومن يراقب حال المسلمين في رمضان، وما يطرأ عليهم فيه من تغيير وصلاح فردي وجماعي وعطاء وبذل يدرك أهمية هذه الشعيرة في حياة الأمة.

تحويل القبلة

كانت قبلة المسلمين قبل الهجرة وبعدها مباشرة تجاه بيت المقدس. وفي شعبان من السنة الثانية من الهجرة صرف الله قبلة المسلمين من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام،^(١) في قوله - تعالى -: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة].

وقد حاول يهود ومن على شاكلتهم فتنة المسلمين عند تحويل القبلة، فسامهم الله ﷻ السفهاء: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبْلَتِكُمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة].

وقد أشار ﷺ إلى امتحان يمر به المسلمون، وهو اتباع الرسول ﷺ من عدمه في قوله - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة].

وقد نجح المسلمون بفضل الله، فقد ورد أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام بمكة هي صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى مع الرسول ﷺ تجاه مسجد للأنصار، فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة،

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، عنوان: "صرف القبلة إلى الكعبة"، ج ٢/٦٠٦؛ وابن كثير، عنوان "تحويل القبلة"، ج ٢/٣٧٢.

فداروا كما هم قِبَلَ الْبَيْتِ))،^(١) وعرف مسجدهم، وما يزال إلى اليوم الحاضر، بمسجد القبلتين، وهو أحد أشهر مساجد المدينة اليوم.^(٢)

وقد حاول يهود إثارة الفتنة بتساؤلهم عمن مات قبل تحويل القبلة وصلاته كلها إلى المسجد الأقصى، فجاء الرد في القرآن كما ذكرنا سابقاً:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة].

ولم تكتف الآيات بذلك، بل أشارت إلى علم اليهود بهذا الأمر، وأنها قبلة للمسلمين بأمر الله ومع علمهم بذلك، فقد عاندوا وكذبوا: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة].

كما أكدت الآيات خلاف يهود المستمر للمسلمين في القبلة وفي غيرها، مهما كانت الأدلة: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة]. ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنِّعْ عَلَيَّكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة]. وأكدت الآيات على التوجه بالقبلة للبيت الحرام في كل مكان.

(١) انظر: البخاري، صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو الكعبة حيث كان، ح برقم: ٣٩٩، ٣٩٩؛ تفسير ابن كثير، ج ١/٢١٦.

(٢) انظر: عبدالعزيز كعكي، المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة، ج ١/١٧٠.

وأمر القبلة ليس هيئاً عند المسلمين، فغير العصور والأماكن يجتهدون في متابعتها ومعرفة وجهتها قبل أي صلاة، والمسافر في البلدان المختلفة يجد محاريب الصلاة في المساجد موجهة إلى القبلة التي أمر الله بها، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، لِقَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنَّوْا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

ولذلك ففي العصر الحاضر نجد الإشارة لها في غرف بعض الفنادق وبعض المطارات وغيرها، في العالم الإسلامي وخارجه، وصارت القبلة شعاراً للمسلمين ومطلباً لهم في كل مكان والمسافر إلى غير البلاد الإسلامية تجده يحمل بوصلة خاصة لتحديد القبلة، أو يسأل عن الاتجاهات، حتى صارت بعض الفنادق في البلاد غير الإسلامية تحدد القبلة للمسلمين في الغرف بعلامات خاصة، واشتهر المسلمون في العالم بهذا الأمر حتى صارت الكعبة شعاراً لهم وتميزوا بوحدة القبلة من أي مكان في العالم، فكانت متابعة المواقيت للصلاة والوجهة (القبلة) مميزة للمسلمين عن غيرهم فعند المسلم الوقت والجهة مرتبطان بالصلاة لهما مكان في القلب.

بداية السرايا والغزوات

لم تتوقف قريش عن أذى المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة، فكانت تحبس بعضهم في مكة، وتهدد الأنصار وتمنعهم من الوصول إلى مكة، وتؤذي من يقع في أيديهم، ووصلت تهديداتهم للمهاجرين في المدينة، حيث تم اختطاف بعض مهاجري مكة من المدينة،^(١) وكانوا يعلنون وباستمرار تهديدهم للرسول ﷺ، وكل من يتبعه.

وفي هذه الظروف نزل الإذن بالقتال، وتطلب الأمر الإعداد بما في ذلك من تجهيز للنفوس والسلاح والدواب والتدريب والمعلومة. ثم بدأت الانطلاقة لما يعرف بالسرايا والغزوات النبوية.^(٢)

ويطلق اسم الغزوة على الجيش الذي يقوده الرسول ﷺ بنفسه، والسرية على الجيش النبوي الذي يسيره النبي ﷺ ويقوده أحد الصحابة ﷺ.^(٣)

وكان العداء واضحاً من قريش للمسلمين، وبالتالي فإن المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي، كما أضرت قريش بالمسلمين ومصالحهم فقد سعى المسلمون بعد الإذن بقتالهم إلى ضرب مصالح قريش، حيث كانت تجارتها تمر بالقرب من المدينة، فاختار المسلمون تهديد طرق تجارتهم والتضييق عليهم، وإشعار قريش بقدرتهم على التصدي والمناورة والإضرار بأعدائهم.

(١) انظر: قصة اختطاف عياش بن أبي ربيعة، في موضوع الهجرة من هذا الكتاب.

(٢) وضع البخاري في صحيحه باباً سماه "باب كم غزا النبي ﷺ"، وذلك في آخر كتاب المغازي، ج ١٤٥/٥.

(٣) انظر: بريك أبو مائلة العمري، السرايا والبعوث النبوية، ص ٥٤؛ الزرقاني، المواهب اللدنية، ج ١/٣٨٧.

وكانت السرايا إعداداً عسكرياً ومناورات تدريبية لجند الرسول ﷺ إضافة إلى أهدافها المحددة في حينها.

كما كانت في الوقت نفسه إشغالاً عملياً للشباب والرجال وطاقتهم، وخصوصاً المهاجرين الذين وصلوا المدينة وليس لبعضهم عمل محدد يشغلهم، إضافة إلى تدريب القادة منهم والعامّة على الأعمال العسكرية، والصبر والسفر والتحمل والقتال والاستعداد له.

السرايا الأولى^(١)

تعد السرايا والغزوات السابقة لغزوة بدر الكبرى سرايا أولية أعقبت الإذن بالقتال، ولم يتضح فيها تفوق المسلمين وكانت مناورات تدريبية وتحركات محدودة سبقت غزوة بدر، ومن أهمها:

سرية حمزة بن عبد المطلب ﷺ (إلى سيف البحر):

حدثت في شهر شوال من السنة الأولى من الهجرة النبوية بعد سبعة أشهر من هجرة النبي ﷺ، عقد رسول الله ﷺ أول لواء لجيش إسلامي بقيادة حمزة بن عبد المطلب ﷺ وكان قوامه المهاجرين ﷺ،^(٢) وقد شيع رسول الله ﷺ الجيش بنفسه، وكان هدف الجيش اعتراض عير لقريش قادمة من الشام إلى مكة، فيها ثلاثمائة رجل من قريش، منهم أبو جهل (عمرو بن هشام)، وقيل كانوا أقل من ذلك، وقد توجه حمزة بجيشه إلى ناحية العيص مناطق جهينة، ولم تقع أي معركة بين الطرفين، حيث حرص (مجدي بن عمرو الجهني) أحد زعماء جهينة على الحجز بين الفريقين، وكان حريصاً على حلفه مع قريش وعلى موادة النبي ﷺ، وانصرف حمزة بن عبد المطلب ﷺ ولم يقاتل، ولعل في عدم وجود قتال بين الطرفين مصلحة للمسلمين، حيث ذكر أن مجدي بن عمرو الجهني قدم على النبي ﷺ في المدينة فأجازمه.^(٣)

(١) انظر: بريك أبو مائلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة.. دراسة نقدية تحليلية - الدمام: دار ابن الجوزي ١٤١٧هـ؛ عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص ١٤٣.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٥٩٥.

(٣) انظر: الطبري، السيرة النبوية، ص ١٠٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/١٧٢؛ وانظر: أحمد بن محمد الأمين الشنقيطي، البعوث والغزوات النبوية، ص ٢٨.

وهذا دليل على حسن تعامل المسلمين وتقديرهم لزعماء المنطقة، وتقدير موقفه في الحجز بين الطرفين ومنع القتال، ولعل الموقف أثبت له الفرق بين سلوك المسلمين وغيرهم.

سرية عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب ﷺ:

ابن عم رسول الله ﷺ أحد شهداء بدر بعد ذلك.^(١) كانت في شهر شوال من السنة الأولى من الهجرة النبوية.

أرسله ﷺ على رأس جيش قوامه ثمانون رجلاً كلهم من المهاجرين ﷺ،^(٢) وعقد له ﷺ لواءً أبيض، وكانت وجهته نواحي رابغ،^(٣) لقطع الطريق على عير لقريش كان يقودها أبو سفيان بن حرب، ومعه عكرمة ابن أبي جهل، على ما يقارب المائتين من رجال قريش، وتناوش الطرفان وتراموا بالنبال، ولم يقع قتال مباشر بين الطرفين، وقد كان سعد بن أبي وقاص يرمي أسهمه ببراعة مما جعله يصيب عدداً من المشركين بجراح، فكان أول من رمى سهماً وأراق دمًا في سبيل الله.^(٤)

وكان في قافلة المشركين عتيبة بن غزوان المازني، والمقداد بن عمرو، وكانا مسلمين، ففرا من قريش والتحقا بأصحاب رسول الله ﷺ.^(٥)

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٧٠٦.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٥٩١.

(٣) ذكر ابن هشام أن وجهتهم ثنية المرة ماء بالحجاز، ج٢/٥٩١؛ وانظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/٨٥؛ وعنوان لها د. بريك أبو مائلة، سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ، انظر: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٨٩.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٥٩١.

(٥) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٧.

سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

في شهر ذي القعدة من السنة الأولى من الهجرة عقد رسول الله ﷺ لواء لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في عشرين رجلاً حمل لواءه المقداد بن عمرو حليف بني زهرة.^(١) وقد حدد لهم ﷺ هدفاً قافلة لقريش، وأمرهم أن لا يتجاوزوا الخرار وهو وادٍ يصب في الجحفة،^(٢) فلما وصلوها وجدوا أن قافلة قريش سبقتهم، فلم يجاوزوا ما أمرهم رسول الله ﷺ، وكان سعد بن أبي وقاص ومن معه يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار إمعاناً في السرية والتخفي.^(٣)

سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه (إلى نخلة):^(٤)

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش رضي الله عنه في سرية إلى نخلة ومعه ثمانون من المهاجرين.^(٥)

وحدد له وجهة، وأعطاه كتاباً، وأمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين في الوجة التي حددها له. وبعد مسيرة يومين نظر عبد الله بن جحش رضي الله عنه في كتاب النبي ﷺ فإذا فيه: ((إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم من أخبارها)).^(٦)

فلما قرأ الكتاب قال: سمعاً وطاعة يا رسول الله، ثم أخبر أصحابه بما

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧/٢.

(٢) الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج١٥/٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٦٠٠/٢؛ الواقدي، المغازي، ج١١/١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧/٢؛ بريك أبو مائلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول مكة والمدينة، ص١٩٥.

(٤) نخلة: اليمانية موضع على بعد ليلة من مكة. انظر: بريك أبو مائلة، السرايا والبعوث النبوية، وقد وضع صورة للوادي، حيث وقعت أحداث السرية، ص ٩٥.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٦٠١/٢.

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٦٠١/٢.

أمر به رسول الله ﷺ في كتابه، وذكر لهم أن رسول الله ﷺ نهاه أن يستكره أحداً من أصحابه في المسير معه وقال لهم: ((من كان منكم يريد الشهادة ويرغب بها فينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد)).^(١)

وواصل عبدالله بن جحش ﷺ ومن معه من المهاجرين الطريق إلى نخلة، عدا عتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص اللذين أضلا بغيراً لهما، فانفصلا عن الجيش، بحثاً عن البعير.^(٢)

ووصل عبدالله بن جحش ﷺ نخلة المكان المستهدف بأمر الرسول ﷺ، فمرت بهم عيرٌ لقريش تحمل أدمًا وزبيباً، وتجارة لقريش من الطائف، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل وابنا عبدالله بن المغيرة، والحكم بن كيسان من موالي المغيرة، وكانوا في آخر يوم من رجب، وهو أحد الأشهر الحرم عند العرب. وتشاورت السرية في قتالهم من عدمه خشية القتال في الأشهر الحرم، وفي الوقت نفسه خشوا أن تدخل العير في حدود الحرم وهم بالقرب من مكة، أو أن تقابلهم قريش بهجوم معاكس، فاستقر أمرهم على مقاتلة قافلة قريش، وأجمعوا القتال، فتمكنوا من قتل عبدالله بن الحضرمي،^(٣) وأسْرَ رجلين، وفَرَّ الرابعُ، فاستاقوا العير والأسيرين إلى المدينة المنورة، فلما وصلوا المدينة تكلم الناس عن قتالهم في الشهر الحرام فقال ﷺ: ((ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام)) فأسقط في يد عبدالله بن جحش ومن معه من السرية وظنوا أنهم هلكوا، واشتد تعنيف إخوانهم من الصحابة ﷺ لهم، وأخذ المنافقون والمشركون يروجون لذلك، وشنوا حملة

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن هشام، ج ٦٠٢/٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢٧٤/٣.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٦٠٣/٢؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج ١١٩/٢.

على المسلمين، وأنهم استحلوا الأشهر الحرم. وفي هذا الظروف الصعبة على أصحاب السرية نزل على الرسول ﷺ قوله - تعالى -: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يُرَدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ [البقرة].

وقد سُرَّ رسول الله ﷺ وسر الصحابة بهذه الآيات وانكشف عن عبد الله ابن جحش وأصحابه ما كانوا يشعرون به من غم،^(١) فقبض الرسول ﷺ الغنيمة وصرفها في مصرفها، وأمسك بالأسيرين حتى عاد سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان إلى المدينة فقبل فداء الأسيرين من قريش.^(٢)

وكانت الغنيمة وفداء الأسيرين من أول ما كسبه المسلمون من غنائم قريش، كانت هذه السرية من أخطر السرايا على قريش، حيث قطعت وهددت الطريق بينهم وبين الطائف وهي أقرب المدن إلى مكة، وبالتالي شعروا بقوة المسلمين وخطرهم على تجارتهم في محيط مكة ناهيك عن طريق الشام.

من الملاحظ أن تلك السرايا الأولى كان عماد جندها المهاجرين ومعظمهم من قريش وقادتها رجال من قريش من أقرب الناس إلى النبي ﷺ، وتوجهت للإضرار بقوافل قريش التجارية والتضييق على تجارها ورجالها، وهم الذين آذوا المهاجرين وأخرجوهم من ديارهم بغير حق وسطوا على أموالهم ودورهم،

(١) ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢٧١.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٢/٢٨٦.

فبادر المهاجرون بالمشاركة، وكانوا عماد تلك السرايا.^(١)

إن الذين شاركوا من المسلمين فيها كان باختيارهم، ولم يجبر أحد منهم على المشاركة، بالإضافة إلى أن الأنصار لم يشتركوا فيها في هذه المرحلة، ولعل الرسول ﷺ أراد إشغال المهاجرين الذين تزايدت أعدادهم، وفي الوقت نفسه تدريبهم وتعريفهم بالطرق والمناطق المحيطة بالمدينة المنورة، والتي ربما كانت جديدة على بعضهم.

كما أن الأنصار مشغولون بمزارعهم وأهليهم، وفي الوقت نفسه يتولون الدفاع عن المدينة وعن رسول الله ﷺ فيها، تنفيذاً لعهدهم معهم في بيعة العقبة الثانية.

ولا شك أن هذه السرايا قد أكسبت المشاركين فيها قوة وتدريباً وتحملاً، ومعرفة بالطرق والقبائل واستعداداً نفسياً وعسكرياً لمشاركة الرسول ﷺ في غزواته.

وقد حققت نجاحاً في استهداف قوافل قريش، وإشعارها بالخطر الذي تواجهه وبقدرة المسلمين على التعرض لهم كما تتعرض قريش للمسلمين والمقيمين بمكة والذين يمرون بها، وتحاول فتنهم عن دينهم، كما أشارت الآيات القرآنية قال - تعالى -: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَمَا كَانَ مِنكُمْ عَلَيْهِ عَاقِبَةٌ أُولَئِكَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

(١) انظر: عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، ص ١٤٣؛ بريك أبو مائلة، السرايا والبعوث النبوية حول مكة والمدينة، ص ٦١.

[البقرة].

وقد حصلت بعضها قرب مكة فيما بينها وبين الطائف وبعضها إلى الساحل غرب وشمال مكة، وفي كل ذلك تهديد مباشر لمكة وأخذ للطرق التجارية التي تسلكها، وأحاطة بمكة من كل مكان، وخصوصاً شمالاً وشرقاً وغرباً.

الغزوات الأولى

قبل غزوة بدر التي تعد فرقاناً وفاصلاً بين كثير من الأحداث في السيرة النبوية، بل في التاريخ العالمي كله قام الرسول ﷺ بغزوات متعددة قادها بنفسه، بالإضافة إلى سرايا التي بعث على رأسها من قادها الصحابة رضي الله عنهم، وكانت أهدافها في هذه المرحلة متقاربة، حيث تركز على قطع تجارة قريش إلى الخارج والتعرض لقوافلها التجارية ورجالها، وإشعار قريش بقوة المسلمين وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم، بل استعادة ما أخذ من أموالهم في مكة.

غزوة الأبواء؛^(١)

وتسمى (بواط)^(٢) في شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة بعد قرابة اثني عشر شهراً من هجرة الرسول ﷺ. وقد حمل لواءه ﷺ حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه.^(٣)

وقد عين ﷺ سعد بن عبادة أميراً على المدينة أثناء غيابه.

وخرج بالمهاجرين، وكانت وجهته ﷺ اعتراض عير لقريش، وهي تمر ناحية جبل رضوى^(٤) من ديار جهينة.

(١) الأبواء: قرية من أعمال الفرع بالمدينة، تبعد عنها ثلاثة وعشرون ميلاً؛ انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ص ٥٩١، هامش رقم: ٢.
(٢) جبل لجهينة ناحية جبل رضوى المشهور قرب ينبع (البكري، معجم ما استعجم، ج ١/٢٨٢)؛

ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١/٥٠٣.

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/٣٥٦.

(٤) رضوى: جبل في تهامة الحجاز نواحي ينبع على ليلة منها وليليتين من البحر وسبع ليال من المدينة، (البكري، معجم ما استعجم، ج ١/٦٥٥).

وكان قائدُ عير قريش أمية بن خلف، وهو من أكثر قريش عداء لرسول ﷺ.

ولم يلق الرسول ﷺ كيداً ولا قتالاً، وأثناء الغزو لقي ﷺ بني ضمرة من بني عبد مناة وعقد معهم عهداً جاء فيه: ((بسم الله هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصره على من رامهم، إلا أن يحاربوا في دين الله عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ولهم النصر على من بر منهم واتقى)).^(١)

وهناك من يرى أن الأبواء وبواط غزوتان منفصلتان في زمن متقارب.^(٢) وقد رجع الرسول ﷺ سالماً بعدها لم يلق كيداً.

غزوة العشيرة:^(٣)

وهو موضع في ناحية ينبع غرب المدينة، موطن لبني مدلج، وخرج إليها رسول الله ﷺ في متين من أصحابه، وحمل رايته عمه حمزة بن عبدالمطلب ﷺ، وكان خروجه في جمادى الأولى من السنة الثانية من الهجرة،^(٤) ولم يُكره أحدًا للخروج معه.

وكان هدف الغزوة عير ضخمة لقريش، جمعت فيها الكثير من أموالها وكانت متوجهة إلى الشام، وقد أورد ابن هشام تفاصيل دقيقة عن طريق الغزوة، وما مر به رسول الله ﷺ من مياه،^(٥) وقد فاتته القافلة، ووصل

(١) محمد حميد الله؛ الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٢٦٢ وثيقة رقم: ١٥٩

وانظر: أحمد الشنقيطي، البعوث والغزوات، ص ٣١.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٥٩١، ٥٩٨.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٥٩٨.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/١٧٤.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٥٩٨.

مناطق بني مدلج وهم حلفاء بني ضمرة فوادعهم ﷺ وقد ورد ذكر الغزوة في صحيح البخاري^(١) ولعل هذه الغزوة متداخلة مع غزوة بواط أو الأبواء مقرونة أحدهما بالأخرى.^(٢)

غزوة سفوان: (بدر الأولى)^(٣)

عند قدوم الرسول ﷺ من غزوة العشيرة بأيام أغار كرز بن جابر الفهري على المواشي التي تخرج من المدينة للرعي خارجها، وتسمى (سرحاً)،^(٤) ونهبها، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً في أثره ومعه جماعة من المسلمين، وحمل لواءه علي بن أبي طالب ﷺ، ولحق ﷺ بكرز بن جابر الفهري لكنه فاته، ووصل ﷺ إلى سفوان ناحية بدر ثم رجع إلى المدينة، وقد أسلم كرز بعد ذلك وحسن إسلامه وجاهد مع الرسول ﷺ، واستشهد في فتح مكة.^(٥)

وقد ذكرت بعض التفصيلات المرتبطة بها، ومنها ما ورد، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال: لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة جاءت جهينة، فقالت: إنك قد نزلت بين أظهرنا، فأوثق لنا حتى نأمنك وتأمنا، فأوثق لهم ولو يسلموا، فبعثنا رسول الله ﷺ في رجب ولا نكون مائة، وأمرنا أن نُغَيِّرَ على حي من كنانة إلى جنب جهينة، قال: فأغرنا عليهم وكانوا كثيراً، فلجأنا إلى جهينة فمنعونا وقالوا: لِمَ تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقلنا: إنما نقاتل من أخرجنا من البلد الحرام في الشهر الحرام، فقال: بعضنا لبعض: ما ترون؟

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٥٩١.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٣٦٢.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٦٠١؛ ابن سعد، ج٢/٩. وسفوان وادي معروف نواحي بدر.

(٤) السرح: الماشية التي تخرج للمرعى. (الزيدي، تاج العروس، ج٢/١٦٣).

(٥) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٣/٢٩٠.

فقالوا: نأتي رسول الله ﷺ فنخبره، وقال قوم: لا، بل نقيم هاهنا، وقلت أنا في أناس معي: لا بل نأتي عير قريش هذه فنصيبيها، فانطلقنا إلى العير وكان الفيء إذ ذاك (من أخذ شيئاً فهو له) فانطلقنا نلي العير، وانطلق أصحابنا إلى النبي ﷺ فأخبروه الخبر، فقام غضباً محمراً لونه ووجه، فقال: "ذهبتم من عندي جميعاً وجئتم متفرقين، إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة، لأبعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم، أصبركم على الجوع والعطش"، فبعث علينا عبدالله بن جحش الأسدي، فكان أول أمير في الإسلام.^(١)

* * * * *

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٧٢ - ١٧٣؛ وقد ألحق خبر سعد بن أبي وقاص، بعنوان غزوة بدر الأولى.

غزوة بدر (١٧ رمضان سنة ٢هـ)^(١)

تعد هذه المعركة أشهر المعارك في التاريخ الإسلامي على الإطلاق، حيث سماها الله ﷺ يوم الفرقان، في قوله - تعالى -: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال].

وورد أنها المذكورة في قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ نَبِّئُشُ الْكُفْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان].

ومن أسبابها أن رسول الله ﷺ كان يتتبع أخبار قريش ويتربص بهم، وقد آذوه وأخرجوه وأصحابه من ديارهم، وسطوا على أموالهم وسجنوا بعضهم وعذبوهم، فعلم ﷺ أن عيراً لقريش قد قدمت من الشام في طريقها إلى مكة، وهي بالقرب من المدينة، فندب الرسول ﷺ من كان حاضراً من الصحابة للخروج معه،^(٢) "وخرج معهم على عجل دون استعداد مسبق، وكان يصحبه ﷺ (بضعة عشر وثلاثمائة)^(٣) رجلاً أكثرهم راجلة، ليس معهم سوى فرسين وسبعين بعيراً،^(٤) كانوا يظنون أنهم سيلقون العير (القافلة) وأنهم لن يلقوا قتالاً، ولذلك فإنهم لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكامل للمعركة.

(١) لمزيد من التوسع حول أحداث هذه الغزوة ومروياتها وتخريج تلك الروايات انظر: أحمد

محمد العليمي باوزير: مرويَات غزوة بدر، الطبعة الأولى - الرياض: مكتبة طيبة ١٤٠٠هـ؛

ابن أبي شيبة، المغازي، غزوة بدر الكبرى متى كانت، ص ١٧٤.

(٢) انظر: حديث البخاري، (فتح الباري)، ج ١٥/١٤٧؛ وانظر: شرح ابن حجر للحديث: ابن

هشام السيرة النبوية ج ٢/٦٠٦.

(٣) من حديث البخاري (فتح الباري)، ج ١٥/١٥٦.

(٤) الواقدي، المغازي، ج ١/٢٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢/١٢.

كان قائد قافلة قريش هو أبو سفيان بن حرب، حذراً خائفاً على أموال القافلة التي معه، ولذلك كان يتحسس الأخبار على وجل من المسلمين، فعلم أن الرسول ﷺ قد خرج في طلبه والعيير التي معه، فغير الطريق التي كان يسلكها وسار بالعيير بالقرب من الساحل في طريق لم يكن المسلمون يتوقعونها، وفي الوقت نفسه أرسل إلى قريش في مكة يستنفرها لتتخذ قافلتها من المسلمين، وخرجت قوات قريش مسرعة لتتخذ العير - بزعمها - يترأسها [أبو جهل عمرو بن هشام]، وخرج معه كبار رجالات قريش وشجعانها ورؤوس الكفر من أهلها،^(١) ونجح أبو سفيان في إنقاذ العير من المسلمين، واقترب من مكة وأمن على قافلته، وأرسل مندوباً إلى أهل مكة، يبلغهم بنجاة العير، ويطلب منهم العودة إلى مكة.

ولكن أبا جهل زعيم كفار قريش أصر على التحدي والكبر والخيلاء، وأعلن أنه لن يرجع حتى يرد ماء بدر، وينحر الإبل ويطعم الطعام ويشرب الخمر، وتعزف القيان، وتسمع العرب بمسيرهم، فتكون هيبة لهم طول الدهر، وهذا ما أشار إليه قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(٤٧) [الأنفال]، وبالفعل واصلوا مسيرتهم إلى بدر هدفهم المنشود.^(٢)

وكان أبو جهل يعلم صدق رسول الله ﷺ فقد قال له أصحابه وهو يسير إلى رسول الله ﷺ يوم بدر: "أرأيت مسيرك إلى محمد أتعلم أنه نبي. قال: نعم. ولكن متى كنا تبعاً لعبد مناف".^(٣)

(١) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج ١٥/١٤٧؛ ابن هشام السيرة النبوية، ج ٢/٦٠٩؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٢/١٣.

(٢) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج ٢/٦١٨؛ ابن سعد الطبقات الكبرى ج ٢/١٣؛ الواقدي: المغازي، ج ١/٤٢؛ مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٣٤٠.

(٣) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٩.

علم ﷺ بتحريك قريش فجمع الصحابة يستشيرهم، وكان ﷺ وهو المعصوم المسدد يستشير أصحابه دائماً لأمر مهم، منها أمران رئيسان: الأول توحيد صفوف المسلمين وتطبيب خواطرهم، وهو أمر مهم جداً، خصوصاً مع الأنصار في هذه المرحلة، وهم أهل الدار، والثاني الوصول إلى القرار الأصوب والأحكم.

وطرح ﷺ الأمر على جموع صحابته المرافقين له قائلاً لهم: ((أشيروا عليّ أيها الناس))، وتكلم جمع من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر ﷺ، وكان من المتكلمين المقداد بن عمرو الذي قال: ((يا رسول الله والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه)).^(١) فدعا له الرسول ثم قال مرة أخرى: ((أشيروا عليّ أيها الناس))، وكان ﷺ يريد رأي الأنصار فهم أهل الدار، وهم الأكثرية ويريد ﷺ أن يكسب قلوبهم ولا يتصرف إلا بقناعة منهم تحافظ على الصف المسلم، وهذا أول لقاء بين الرسول ﷺ وجنده من المهاجرين والأنصار، وبين قريش ورؤوس الكفر فيها، يلوح فيها القتال والموت، فبادر سعد بن معاذ ﷺ يقول: ((لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فأجاب ﷺ: أجل، فرد سعد بالثناء على رسول الله ﷺ، وذكر لهم أنهم على عهده وقال: يا رسول الله امض لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً وإنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على

(١) انظر: حول هذه المشاورة: ابن هشام السيرة النبوية ج٢/٢١٥؛ وقارن بحديث البخاري (فتح

بركة الله)).^(١)

فسرَّ رسول ﷺ بقول سعد ودعا له وللمهاجرين والأنصار، واطمأن إلى موقف جنده من اللقاء.

فسار ومعه الصحابة، وهو يقول لهم: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وذلك مصداق لقوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقَطَّ دَائِرَ الْكُفْرَيْنِ ۗ﴾ [الأنفال]، وسار الرسول ﷺ ومن معه باتجاه بدر، وهم موقنون أنهم سينالون عير قريش أو جيشها.

ونزل المسلمون قرب بدر وهم يتحسسون الأخبار عن الأعداء، وعلم ﷺ أن القوم ما بين التسعمائة إلى الألف، وعرف من في الجيش من صناديد قريش فقال ﷺ: ((هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ أكبادها))، وتيقن الرسول ﷺ ومن معه أن المواجهة ستكون مع ذات الشوكة شجعان مكة وفرسانها، وأن العير قد فاتتهم.

وجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ وكان نزول المسلمين أدنى ماء بدر، فقال متأدياً مع الرسول ﷺ يعرض عليه رأياً صائباً: ((يا رسول الله أرايت هذا المنزل أنزلك الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغور ما وراءه من القلوب ونبني عليه حوضاً ونملؤه ماء فنشرب ولا يشربون، فدعا له الرسول ﷺ وقال: لقد أشرت بالرأي)).^(٢) وكان هذا الموقف من الرسول القائد ﷺ

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج٢/٦١٥؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٧٧؛ وانظر: تخريج هذه الحادثة بالتفصيل عند د. أكرم العمري: السيرة الصحيحة ج٢/٣٥٩؛ د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٣٤١.

(٢) من رواية ابن إسحاق، (ابن هشام): السيرة النبوية ج٢/٦٢٠؛ انظر: تخريج هذه الحادثة عند د. رزق الله: السيرة النبوية، وقد حكم عليها بأنها رواية حسنة لغيرها، ص ٣٤٥.

درساً عظيماً في استماع القائد إلى رأي جنده، للوصول إلى الموقف الأسلم، واتخاذ الأسباب الدنيوية والمادية مع التوكل على الله، وهو الأساس في كل تحركاته ﷺ.

وكان الرسول ﷺ يُخبر بمصرع عدد من زعماء مشركي قريش، ويُري الصحابة الأماكن التي سيصرعون بها،^(١) مما زاد من يقينهم بنصر الله لهم. وبنى الصحابة ﷺ عريشاً لرسول الله ﷺ، يخلو فيه بعض الوقت للدعاء والصلاة،^(٢) مع بقاءه في مقدمة الصفوف في القتال فقد كان أشجع الشجعان ﷺ.

وصلت قريش قبل المعركة، فلما أقبلت قال ﷺ: ((اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة)).^(٣)

حاول بعض حُكماء قريش أن يثنوا قومهم عن الحرب ويقنعوهم بالرجوع إلى مكة، لكن أبا جهل وأمثاله من رؤوس الكفر، أفسدوا عليهم وأقتنوا قريشاً بالعناد والمجابهة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.^(٤)

بات المسلمون ليلة بدر يدعون الله ويتضرعون إليه بالنصر والفوز على الأعداء، وأنزل الله سكينته عليهم فكانوا هادئين وأصابهم النعاس، وفي

(١) انظر: الواقدي، المغازي، ج ١/٤٩؛ ابن هشام السيرة النبوية، ج ٢/٦١٥؛ وانظر إلى تخريج ذلك عند: د. أكرم العُمري: السيرة الصحيحة، ج ٢/٣٥٩؛ رزق الله: السيرة النبوية، ص ٣٤٤؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٠٦.

(٢) من حديث للبخاري، (فتح الباري)، ج ١٨/٢٥٤؛ الواقدي، المغازي، ج ١/٤٩؛ انظر تخريج ذلك عند: د. أكرم العُمري، السيرة النبوية، ص ٣٤٦.

(٣) الواقدي، المغازي، ج ١/٥٩؛ انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨.

(٤) ابن هشام، السيرة، ج ٢/٦٢٢؛ الواقدي، المغازي، ج ١/٦٣.

ذلك يقول الله - تعالى - : ﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ الْغَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝۱۱ ﴾ [الأنفال].

وكان الرسول ﷺ تلك الليلة يصلي ويبكي متضرعاً إلى الله بالدعاء أن ينصر المؤمنين. وكان مما قال في دعائه ﷺ في العريش في تلك الليلة أو من صبيحتها: ((اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً)) فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج وهو في الدرع يقول: ﴿ سِيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ ۝۴۵ ﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ۝۴۶ ﴾ [القمر].^(١)

أما مشركو قريش فقد باتوا يأكلون ويشربون الخمر وتعزف لهم القيان، ويفاخرون بقوتهم وما أوتوا من الماديات، ويصرون على كفرهم وشركهم ومعادنتهم لله ورسوله، وكان أبو جهل يدعو على نفسه فيقول: اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا يعرف فاحنه الغداة، فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ نُّعْنِيَ عَنْكُمْ فَمَتَّكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۝۱۹ ﴾ [الأنفال].^(٢)

وفي صبيحة يوم المعركة صلى المسلمون خلف رسول الله ﷺ، وبعد الصلاة خطبهم وحضهم على القتال والصبر.^(٣)

ثم أشرف الرسول ﷺ بنفسه على تنظيم صفوف المسلمين وتوجيههم، وكان مما قال لهم ﷺ: ((إذا كتبوكم - يعني أكثروكم - فارموهم

(١) رواه البخاري، (فتح الباري)، ج ١٨/٢٥٤.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٤.

(٣) من رواية لعلي بن أبي طالب، عند ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٧.

واستبقوا نبلكم))،^(١) وكان ﷺ يعجبه الرمي ويحث عليه. وبينما رسول الله ﷺ يسوي الصفوف إذ ب (سواد بن غزوة) ﷺ^(٢) قد ند من الصف فيسويه الرسول ﷺ بسهم كان في يده ويقول له استويا سواد، فيقول أوجعتني يا رسول الله فدعني أقتد منك، فيكشف له ﷺ عن بطنه الشريف ليقتاد نفسه، فيقبل بطن رسول الله ﷺ.. فيقول له الرسول ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟ فيقول: يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له ﷺ^(٣).

وانتظر القوم أمر الرسول ﷺ ببدء القتال، ورجع الرسول ﷺ إلى العريش وأخذ يدعو ربه: ((اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم أنجر لي ما وعدتني))،^(٤) ولم يزل يدعو وبجواره أبو بكر ﷺ حتى أشفق عليه فقال له: يا نبي الله بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك ثم أغفى إغفاءة ثم قال: أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده،^(٥) فاستبشر المسلمون بعد أن خرج إليهم ﷺ، وهو يقرأ قوله - تعالى -: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ ۗ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر].^(٦) وأخذ ﷺ يدعو ويشجع الناس على القتال ويذكرهم بالجنة ويبشرهم بنزول الملائكة معهم. وهم الذين ورد ذكرهم في قوله -

(١) من حديث البخاري (فتح الباري)، ج ١٥/١٧٣.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٢/٩٥: ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٢/٣٧٤.

(٣) الواقدي، المغازي، ج ١/٥٦ - ٥٧: ابن حجر، الإصابة، ج ٢/٩٥.

(٤) انظر: ابن حجر (فتح الباري)، ج ١٨/٢٥٤.

(٥) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٠.

(٦) انظر: حديث البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة القمر، باب قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر، ج ٥/٥٤: ابن حجر، فتح الباري، ج ١٦/٢٤: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٠.

تعالى -: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّكَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال].

وفي الوقت نفسه أعدت قريش صفوفها واستعدت للقتال، ونظر إليهم رسول الله ﷺ عسى أن يكون فيهم أحد ذو عقل، وكان فيهم رجل على جمل أحمر يناقش قومه فقال ﷺ: ((إن يكن في القوم أحد فعسى أن يكون صاحب الجمل الأحمر))، فقال حمزة ﷺ: هو عتبة بن ربيعة، كان نهاهم عن القتال ففشل في ذلك.^(١)

وقد حاول أحد القرشيين الشرب من الماء مخترقاً صفوف المسلمين، فتصدى له حمزة بن عبدالمطلب ﷺ فقتله.^(٢)

ثم بدأت أول مبارزة في المعركة بين عتبة بن ربيعة وابن أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة من المشركين، وبين حمزة بن عبدالمطلب، وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث من المسلمين ﷺ. وكلهم من آل النبي ﷺ، وانتهت تلك المبارزة بمقتل المشركين الثلاثة وجرح عبيدة بن الحارث ﷺ ثم استشهاده.^(٣) لقد كان آل البيت أول المقاتلين ومنهم أول الشهداء.

ثم التحم الجمعان وبدأت المعركة وأخذ الرسول ﷺ حفنة من الحصى ورماها على القوم وقال ((شاهت الوجوه)).^(٤) وفي هذا أنزل قوله - تعالى -:

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٧.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٦٢٤؛ الواقدي، المغازي، ج ١/٦٨.

(٣) انظر: حديث البخاري عن علي بن أبي طالب، (فتح الباري)، ج ١٥/١٦١.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٧٠٦.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال، ١٧]، واشتد القتال بين الطرفين، وكان الرسول ﷺ في مقدمة الصفوف حتى أن الصحابة كانوا يحتمون به ﷺ، وكان لكثير من الصحابة مواقف بطولية في هذه المعركة.

ولاحث بشائر النصر للمسلمين، وانهزم المشركون وقتل صناديد قريش أمثال "أبي جهل"^(١) و"عتبة بن ربيعة" و"أمية بن خلف" وغيرهم من كفار قريش الذين بلغ عددهم سبعين رجلاً، وولى الأحياء منهم الأدبار منهزمين لا يلوون على شيء.^(٢)

((وأقام المسلمون مع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في بدر بعد المعركة، دفنوا فيها شهداءهم، الذين بلغوا أربعة عشر شهيداً،^(٣) وأما قتلى المشركين فقد ألقوا في قليب بدر، ووقف عليهم رسول الله ﷺ حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم "يا فلان بن فلان يا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟" فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من

(١) انظر إلى مقتل أبي جهل من حديث عبد الله بن مسعود عند البخاري (فتح الباري)، باب

قتل أبي جهل، ج ١٥٨/١٥: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٨، ١٩٩.

(٢) انظر: حديث أنس بن مالك عند البخاري (فتح الباري)، ج ١٦٧/١٥: ابن هشام، السيرة

النبوية، ج ٢/٦٤٢، ٦٣١، ٦٣٨، ٦٣٤؛ (وانظر العنوان الذي وضعه لذلك، ص ٧٠٨):

الواقدي، المغازي، ج ١/٨٢، ٨٥، ٨٨، ٩٢، ١٠٠.

(٣) انظر أسماء شهداء المسلمين في بدر عند: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٧٠٦، ٧٠٧؛

وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٠٤، ٢٠٦؛

وانظر: الصبحي، محمد بن عبد الله غبان، شهداء غزوة بدر الكبرى، الإصدار الخامس

عشر - الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، سلسلة بحوث تاريخية، ربيع الأول ١٤٢٤ هـ.

أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم"، قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً وحرناً وندماً^(١).

وقد بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة على ناقه رسول الله ﷺ مبشراً لأهل المدينة، فوصلها وهم يدفنون رقية بنت رسول الله ﷺ التي توفيت والرسول ﷺ في الغزوة، فسر المسلمون بالخبر واغتاظ اليهود والمنافقون ولم يصدقوه^(٢).

وبعد ذلك عاد الرسول ﷺ ومن معه من المجاهدين إلى المدينة سالماً غانماً فاستقبله المسلمون في المدينة بالسرور العظيم لسلامته ﷺ، ولانتصار المسلمين هذا النصر المبين^(٣).

وكان معهم سبعون من أسرى قريش، وقد استشار ﷺ أصحابه ما يصنع بهم، فقالوا: يا رسول الله نأخذ الفداء نتقوى به في سبيل الله،^(٤) فقال ﷺ: "أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق"^(٥).

وقد أحسن المسلمون إلى أسراهم في المعاملة، فكانوا يطعمونهم من أكلهم ويلبسونهم من ملابسههم، وقد قدم أقاربهم من مكة بعد ذلك يدفعون الأموال مقابل إطلاق سراحهم^(٦)، وقد تأثر هؤلاء الأسرى ببقائهم في

(١) البخاري، المغازي، (فتح الباري)، ج١٥/١٦٨.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٢.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٦٤٣؛ الواقدي، المغازي ج١/١٤٤.

(٤) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٣.

(٥) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٦.

(٦) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢١٦.

المدينة وشهادتهم صدق المسلمين وحسن الإسلام، فأسلم معظمهم في فترات لاحقة.

وقد نزلت بعض الآيات في أحداث غزوة بدر ومنها قوله - تعالى - : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ٥ ﴾ يُجَدِّ لُونَا فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ٦ ﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ٧ ﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ٨ ﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ٩ ﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠ ﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ١١ ﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢ ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١٣ ﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوا وَآتَى الْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ١٤ ﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥ ﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٦ ﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٧ ﴾ ذَلِكُمْ وَآتَى اللَّهُ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ١٨ ﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ١٩ ﴾ [الأنفال].

ويقول الله ﷻ عن أحداث هذه الغزوة في موضع آخر من السورة نفسها ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْنَقْيِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَدِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفَسَلْتُمْ وَلَنَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال].

وتواصل بقية سورة الأنفال الحديث عن بعض القضايا المتعلقة بالجهاد عموماً وبغزوة بدر خصوصاً ، وأصبحت تلك السورة تسمى سورة الجهاد ، وداوم المسلمون على قراءتها في صفوف القتال قبل المعارك في كل غزوات الفتح ، وخصوصاً في عهد الراشدين حيث كانوا يعينون القراء في كل جيش لتلاوتها نظراً لأهمية تعلم وقراءة هذه السورة لما فيها من معاني الجهاد وقواعده.^(١)

وكانت غزوة بدر هي أول انتصار للمسلمين على مشركي مكة ، وقد تناقل العرب أخبارها ، وعلم الناس بعدها أن المسلمين أصبحت لهم قوة يحسب لها حسابها.^(٢)

(١) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص ٢١٨؛ الطبري، تاريخه، ج ٣/٣٤؛ عبدالعزيز العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١١٩.
(٢) الإشارة لأهل بدر وفضلهم من البخاري، ج ١٠/٥.

بين بدر وأحد

غيرت نتائج غزوة بدر كثير من الأوضاع في حلقة الصراع بين قريش وحلفائها وبين الرسول ﷺ، الذي كان حريصاً على أمن المدينة وأهلها، وعلى أن تستمر الأوضاع في صالح المسلمين، كما كان حريصاً على استيعاب رد فعل قريش وغيرها من الأعداء على انتصار المسلمين في بدر، وأن لا يكون هناك تراخٍ أو ضعف، وقد كان واضحاً أن قريشاً لن تسكت على الهزيمة وقتل رجالها وأسراهم، وتطلب هذا الأمر متابعة دائمة من الرسول ﷺ واستمرار الأعمال العسكرية وما يرتبط بها من سرايا وغزوات، لحفظ المدينة وأهلها وأشهر تلك الأعمال بعد غزوة بدر وقبل أحد هي:

غزوة بني قينقاع:

كان يهود بني قينقاع ضمن قبائل وجماعات يهودية تقيم بالمدينة قبل وصول رسول الله ﷺ إليها. وعند هجرته وادعاهم مع غيرهم من يهود في صحيفة المدينة،^(١) وكان ضمن الموادعة المشاركة في الدفاع عن المدينة المنورة وتأمين أهلها.

وكان يهود يعلمون بصدق رسول الله ﷺ، وتنزلت الكثير من الآيات والسور على رسول الله ﷺ في المدينة تناقش يهوداً وتتحدث عن أنبيائهم وتاريخهم وانحرافهم.

وكان ﷺ كثيراً ما يناقش علماءهم ويزورهم في مدارسهم ويحاول إقناعهم بدين الله، ولم يسلم إلا عدد قليل منهم أعقلهم وأشهرهم عبد الله

(١) انظر: موضوع وثيقة المدينة، من هذا الكتاب.

ابن سلام رضي الله عنه.^(١)

وبعد غزوة بدر أصبح الأمر واضحاً بتفوق المسلمين على قريش. وهذا يعني قوة المسلمين في المدينة. مصداق لوعده الله بنصر عباده المؤمنين، وكان رضي الله عنه رحيماً باليهود حريصاً على هدايتهم، وهم أهل كتاب يعرفون الحق.

وكذلك بعد عودته من غزوة بدر فإن رسول الله رضي الله عنه جمعهم في سوق بني قينقاع، ثم قال: ((يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنني نبي مرسل، تجدون ذلك وعهد الله إليكم)) قالوا: يا محمد إنك ترى أننا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا - والله - لئن حاربناك لتعلمن أنا نحنُ الناس.^(٢)

وفي الوقت الذي كان رضي الله عنه يحمل لبني قينقاع الرحمة والهداية ويذكرهم بما وقع لقريش كانوا يردون عليه بتهديد واضح وصريح واستعداد لقتاله وتلقينه درساً فهم أهل الحرب والرجال - كما زعموا - وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أن الله أنزل فيهم وفي تهديدهم لرسول الله رضي الله عنه قوله - تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ بَلْ يَكْفُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيُسَّوْا بِالْمُهَادِ﴾ آل عمران.^(٣)

هذا التهديد الواضح منهم يعد نقضاً صريحاً لعهدهم مع رسول الله رضي الله عنه

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٣٥٢: ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣/٢٦٤: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/٤١٣.

(٢) إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص ١٩٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة، ح برقم: ٣٠٠١، ص ٥٣٨: انظر سيرة ابن هشام، ج٣/٤٧.

(فكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ).^(١)

وحدثت واقعة أشعلت العداء بين الطرفين، ذلك أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءئها، فضحكوا بها، فصاحت. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.^(٢)

وقيل إنها نزلت فيهم. قال - تعالى - : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال].^(٣)

وقد بادر الرسول ﷺ بجمع جند المسلمين وحصار بني قينقاع في حصونهم خمس عشرة ليلة،^(٤) أنزل الله فيها الرعب في قلوبهم، فاستسلموا لأمر رسول الله ﷺ ونزلوا على حكمه، وكانوا حلفاء لبعض الأنصار، فتبرأ المسلمون منهم، وعلى رأسهم عبادة بن الصامت ﷺ الذي تبرأ إلى الله وإلى رسوله منهم، وخشي المنافقون على يهود وهم مساعدوهم في أذى رسول الله ﷺ، ولذلك قام عبد الله بن أبي بن سلول، حين أمكن الله منهم رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أحسن في موالي، وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطلت عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. قال ابن هشام: وكان يقال لها: ذات الفضول.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٤٧: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ٢٤٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٤٨.

(٣) ابن سعد، السيرة من الطبقات، ج ٢/٢٩.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٤٩.

قال ابن إسحاق: فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني لتمهلاً، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم قال: ويحك! أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تُحسن في موالي، أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ، (هم لك).^(١)

وكانت النتيجة العفو عن قتلهم، وهم مستحقون له وإجلاؤهم عن المدينة، حيث غنم المسلمون أموالهم وديارهم، وخرجوا خلال ثلاثة أيام وتوجهوا إلى بلاد الشام.

وفي موقف عبدالله بن أبي نزل قوله - تعالى -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ ءَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ ءَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ رٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفٰرِ ءَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مِّنْكُمْ مَّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴿المائدة﴾.

وقد كان إجلاء بني قينقاع ضربة قوية لليهود المدينة، الذين وقفوا عاجزين في هذه المرحلة عن نصره إخوانهم من يهود حيث ضربهم الله بالذلة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤٨/٣.

والخوف.^(١)

كما أن ما غنمه المسلمون من بني قينقاع فيه سلاح كثير وأدوات صياغة وأموال مختلفة، انتفع بها المسلمون، وقد قسمه الرسول ﷺ بين المسلمين واصطفى الخمس^(٢) واستفاد من سلاحهم في الغزوات التي تلت.

غزوة بني سليم:

بنو سليم قبيلة تجاور المدينة، مساكنهم في نواحي نجد ويجاورهم غطفان، وقد أعدوا تجمعاً لتهديد المدينة على ماء يقال له الكدر،^(٣) فعلم رسول الله ﷺ بذلك، فخرج إليهم في أواخر شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة بعد عودته من غزوة بدر، وقد عين أميراً على المدينة عند خروجه، ولما بلغ سُلَيْمًا ومن معهم خروج الرسول ﷺ هربوا وتركوا أنعامهم، فظفر بها رسول الله ﷺ ولم يلق كيداً،^(٤) وعاد إلى المدينة ولم يلق كيداً كبيراً، وكان لهذه الغزوة دور في تحذير القبائل المختلفة القريبة من المدينة، وإفهامها يقظة الرسول ﷺ ومن معه من جند الصحابة، وأنهم مستعدون لأي طارئ، ولذلك بادر بهذه الهجمة الاستباقية قبل استعداد أعدائه مما اضطرهم للهرب.

غزوة السويق:

كان أبو سفيان بن حرب من زعماء المشركين في مكة، ولم يشاركهم في غزوة بدر لوجوده في القافلة. ولما أصيبت قريش في بدر، وهزمت وجاءت أخبار ذلك لأبي سفيان نذر أن لا يمسه رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤٩/٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٦٢٨/١.

(٢) ابن سعد، السيرة من الطبقات، ج ٢٩/٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٧/٣.

(٣) الكدر: ماء مشهور لبني سليم يقع شرق المدينة على بعد ثمانين بُرد (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤٤١/٤).

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٦٤/٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٥٣٩/٢.

ﷺ، و ينتقم لقتلى قريش وأسراهم في بدر، فخرج في ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة، ومعه مئتان مقاتل من قريش، واقترب من المدينة، وتمكن من الوصول إلى "سلام بن مشكم"، وهو من زعماء يهود بني النضير ليلاً، فسقاه ومونه وأعطاه أخبار المدينة ورسول الله ﷺ وأصحابه، ثم خرج من ليلته وبعث بعض أصحابه فقتلوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له، وحرقوا النخيل في أطراف المدينة، وفروا سريعاً، فلما علم رسول الله ﷺ بهم استعمل على المدينة "أبا لبابة بشير بن عبد المنذر"، وخرج سريعاً في أثرهم ففر أبو سفيان ومن معه إلى مكة، واضطروا للتخلي عن بعض ما يحملونه من طعام وغيره حتى يسرعوا في الفرار، وكان من جملة ذلك سوق كثير،^(١) وقد وجدها الرسول ﷺ ومن معه فسميت الغزوة بالسويق.^(٢)

ولم يتمكن أبو سفيان من تحقيق أهدافه وأثبتت الغزوة أن المسلمين بقيادة الرسول ﷺ بالمرصاد لأعدائهم وأنهم يحمون المدينة من كل معتدٍ ويطاردون من تسول له نفسه أذى المسلمين فيها.

غزوة ذي أمر (غطفان):^(٣)

في شهر محرم من السنة الثالثة من الهجرة النبوية. حيث إن جمعاً من غطفان من بني ثعلبة ومن بني محارب أعدوا جمعاً لمهاجمة المدينة، فبلغت الأخبار رسول الله ﷺ فخرج ومعه أربعمئة وخمسون مقاتلاً وتوجه إلى تجمع القبائل المعادية، فهربوا في رؤوس الجبال، فأقام الرسول ﷺ في نواحيهم قريباً من الشهر على ماء يقال له ذو أمر وعسكر مع أصحابه، وغطفان

(١) السويق: طعام من الشعير أو الحنطة المحموسة، تؤكل جافة أو تطبخ مع الماء، أو الزيت، ولا يزال معروفاً في الحجاز وغيرها بنفس الاسم.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣؛ الواقدي، المغازي، ج ١/١٨١؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٢/٣٠.

(٣) ذو أمر: ماء ناحية نجد في ديار غطفان (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١/٢٥٢).

فَارَيْنَ فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ.

فبعث المشركون رجلاً شجاعاً منهم يقال له "غُورث بن الحارث" أو دُعُثور ابن الحارث فقالوا: قد أمكنك الله من قتل محمد. فذهب ذلك الرجل ومعه سيف صقيل، حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف مشهوراً، فقال: يا محمد ما يمنعك مني اليوم؟ قال: الله. ودفَع جبريل في صدره فوق السيف من يده. فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: من يمنعك مني؟ قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والله لا أكثُرُ عليك جمعاً أبداً، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه.^(١)

فلما رجع إلى أصحابه قالوا: ويلك، ما لك؟ قال: نظرتُ إلى رجل طويل فدفَع في صدري فوقعت لظهري فعرفت أنه ملك، وشهدت أن محمداً رسول الله ﷺ، والله لا أكثُرُ عليه جمعاً، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام.

قال: ونزل في ذلك قوله - تعالى -: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] وقد ورد أن الآيات نزلت في بني النضير حين هموا بقتل الرسول ﷺ.

غزوة بَحْرَانَ؛^(٣)

استعد جمع من سليم لمهاجمة المدينة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج في جيش من أصحابه قوامه ثلاثمائة مقاتل، فتوجه إلى تجمع سليم في بَحْرَانَ من نواحي الفرع بالقرب من المدينة، ففروا وتفرقوا قبل أن يصلهم النبي ﷺ.

(١) الواقدي، المغازي، ج ١/٩٤؛ ابن سعد الطبقات، ج ٢/٣٤؛ ابن حجر، الإصابة، ج ٣/١٨٩.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن، ج ١/٥٩٥.

(٣) بَحْرَانَ: ماء على طريق مكة إلى الشام، ناحية الفرع، بين المدينة ورابع (البلاذري، معجم معالم السيرة، ص ٤٠).

فَعَسَكَرَ أَيَّامًا فِي مَنَاطِقِهِمْ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَرَّةً أُخْرَى، ^(١) بَعْدَ أَنْ أُثْبِتَ لِلْأَعْدَاءِ حَزْمَهُ وَقُوَّتَهُ فِي مَوَاجِهَتِهِمْ وَحَفْظِ هَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ ٣ هـ.

وَفِي تَرْتِيبِ الْغَزَوَاتِ السَّابِقَةِ وَضَعِ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ بَابًا سَمَّاهُ بَابَ غَزْوَةِ الْعَشِيرَةِ أورد فيه قول ابن إسحاق: أول ما غزا النبي ﷺ الأَبَاءَ ثُمَّ بَوَاطِئَ الْعَشِيرَةِ. ^(٢)

سرية زيد بن حارثة ﷺ (القردة): ^(٣)

كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْإِسْتِمْرَارُ فِي حَرْبِ اقْتِصَادِيَّاتِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَتَهْدِيدِ قَوَافِلِهِمْ وَالتَّعَرُّضِ لَهَا مِمَّا جَعَلَ قَرِيشًا تَغْيِيرَ طَرِيقِهَا إِلَى الشَّامِ، ^(٤) وَتَحَاوَلَ التَّوْجُّهُ إِلَى الْعِرَاقِ عَنِ طَرِيقِ نَجْدٍ، وَمِنْ هُنَاكَ إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَتْ إِحْدَى قَوَافِلِهَا فِي شَهْرِ جَمَادَى الْآخِرَةِ مِنَ السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، فِيهَا أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، ^(٥) وَصَفْوَانَ بْنِ أُمِيَّةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، ^(٦) وَغَيْرِهِمْ مِنْ زُعَمَاءِ قَرِيشٍ.

وَكَانَتْ مَعَهُمْ أَمْوَالٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفِضَّةِ وَالْأَوَانِي وَالسَّلْعِ وَأَخَذُوا طَرِيقَ نَجْدِ قَاصِدِينَ الْعِرَاقِ.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤٥/٣: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٤/٣؛

انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ٢٤٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يُقْتَلُ ببدر، ج ٢/٥.

(٣) القردة: في أطراف نجد ناحية المدينة من أطراف القصيم الغربية ناحية الرمة (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣٢٢/٤).

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٥٠/٣.

(٥) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٥٠/٣.

(٦) ابن سعد، السيرة النبوية، من الطبقات الكبرى، ج ٣٦/٢.

فكُونُ ﷺ جيشاً عيَّنَ عليه صاحبه ومولاه زيد بن حارثة، وبعثه للحاق بالقافلة متوجهاً إلى ناحية الريدة،^(١) من أرض نجد واعترضوهم عند القردة، فأصابوا العير وغنموها وما فيها، وفر الرجال هاربين إلى مكة، وقدم زيد ومن معه بالعير على رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ في مصارفه، وقدرت القيمة بما يقارب المائة ألف درهم.^(٢)

وقد استفاد منها المسلمون كثيراً، وقد أسر في الغزوة فرات بن حيان العجلي دليل القافلة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام فأسلم.^(٣)

(١) الريدة: في أطراف نجد ناحية المدينة من أطراف القصيم الغربية حالياً شمال مهد الذهب حالياً (البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة، ص ١٣٥):

انظر كتاب: الريدة صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المدينة المنورة، تأليف دكتور الآثار سعد بن عبدالعزيز الراشد، ط ١ - الرياض: جامعة الملك سعود ١٤٠٦ هـ

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية، من الطبقات الكبرى، ج ٢/٣٦:

وانظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٣٧٧.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية، من الطبقات الكبرى، ج ٢/٣٦.

زواج علي وفاطمة عليهما السلام ^(١)

فاطمة بنت رسول الله، قال عنها عليها السلام: ((فاطمة سيدة نساء أهل الجنة))، ^(٢) وقال عنها عليها السلام: ((فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني)). ^(٣) كانت أصغر بنات النبي عليه السلام وأحبهن إليه مع حبه عليه السلام للجميع منهن عليهن السلام، فهي الوحيدة الباقية من بنات النبي آخر حياته وأقرب الناس إليه، وبقيت من بعده عدة أشهر، وروت عنه أحاديث، ولذلك تعلقت أذهان الأمة بها أكثر من غيرها من بنات الرسول عليه السلام، كما أن انقطاع نسل الرسول عليه السلام إلا من فاطمة جعلها أكثر ذكراً من غيرها.

وُلدت عليها السلام قبل البعثة بحوالي سنتين، ^(٤) كانت ممن يدافع عن الرسول عليه السلام في مكة عند أذى قومه له، حملت سلاً الجزور الذي طرحه القوم على رأسه وسببتهم وأبعدتهم عن رسول الله عليه السلام. ^(٥)

وردت روايات مناقب فاطمة عليها السلام عن أم المؤمنين عائشة عليها السلام في أحاديث متفرقة وكانت عائشة عليها السلام تقول: (ما رأيت أحداً قط أفضل من فاطمة غير أبيها). ^(٦)

(١) وضع البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي عليهم السلام، باب مناقب قرابة رسول الله عليه السلام ومنقبة فاطمة عليها السلام، ج ٤/٢٠٩؛ ووضع ابن إسحاق، في السيرة عنوان زواج فاطمة عليها السلام، ص ٢٣٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي عليهم السلام، باب مناقب قرابة رسول الله عليه السلام ومنقبة فاطمة عليها السلام، ج ٤/٢٠٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي عليهم السلام، باب مناقب قرابة رسول الله عليه السلام ومنقبة فاطمة عليها السلام، ج ٤/٢١٠.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢/١١٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٨/١٩؛ ابن حجر، الإصابة، ج ٤/٣٧٧.

(٥) انظر: تخريج الحديث بطوله في وفاة النبي عليه السلام، من هذا الكتاب.

(٦) ابن حجر، الإصابة، ج ٤/٣٧٨.

وكذلك ما روته عائشة رضي الله عنها: (أن فاطمة أقبلت تمشي كأن مشيها مشي رسول الله ﷺ، فقال مرحباً يا بنتي، ثم أجلسها عن يمينه، ثم أسر إليها حديثاً فبكت، ثم أسر إليها حديثاً فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم أقرب فرحاً من حزن، فسألتهما عما قال؟ فقالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره فلما مات سألتها؟ فأخبرتني أنه قال: إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين، وما أراه إلا قد حضر أجلي، وإنك أول أهلي لحوقاً بي ونعم السلف أنا لك، فبكت فقال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين فضحكت).^(١)

وقد لحقت فاطمة برسول الله ﷺ مهاجرة إلى المدينة وكانت شابة.^(٢)

وكان علي رضي الله عنه شاباً هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهو أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ نسباً وروحاً وإيماناً، وقد تربي في بيت رسول الله ﷺ، وكان أول المؤمنين به من الشباب، وأعرف الناس بصدقه، فداه بنفسه يوم الهجرة، له من المكانة عند رسول الله ﷺ وعند المسلمين ما ليس لأحد غيره.

وفي مُحَرَّم من السنة الثانية من الهجرة، كان علي رضي الله عنه يرغب في خطبة فاطمة من رسول الله ﷺ، إلا أنه كان حياً ويهاب الرسول ﷺ، إضافة إلى كونه شاباً لا تجرية له في مثل هذا الأمر.

وقد حاول بعض الصحابة خطبة فاطمة رضي الله عنها، إلا أن الرسول ﷺ ردهم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس، ولم يخبر بسر صاحبه، ج١٤/٧؛ كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ج١٣٨/٥؛ وانظر: ابن حجر، الإصابة، ج٣٧٨/٤.

(٢) انظر: ترجمتها رضي الله عنها، عند ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١٩/١؛ ابن حجر، الإصابة، ج٣٧٨/١؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١١٨/٢؛ (وراجع ترجمتها في: المعاشون للنبي ﷺ، من هذا الكتاب).

بلطف، وكأنه ينتظر أن يتقدم علي ﷺ لخطبتها، وقد شجعت علياً ﷺ بعضُ جوارِي الأنصار على ذلك.^(١)

قال علي ﷺ: ((فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما أستطيع أن أتكلم فقال: ما جاء بك؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ قلت: نعم، قال: وهل عندك من شيء تستحلها به؟ فقلت: لا والله يا رسول الله، فقال: ما فعلت بالدرع التي سلَّحْتُكَهَا، فقلت: هي عندي قال: فأعطاها إياه)).^(٢)

وقيل إن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة وأخبرها بطلب علي فسكت، فعلم ﷺ أن ذلك إقرارٌ منها.

وقد كان زواجاً بسيطاً متواضعاً أنفق فيه علي ﷺ مما يجد.

وقد ورد أنه حاملٌ وجلب حطباً لأحد صوَّأغي المدينة يقول علي ﷺ: ((لما أردت أن ابنتي بفاطمة بنت رسول الله ﷺ واعدت رجلاً صوَّأغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بأذخر أردت أن أبيعته من الصوَّأغين وأستعين به في وليمة عرسي)).^(٣) وقد ساهم بعض الأنصار والمهاجرين في هذه الوليمة المتواضعة المباركة.

وقد جهزها رسول الله ﷺ بجهاز بسيط وجرتين للماء،^(٤) وقد ورد أنه ﷺ قال لعلي ليلة دخلته بفاطمة: ((لا تحدث شيئاً حتى تلقاني))، فدعا بماء فتوضأ منه ثم أفرغه عليهما، وقال: ((اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما)).^(٥)

وقد حرص الرسول ﷺ أن يسكن فاطمة وعلي ﷺ بجواره، وقد علم

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات، ج٨/١٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٥٤٤.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٨/٢١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٥٤٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما قيل في الصوَّأغ، ج٣/١٣.

(٤) ابن سعد، الطبقات، ج٨/٢٣.

(٥) انظر: ابن سعد، الطبقات، ج٨/٢٤.

حارثة بن النعمان الأنصاري بذلك، فتحول عن حجرة له مجاورة لمسجد الرسول ﷺ تقع شمال حجرة عائشة ؓ، وطلب من الرسول ﷺ أن يأخذها لعلي وفاطمة وقال: واللّه الذي يأخذ أحبُّ إلي من الذي يدع، قال ﷺ صدقت، فتحول وسكن علي وفاطمة مكانه. فكانا مجاورين لرسول اللّه يمر عليهما ويستأنس بهما ويدعو لهما ويوجههما.^(١)

وقد رويت أحاديث كثيرة عن هذه الزيارات المباركة للبيت المبارك الذي خرج منه سيّد شباب أهل الجنة الحسن والحسين ؓ وأم كلثوم وزينب بنات علي من فاطمة ؓ.^(٢)

وقد كانت ؓ تعيش مع علي ؓ في شظف من العيش وشدة منه، ولم تكن الدنيا همهما، ومع ذلك كانا يتألمان من كثرة العمل وقد ورد عند أحمد في مسنده (قال علي لفاطمة ذات يوم: واللّه لقد سنوتُ حتى لقد اشتكيت صدري، قال: وجاء اللّه أباك بسببي فاذهبي فاستخدميه. فقالت: أنا واللّه قد طحنت حتى محلت يدي: فأتيت النبي ﷺ فقال: ((ما جاء بك أي بنية؟)) قالت: جئت لأسلم عليك واستحييت أن أسأله. فأتينا جميعاً. فقال علي: يا رسول اللّه. واللّه لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى محلت يداي وقد جاءك اللّه بسببي وسعة فأخدمنا، فقال رسول اللّه ﷺ: ((واللّه لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم))،^(٣) فرجعا. فأتاها النبي ﷺ وقد دخلا في قظيفتهما إذا غطت رأسيهما تكشفت أقدامهما،

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٣/٤٨٨؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/٣٨٠.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/١٣٤، ١٢٢؛ وانظر: الحديث عن الحسن والحسين ؓ، في موضوع المعاشون للرسول ﷺ، من هذا الكتاب؛

ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٥٤٤؛ وانظر: تفصيل الحديث عن فاطمة ؓ، في موضوع المعاشون للرسول ﷺ، من هذا الكتاب.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٨/٢٥.

وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رأساهما، فثارا، فقال: (مكانكما). ثم قال: ((ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟)) قالوا: بلى فقال: ((كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام فقال: تسبّحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين واحداً ثلاثاً وثلاثين وكبّرا أربعة وثلاثين)).^(١)

وكغيرهما من البشر يحدث بينهما - أحياناً - ما يحدث بين الأزواج، فكان الرسول ﷺ يصلح بينهما، حتى أن علياً قال لها: والله لا آتي شيئاً تكرهينه. روى ابن حجر قال: كان بين علي وفاطمة رضي الله عنهما كلام، فدخل رسول الله ﷺ وآله فلم يزل حتى أصلح بينهما، ثم خرج فقيل له: دخلت وأنت على حال وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك، فقال: ((وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إلي)).^(٢)

وقد ورد عن أم سلمة أنها قالت: في بيتي نزلت الآية الكريمة في قوله - تعالى -: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب].

قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال: ((هؤلاء أهل بيتي)).^(٣) ومع هذا فالآية في عامة أهل البيت ومنهن أمهات المؤمنين، اللاتي بدأت الآية بالحديث عنهن، ولا يعقل أن يُجزئ الكارهون لأمهات المؤمنين الآية، ويرونها خاصة في علي وفاطمة وأبنائهما رضي الله عنهم، فإثباتهم لا ينفي غيرهم، فزوجات النبي من أهل البيت كغيره من الناس فلا تخرج الزوجات من الآية، فالآية نصت في أولها عليهن، بل هي موجهة لهن.

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٢٥/٨.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٤/٣٧٩؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٢٦/٨.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٩٧.

ولعل عمل رسول الله ﷺ مع علي وفاطمة وابنيهما ليقطع الطريق على المشككين في دخولهم ضمن أهل البيت وإلا فالآية أثبتت أن نساءه ﷺ منهم.

* * * * *

غزوة أحد (شوال سنة ٣هـ)^(١)

لم تسكت قريش بعد هزيمتها في بدر، فأخذت تعد العدة لغزو المسلمين في المدينة، وقام كل منهم بدوره، فالذين قُتل آباؤهم أو أبنائهم أو أحد من أهليهم كانوا يسيرون في الناس يحرضوهم على رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين،^(٢) وكان اليهود يدورون في مكة ويشتركون في تحريض زعمائها، والمنافقون في المدينة يعدون قريشاً ويمتّونهم بالمساعدة إن قدموا لاستئصال محمد ومن معه من المسلمين ويتحملون الإعداء المعنوي والمادي لذلك، وفيهم نزل قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال].^(٣)

واستعدت قريش ومن حالفها من قبائل تهامة وغيرهم، وتوجه جيشها بحديده ورجاله وعبيده، وبعض نسائه يقصدون المدينة، وقد بلغ عددهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل.^(٤)

في هذه الأثناء كانت الأخبار تأتي لرسول الله ﷺ من عيونه في مكة عن تحركات القوم بالتفصيل.^(٥)

(١) ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٦٠؛

وانظر: بامدحج، غزوة أحد "دراسة دعوية"، ط ١ - الرياض: دار إشبيليا ١٤٢٠هـ.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٤٧٣.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٦٠؛ الواقدي، المغازي ج ١/١٩٩؛ الصالحي

الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٧١.

(٤) ابن إسحاق: السيرة، ص ٣٠٢؛ الواقدي، المغازي، ج ١/٢٠٢، ٢٠٣؛ الصالحي الشامي،

سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٧٣.

(٥) الواقدي، المغازي، ج ١/٢٠٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢/٣٧؛ الصالحي الشامي،

سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٧٣.

جمع الرسول ﷺ المسلمين واستشارهم في الأمر كعادته، واختلفت آراؤهم، فمنهم من رأى الخروج للقاء الأعداء خارج المدينة وكانوا الأكثرية، ومنهم من رأى البقاء في المدينة، وقتال المشركين من داخلها إن هم قدموها، وكان الرسول ﷺ يميل إلى الرأي الثاني وهو البقاء داخل المدينة.^(١) وكان أصحاب الرأي القائل بالخروج للقاء القوم من شجعان المسلمين وأكثروا على الرسول ﷺ، فدخل داره ثم خرج إليهم وقد لبس درعه وسلاحه واستعد للقتال، فندم الذين أكثروا على الرسول ﷺ بالخروج، وقالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد. فقال ﷺ: ((ليس لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل)).^(٢)

كان ﷺ قد رأى رؤيا قصها على أصحابه، ومنها كما روى البخاري قوله ﷺ: ((رأيت في رؤياي هذه أني هزرت سيفاً فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أُحُدٍ. ثم هزرته بأخر فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقرًا، والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أُحُدٍ)).^(٣)

وكانت قريش قد نزلت أحدى الأودية بالقرب من المدينة فخرج الرسول ﷺ ومعه ألف من أهل المدينة، وفي الطريق إلى أُحُدٍ رجع زعيم المنافقين عبد الله

(١) ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠٢؛ الواقدي، المغازي، ج ١/٣١٠؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٧٥.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج ٣/٣٥١؛ وانظر: تخريج الحديث عند رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٣٨١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أُحُدٍ، ج ٥/٣٩؛ وانظر: الروايات الأخرى عند الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٧٤؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٤٢.

ابن أبي بن سلول، ومعه ثلث الجيش خاذلين لرسول الله ﷺ، وزعم ابن أبي أنه ما فعل ذلك إلا لأنه كان يرى البقاء في المدينة ومضى المؤمنون مع رسول الله ﷺ. (١)

كانت أحد منزل رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، واختار الرسول الموقع بنفسه، ونظم صفوف المسلمين فيه، حيث جعل مركز الجيش الشعب، وجعل جبل أحد من خلفهم، واختار جبلاً صغيراً أمام القوم وعين فيه الرماة وأمر عليهم عبدالله بن جبير ﷺ وأوصاهم أن يثبتوا في مكانهم، حتى يأتيهم أمر الرسول ﷺ. وأن ينضحوا المشركين عن المسلمين بالنبل، حتى لا يأتوهم من الخلف. وأوصاهم بالثبات مهما كانت نتيجة المعركة وانتظار ما يصدر لهم من أوامر الرسول ﷺ. روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب ﷺ قال: ((لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمر عليهم عبدالله، وقال: لا تبرحوا، وإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا)). الحديث. (٢)

واختار الرسول ﷺ مصعب بن عمير ﷺ لحمل لواء المسلمين، وتولى ﷺ ترتيب صفوف أصحابه المجاهدين معه، وذكرهم بموعود الله من الجنة، وبالصبر والثبات عند اللقاء، ثم رد بعض الصغار إلى المدينة. (٣)

(١) الواقدي، المغازي، ج ١/٢١٩؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٢/٣٩؛ وانظر: البخاري، فتح الباري، ج ١٥/٢٣٢.

(٢) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ج ٥/٣١؛ ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٥؛ الواقدي، المغازي، ج ١/٢١٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٨٢.

(٣) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٢٠٣، ٣٠٨؛

الواقدي، المغازي، ج ١/٢٢١، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٨٣، ٢٨٢.

ومن جهة المشركين قام زعيمهم أبو سفيان بن حرب بتعبئة المقاتلين، وكانوا قرابة ثلاثة آلاف مقاتل أكثر من أربعة أضعاف المسلمين، وقسمهم، وجعل على الميمنة خالد بن الوليد وأخذ ذوو الصيت والصوت منهم يحرضون الناس على القتال واستئصال محمد ﷺ ومن معه من المسلمين، وقامت نساء قريش بتحريض الرجال على القتال، وذكرتهم بمن قتل من أهلهم في بدر العام الماضي.^(١)

بدأت المعركة وقد أخذ كل موقعه، وأخرج الرسول ﷺ سيفاً كان معه فقال من يأخذ هذا بحقه، فقام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة ﷺ وقال: يا رسول الله وما حقه؟ فقال ﷺ: أن تضرب به هام المشركين حتى ينحني، فأخذه أبو دجانة، وأخرج من جيبه عصاة حمراء فربطها على رأسه وأخذ يختال بالسيف، فقال ﷺ: ((إن هذه مشية يبغضها الله ورسوله إلا في مثل هذا الموطن)).^(٢) وبدأ القتال، وقاتل أبو دجانة بسيف رسول الله ﷺ قتال الأبطال،^(٣) كما قاتل حمزة ﷺ بشجاعة لا نظير لها، وقاتل غيرهم من شجعان المسلمين، حتى لاحت الهزيمة في صفوف المشركين، وبدا النصر واضحاً للمؤمنين، وولى المشركون من الميدان، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك من على الجبال تحركوا من أماكنهم، وحاول عبدالله بن جبير ﷺ أن يمنعهم من المغادرة مذكراً إياهم بأمر الرسول ﷺ، ولكنهم عصوه وانصرفوا ولم يثبت معه

(١) ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠٦؛ الواقدي، المغازي، ج ١/٢٢٠؛ ابن سعد، الطبقات

الكبرى، ج ٢/٤١؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٨٣.

(٢) انظر: ابن أبي شيبه، المغازي، ص ٢٣٦.

(٣) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٥؛ الواقدي، ج ١/٢٤١؛ وانظر: ابن حجر،

الإصابة، ج ٤/٥٨.

إلا نفر يسير دون العشرة.^(١)

كان خالد بن الوليد رضي الله عنه ومعه جماعة من فرسان قريش يرقبون الموقف عن كعب، فلما رأى خالد أن الرماة قلة لا يستطيعون منع الخيل حملَ عليهم فقتلهم وقائدهم، ثم نزل بالفرسان إلى المسلمين، وهم مكشوفون فأتوهم من الخلف، ورجع جند قريش إلى ساحة المعركة بمساعدة الفرسان، وتغير مسير القتال وأصبح في صالح مشركي قريش.^(٢)

وحاولوا أن يصلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصياً ليقتلوه، وتبارى في ذلك شجعانهم.

وصمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتل قتال الأبطال، وقتل بيده (أبي بن خلف) الذي كان معانداً وحريصاً على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ويردد: محمد...!! لا نجوت إن نجأ، فرفض الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبادر إليه أحد من الصحابة غيره، حيث واجهه بنفسه بحربة أصابته في عنقه فمات منها فيما بعد.^(٣)

ثم إنه صلى الله عليه وسلم وقع في أحد الحفر فشجَّ رأسه وكسرت رباعيته وشقت شفته.^(٤) وصمد نفر من الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستماتوا في الدفاع

(١) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج ٢٢٥/١٥؛ ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠٦، الواقدي، المغازي، ج ٢٢٩/١.

(٢) البخاري (فتح الباري)، ج ٢٢٥/١٥؛ ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠٧؛ الواقدي، المغازي، ج ٢٣٥/١؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٤١/٢.

(٣) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣١٠؛ الواقدي، المغازي، ج ٢٥٢/٢؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٣٠٧/٤؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٣٩.

(٤) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج ٢٤٣/١٥، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣١١؛ الواقدي، المغازي، ج ٢٤٧/١؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٣١٠/٤؛ انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٤٥.

عنه، منهم أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه، وسهل بن حنيف، ومنهم مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين - الذي استشهد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم - ومنهم علي بن أبي طالب وأبو دجانة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد وهو يرمي دفاعاً عنه: ((ارم فداك أبي وأمي)).^(١) كما كان معهم في الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم أم عمارة رضي الله عنها.^(٢)

وأشاع المشركون أنهم قتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففتت ذلك في عضد المسلمين فقام الصحابي أنس بن النضر رضي الله عنه فقال: ما يجلسُكم؟ قالوا: قتل محمد رسول الله قال: فما تصنعون بالحياة بعد قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه، فوجد به يومئذ سبعون طعنة فما عرفه إلا أخته بينانه.^(٣)

واستشهد جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل عددهم إلى السبعين رجلاً، منهم عمه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، قتله وحشي وهو غلام حبشي،^(٤) وسعد بن الربيع،^(٥) ومصعب بن عمير،^(٦) وعبدالله بن جحش،^(٧) وحنظلة الغسيل وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين - والتجأ

(١) البخاري، فتح الباري، ج١٥/٢٢٥: انظر: ابن أبي شيبة، ص ٢٣٨.

(٢) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٣٥: ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص٣٠٧: الواقدي، المغازي، ج١/٢٤٠، ٢٤٣، ٢٧٨.

(٣) ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص ٣٠٩: الطبري، تاريخه، ج٣/١٨.

(٤) انظر: باب مقتل حمزة عند البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٤٥: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص ٣٠٨: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٣١٨: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٤١.

(٥) الواقدي، المغازي، ج١/٢٩٣: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٣٢٦.

(٦) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٢٩.

(٧) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٣٢٢.

الرسول ﷺ ومن معه، من الصحابة إلى الشعب، وعلا أبو سفيان الجبل على الرسول ﷺ ومن معه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقاتل عمر بن الخطاب ﷺ وبعض الصحابة ﷺ ورموهم بالحجارة حتى أنزلوهم، فقال أبو سفيان: أي القوم محمد؟ فقال ﷺ: لا تجيبوه، ثم قال: أي القوم ابن أبي قحافة؟ ثم قال: أي القوم عمر بن الخطاب؟ ... ثم قال أبو سفيان: إن هؤلاء قد قتلوا ولو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يتمالك عمر بن الخطاب ﷺ نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يخزيك، ثم قال أبو سفيان: أعلُّ هُبْل، فقال ﷺ: أجيبوه قالوا: ما نقول. قال: قولوا لله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ﷺ: أجيبوه قال: ما نقول؟ قال: قولوا لله مولانا ولا مولى لكم. ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر فأجابوه، وقالوا: لا سواء قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار، ثم قال أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام القادم.^(١)

وقد شاركت نساء المسلمين في المعركة: (كُنَّ النساء يوم أُحُد يُجْهَرْنَ على الجرحى، ويسقين الماء ويداوين الجرحى).^(٢)

وغادرت قريش أرض المعركة، بعد أن هلك منهم أربعة وعشرون قتيلاً، وداوى المسلمون جرحاهم، وفيهم رسول الله ﷺ، وصلى الرسول ﷺ على الشهداء الذين بلغوا سبعين شهيداً ودفنوهم.^(٣)

(١) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج ٢٢٧/١٥؛ ابن إسحاق، السيرة، ص ٣١٣؛ الواقدي المغازي، ج ٢٩٧/١؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٣٢٥/٤.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٣٢.

(٣) انظر البخاري (فتح الباري)، ج ٢٢٥/١٥؛ ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣١٣؛ الواقدي، المغازي، ج ٣٠١ / ١، ٣١٠؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٣٣٠/٤، ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٣٩.

ثم رجع الرسول ﷺ ومن معه إلى المدينة ودخلوها والنساء تبكي القتلى، فتأثر رسول الله ﷺ وذرفت عيناه.^(١)

وكان ﷺ حذراً فخشي من عودة قريش إلى المدينة، فخرج عليهم في اليوم التالي لطلب العدو وإرهابه حتى لا يعود إلى المدينة، وقال ﷺ: ((لا يخرج معنا إلا من حضر معنا بالأمس)).^(٢)

ووصل المسلمون إلى حمراء الأسد،^(٣) على مسيرة عشرة أميال من المدينة، وبقوا فيها ما يزيد على ثلاثة أيام، ووصلت أخبارهم إلى قريش، وكانوا قد فكروا بالعودة للهجوم على المدينة مرة أخرى وثأهم عن ذلك تتبع الرسول ﷺ لهم، وجعلهم يسرعون بالعودة إلى مكة.^(٤)

وقد نزلت آيات من القرآن الكريم تتحدث عما جرى على المسلمين في أحد ومنها قوله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَبَكُمْ مَّا تَحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(١) انظر: الواقدي، المغازي، ج ١ / ٣١١، ٣١٥، ٣١٦؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣ / ٩٨؛ ابن حجر: (فتح الباري)، ج ١٥ / ٢٥٥، ٢٥٦؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤ / ٣٣٤.

(٢) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج ١٥ / ٢٥٣، (وانظر شرح ابن حجر على الحديث): الواقدي، المغازي، ج ١ / ٣٣٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢ / ٤٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣ / ١٠١.

(٣) حمراء الأسد: منطقة جنوب غرب المدينة أصبحت حياً من أحياء المدينة حالياً.

(٤) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج ١٥ / ٢٥٣، (وانظر: شرح ابن حجر على الحديث): الواقدي، المغازي، ج ١ / ٣٣٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٣ / ١٠٤؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤ / ٤٣٨ - ٤٤٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣ / ٥٢.

﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَثْبِكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قَتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ [آل عمران].

ثم يقول الله ﷻ في موضع آخر من السورة نفسها: ﴿أولمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَيَلْعَلُمُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَيَلْعَلُمُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنُقَلِّبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَعَلُوا لَكُم فَأَخَشَوْهُمْ فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿١٧٣﴾ فَأَقْبَلُوا

بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهَمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾
[آل عمران].

وهكذا كانت هذه الغزوة ابتلاءً لصف المؤمنين وتمحيصاً اختار الله فيها بعض الشهداء، وفضح فيها المنافقين، وتاب على المؤمنين، فكانت من أهم غزوات الرسول ﷺ، شهدها بنفسه وأصابه وأصاب المؤمنين الكثير من الجراح والبلاء، واختار الله فيها أكبر عدد من الشهداء في حياة المصطفى ﷺ.

أصحاب الرجيع: ^(١)

الرجيع اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعُسفان. ^(٢) في صفر من السنة الرابعة من الهجرة قدم رهط من عضل والقارة من الهون من مضر على رسول الله ﷺ في المدينة، وقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فأبعث نفعاً من أصحابك يفقهونا في الدين ويعلموننا شرائع الإسلام ((فبعث النبي ﷺ سرية عييناً وأمراً عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب، ^(٣) فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجئوا إلى

(١) انظر: عنوان غزوة بني لحيان، عند ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٩٥؛ وصحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، ورعل وذكوان، ج ٤٠/٥. (والرجيع ماء لهذيل بناحية الوطية اليوم على نحو سبعين كيلو متراً شمال شرق مكة المكرمة) انظر: بريك العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة - دراسة نقدية تحليلية، ص ٢٢٥.

(٢) البكري، معجم ما استعجم، ج ٦٤١/١.

(٣) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٢٤٤/٢.

(فدغد).^(١) وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لهم لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر،^(٢) فأعطوهم العهد والميثاق فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فعالجوه فجرروه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيبٌ هو قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى [سكّين] من بعض بنات الحارث استحدّ بها فأعارتها، قالت: ففعلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده موسى، فقال: أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك - إن شاء الله تعالى - وكانت تقول ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيتته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وأنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلى ركعتين، ثم أنصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جَزَعٌ من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً ثم قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي شقٍّ كان في الله مصرعي

(١) فدغد: أو فدافد ماء معروف بالقرب من ديار هذيل. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج ١٥/٢، ١٠١٥.

(٢) هو: عبد الله بن طارق رضي الله عنه، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢٤٤؛ الواقدي، المغازي، ج ١/٣٥٧.

وذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ

يَبَارِكْ عَلَىٰ أَوْصَالِ شِـلُو مَمـزِع

ثم قام إليه عقبه بن الحارث فقتله، وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتي بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلّة من الدبر فحمته من رسلهم، فلم يقدرُوا منه على شيء)).^(١)

لقد مات هؤلاء الصحابة على حُب رسول الله ﷺ وفداء الإسلام بأرواحهم، والحفاظ عليه مهما كان الثمن، فقد ورد أن زيدًا لما جاءوا به ليقتلوه، قال له أبو سفيان بن حرب وكان على الشرك: يا زيد أتحب محمدًا الآن؟ عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك، فرد عليه زيد ﷺ: واللّٰه ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي!! فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدًا من الناس يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا!!^(٢) كما أن موقف خبيب بن عدي ﷺ عندما تسرّب إليه الطفل وكان في حجره ومعه موسى واضحًا في حقن دماء الأبرياء، حيث خشيت الأم على طفلها وارتبكت ورعبت فما كان من خبيب إلا أن بادر بسؤالها: أتخشين أن أقتله وأجاب في الوقت نفسه، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله! كان صاحب مبدأ ودعوة وما كان صاحب انتقام ولذلك فإن

(١) من رواية البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة وحديث عضل والقارة وعاصم بن ثابت وخبيب بن عدي، ج ٤٠/٥، ٤١؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١٠٨/٣؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٩٥.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢٤٨/٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧٦/٨؛ ابن حجر، الإصابة، ج ٤١٨/١؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٤٨/١؛ وانظر: محمد أبو شبة، السيرة، ج ٢٣٧/٢.

موقفه هذا أثر على هذه الأم، وبقي في نفسها تحدث الناس به.

كان هذا المصاب الجلل صعباً على رسول الله ﷺ وأصحابه، ولكنها الدعوة وهؤلاء قافلة من شهدائها ﷺ.

بئر معونة:

في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة قدم وفد من بني عامر يترأسه أبو براء عامر بن مالك (مُلاعب الأُسنة)، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام (فلم يسلم ولم يبعد) وطلب براء أن يرسل الرسول الله ﷺ معه بعض القراء من الصحابة لدعوة أهل نجد إلى الإسلام، فخشى ﷺ عليهم ولكن أبا براء قال أنا جارٌ لهم، فأمن ﷺ وكتب كتاباً إلى عامر بن الطفيل، وبعث حرام ابن ملحان خال أنس بن مالك ﷺ في سبعين من الأنصار والمهاجرين فيهم عامر بن فهيرة.^(١)

فساروا حتى نزلوا بئر معونة ناحية نجد وقابل حرام بن ملحان عامر بن الطفيل وسلمه كتاب رسول الله ﷺ، وقبل أن يقرأه عامر، أوعز إلى أحد رجاله فأنفذ الرمح في ظهر حرام، فأصابه في مقتل فقال حرام: فزت ورب الكعبة! ثم إن عامر بن الطفيل استصرخ بني عامر فرفضوا أن يخفروا جوار أبي براء الذي أجارهم، وهو من قومهم، فاستصرخ عليهم مجاوريهم بني سليم (رُعل وذكوان وعُصية)، فخرجوا معه مسرعين حتى أحاط عامر بن الطفيل ومن معه من فلول القبائل بأصحاب رسول الله ﷺ، فحاصروهم وقتلوهم ولم يسلم منهم إلا رجلان كانا في سرح القوم، هما عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد بن عقبة، ثم قُتل المنذر بن محمد وأخذ عمرو بن

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان، ج٤٠/٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١٢٠/٣.

أمية أسيراً. فلما علم القوم أنه مُضري أطلقه عامر بن الطفيل بعد أن جز ناصيته، فتوجه إلى رسول الله ﷺ في المدينة وفي الطريق لقي رجلين من بني عامر معهما عهد من رسول الله ﷺ فقتلها، وهو لا يعلم عهدهما ثأراً لأصحاب بئر معونة. فلما قدم على النبي ﷺ أخبره بما جرى للصحابة القراء وأخبره بقتل الرجلين فقال ﷺ: ((لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لِأَدِيَّتَهُمَا)).^(١) وأما أبو براء الذي أجار أصحاب رسول الله ﷺ، فقد شق عليه فعل ابن أخيه عامر بمن أجارهم من أصحاب رسول الله ﷺ فتوجه ابنه ربيعة للانتقام من عامر بن الطفيل الذي خفر ذمة وإجارة أبيه، فطعنه بالرمح ولم يتمكن منه فقتله. وقد دعا الرسول ﷺ على هؤلاء الغادرين شهراً كاملاً ((عن أنس بن مالك ﷺ قال: دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا - يعني أصحاب بئر معونة - ثلاثين صباحاً حين يدعو على رعل ولحيان وعصية عصت الله ورسوله ﷺ))،^(٢) كما دعا على عامر بن الطفيل مباشرة فأصابه الله في غدة فمرض في بيت امرأة من بني سلول، فكره ذلك، وكان يقول: "في غدة كغدة البعير في بيت امرأة سلولية". فركب فرسه وخرج فمات على ظهرها فأكلته السباع والطيور،^(٣) وقد روى البخاري أن النبي ﷺ كما نعى القراء قال: ((إن أصحابكم قد أصيبوا، وأنهم قد سألوا ربهم فقالوا ربنا أخبرنا إخواننا بما رضينا عنك، ورضيت عنها فأخبرهم عنهم فأنزل الله فيهم قرآناً كان يتلى "بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا").^(٤) وقد حزن الرسول ﷺ حزناً شديداً على الشهداء في بئر معونة كما حزن على شهداء

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/١٢١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/١٤٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان، ج ٤/٤٤.

(٣) انظر: وفد بني عامر، من هذا الكتاب.

(٤) من رواية البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة، ج ٥/٦٤؛

وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/١٤٠.

الرجيع، حيث وصلت أخبارهم في يوم واحد. وكان ما حدث مصاباً جليلاً، حيث لم يقتل مثل هذا العدد من الصحابة في المعارك، وقد قتل هؤلاء بالغدر وهم من حملة القرآن والدعاة إلى الله في مرحلة مبكرة، وهذه التضحية فداءً للدين على يد هؤلاء الأعراب الغُدْر تعطينا درساً في مقدار ما بذل أصحاب رسول الله ﷺ في حمل رسالته والدعوة إلى الإسلام.

كما أن موقف حرام بن ملحان حينما طعن كان واضحاً أنه وإن كان القتل فهو المنتصر وصدق الله حين قال: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة: ٥٢) قد كان ﷺ يدرك معنى الشهادة، وكان لقوله فزت ورب الكعبة أثر عظيم في نفوس من حضره، كيف يكون قتيلاً مغدوراً مصاباً وفي الوقت نفسه فائزاً، إنها المعاني العظيمة التي يدركها حرام بن ملحان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ.

غزوة بني النضير (ربيع الأول ٤هـ):

كان بنو النضير من قبائل يهود يقيمون في المدينة المنورة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها، وكانوا ضمن مَنْ وَاذَعَ الرَّسُولَ ﷺ من يهود المدينة وكتب معهم عهداً في صحيفة المدينة يتضمن المواعدة والدفاع عن المدينة والتعاون في الديات ضمن بنود أخرى.^(١)

وقد خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير في منازلهم أطراف المدينة يطلب مساعدتهم في دية رجلين قتلها عمرو بن أمية الضمري بعد أن نجا من حادثة بئر معونة - كما مرَّ ذكره - وكان ﷺ جالساً تحت أحد جدرانهم، فتآمر يهود بني النضير على قتله بإلقاء الصخور عليه من فوق الجدار، وَعَدُّوْهَا

(١) انظر: وثيقة المدينة من هذا الكتاب.

فرصة لهم، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بنيتهم، فلما صعدوا ليلقوا الصخر على رسول الله ﷺ، قام ﷺ وكان له حاجة ولم يخبر من معه من الصحابة، فظنوا أنه سيعود لمجلسه، فلما طال الانتظار قام الصحابة في طلب النبي ﷺ فلما لحقوا به في المدينة، أخبرهم ﷺ بغدر يهود واعتزامهم قتله، فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة إليهم يخبرهم باطلاع الرسول ﷺ على غدرهم، ويطلب منهم الجلاء من المدينة خلال عشرة أيام وإلحاق بهم الهلاك وقاتلهم الرسول ﷺ، فأصابهم الذهول وتحيروا وعلموا أن غدرهم قد كشفه الله ﷻ^(١) فبدؤوا الاتصال بالمنافقين في المدينة وعلى رأسهم عبدالله بن أبيّ عليهم يجدون عندهم حلاً ومساعدة، فطمأنهم المنافقون وطلبوا منهم الصبر وعدم الخروج ووعدوهم بالقتال معهم إن احتاجوا إلى ذلك.^(٢) وفيهم وفي قولهم نزل قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُظِيعَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

فلما أحس رسول الله ﷺ بعنادهم واستعدادهم للقتال وما أظهره المنافقون من مناصرتهم أمر ﷺ جنده من أصحابه بالاستعداد، واستخلف على المدينة عبدالله بن أم مكتوم وحمل رايته علي بن أبي طالب ﷺ.^(٣) وحاصر بني النضير بضع عشرة ليلة جرى فيها قتال معهم، وبدأ رسول الله ﷺ بإذن من ربه في قطع نخيلهم، ليبيئسهم وينزل الحسرة والرعب في

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٦٨٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ما قطعتم من لينة، ج ٦/٥٨.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج ٢/٥٨.

قلوبهم، ويدفعهم إلى الاستسلام سريعاً، فقال بنو النضير: محمد ينهى عن الفساد وهاهو يحرق ويقطع نخلنا فجاء قوله - تعالى -: ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الحشـر: ١٠] (١) وشدد ﷺ الحصار عليهم وكذبهم المنافقون ولم ينصروهم، فعلم اليهود نتيجة غدرهم، وحزم رسول الله ﷺ معهم وقذف الله في قلوبهم الرعب رغم تحصنهم واستعدادهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجلبهم ويكف عن دمائهم على أن يسمح لهم بما تحمله الإبل من أموالهم عدا السلاح، (٢) فاستسلموا على هذا الشرط، وأعطوا أياماً محددة للرحيل.

وفيهم يقول الله - تعالى -: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] (٣) ثم خرجوا في تظاهرة كبيرة متجلدين متصابرين متظاهرين بعدم المبالاة فخرجوا (بالنساء والأبناء والأموال، معهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن من خلفهم بزهاء وفخر ما رئي قبله من حي من الناس في زمانهم). (٤) وبجلاتهم أراح الله المسلمين من شرهم وكف أذاهم وأسلم منهم رجلان فترك لهما رسول الله ﷺ أموالهما، (٥) وقد نزلت في بني النضير سورة الحشر بأكملها (٦) خص أولها

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٢٨٣.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج ٣/١٩٠.

(٣) كان ابن عباس يسميها سورة بني النضير. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير

سورة الحشر، ج ٦/٥٨ - ٦٠؛ وابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٨٤٤.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية ج ٣/١٩٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

بالحديث عن يهود في قوله - تعالى - : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ② وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ⑤ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥﴾ [الحشر]، (١) كما تضمنت بقية السورة ما يرتبط بالفيء وأحكامه، وأصبحت نظاماً مالياً وحكماً شرعياً للتعامل فيه مع ما يُكسب من الأعداء بلا قتال، وذلك في قوله - تعالى - : ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آفَاءَ الْرَسُولِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ⑦﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ⑧ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجِبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑨ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ⑩﴾ [الحشر].

وقد تضمنت الآيات النشاء على المهاجرين والأنصار، والتحدث عن فقر المهاجرين وإيثارهم إياهم. وقد قال الرسول ﷺ : ((إن أحببتهم قسمت بينكم

(١) انظر: تفسير سورة الحشر، عند ابن كثير، في تفسيره، ج ٢/١٨٤٤.

وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتهم أعطيتهم وخرجوا من دوركم)). فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ - زعماء الأنصار - يا رسول الله ﷺ بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار رضيانا وسلمنا يا رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ((اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار))،^(١) وقسم رسول الله ﷺ الأموال والدور بين المهاجرين وأعطى رجلين من فقراء الأنصار، وكان مخيريق أحد أثرياء بني النضير قد أسلم قبل أحد وقاتل مع المسلمين، وقال: فإن أصبت فمالي لمحمد يصنع به ما يشاء، فقتل فكان له سبع مزارع أنفقها الرسول ﷺ على المحتاجين من المسلمين.^(٢) وأثبت الأنصار أنهم أهل لما وصفهم الله به ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر].

وحينما أراد عمر بن الخطاب ﷺ^(٣) وضع الخراج على الأرض وتدوين الدواوين أثناء خلافته جمع الصحابة ﷺ من أهل الرأي في المدينة وناقشهم حول قسمة الأراضي بين الفاتحين أو تركها ووضع الخراج عليها، واستفادة عامة المسلمين من وارداتها عن طريق الديوان، وقد استشعر عمر ﷺ أحداث غزوة بني النضير واستشهد بالآيات الواردة فيها وأن لمن يأتي من أجيال المسلمين حق في هذا المال منطلقاً من قوله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ

(١) شرح الزرقاني، ج ٢/٨٢؛ وانظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص ٢٨٧؛ ومهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤١٧.

(٢) ابن حجر، الإصابة، ج ٣/٣٩٤؛ والواقدي، المغازي، ج ٣/٣٧٨.

(٣) انظر: جزء من الرواية، عند البخاري في صحيحه، عن عمر بن الخطاب ﷺ، كتاب التفسير، باب قوله: ما أفاء الله على رسوله، ج ٦/٥٨.

بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر].

وقد أورد أبو يوسف في كتاب "الخراج": (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استشار الناس في السواد حين افتتح، فرأى عامتهم أن يقسمه، وكان بلال ابن رباح من أشدهم في ذلك، ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يتركه ولا يقسمه، فقال: اللهم اكفني بلالاً وأصحابه. ومكثوا في ذلك يومين أو ثلاثة أو دون ذلك ثم قال عمر رضي الله عنه: إني قد وجدت حجة، قال - تعالى - في كتابه: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ [الحشر]، حتى فرغ من شأن بني النضير، فهذه عامة في الفبيء كلها ثم قال: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ [الحشر]. ثم قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ [الحشر]، ثم لم يرض وخلق بهم غيرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ [الحشر]. فهذا فيما بلغنا - والله أعلم - للأنصار خاصة ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر]. فكانت هذه عامة لمن جاء بعدهم، فقد صار هذا الفبيء بين هؤلاء جميعاً فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قسم، فأجمع على تركه وجمع خراجه، قال أبو

يوسف: والذي رأى عمر رضي الله عنه من الامتاع من قسمة الأراضي بين من افتتحها عند ما عرفه الله ما كان في كتابه من أن ذلك توفيق من الله كان له فيما صنع، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم، لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد.^(١)

وقد ختمت آيات سورة الحشر بالمنافقين وربطتهم بيهود في قوله - تعالى - :
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

كما أنها كشفت عن طبائع يهود وجبنهم وأسلوبهم في القتال في قوله - تعالى - :
﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

وما الجُدُر التي بينها يهود في فلسطين إلا تصديقاً لما ورد في هذه الآيات عن بني النضير خاصة ويهود عامة في كل زمان ومكان.

بدر الآخرة (الموعِد) (شعبان ٤هـ):^(٢)

كان أبو سفيان في نهاية غزوة أحد قد واعد المسلمين لقتالهم في بدر العام القادم، وكانت بدر سوقاً للعرب لها موسمها في شعبان من كل عام، تقام فيها التجارة والبيع والشراء ويلتقي فيها العرب.

(١) انظر: أبو يوسف، الخراج، ص ٢٣؛ وأبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ١٦٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢٠٩.

وقد كره أبو سفيان ومن معه من قريش الاستعداد لقتال النبي ﷺ، وكان ﷺ وفيّاً بالوعد وأبو سفيان خائف من اللقاء، ولذلك جعل أبو سفيان جائزة لأحد زعماء غطفان إن ساعده إن استطاع إقناع المسلمين بعدم الخروج للموعد مع قريش إلى بدر.^(١)

فخوفهم وذكرهم من جمع قريش الشيء الكثير الذي لا طاقة للمسلمين به، لكن رد الرسول ﷺ والمسلمين معه كان كما قال الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران].^(٢)

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة متوجهاً إلى بدر، حسب الموعد مع قريش، يرافقه ما يقارب الألف وخمسمائة مقاتل، كانوا في منتهى الشجاعة والاستجابة لأمر الله ورسوله بمعنويات عالية.

أما قريش حيث فشل أبو سفيان في صرف المسلمين عن الخروج وأن يكون مخالفة الموعد من قبل المسلمين، فخرج أبو سفيان ومعه ألفا مقاتل من قريش. وفي الطريق كانوا يخافون لقاء المسلمين، فقال لهم أبو سفيان: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن فإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا ورجعت قريش ولم تفر بالموعد.^(٣) أما الرسول ﷺ فقد وصل بدر ووفى بالموعد، وبقي في بدر ثمانية أيام، التقى فيه بزعماء بني ضمرة، وهم من سكان المنطقة

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/١٧٢.

(٢) ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤٢٣.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٦٩٥؛ وانظر: محمد الصلابي، السيرة النبوية، ج ٢/٢٨٨؛

ومهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٢٣.

الذين وادعوا رسول ﷺ واستغربوا من وجوده مع جيشه، فخيرهم الرسول ﷺ إن اختاروا إلغاء عهده معهم، فقالوا ما لنا بذلك من حاجة، وقد بقي المسلمون في المنطقة، وقاموا بأعمال تجارية سلمية، وعادوا بعد ذلك ولم يلقوا كيداً.

وكان لهذه الغزوة أثر كبير بين قبائل العرب الذين سمعوا بخروج الرسول ﷺ وبقوته ومن معه من المسلمين، كما عرفوا تخاذل قريش وانسحابها وأصبحت عاراً عليهم، وموضع سخرية الشعراء منهم.^(١)

غزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥هـ):^(٢)

دومة الجندل بلدة شمال الجزيرة العربية بالقرب من حدود الشام، مشهورة بحصونها وأسواقها. وهي وسط بين تجارة الشام والحجاز. واشتهرت بقصرها المشهور وزعيهما (أكيدر).^(٣) وقد سمع الرسول ﷺ بتجمع قبلي فيها يجيش الناس لتهديد المدينة والمتوجهين إليها.^(٤)

فخرج ﷺ ومعه ألف مقاتل، وحاول إخفاء تحركه، فكانوا يسيرون الليل ويكمنون بالنهار،^(٥) فلما دنوا من دومة الجندل تفرقت جموع الأعداء وهربوا في كل صوب، فنزل رسول الله ﷺ بساحتهم وغنم من مواشيهم، وبث سراياه، وأقام قرابة الشهر في الموضع، أظهر خلالها هيبة المسلمين

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢١٠ - ٢١٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢١٣؛ وقد وضع عنواناً خاصاً لهذه الغزوة.

(٣) انظر: نايف الشراري، دومة الجندل، منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية، دراسة تاريخية - الرياض: دار الملك عبدالعزيز ١٤٢٦هـ.

(٤) انظر: نايف الشراري، دومة الجندل، منذ ظهور الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية، ص ٢١٣.

(٥) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/١٧٧.

ورحمتهم في الوقت نفسه، كما أسلم بعض أهل المنطقة،^(١) وعقد معاهدات مع بعض زعماء القبائل ومنهم عيينة بن حصن الفزاري.^(٢)

وهذه الغزوة لها أهميتها في إظهار قوة المسلمين أمام الروم وأتباعهم، حيث كانت مناطقهم أقرب إلى دومة الجندل من المدينة، بالإضافة إلى أن معظم القبائل المحيطة بها كانت ذات صلة بالشام عموماً، وكثير منهم من نصارى العرب.^(٣)

(١) انظر: محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج٢/٢٥١.

(٢) محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج٢/٢٥٢.

(٣) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/٤٧٨.

غزوة الأحزاب (الخدق)^(١)

كان سبب الغزوة أن جماعة من زعماء اليهود في المدينة ذهبوا إلى مكة، وأخذوا يحرضون قريشاً على غزو الرسول ﷺ في المدينة، ووعدوا أنهم سوف يساعدون قريشاً حتى يستأصلوا محمداً ﷺ ومن معه، وأفتوهم بأن دين قريش خير من دين محمد ﷺ، وفيهم وفي قولهم نزل قول الله - تعالى -: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١] فأجابت قريش بزعامة أبي سفيان إلى ذلك.

ثم إن أولئك النفر من اليهود توجهوا إلى غطفان وغيرها من قبائل نجد فدعوههم إلى حرب المسلمين في المدينة وواعدوهم ومنوهم كما فعلوا مع قريش، وتمكن اليهود من تحزيب الأحزاب لحرب الرسول ﷺ ومن معه.^(٢)

كان ﷺ كعادته يتتبع أخبار أعدائه من قريش وغيرها، وقد جاءته عيونته بالخبر قبل تحرك القوم، وبالتالي جمع الصحابة يستشيرهم فيما ينبغي عمله لمواجهة الاعتداء القادم، خصوصاً أن الأعداء كثر والمدينة قد لا تتحمل الدفاع ضد تلك القوات.

وكان أحد الآراء المطروحة إشارة من سلمان الفارسي ﷺ بحضر خندق حول المدينة، يمنع الفرسان والراجلة من اقتحامها، وفي الوقت نفسه يُمكن

(١) وضع البخاري في صحيحه باباً سماه: (باب غزوة الخندق وهي الأحزاب) فتح الباري، ج ١٥/٢٧٤؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، غزو الخندق، ص ٢٤٦.

(٢) الواقدي: المغازي، ج ٢/٤٤٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢١٥؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٥١٣؛ وانظر تخريج ذلك عند: رزق الله، السيرة النبوية، ص ٤٤٥.

(٣) انظر: ابن حجر (فتح الباري)، ج ١٥/٢٧٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢١٥؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/٤٤٣؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٥١٣.

المسلمين من الدفاع، خصوصاً أن الوضع الجغرافي للمدينة كان مناسباً لذلك. وقد استحسن الرسول ﷺ الفكرة،^(١) وخطط مكان الخندق المقترح، وقسم العمل فيه على أصحابه، فكان نصيب كل عشرة منهم أربعين ذراعاً، وعمل الرسول ﷺ مع الصحابة في الحفر، حيث كان يضرب بالفأس ويحمل التراب بيديه الكريمتين.

كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغبر بطنه ويردد قول الصحابة:

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكتة علينا
وثبتت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا^(٢)

وتسلل جماعة من المنافقين فارين من تأدية الواجب الملقى عليهم، وهم الذين ذكرهم الله - تعالى - في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور]، وكان المؤمنون إذا احتاج الرجل منهم إلى حاجة لم ينصرف إليها حتى يأذن له رسول الله ﷺ،

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج ١٥/ ٢٧٥؛

الواقدي، المغازي، ج ٢/ ٤٤٥؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/ ٥١٤؛ وانظر: تخريج ذلك عند د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة، ص ٤٢٠؛ د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٤٦.

(٢) انظر: ابن أبي شيبه، المغازي، ص ٢٥٧.

فامتدحهم الله في قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٦﴾ [النور].^(١)

وفي أثناء حفر الخندق اعترضت للمسلمين صخرة فقام الرسول ليحطمها، وحين ضربها برقت منها بارقة فكبر وكبر المسلمون معه، ثم ضربها ثانية فبرقت فكبر وكبر المسلمون معه، ثم ضربها الثالثة فبرقت فكبر وكبر المسلمون معه، وقد قال ﷺ إثر الضربة الأولى: ((اللَّهُ أَكْبَرُ أَعْطَيْتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهُ إِنِّي لِأَبْصِرَ قُصُورَهَا الْحَمْرَاءَ السَّاعَةَ، ثُمَّ ضَرَبَهَا الثَّانِيَةَ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أَعْطَيْتُ مَفَاتِيحَ فَارَسِ وَاللَّهُ إِنِّي لِأَبْصِرَ قُصُورَ الْمَدَائِنِ الْأَبْيَضِ، ثُمَّ ضَرَبَهَا الثَّلَاثَةَ وَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ أَعْطَيْتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ إِنِّي لِأَبْصِرَ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي السَّاعَةِ)).^(٢) فاستبشر المسلمون، وبهذا تيقن ﷺ والمؤمنون معه أنهم سيغلبون أولئك الملوك وسيفتحون ديارهم وصدقوا ما وعد الله ورسوله.

أما المنافقون فقد أخذوا يتهاكمون بما ذكره الرسول ﷺ من موعود الله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ [الأحزاب].

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج ٢/٢٤٨؛ وله رأي عام في الآية ومخالفة المنافقون لأمر الرسول ﷺ عموماً.

(٢) رواه ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٦١؛ رواه أحمد في مسنده ج ٤/٣٠٣، وحسنه عدد من العلماء منهم ابن حجر (انظر: د. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢/٤٢٣؛ ود. مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٤٤٩، هامش ٤٢).

ووصلت قريش ومعها الأحزاب، وعددهم عشرة آلاف مقاتل، وعسكروا حول المدينة، واستغربوا من وجود الخندق، حيث لم يكن للعرب عهد به، وعسكر الرسول ﷺ ومعه قرابة ثلاثة آلاف من المجاهدين، بعد أن جمعوا النساء والذرية في حصون الأنصار.^(١)

وكان الوقت عصيباً جداً، إذ لم يكن المسلمون يأمنون على أنفسهم ليلاً ولا نهاراً، خصوصاً أن يهود بني قريظة كانوا في ناحية من المدينة،^(٢) والمسلمون قد عاهدوهم في الدفاع المشترك عن المدينة، ومع ذلك لا يأمنوا أن يستمر يهود على عهدهم، وبالتالي أحس المسلمون بالخطر يحدق بهم من كل جانب كما وصف الله ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾^(٣) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب].^(٣)

وبدأت قوات الاستطلاع للأحزاب بتحسس الخندق لعلهم يجدون فرجة ينفذون منها، وتمكنت مجموعة من فرسانهم من اختراق الخندق في أحد المواضع، لكن جند الإسلام وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ﷺ تمكنوا من صددهم وقتل بعضهم، فأمر الرسول ﷺ بتسليم قتلى قريش، ولم يرض أن يأخذ مقابلاً لذلك.^(٤)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢١٩؛ الواقدي، المغازي، ج٢/٤٤٣؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٢٤.

(٢) انظر: شوقي أبو خليل، الخندق "غزوة الأحزاب"، ط١ - دمشق: دار الفكر ١٤٠٦هـ، ص١٠٩.

(٣) انظر: صحيح البخاري، فتح الباري، ج١٥/٢٨٣؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٥٥.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٢٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٦٨؛ الواقدي، ج٢/٤٦٤، ٤٧٤؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٣٢، ٥٣٦؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٦٣.

وقد استمر المسلمون ليلاً ونهاراً في حراسة الخندق ومنع القوم من اختراقه، وكان الرسول ﷺ يهتم بنفسه في حراسة المناطق الضعيفة منه. ولذلك حاول الأحزاب أن يجدوا وسيلة أخرى يفسدون بها تحصن المسلمين. وكان مع الأحزاب رجال من يهود وعلى رأسهم حبي بن أخطب، الذي توجه إلى يهود بني قريظة في حصونهم، وبذل جهوداً مختلفة من المكر والحيلة حتى تمكن من إقناع زعيم بني قريظة بنقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين. وقد جاءت عيون النبي ﷺ بخبر زيارة حبي بن أخطب لبني قريظة ونقضهم للعهد مع المسلمين، ووعدهم لقريش بالتعاون معهم ضد النبي ﷺ والمؤمنين معه، وحزن الرسول ﷺ لهذا الخبر، وأراد أن يتأكد منه بنفسه، وفي الوقت نفسه حرص على أن لا يعلم به أحد من المسلمين حتى لا يفت في عضدهم ويؤثر على قواهم المعنوية، ولذلك بعث الرسول ﷺ أربعة من الأنصار ممن لهم علاقة وحلف مع بني قريظة منهم سعد بن معاذ وسعد بن عباد سيدا الأوس والخزرج، وأمرهم بزيارة بني قريظة في حصونهم والتأكد من الخبر، وأن يكتفوا الأمر عن الناس إن كان القوم قد غدروا، وأن يلحنوا للرسول ﷺ لحناً يعرف منه الموقف، فخرج القوم إلى بني قريظة، والتقوا بهم، وبحثوا الأمر معهم، فأغلظ اليهود في سب النبي ﷺ وسب أصحابه وقالوا: من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فنصحهم سعد بن معاذ وخوفهم من نتائج الخيانة - وكان حليفاً لهم - فردوا عليه بفحش وبذاءة، وعاد الوفد إلى الرسول ﷺ فقالوا له: عضل والقارة، يعني أن اليهود قد غدروا كغدر عضل والقارة،^(١) وهما القبيلتان اللتان غدرتا بأصحاب الرجيع،^(٢) واشتد البلاء على المسلمين، وتعاون اليهود والمشركون

(١) انظر: ابن حجر، (فتح الباري)، ج ١٥/٥٨٤؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢٢١؛

الواقدي، المغازي، ج ٢/٤٥٨؛ الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٥٢٨.

(٢) انظر: حادثة الرجيع، من هذا الكتاب.

والمنافقون في إيصال خبر غدر اليهود، وبرز النفاق وأهله على أشده قال - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب]، واشتد البلاء على المسلمين، حيث قويت شوكة الأحزاب بانضمام بني قريظة إليهم، وحاول بعض اليهود الاعتداء على نساء المسلمين في الحصون، فدافعن عن أنفسهن دفاع الشجاعات وعلى رأسهن صفية بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ. (١)

وفي هذه الظروف العصيبة جاء إلى النبي ﷺ نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه من غطفان - وكان قد قدم مع الأحزاب فالتقى برسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي فمُرني بما شئت، فأراد الرسول ﷺ أن يستفيد من هذا المجاهد المجهول إلى أقصى حد ممكن، فقال له: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن "الحرب خدعة"، (٢) فخرج نعيم ابن مسعود رضي الله عنه وقد تلقى توجيهات النبي ﷺ حتى أتى بني قريظة، وكان على معرفة بهم منذ أيام الجاهلية فقال لهم: قد عرفتم ودي إياكم، فقالوا: لست عندنا بمتهم، قال: لقد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد، وليسوا مثلكم، البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم، ولا تقدرين على أن تتحولوا منه، وإن قريشاً وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها، وإن رأوا غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به. ثم واصل حديثه معهم: وأرى أن لا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم ثقة لكم حتى تنجزوا محمداً ولا يتركوكم وحدكم.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/ ٢٢٨: الواقدي، المغازي، ج ٢/ ٤٦٢، ٤٦٠: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/ ٥٢٨ - ٥٢٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/ ٢٢٨: الواقدي، المغازي، ج ٢/ ٤٦٢، ٤٦٠: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/ ٥٢٨ - ٥٢٩.

ثم إن نعيماً نفسه أتى قريشاً فقال لزعيمها أبي سفيان بن حرب ومن معه: قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً، وقد بلغني أن قريظة ندموا على فعلهم مع محمد، وقد أرسلوا إلى محمد وقالوا له: هل يرضيك عنا أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجلاً من أشرفهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأجابهم: نعم.

ثم واصل نعيم حديثه متظاهراً بتحذير قريش قائلاً لهم: فإن طلبت منكم قريظة رهناً فلا تعطوهم رجلاً واحداً، ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم من بني قريظة.^(١) وكانت غطفان وقريظة وقريش قد اتعدوا من الغد أن يبدؤوا القتال، وكان ذلك يوم سبت، فأرسلت قريش إلى بني قريظة ليشاركوهم القتال في ذلك اليوم فقالوا: إن اليوم يوم سبت ولسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فإننا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل - يقصدون النبي ﷺ - فقالت قريش وغطفان: والله لقد صدقكم نعيم ابن مسعود، والله لا ندفع لكم رجلاً واحداً. وقالت قريظة: لقد صدقكم نعيم ابن مسعود، وفشل اتفاق القوم وساء ظن بعضهم ببعض.^(٢)

فجاءهم المساء ولم يعملوا شيئاً مع المسلمين. وفي الليل أرسل الله على الأحزاب ريحاً شديدة وبرداً، فجعلت تطرح خيامهم وتكفأ قدورهم، وهي التي قال الله عنها: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب]. فاضطرب

(١) عند ابن أبي شيبة في المغازي، ص ٢٥٦: أن الرسول ﷺ سرب خبيراً لمسعود بأن قريظة سيطلبون من أبي سفيان رهائن ليسلموهم للنبي ﷺ، فبادر ونقل الخبر لقريش فأوقع القطيعة بين الطرفين.

(٢) انظر: تفاصيل القصة في: ابن هشام السيرة النبوية، ج ٢٢٩/٣، ٢٣١، الواقدي، المغازي، ج ٤٨٠/٢: ابن سعد، الطبقات، ج ٦٩/٢: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥٤١/٤ - ٥٤٤.

معسكر المشركين وسمع فيهم ضجيج.^(١)

فبعث النبي ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ ليستطلع له أخبار القوم، وقد أمره ألا يحدث شيئاً وألا يقوم بأي عمل غير الاستطلاع حتى لو أتته الفرص، فذهب حذيفة ودخل معسكر قريش، وجلس مع جمع منهم ملتفين بعبيهم حول النار، واندس بينهم دون أن يعرفه أحد، والبرد شديد والريح تعبث بهم، وكان أبو سفيان في القوم وهو حريص على عدم وجود عيون النبي ﷺ بينهم، فقال للقوم قبل أن يبدأ الحديث: ليتعرف كل منكم على جليسه، فما كان من حذيفة إلا أن بادر بسؤال جليسه الذي عن يمينه: من أنت؟ ثم التفت إلى الرجل الذي يجلس عن يساره وسأله من أنت؟ وبذلك تجاوزه السؤال ولم ينتبه له القوم، وقد تحدث أبو سفيان في القوم وقال: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا قريظة ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما يقر لنا قِدْرٌ ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا إني مرتحل، ثم ركب أبو سفيان جملة يريد الرحيل، فاستوقفه القوم ليرحلوا معه، فانسحبت قريش وأبقت بعض الفرسان لتحمي انسحابها، ثم تبعها بقية قبائل الأحزاب.

وجاء حذيفة ﷺ ليبشر رسول الله ﷺ بانسحاب القوم، بعد أن حاصروا المدينة قرابة خمس وعشرين ليلة.^(٢)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٣١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٦٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٤٥.

(٢) انظر: قصة حذيفة في فتح الباري، ج١٥/٢٨٤؛ ابن هشام السيرة النبوية، ج٣/٢٣١ - ٢٣٣؛ الواقدي، المغازي، ج٢/٤٨٨ - ٤٨٩؛ ابن سعد، الطبقات، ج٢/٦٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٤٦ - ٥٤٩.

وحين خلت المدينة من الأحزاب قال ﷺ لأصحابه: ((الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم)).^(١) فكان المستقبل كما قال ﷺ، بعد ذلك سمح بعودة المجاهدين المرابطين حول الخندق إلى بيوتهم وصدق الله القائل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب]. وقد فقد المسلمون ستة شهداء،^(٢) كما قتل من المشركين ثلاثة نفر.^(٣) وقد نزلت حول أحداث هذه الغزوة سورة الأحزاب التي سميت بها وكان مما ورد فيها قوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُ لَكُمْ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ

(١) البخاري، فتح الباري، ج١٥/٢٩٠.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٥٢؛ الواقدي، المغازي، ج٢/٤٩٥، وانظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٧٠؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٥٠.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٥٣؛ الواقدي، المغازي، ج٢/٤٩٦؛ الصالحي الشامي، ج٤/٥٥١.

رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَفُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ
بَادُوتَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا
﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا
زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مَن الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن
قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ
وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾

[الأحزاب].

ويقول الله - تعالى - في موضع آخر من السورة: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مَن الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ [الأحزاب].^(١)

(١) لمزيد من التفاصيل حول الآيات المرتبطة بغزوة الأحزاب انظر: الفنسيان: سعود بن عبد الله، غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم، ط ١ - الرياض: دار إشبيلية ١٤١٨هـ.

ومع رحيل الأحزاب فإن جولة المعركة لم تنته بعد ، فما أن رجع الرسول ﷺ إلى بيته ووضع سلاحه حتى أتاه جبريل ﷺ فقال له: ((قد وضعت سلاحك! والله ما وضعناه، فاخرج إليهم، قال ﷺ: فألى أين؟ قال هاهنا وأشار إلى بني قريظة فخرج النبي ﷺ إليهم)).^(١) فعلم رسول الله ﷺ أن قتال الخونة من يهود بني قريظة هو أمر من الله ﷻ فدفع لواءه إلى علي بن أبي طالب ﷺ،^(٢) وأمر بالنداء في المسلمين أن ((لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة))،^(٣) ثم خرج ﷺ بنفسه للحاق بأصحابه، وعسكر الرسول ﷺ ومعه أصحابه حول حصون بني قريظة، وبدأ حصارهم الذي استمر بضع عشرة ليلة، أنزل الله فيها الرعب في قلوب اليهود، وزلزلهم الله، واشتد عليهم الخوف، حتى أصبحوا يطلبون بعض حلفائهم من الأوس، ولكنهم كانوا أعلم الناس بغدرهم ومكرهم برسول الله ﷺ، وما يستحقونه من العقوبة، حتى أنهم في أثناء الحصار كانوا ينالون منه ﷺ.^(٤)

ولما اشتد الحصار على يهود بني قريظة وأيقنوا أنه لا مفر من وقوعهم في يد الرسول ومن معه من المؤمنين، وزلزل الله قلوبهم، أعلنوا استسلامهم على حكم رسول الله ﷺ، فجاء الأوس إلى رسول ﷺ يشفعون فيهم، (فرد الحكم إلى سعد بن معاذ فقال: إني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة وأن تُسبى الذرية)،^(٥) فقال ﷺ: ((قضيت بحكم الله))،^(٦) وكان سعد قد اتصل بهم

(١) صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٩٣؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٦٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٣٤؛ الواقدي، المغازي، ج٢/٤٩٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/١٠.

(٣) البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٩٤.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٣٤؛ الواقدي، المغازي، ج٢/٤٩٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/١٢.

(٥) البخاري، (فتح الباري)، ج١٥/٣٠٠؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٦٦.

(٦) البخاري، (فتح الباري)، ج١٥/٢٩٨.

أثناء حصار الخندق، ومن الذين اطلعوا على غدر اليهود، حيث بعثه الرسول ﷺ مع الوفد الذي ناقشهم، فأخذ سعد العهد على الجميع بأن يقبلوا حكمه فقبلوه، ثم أعلن الحكم الصارم في حق يهود بني قريظة ناقضي العهد وخائني الرسول ﷺ والمؤمنين وخائني موطنهم، وهو أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى نساؤهم وذرياتهم وأن تقسم أموالهم، ونفذ الحكم فيهم، وهم أعلم الناس باستحقاقهم لتلك العقوبة، وسلم من هذا الحكم أحد زعماء بني قريظة، وكان قد عاب على قومه نقضهم للعهد مع الرسول ﷺ وقال: إني لم أشرككم في غدركم، وشاركه في البراءة من خيانة بني قريظة رجال آخرون، وكان ما يزال على يهوديته، إلا أن رفضه لنقض العهد نجاه وأمثاله من العقوبة.^(١)

وكانت غزوة الأحزاب وبني قريظة نصراً للمؤمنين هزم الله فيها الأحزاب لم ينالوا من المسلمين، وأظهر الله اليهود على حقيقتهم، وطهر المدينة من بني قريظة وغنم المسلمين أموالهم ومزارعهم. وقد نزلت في بني قريظة آيات منها قوله - تعالى -: ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٣٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

(١) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣ / ٢٣٨؛ الواقدي المغازي، ج ٢ / ٥٠٣.

غزوة بني المصطلق [المريسيع] (شعبان سنة ٦هـ)

سميت الغزوة باسم قبيلة بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة القحطانية، كما سميت بالمريسيع^(١) نسبة إلى المكان والماء الذي قصدته الغزوة وهو مواطن بني المصطلق بين مكة والمدينة، بالقرب من عُسفان وقديد وما حولها.

كانت القبيلة في المنطقة الفاصلة بين قريش في مكة، وكانت تهاب قريشاً ولها صلة قوية بهم، ولم يتضح موقفهم من الإسلام في البداية، مع تحالف بقية خزاعة مع الرسول ﷺ إلا أن بني المصطلق خالفوا قومهم، حيث اتضح تقديمهم الدعم لقريش قبيل غزوة أحد،^(٢) كما أنهم أخذوا يعدون جمعاً لغزو المدينة، وكان ﷺ يراقبهم ويتابع تحركاتهم،^(٣) وعندما تأكد من نيتهم غزو المدينة أعد ﷺ جيشاً قوامه سبعمئة مقاتل، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري ﷺ، وخرج إلى بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة من الهجرة،^(٤) وكان قوام الجيش المهاجرين الذين يحمل رايتهم أبو بكر الصديق ﷺ وكذلك الأنصار الذين يحمل رايتهم سعد بن عبادة ﷺ.

وقد وصل الرسول ﷺ إلى مكان تجمعهم (وأمر عمر بن الخطاب ﷺ فنادى في الناس أن قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم

(١) وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باباً سماه "باب غزوة بني المصطلق من خزاعة وهي غزوة المريسيع"؛

للمزيد من التفاصيل انظر: إبراهيم بن إبراهيم قريبي مرويات غزوة بني المصطلق، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (بدون تاريخ)؛ وعبدالحليم بن إبراهيم العبدللطيف، حديث الأفك، بريدة: نادي القصيم الأدبي ١٤١٠هـ.

(٢) البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة الذاتية، ص ٢٩٠.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢٩٠؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/٢٩٧.

(٤) المصدر السابق، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢/٦٣.

فتراموا بالتُّبيل، ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين فحملوا حملة رجل واحد،^(١) (فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم)، وأصاب المسلمون منهم سبباً كثيراً، فيهم جويرية بنت الحارث ﷺ.^(٢)

وقد ظهرت بسالة عدد من الصحابة ﷺ في هذه المعركة، منهم علي بن أبي طالب وعبدالرحمن بن عوف ﷺ وغيرهم.^(٣)

وقد أدب الرسول ﷺ بهذا الهجوم هذا البطن من خزاعة، وهم الذين ساعدوا قريشاً وأرادوا الهجوم على المدينة.

كان موطن خزاعة بين مكة والمدينة، وكونها جزءاً مغالفاً ومعادياً من خزاعة في وقت كانت بقية بطونها محالفة للرسول ﷺ جعل الجميع يدرك حزم الرسول ﷺ في ضرب أعدائه، فكانت هذه الغزوة تأكيداً لهذا الأمر.

حديث الإفك:

كانت حادثة الإفك من أهم أحداث غزوة بني المصطلق.^(٤) هذه الحادثة التي مسّت عرض رسول الله ﷺ أظهر عرضاً وأحبّ نسائه إليه وللأمة جمعاء، ولعل الحديث عن الحادثة من صاحبها وهي عائشة ﷺ أصحّ الروايات في تفاصيل دقيقة. وهو حديث يُعدّ من أطول الأحاديث، في صحيح البخاري وأكثرها تفصيلاً ودقة برواية ابن أختها عروة بن الزبير ﷺ. وقد

(١) الواقدي، المغازي، ج١/٢٠٠؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٢٩٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٩١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٩٤.

(٤) وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ج٥/٥٥؛ وانظر: تفصيل الروايات عند ابن كثير، في السيرة النبوية، ج٣/٣٠٤، تحت عنوان "قصد الإفك".

حرّصتُ على نقله بكامله: ((حديث الإفك والإفك بمنزلة النجس والنجس يقال إفكهم وأفكهم فمن قال أفكهم يقول صرفهم عن الإيمان وكذبهم، كما قال يُؤفكُ عنه من أفك يُصرفُ عنه من صرف، عن ابن شهاب قال: حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيّب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، قالوا قالت عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أفرغ بين أزواجه، فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، قالت عائشة: فأفرغ بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما أنزل الحجاب، فكنت أُحملُ في هودجي وأنزلُ فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل، دنونا من المدينة قافلين، أذن ليلة بالرحيل، فقامت حين أذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري، فإذا عقدٌ لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاءؤه. قالت: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه، وهم يحسبون إنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العُلقةَ من الطعام، فلم يستتكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه. وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل فساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجنّت منازلهم وليس بها منهم داعٍ ولا مجيب، فتيّممت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني

عيني فتمت، وكان صفوان بن المعطلّ السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فعرفني حين رأني، وكان رأني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، واللّه ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة، وهم نزول. قالت: فهلك فيّ من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبدالله بن أبيّ بن سلول. قال عروة: أخبرت أنه كان يُشاع ويُتحدّث به عنده، فيقره ويستمعه ويستوشيه. وقال عروة أيضاً: لم يُسمّ من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، في ناسٍ آخرين لا علم لي بهم، غير أنهم عصابة - كما قال اللّه تعالى - وإن كبر ذلك يقال عبدالله بن أبيّ بن سلول.

قال عروة كانت عائشة تكره أن يُسبَّ عندها حسان، وتقول إنه الذي

قال:

فإن أبي ووالده وعرضي

لعرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة: فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرييني في وجعي أني لا أعرف من رسول اللّه ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكي، إنما يدخل عليّ رسول اللّه ﷺ فيسلم ثم يقول: "كيف تيكُم" ثم ينصرف، فذلك يرييني ولا أشعر بالشرّ، حتى خرجت حين نقهتُ، فخرجت

مع أم مسطح قبل المناصع،^(١) وكان مُتَّبِرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُفُّ قريباً من بيوتنا. قالت وأمرنا أمرُ العرب الأول في البرية قبل الغائط، وكنا نتأذى بالكُفُّ أن نتخذها عند بيوتنا، قالت: فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي، حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح. فقلت لها بنس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدرًا فقالت: أي هنتاه ولم تسمعي ما قال؟ قالت: وقلت: ما قال فأخبرتني بقول أهل الإفك - قالت - فازددت مرضاً على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: "كيف تيكم". فقلت له أتأذن لي أن آتي أبوي، قالت: وأريد أن استيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ، فقلت لأمي يا أمته ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئةً عند رجل يحبها لها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي قالت: ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت: فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه، فقال أسامة: أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما عليُّ فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك. قالت

(١) المناصع: هي مواضع يُبرز إليها للبول والغائط، وعُرِفَتْ كمتبرز للنساء في المدينة. انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٥/٥٣٥.

فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: "أي بريرة هل رأيت من شيء يُريبك". قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر فقال "يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي". قالت: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل فقال أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذ، وهو سعد بن عباد، وهو سيد الخزرج قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل فقام أسيد بن حُضير - وهو ابن عم سعد - فقام لسعد بن عباد فقال: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. قالت: فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر قالت: فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكثوا وسكت قالت: فبكيت يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فائق كبدي، فبينما أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي قالت: فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا، فسلم ثم جلس قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا

يوحى إليه في شأنى بشيء قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: "أما بعد، يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه". قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلصَ دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله ﷺ عني فيما قال. فقال أبي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ فيما قال. قالت أمي: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً: إني والله قد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لئصدقتي، فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حين قال: "فصبر جميلٌ والله المستعان على ما تصفون". ثم تحولت واضطجعت على فراشي، والله يعلم أني حينئذ بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله مُنزلٌ في شأنى وحيًا يُتلى، لشأنى في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى أنه ليتحدّر منه من العرق مثل الجمان وهو في يوم شاتٍ، من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت: فسُرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال: "يا عائشة أمّا الله فقد برأك". قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه. فقلت والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله ﷻ قالت: وأنزل الله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النور، من الآية: ١١]. الآيات، ثم

أنزل الله هذا في براءتي. قال أبو بكر الصديق: وكان يُنفق على مسطح بن أثاثة لقربته منه وفقره والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ [النور، من الآية: ٢٢] إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحبُّ أن يغفر الله لي.

فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبداً. قالت: عائشة وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال لزينب ماذا علمت أو رأيت. فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً. قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ. فعصمها الله بالورع قالت: وطفقت أختها حمئة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط. ثم قال: عروة قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط. قالت ثم قتل بعد ذلك في سبيل الله)).^(١)

ولعل هذه الرواية من صاحبة الشأن بطرقها المتعددة أبلغ ما يقال عن هذه الحادثة.

وقد نزلت في الحادثة آيات تتلى إلى يوم القيامة فيها دروس عظيمة للأمة في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل أمرٍ منهم ما اكتسب من الإثمة والذى توكلت كبره منهم له عذاب عظيم﴾ (١١) ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خيراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) ﴿لَوْلَا

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ج ٥٥/٥ - ٥٦٠؛ وقارن بابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢٩٧ - ٣٠٧.

جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾
 وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
 ﴿١٤﴾ إِذْ تَقَوْنَا بِاللَّسِنَةِ وَالسِّنِّتِ وَقَوْلُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ
 اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ
 عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ
 الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ
 الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
 وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ
 أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ
 الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

[النور].

لقد كان واضحاً أن الأمة كلها مستهدفة في أخلاقها، فإذا اتهم رسول
 الله ﷺ، وأهله في أخلاقهم وأعراضهم فإن بيوت الأمة كلها لا تسلم،
 ولذلك صرح القرآن الكريم بأن هذا العمل كان من أهدافهم قال الله
 فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا
 وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ [النور].

وحذر من الذين يجرون الناس إلى خطوات الشيطان وقد نهاهم الله عن
 ذلك قال - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ
 الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ
 أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾ [النور]. ولا شك أن رسول الله

ﷺ سيد الطيبين وأمّهات المؤمنين أطيب الطيبات: ﴿الْخَيْثُ الْخَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثُورُ لِلْخَيْثِ وَالطَّيْبَةُ لِلطَّيْبِ وَالطَّيْبُونَ لِلطَّيْبَةِ أَوْلِيكَ مَبْرُورٌ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور]. وهو أطيب الطيبين صلوات الله وسلامه عليه، واختار الله له أطيب النساء ومنهن عائشة ﷺ التي امتدحها حسان بن ثابت ﷺ بقوله:

حَصَانُ رَزَانٌ مَا تَزَنُ بِرِيبةٍ

وتصبحُ غرثي من لحوم الغوافل^(١)

عقيلةٌ حيٌّ من لؤيِّ بن غالبٍ

كرامُ المساعي مجدُّهم غيرُ زائلٍ

مُهدِّبةٌ قد طيّبَ الله خيمها

وطهرها من كل سوءٍ وباطلٍ

ومن قوله:

فإنَّ أبي ووالدتي وعرضي

لعرض محمد منكم وقاء^(٢)

وبكل أسف يأتي بعض الأعدياء ليقولوا كلاماً خبيثاً عن الطيبة عائشة ﷺ زوجة أطيب الطيبين أبي الطيب ﷺ، وصاحبه والداعي إليه.

وسبحان الله يرد التأكيد في نفس السورة على غض البصر من قبل

(١) من رواية للبخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، ج ٦١/٥؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣٠٦/٣.

(٢) انظر: شعر حسان بن ثابت في تبرئه عائشة والدفاع عنها؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣٠٦/٣.

الرجال والنساء لمتابعة الدروس في العفة لأمة الطهارة أمة محمد ﷺ اقتداء به وبأزواجه أمهات المؤمنين قال - تعالى - : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَالِدِ الَّذِي لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣١) [النور].

ومن الواضح أن الصديق ﷺ كان مستهدفاً مع رسول الله ﷺ في الإفك الذي جرى على أم المؤمنين عائشة ؓ، كما أنه تضرر من أناس تحدثوا في الموضوع في وقت كان ﷺ يحسن إليهم ويتصدق وينفق عليهم من ماله الخاص، ولذلك حزن لفعالهم ذلك ونكرانهم للجميل فأراد أن يوقف نفقته على مسطح بن أثاثة وهو ابن خالة أبي بكر الصديق ﷺ، فلما نزل قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٢) [النور]، قال الصديق ﷺ: بلى والله إنا نحب أن يغفر الله لنا وأرجع ما كان ينفق على مسطح وقال والله لا أنزعها منه أبداً.^(١)

وكان من أبرز أحداث غزوة بني المصطلق ما جرى من المنافقين خصوصاً عبدالله بن أبي بن سلول، ومن على شاكلته في زمن النبي ﷺ. ولا شك أن

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج ٢/١٣٢٢.

لهم أتباعاً في كل زمان، ينطبق عليهم ما نزل من آيات قرآنية في أولئك المنافقين.

فقد اقتتلَ عند الماء رجلان، أحدهما من غفار أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، والآخر حليف لأحد الأنصار، فصرخ أجير عمر يا معشر المهاجرين: وصرخ حليف الأنصاري: يا للأنصار، وكاد الشر أن يقع بين المسلمين. فلما سمع رسول الله ﷺ بذلك قال: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم دعوها فإنها منتنة)).^(١)

وكان عبدالله بن أبي بين أناس من الأنصار ومعهم زيد بن أرقم رضي الله عنه صحابي صغير في السن، يستمع لما يجرى فقال ابن أبي مستثيراً القوم: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول (سمن كلبك يأكلك) أما والله لنرجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعرز منها الأذل، ثم أقبل يلوم من حوله من الأنصار قائلاً: أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم.

ثم ذهب زيد بن أرقم رضي الله عنه وهو غلام حدث، فأخبر رسول الله ﷺ بما قال عبدالله بن أبي وكان عمر بن الخطاب حاضراً فقال: يا رسول الله ﷺ مر به فأقتله، فقال ﷺ: ((فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟)).^(٢)

وجاء عبدالله بن أبي يحلف أنه ما قال ذلك وينفي ما نقله زيد بن أرقم، حتى شك بعض من لم يحضر أن عبدالله بن أبي صادق، ولاموا زيد بن أرقم

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب يقولون لنرجعنا إلى المدينة...، ج٦/٦٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب يقولون لنرجعنا إلى المدينة...، ج٦/٦٦؛

ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٢٩١.

وهو غلام حدث. وأمر رسول الله ﷺ بالرحيل في ساعة ما كان يرحل فيها، فجاء أسيد بن حضير رضي الله عنه مستفسراً من رسول الله ﷺ عن سبب رحيله في هذه الساعة التي ما كان يرحل فيها فقال رضي الله عنه: ((أو ما بلغك ما قال صاحبك؟ قال: وأي صاحب: قال عبد الله بن أبي؟ قال: وما قال؟ قال رضي الله عنه: زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)) قال رضي الله عنه: فأنت والله العزيز وهو الذليل، لنخرجنه منها إن شئت، وسار رسول الله ﷺ يومه وواصل ليله وصدر اليوم التالي حتى أرهق الناس فلما وضعوا رحالهم ناموا من شدة التعب، ولم يكن هناك مجال للمناقشة والحديث حول ما دار إذ شغل الناس حتى تعبوا وأرهقوا.^(١)

وفي هذه الأثناء نزلت سورة المنافقين على رسول الله ﷺ، وكان فيها تصديق لما قاله زيد بن أرقم،^(٢) وهو غلام حدث فأخذ رسول الله ﷺ بأذنيه مداعباً فقال: ((هذا الذي أوفى الله بأذنه))^(٣) وكان من الآيات التي نزلت في عبد الله بن أبي وفي قوله والمنافقين معه قوله - تعالى -: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٤) هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ [المنافقون].

وكان لعبد الله بن أبي ولد صالح يسمى عبد الله، من أصحاب النبي ﷺ، فلما علم بما حدث من والده جاء إلى النبي ﷺ قائلاً: إنه بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت لا بد فاعلاً فمُرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان فيها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى

(١) انظر: ابن أبي شيبه، المغازي، ص ٢٦٩.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن، ج ٢/١٨٧٦.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢٩٢؛ ابن حجر، الإصابة، ج ١/٥٦٠؛ الذهبي، سير

أعلام النبلاء، ج ٣/١٦٥.

أن تأمر غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال ﷺ: ((بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا)).^(١)

وهذا الحدث يبين خطر المنافقين واستغلالهم للأسباب، لإيجاد الفتنة والشقاق بين المسلمين، وتقويض حقوقهم وإضعاف وحدتهم، واستغلال العصبية لذلك، كما أن في تهديد ابن أبي للرسول ﷺ ومن معه بالإخراج من المدينة أمر واضح بتحسين الفرصة للإضرار بالمسلمين وبنبي الله ﷺ، كما أن في تراجع عما قال وإنكاره له بيان ضعف المنافقين، وقد فضحه الله في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.

وفي موقف ابنه عبد الله صدق ووفاء واستعداد للتضحية بكل شيء من أجل النبي ﷺ، حتى ولو كان والده، وهو من أبر الناس به، وفي جواب الرسول ﷺ وتطيبه لخاطر الابن المؤمن حكمة وعطف وحسن تعامل في مثل هذا الموقف الصعب، كما أن الرسول ﷺ أشغل الجيش بالتحرك وأتعبهم في الاستمرار في ذلك مما أرهقهم ليمنع عنهم الجدال والانقسام، فما أعظم القائد ﷺ وأحكمه في مثل هذه المواقف التي تحتاج إلى وقفات وحكمة.

ومن نتائج غزوة بني المصطلق زواج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث، فقد كانت ابنة الحارث بن أبي ضرار سيد قومها، وقد قتل والدها وزوجها في صفوف بني المصطلق أثناء قتالهم للنبي ﷺ، كما سببت النساء والذرية من قومها، وقد وقعت هي نفسها في سهم ثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري ﷺ، فكاتبته على عتق نفسها، وكانت تعلم رحمة النبي ﷺ وإحسانه على الناس، فجاءت إليه وقالت: (يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢٩٢.

ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعينك على كتابتي ، فرق رسول الله ﷺ لحالها وعرض عليها أن يؤدي عنها ويتزوجها ليرفع شأنها ويعوضها خيراً مما فقدته من العز والشرف) ،^(١) ففعل رسول الله ﷺ ذلك وتزوجها ، فكان بالفعل شرفاً لقومها وإنهاءً لمعاناتهم ، فما أن تزوجها حتى أطلق المسلمون من بأيديهم من سبي بني المصطلق ، وقالوا أصهار رسول الله ﷺ ، فكانت امرأة مباركة على قومها ، تقول عائشة رضي الله عنها : ((أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة أعظم منها بركة على قومها)).^(٢) وقد تعلمت من رسول الله ﷺ فكانت صاحبة عبادة كثيرة الصيام ، وقد روي عنها عدة أحاديث ، وكانت وفاتها سنة خمسين من الهجرة.^(٣)

ومن المؤكد أن زواج النبي ﷺ منها كان فيه حسن صلة مع بني المصطلق ، ذلك البطن من خزاعة الذي حارب رسول الله ﷺ في وقت كانت فيه بقية خزاعة من حلفاء الرسول ﷺ ، فساهم هذا الزواج في تقريبهم للمسلمين وتعاونهم معهم ضد قريش في حربها مع الرسول ﷺ .

(١) إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة بني المصطلق ، ص ٣٥١ ؛

وانظر: ابن حجر ، الإصابة ، ج ٤ / ٢٦٥ .

(٢) ابن حجر ، الإصابة ج ٤ / ٢٦٥ .

(٣) ابن حجر ، الإصابة ج ٤ / ٢٦٦ ؛

وانظر ترجمتها في: المعاشون للرسول ﷺ ، من هذا الكتاب .

غزوة الحديبية (شوال ٦هـ)^(١)

أعلن الرسول ﷺ عزمه على العمرة والتوجه إلى مكة لأدائها بشكل سلمي، ودعا الناس لذلك وخرج بالمهاجرين والأنصار وبعض من انضم إليهم ممن لبوا دعوة النبي ﷺ حتى تجاوز عددهم ألفاً وأربعمائة رجل.^(٢) وفي ذي الحليفة أحرم الرسول ﷺ بالعمرة وقلد الهدى،^(٣) لتعلم قريش أنه خرج زائراً معتمراً معظماً للحرم غير محارب لأهله.

ورواية ابن أبي شيبه في المغازي عن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام من أكثر الروايات تفصيلاً حول أحداث هذه الغزوة، وقد ورد فيها: (خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية، وكانت الحديبية في شوال، قال: فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه رجل من بني كعب، فقال: يا رسول الله إنا تركنا قريشاً وقد جمعت أحابيشها تطعمها الخزير،^(٤) يريدون أن يصدوك عن البيت، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا تبرز من عسفان لقيهم خالد بن الوليد طليعة لقريش، فاستقبلهم على الطريق فقال رسول الله ﷺ: هلم هاهنا، فأخذ بين سرورعتين - يعني شجرتين - فمال عن سنن الطريق

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٠٨؛

والحديبية: قرية على بعد (٢٢) كلم غرب مكة على طريق جدة القديم؛ البلادي، معجم المعالم الجغرافية للسيرة النبوية، ص ٩٤؛

وانظر تفصيلات أكثر عند: الحكمي، حفاظ بن محمد بن عبد الله، مرويات غزوة الحديبية - المدينة المنورة: المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية ١٤٠٦هـ.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، وقوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١١٨]، ج ٥/٦٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، وقوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١١٨]، ج ٥/٦٤.

(٤) الخزير: حساء الدقيق باللحم والدم؛ المعجم الوسيط، ص ٢٣١.

حتى نزل الغميم،^(١) فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإن قريشاً قد جمعت لكم أحابيشها تطعمها الخزير، يريدون أن يصدونا عن البيت فأشيروا عليّ بما ترون، أن تعمدوا إلى الرأس - يعني أهل مكة - أم ترون أن تعمدوا إلى الذين أعانوهم، فتخالفوهم إلى نسائهم وصبيانهم، فإن جلسوا جلسوا موتورين مهزومين، وإن طلبونا طلبونا طلباً متدارياً ضعيفاً، فأخزاهم الله، فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ أن تعمد إلى الرأس فإن الله معينك وإن الله ناصرك وإن الله مظهرك، قال المقداد بن الأسود وهو في رحله: إنا والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم مقاتلون، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا غشي الحرم ودخل أنصابه بركت ناقته الجدعاء، فقالوا: خلأت - أي لم تبرح مكانها - فقال: والله ما خلأت وما الخلاً بعادتها، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش إلى تعظيم المحارم فيسبقوني إليه هلم ههنا - لأصحابه - فأخذوا ذات اليمين في ثنية تدعى ذات الحنظل، حتى هبط على الحديبية، فلما نزل استقى الناس من البئر، فنزفت ولم تقم بهم فشكوا ذلك إليه فأعطاهم سهماً من كنانته، فقال: اغرزوه في البئر فغرزوه في البئر فجاشت ماؤها حتى ضرب الناس بعطن، فلما سمعت به قريش، أرسلوا إليه أخا بني حليس وهو من قوم يعظمون الهدى، فقال: ابعثوا الهدى، فلما رأى الهدى لم يكلمهم كلمة، وانصرف من مكانه إلى قريش فقال:

(١) موضع يقع شمال مكة إلى الجنوب من عُسْفان، بقراية (١٦) كم على طريق المدينة على بعد (١٤) كلم من مكة؛ انظر: عاتق بن غيث البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ٢٦٣.

يا قوم القلائد والبدن والهدي! فحذرهم وعظم عليهم، فسبّوه وتهجموه، وقالوا: إنما أنت أعرابي جلف لا نعجب منك، ولكننا نعجب من أنفسنا إذ أرسلناك، اجلس ثم قالوا لعروة بن مسعود: انطلق إلى محمد ولا نؤتين من ورائك، فخرج عروة حتى أتاه، فقال: يا محمد! ما رأيت رجلاً من العرب سار إلى مثل ما سرت إليه، سرت بأوباش الناس إلى عترتك وبيضتك التي تفلقت عنك لتبيد خضراءها، تعلم أنني جئتك من كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، قد لبسوا جلود النمر عند العوذ المطافيل،^(١) يقسمون بالله لا تعرض لهم خطة إلا عرضوا لك أمر منها، فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نأت لقتال، ولكننا أردنا أن نقضي عمرتنا وننحر هدينا، فهل لك أن تأتي قومك فإنهم أهل قتب، وإن الحرب قد أخافتهم، وإنه لا خير لهم أن تأكل الحرب منهم إلا ما قد أكلت، فيخلون بيني وبين البيت، فنقضي عمرتنا وننحر هدينا، ويجعلون بيني وبينهم مدة، تدل فيها نساءهم ويأمن فيها سربهم، ويخلون بيني وبين الناس، فإني والله لأقاتلن على هذا الأمر الأحمر والأسود حتى يظهرني الله أو تنفرد سالفتي، فإن أصابني الناس فذاك الذي يريدون، وإن أظهرني الله عليهم اختاروا، إما قاتلوا مُعدين، وإما دخلوا في السلم وافرين، قال: فرجع عروة إلى قريش فقال: تعلمن والله ما على الأرض قوم أحب إليّ منكم، إنكم لإخواني وأحب الناس إليّ، ولقد استنصرت لكم الناس في الجامع، فلما لم ينصروكم أتيتكم بأهلي حتى نزلت معكم إرادة أن أواسيكم، والله ما أحب من الحياة بعدكم، فلتعلمن أن الرجل قد عرض نَصفاً فاقبلوه، تعلمن أنني قد قدمت على الملوك ورأيت العظماء فأقسم بالله

(١) العوذ المطافيل: الأمهات اللاتي معهن أطفالهن، والمراد خروجهم مع أطفالهم وأمهات أولادهم ونسائهم ليكون أدعى للثبات وشدة القتال؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج١/٥١١.

إن رأيت ملكاً ولا عظيماً أعظم في أصحابه منه، لا يتكلم منهم رجل حتى يستأذنه، فإن هو أذن له تكلم، وإن لم يأذن له سكت، ثم إنه ليتوضأ فيبتدرون وضوءه ويصبونه على رؤوسهم، يتخذونه حَنَانًا، فلما سمعوا مقالته أرسلوا إليه سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص، فقالوا: انطلقوا إلى محمد، فإن أعطاكم ما ذكر عروة، فقاضياه على أن يُرجع عامة هذا عنا، ولا يخلص إلى البيت، حتى يسمع من يسمع بمسيره من العرب أنا قد صددناه، فخرج سهيل ومكرز حتى أتياه وذكرنا ذلك له، فأعطاهما الذي سألا فقال: اكتبوا ((بسم الله الرحمن الرحيم)) قالوا: والله لا نكتب هذا أبداً، قال: فكيف؟ قالوا: نكتب ((باسمك اللهم))، قال: هذه فاكتبوها فكتبوها، ثم قال: اكتب ((هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله له فقالوا: والله ما نختلف إلا في هذا، فقال: ما أكتب؟ فقالوا: انتسب، فاكتب محمد ابن عبد الله قال: وهذه حسنة اكتبوها، فكتبوها، وكان شرطهم أن بيننا العيبة المكفوفة، وأنه لا أغلال ولا أسلال، قال أبو أسامة الأغلال: الدروع، والأسلال السيوف، ويعني بالعبية المكفوفة أصحابه يكفهم عنهم، وأنه من أتاكم منا رددتموه علينا، ومن أتانا منكم لن نرده عليكم، فقال رسول الله ﷺ: ((ومن دخل معي فله مثل شرطي))، فقالت قريش من دخل معنا فهو منا، له مثل شرطنا، فقالت بنو كعب: نحن معك يا رسول الله ﷺ وقالت بنو بكر: نحن مع قريش، فبينما هم في الكتاب إذ جاء أبو جندل^(١) يرسف في القيود، فقال المسلمون: هذا أبو جندل، فقال رسول الله ﷺ هو لي، وقال سهيل: هو لي، وقال سهيل: اقرأ الكتاب فإذا هو لسهيل فقال

(١) أبو جندل: هو ابن المفاوض القرشي، سهيل بن عمرو، أسلم في مكة، ومنعه أبوه من الهجرة وأذاه وعذبه حتى هاجر، استشهد في معركة اليمامة سنة ١١هـ؛ ابن حجر، الإصابة، ج ٤/٣٤.

أبو جندل: يا رسول الله! يا معشر المسلمين! أُرِدْ إلى المشركين؟ فقال عمر: يا أبا جندل! هذا السيف فإنما هو رجل واحد فقال سهيل: أَعَنْتَ علي يا عمر! فقال رسول الله ﷺ لسهيل: هبه لي، قال: لا. قال: فأجره لي: قال: لا، قال مكرز: قد أجرته لك يا محمد، فلم ينج. ^(١)

إن وقائع صلح الحديبية مليئة بالأحداث العظيمة التي أشير إلى بعضها في القرآن الكريم، ومنها بيعة الرضوان ذلك أن الرسول ﷺ بعث عثمان بن عفان ﷺ إلى أهل مكة ليخبرهم أن رسول الله ﷺ جاء زائراً للبيت الحرام معظماً له ومعتماً ولم يأت لقتال، فدخل عثمان مكة في جوار سعيد بن العاص، فبلغ زعماء قريش ما أمره به رسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يطوف بالبيت فرفض ﷺ إلا أن يؤذن لرسول الله ﷺ في ذلك، فحاولوا احتباس عثمان ﷺ عندهم، ^(٢) وبلغ الرسول ﷺ أن عثمان قد قتل من قبل قريش فجمع رسول الله ﷺ الناس تحت شجرة للبيعة، ^(٣) وقد تنافس المسلمون في بيعة رسول الله ﷺ حتى أن سلمة بن الأكوع بايع رسول الله ﷺ أكثر من مرة، طمعاً في تكرار أن تلامس يده يد رسول الله ﷺ، ولم يتخلف عن البيعة إلا أحد المنافقين وهو (الجد بن قيس)، وكان مختبئاً تحت ناقته، وقد أثنى الله ﷻ على المؤمنين المبايعين لرسول الله ﷺ في قوله - تعالى -:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح].

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٧٠ - ٢٧٤؛ وانظر إلى أجزاء مختلفة من الرواية عند البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية و قول الله - تعالى -: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح]، ج ٦٩/٥.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣١٥.

(٣) وضع البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية و قول الله - تعالى -:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح]، ج ٦١/٥؛ ووضع ابن هشام في السيرة عنوان: "بيعة الرضوان"، ج ٣/٣١٦.

بيعة الرضوان فقال: ((أنتم اليوم خير أهل الأرض))،^(١) وكان رسول الله ﷺ بايع لعثمان ضرب إحدى يديه على الأخرى.^(٢)

وقد كان رسول الله ﷺ مرثاً مع قريش في مفاوضته وفي صلحه لدرجة أن عمر بن الخطاب ﷺ اغتم غمماً شديداً لهذا الأمر واستغرب وقال يا رسول الله: ألسنت نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قال ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال عمر: فلم تُعطي الدنيا في ديننا؟ قال ﷺ: إني رسول الله ﷺ ولست أعصيه، قال عمر: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به، قال: بلى فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟ قال عمر: لا، قال ﷺ: فإنك آتية ومطوف به، ثم توجه عمر إلى أبي بكر الصديق ووجه له مثل الكلام الأول قائلاً: لم تُعطي الدنيا في ديننا؟ فرد عليه أبو بكر رد الفقيه العالم العاقل: يا عمر إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق.^(٣)

وحيثما انتهى الأمر بالاتفاق على أن لا يعتصر الرسول ﷺ في هذه الرحلة، وإنما يأتي من عام قابل، قال ﷺ لأصحابه: ((قوموا فانحروا ثم احلقوا))، وكررها على الصحابة، فلم يبادروا في ذلك، حيث كان بعضهم لا يزال يطمع في العمرة، فحز ذلك في نفس الرسول الله ﷺ، فذكره لأم سلمة، فقالت ﷺ: اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تتحر بدنك وتحلق رأسك، ففعل ﷺ، فلما رأى الصحابة ذلك قاموا سراعاً، فنحروا هديهم وأسرعوا في الحلق.^(٤)

وتوجه الرسول ﷺ عائداً إلى المدينة المنورة، وفي الطريق نزلت عليه سورة

(١) متفق عليه، انظر: رواية البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ج ٦٣/٥؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٨٣.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٨٤؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣١٦.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣١٧؛ وانظر: صحيح البخاري، ج ٦٩/٤؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٧٩.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣١٩؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٩٠.

الفتح ففرح بها أيما فرح. روى البخاري في صحيحه عن زيد بن أسلم: أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب ﷺ يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب ﷺ عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، وقال عمر بن الخطاب ثكلتك أمك يا عمر، نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزل في قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي قال فقلت لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن. وجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه فقال: ((لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس))، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح].^(١)

وقد أكدت الآية والروايات للحديث أن صلح الحديبية فتحٌ مُبين، فتح الله به مجال الدعوة في كافة بلاد العرب وفي العالم، حيث أعقبه انضمام بعض القبائل في عقد الرسول ﷺ، كما أعقبه مباشرة كتابة الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض،^(٢) وبالتالي فهي كما سماها الله - تعالى - فتحاً مبيناً فتح فيه رب العباد لعباده سماع دعوة الله، وقد ورد أن الصديق ﷺ قال: (ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد، حتى تبلغ الأمور ما أراد).^(٣) لقد كانت أرباح المسلمين ومكاسبهم من هذا الصلح أعظم من أن تحصى، فهي بينة لا تخفى علمها الله فسمها (فتحاً مبيناً)، كان الصلح اعترافاً بالمسلمين ودولتهم وقائدهم ﷺ، كما كانت هدنة أتاحت للمسلمين فرصة التفرغ للدعوة، والعودة في العام الثاني لأداء العمرة.

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ج ٦٢/٥؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٧٨.

(٢) انظر: كتب الرسول لملوك وزعماء العالم ﷺ، من هذا الكتاب.

(٣) محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج ٣٢٨/٢.

وأما ما جاء من شرط إعادة من أتى من قريش إلى المسلمين بدون إذن وليه فقد كان في الظاهر صعباً على المسلمين أما في التطبيق فظهر خلاف ذلك عند أول تطبيق له.

فقد جاءت مجموعة من المسلمين إلى المدينة من مكة دون إذن أهلهم وكان فيهم أبو بصير عروة بن أسد الثقفي رضي الله عنه، فأرسلت قريش تطلبهم من الرسول ﷺ فسلمه النبي إلى رجلين من قريش، وكان ثابت الإيمان وقال له ﷺ: ((يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهداً، ولا يصح في ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً))، ^(١) فخرج أسيراً مع الرجلين، وفي الطريق تمكن من أخذ سيف أحدهما وقتله، ففر الآخر خائفاً ودخل المدينة مذعوراً فأخبر النبي ﷺ بما حدث فأمنه ﷺ، ثم جاء أبو بصير وقال: يا رسول الله ﷺ قد أوفى الله بدمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم فقال ﷺ: ((ويل أمه مسعراً حرب لو كان معه أحد))، ^(٢) ثم خرج أبو بصير إلى نواحي (العيص) ^(٣) على طريق تجارة قريش ناحية الساحل، ولحق به من خرج من المسلمين من قريش، وكون منهم فريقاً يقارب السبعين مقاتلاً قطعوا الطريق على قريش وتجارها، فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ تتاشده أن يؤويهم إليه، ^(٤) وأعلنت تنازلها عن شرط إرجاعهم، فكان هذا الشرط نصراً للمسلمين، وجعل الله لأبي بصير

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٢٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٢٤؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٩٠.

(٣) مكان يجتمع فيه شجر السدر والعوشج ويسمى عيصاً، وهو مكان ناحية البحر بطريق تجارة مكة إلى الشام كون ملجأً للفارين لكثافة أشجاره وسهولة تخفيهم فيه؛ انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/١٧٣.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٢٤؛ وانظر: صحيح البخاري، باب عمرة القضاء،

وأمثاله مخرجاً كما أخبر الرسول ﷺ مع وفائه ﷺ بعهده.

* * * * *

رسائل النبي إلى زعماء العالم^(١)

بعث رسول الله ﷺ للعالم كافة قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء] يدعو الخلق لعبادة الخالق ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف]، وبالتالي فإن الأمر لا يحتاج إلى معرفة، فالعالم ومكوناته وأحوال البشر فيه واحدة في نظر الخالق قال - تعالى - : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات]، فالإسلام ونبيه يدعو الناس إلى الله ويوحدهم تحت عبودية الله ويذهب الفرقة والتمييز قال - تعالى - : ﴿ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾، لا فضل لأحمر على أبيض، ((الناس سواسية كأسنان المشط))، ومن هنا فقد كانت معرفته ﷺ بالعالم من حوله وممالكه وأنظمتها، وبالقبائل وزعمائها، وبالذول وأحوالها واضحة، وما كان اختياره للحبشة لهجرة أصحابه رغم وجودها خلف البحر في قارة أخرى إلا عن علم بحالها ونظامها ونسبة العدالة في النظام، ومدى تطبيقه لدى ملكها ((فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد)).^(٢)

(١) ألقت العديد من الأبحاث والكتب التي عالجت الموضوع منها: جمال الدين بن أبي حديدة الأنصاري، المصباح المغني في كتاب النبي الأمي إلى ملوك الأرض؛ ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة؛ خالد سيد علي، رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء.

(٢) انظر: الهجرة إلى الحبشة، من هذا الكتاب.

بعد صلح الحديبية كتب الرسول ﷺ كتاباً إلى عدد من ملوك العالم، واهتم لذلك، فاختر من أصحابه لكل وجهة من يصلح لها ممن هو خبير بها ويعرفها، وأوصاهم وأشعرهم بالمسؤولية، قال ابن هشام بلغني أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية، فقال: ((أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة وكافة، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم، فقال أصحابه وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتناقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله فأصبح المتناقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها، فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه وكتب معهم كتاباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام)).^(١)

كتاب الرسول ﷺ إلى ملك الروم:

الروم تعد أقوى الدول المعاصرة للرسول ﷺ، وقد تحدث القرآن الكريم عن الروم في سورة أنزلت في مكة وسميت بسورة الروم، وجاء فيها: ﴿الْمَغْلَبَةِ الرُّومِ ۝٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ [الروم].

كانت تدور الحروب في تلك الفترة بين الروم والفرس في نواحي فلسطين والأردن، وكان حديث العالم عن تلك الحرب.

ومن المعروف أن مصر والشام وشمال إفريقيا كانت ولايات تابعة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٦٠٦، ٦٠٧.

لإمبراطورية الروم البيزنطية، وقد كان المسيطر الفعلي على الحكم في هذه الإمبراطورية هو الملك نفسه (الإمبراطور) الذي اتخذ القسطنطينية عاصمة له، وكان له الحق في اتخاذ القرارات يساعده في عمله بعض اللجان الفرعية والمستشارون، وكانت الولايات التابعة للدولة تحكم حكماً عسكرياً في الغالب، حيث تتوزع معسكرات الجنود على الولايات المختلفة.^(١)

وكان للحروب بين الفرس والروم قبل الإسلام دور في تقوية النظام العسكري في هذه الدولة، وبالتالي زادت الحاجة إليه، وهذا بالطبع على حساب العامة من الرعية الذين أصيبوا بأضرار كبيرة في العديد من الولايات، في الشام ومصر والجزيرة وغيرها، نظراً للمد والجزر في الحروب الفارسية الرومية التي استمرت فترة طويلة قبيل الإسلام، كما أن نظام الضرائب المفروض في الولايات الرومية كان يشعر الناس بالإرهاق، فهناك ضرائب على الأراضي، وضرائب على الحيوانات، وضرائب على الممتلكات المختلفة، إضافة إلى الضرائب الموضوعة على الرؤوس، كما أنها تجرُّ الشباب جرّاً إلى الحروب وتجنّد القادرين وتقتل المتخلفين رغم أن الحكام والمحكومين كانوا من النصارى.^(٢)

وقد ظهر خلال تلك الفترة نظام الملّتمين، الذين يقومون بجباية الضرائب لأنفسهم مقابل التزامهم بمبالغ معينة يدفعونها إلى الدولة، وبالتالي زادوا في الضرائب على الناس، وزادوا في الظلم حتى يفوا بالتزاماتهم التي ضمنوها للدولة.^(٣)

(١) ستيفن رنسيومان، الحضارة البيزنطية، ص ٨٩.

(٢) نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٧٣.

(٣) رنسيومان، الحضارة البيزنطية، ص ١١٢؛ صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٢٤.

كانت الديانة العامة للدولة ورعاياها هي النصرانية، حيث كان لرجال الدين النصارى مكانة خاصة في الدولة، وفي المجتمعات العامة لما يتميزون به عن بقية الناس، إذ يُعتبرون طبقة عليا لهم حق التصرف في أحوال الناس وفي معاملاتهم، بل في عباداتهم أيضاً، كما فرضت ضرائب على الناس لصالح الكنيسة ورجالها، وكان رجال الكنيسة يفرضون أوامرهم على الناس، ويعاقبون بصرامة كل من تسول له نفسه مخالفة أوامرهم.

وقد وجدت مذاهب نصرانية مختلفة في مملكة الروم، وكثرت بينها الخلافات العقائدية، التي أدت إلى منازعات وصلت إلى مراحل قوية من العداء بين الكنائس، وقد تركزت مذاهب نصرانية معينة في بعض المناطق، وبالتالي وجد نوع من العداء بين بعض الولايات وبعض الشعوب مع دولة الروم.

وقد حاول إمبراطور الروم فرض المذهب اللاهوتي السائد في القسطنطينية على بعض الولايات، وخصوصاً في مصر، مما أوجد كرهاً شديداً بين الأقباط والرومان وبالتالي فإن كثيراً من الناس في الدولة يحسون بالظلم والاضطهاد نتيجة تدخل الدولة في الشؤون الدينية، وتأييدها لبعض المذاهب ضد البعض الآخر، ونتيجة لسيطرة الكنيسة ورجال الدين فيها على الناس وتحكمهم فيهم، إضافة إلى فرض الضرائب الزائدة لصالح الكنيسة بطريقة ظالمة.^(١)

كان ملك الروم وزعيمهم وإمبراطورهم في العصر النبوي هرقل ٦١٠م - ٦٤١م، وهو من أسرة يونانية، ولد في قرطاجنة - تونس حالياً - وكان والده

(١) العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٩٧، ٩٩، ٩٨؛ أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وأخلاقهم، ج ١/١٣٨.

حاكماً يونانياً عليها، وقد استدعي هرقل إلى العاصمة القسطنطينية، ومُلك على الروم في فترة صراع مع الفرس، وقد نجح في هزيمة الفرس واستعادة قوة الروم مرة أخرى وهيبتهما قال - تعالى -: ﴿أَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الروم].

كان ذلك سنة ٦١٦م، وكان هرقل قائداً نصرانياً، تمكن من استعادة الصليب المقدس لديهم، الذي يزعمون أن المسيح صلب عليه، فسُرَّ عامة النصارى بذلك وأقاموا الاحتفالات في كل مكان،^(١) وخصوصاً في القدس، حيث وصله في نفس الفترة كتاب الرسول ﷺ، وكان مما جاء فيه كما ثبت في "الصحيحين" أنه كتب إلى هرقل: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿٦٤﴾ قُلْ يَتَّخِذُ الْكُفْرُ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].^(٢) والأريسيين هم الأجراء والعمال والفلاحين وعوام الناس والمستضعفين بوجه عام، الذين يحول هرقل بينهم وبين سماع الإسلام.

وقد وجه رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي بالرسالة إلى هرقل، وكان دحية من قوم محتكين بالروم في الشام، حيث تقع قبيلته كلب في

(١) انظر: أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٩٦؛ ود. علي العنوم، تجربة مؤتة، ص ٩٢.

(٢) البخاري، صحيحه، كتاب بدء الوحي، من ح برقم: (٦)، ج ٦/١؛ ابن القيم، زاد المعاد،

الأطراف الجنوبية لبلاد الشام،^(١) وبالتالي يعرف كيفية الوصول إلى الإمبراطور هرقل والحديث معه.

ولما وصل كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل فزع فزعاً شديداً، وهو من علماء النصارى المعدودين فيهم، مع كونه ملكهم واهتم للرسالة وحاول الحصول على أكبر قدر من المعلومات، فطلب أن يؤتى بأحد من قوم النبي ﷺ وممن يعرفونه، وكان أبو سفيان بن حرب - ولم يسلم بعد - في نواحي بيت المقدس في تجارة لقريش بعد صلح الحديبية، فجيء به مع من معه من تجار قريش إلى هرقل لكي يسأله عن النبي ﷺ، فلما كانوا بحضرة هرقل سأل وناقش عن طريق الترجمان، وقد أورد البخاري ذلك فقال: (إن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام - في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماداً فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء^(٢) فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبتني فكذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل

(١) السمعاني، الأنساب، ج ١٠/٤٥٢.

(٢) بيت المقدس.

يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر قلت لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت: أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك: هل كان من آباءه من ملك؟ فذكرت: أن لا، قلت: فلو كان من آباءه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني

أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل فقراه، فإذا فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران]، قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام)).^(١)

وتدل الروايات المختلفة على وجود نقاش خاص بين هرقل وبين دحية الكلبي على انفراد، جرى فيها الحديث عن الإسلام ونظرته للمسيح ومن يُصلي له المسيح، وخوفه بالله وسوء العاقبة عليه وعلى ملكه وعلى آخرته.

وأن هرقل ناور وكتب كتاباً إلى النبي ﷺ وأرسل له بهدية مع دحية، فقسمها على المسلمين، وقال عنه: كذب عدو الله هو على نصرانيته.^(٢) ورغم شك المؤرخين بمثل هذه الرواية التي لم ترد بسند واضح عند

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج ١/٤.

(٢) انظر: جمال الدين بن أبي حنيفة الأنصاري، المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي إلى ملوك الأرض، ص ١٩٨.

المحدثين وتفصيلاتها إلا أنه من الطبيعي جلوس هرقل مع دحية حامل الرسالة ومناقشته خصوصاً، أنه ظهر في رواية البخاري وغيره اهتمام هرقل بالأمر مما يدل على قناعته بصدق الرسول ﷺ وإن لم يُظهر الإسلام.

لقد كان واضحاً معرفة هرقل بصدق النبي ﷺ وأنه ما دعا إلا إلى حق، وأنه نبي المختين،^(١) نبي آخر الزمان. وكان على يقين بنصر الله له وبأن الله سيحقق له ما وعد من انتشار دينه وغلبة دعوته، ولذلك سمع منه أبو سفيان ما سمع في وقت كان فيه على الشرك وزعيماً لقريش المحاربة لرسول الله ﷺ، وبالتالي وقع في نفس أبي سفيان خشية النبي ﷺ، وشيء من معرفة الحق لما رأى خوف هرقل وحديثه فقال: (هذا ملك بني الأصفر يخافه) وكان أبو سفيان حتى تلك اللحظة من أعداء الرسول ﷺ، فأدرك أنه عدو لمن يخشاه أعظم ملوك الأرض في زمانه.

وقد كان هرقل مهموماً متردداً بين الإيمان بالرسول ﷺ والانقياد لأوامر المسيح بالإيمان بآخر الأنبياء، وبالتالي كسب الإسلام مع النصرانية السابقة، أو عدم الإيمان ومعصية الله ورسوله وتقديم الحياة الدنيا على الآخرة، ومجاملة سياسيي الروم، والإذعان لهم من أجل البقاء على دفة السلطة، ولذلك أراد أن يجري امتحاناً لقواد الروم وهل ينقادون معه للإيمان بالرسول ﷺ، فقد حدث أحد أساقفة نصارى الشام ويسمى ابن الناطور وكان من أصحاب هرقل قال: (ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى حمص فلم يرُ حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي، وأنه نبي فأذن هرقل لعظماء

(١) المختين: الذين يقومون بختان ذكورهم على سنة إبراهيم عليه السلام.

الروم في دسكرة^(١) له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع، فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الايمان قال: ردوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي أنفاً اختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه^(٢).

وهكذا صدق في هرقل قوله - تعالى - في سورة الروم: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدِيلَ لِمَ خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقِمُوا وَلَكِنِ أَكْثَرُ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم]. وقوله - تعالى - في سورة الروم: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرِينًا ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم] وفي قوله - تعالى - في سورة الروم ﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم].

ولعل الإنسان يتوقف قليلاً مع هذه الشواهد القرآنية في سورة الروم، ويرى أن ورودها في سورة الروم كأنما يشير لموقف ملكهم وزعمائهم وفي ذلك آية عظيمة لمن اعتبر.

(١) الدسكرة: بناء خاص يقيمه الملوك في بلاد الروم للمناسبات والاحتفالات، المعجم الوسيط ص ٢٨٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (ج ١/٤)؛ وانظر: شروحات وروايات ابن حجر على الحديث في فتح الباري، وانظر: رواية الإمام مسلم في صحيحه، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، ج ٥/١٦٤.

وقد تحدث هرقل بوضوح عن انتصار للمسلمين قادم في مستقبل الأيام القريبة، وامتداد لهم فيما تحت قدميه ويعني بذلك فلسطين وبقية بلاد الشام.

فكان أول احتكاك عسكري بين الروم والمسلمين في معركة مؤتة، التي قادها زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وصاحبه ومن أحب الناس إليه ﷺ، وكانت نتيجة تلك المواجهة الأولى استشهاد عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة، وكان من الواضح خشية هرقل من متابعة المسلمين وقتالهم، فرغم قوته ومتابعته للفرس في معاركه حتى اقتحم عليهم بلادهم، إلا أنه لم يحرص على الاحتكاك بالرسول وجنده ﷺ ومواجهتهم، ولعل القرآن الكريم في سورة الروم أشار وحذر أصحاب القوى الظالمة عامة، ومنهم الروم في سورة سميت باسمهم في قوله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ يُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْءَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الروم].

نعم والله إنني لأحس أن هذه الآيات كأنما هي موجهة للروم أولهم وآخرهم الذين عمروا الأرض، فلما كذبوا بآيات الله كانت عاقبتهم سيئة، حيث ظلموا أنفسهم فأورث الله المسلمين أرضهم، بعد أن كذبوا بآيات الله، وعاد جيش رسول الله ﷺ من مؤتة ليقابله شباب المدينة بقولهم: أيها الضارون فيدافع عنهم ﷺ بقوله: ((ولكنهم كراون إن شاء الله))،^(١)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣ / ٣٨٢؛ الواقدي، المغازي ج ٢ / ٧٦٥.

فيرجع خالد بعد سنوات ليقود المسلمين في أكبر معاركهم مع الروم في موقعة اليرموك، فكان سيفاً من سيوف الله كما أخبر الرسول ﷺ،^(١) وكان ذلك الحديث من الرسول عن كرتهم المقبلة في اليرموك وغيرها وحدث ذلك معجزة من معجزات المصطفى ﷺ، وما أكثرها لمن تمعن.

ثم جاء الاحتكاك الثاني عسكرياً في أيام الرسول ﷺ في غزوة تبوك، التي قادها الرسول ﷺ بنفسه، وكان معه أكبر جيش عرفه المسلمون في زمانه، وكان هدفه الروم وأطراف دولتهم الجنوبية، إذ إن تبوك على حدود بلاد الشام، حيث عسكر الرسول ﷺ ومن معه قرابة الخمسة عشر يوماً، بث خلالها العديد من السرايا في المناطق المجاورة واتصل بعدد من زعماء المدن والقبائل المحيطة والداخلية في حدود الروم، وعقد معهم معاهدات واتفاقيات خاصة على مسمع من هرقل ومرأى منه، حيث ذكرت الروايات عدم احتكاك الروم بجيش الرسول ﷺ، حيث أصيب بهزيمة مغنوية، رغم قوته العسكرية وقدرته على المواجهة.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ كتب لهرقل وهو في تبوك يخبره بين إحدى ثلاث، إما أن يسلم وله ما في يديه من ملكه، وإما أن يؤدي الخراج، وإما أن يأذن بحرب، فجمع هرقل بطارقه وقسيسيه في قصره وأغلق عليهم الباب وقال لهم: إن محمداً بعث إلى يخيرني إلى إحدى ثلاث، إما أن أسلم ولي ما تحت قدمي من ملكي وإما أن أرسل إليه الخراج، وإما أن آذن بحرب، وقد تجدون في كتبكم بأنه سيملك ما تحت قدمي من ملكي، فتخروا نخرة حتى أن بعضهم خرجوا من برانسهم، وقالوا: نحن نرسل إلى رجل من العرب جاء في برديه ونعله بالخراج؟! فقال هرقل: اسكتوا إنما

(١) صحيح البخاري، فتح الباري، ج١٦/١٠٠.

أردت أن أعلم تمسككم بدينكم ورغبتكم فيه.^(١)

ولعل هذا هو الاختبار الثاني من هرقل في محاولة منه لإلتماس استجابة من زعماء الروم للنبي ﷺ ، فلما رأى رفضهم آثر الملك والدنيا على أمر الله ودينه.

وتذكر الروايات أنه نتيجة لذلك وصل مبعوث من هرقل إلى رسول الله ﷺ أثناء إقامته في معسكره بتبوك، وقد أورد الإمام أحمد في مسنده حديثاً طويلاً عن رجل من نصارى العرب بعثه هرقل إلى النبي ﷺ في تبوك عنونه بـ(حديث التوخي عن النبي ﷺ) قال الراوي فيه: ((لقيت التوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص، وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الفند^(٢) أو قرب، فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبي ﷺ ورسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل؟ فقال: بلى قدم رسول الله ﷺ تبوك، فبعث دحية الكلبي إلى هرقل، فلما أن جاءه كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم باباً، فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إليّ يدعوني إلى ثلاث خصال: يدعوني إلى أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مائنا على أرضنا والأرض أرضنا، أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب لياًخذن ما تحت قدمي، فهل من تبعه على دينه، أو نعطيه مائنا على أرضنا، فنخروا نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعوننا إلى أن ندع النصرانية أو نكون

(١) ابن زنجوية، الأموال، ص ١٢٣ - ١٢٥؛ وانظر تخريج الرواية عند: محمد عبدالله عنان الصبحي، مرويّات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ، (رسالة دكتوراه الجامعة الإسلامية بالمدينة)، ص ٦٤٥؛ وقد أورد الطبراني في معجمه نص رسالة لهرقل يحتمل أنها هذه الرسالة (انظر: المعجم الكبير، ج ١٤/٨ - ١٦).

(٢) الفند: شدة الكبر ويعني: طاعن في السن.

عبيداً لأعرابي جاء من الحجاز، فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم،^(١) ولم يكداً وقال إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب، فقال: ادع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاء بي فدفع إليّ هرقل كتاباً، فقال: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل فما ضيعت، من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال، انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إليّ بشيء؟ وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل؟ وانظر في ظهره هل به شيء يريبك فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهراي أصحابه محتبياً على الماء فقلت: أين صاحبكم، قيل: ها هو ذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حجره، ثم قال: ممن أنت؟ فقلت أنا أحد تنوخ، قال هل لك في الإسلام الحنيفية ملة أبيك إبراهيم، قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين، يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى فمزقه، والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها والله مُخْرِقُهُ،"^(٢) ومُخْرِقُ ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة، فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير" قلت: هذه إحدى الثلاثة التي أوصاني بها صاحبي وأخذت سهماً من جعبتي فكتبتها في جلد سيفي، ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره، قلت: مَنْ صاحبُ كتابكم

(١) ترفق بهم، وهدأهم وأرضاهم.

(٢) من المعروف وجود أكثر من ملك للحبشة زمن النبي ﷺ أحدهم الذي أسلم على يد جعفر ابن أبي طالب، والذي يشير له الحديث ملك آخر غيره إذ إنه من الثابت وفاة الأول وصلاته عليه صلاة الغائب؛ انظر: الهجرة إلى الحبشة، من هذا الكتاب.

الذي يقرأ لكم قالوا: معاوية فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار؟ قال: فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جلد سيفي، فلما أن فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقاً وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها إنا سَفَرٌ مُرْمِلون قال: فناده رجل من طائفة الناس قال: أنا أجوزه ففتح رحله فإذا هو يأتي بحلة صفورية فوضعها في حجري قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان، ثم قال رسول الله ﷺ: أيكم ينزل هذا الرجل؟ فقال: فتى من الأنصار أنا فقام الأنصاري: وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله ﷺ وقال: تعال يا أخا تتوخ، فأقبلت أهوي إليه، حتى كنت قائماً في مجلسي الذي كنت بين يديه فحل حبوته عن ظهره وقال: هاهنا أمضٍ لما أمرت له، فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم في موضع غضروف الكتف مثل الحجمة الضخمة)).^(١)

ومن الواضح تعدد المراسلات بين النبي ﷺ وهرقل، وبروز اسم دحية الكلبي كحامل للرسائل ومحاوِر لهرقل،^(٢) وقد ذكر أن دحية الكلبي حمل كتاباً إلى هرقل في آخر حياة الرسول ﷺ، وكان هرقل متردداً في الرد على الرسول حتى أتاه خبر وفاة رسول الله ﷺ.^(٣)

وقد عاش هرقل بعد ذلك حتى رأى بنفسه وقوع أجزاء كبيرة من مملكته في الشام وفي فلسطين وبيت المقدس خصوصاً بيد للمسلمين، وصدق قوله ليملكن ما تحت قدمي هاتين، فكانت البداية في خلافة أبي

(١) الإمام أحمد، مسنده، ص ٤١١، ٤٤٢

(٢) انظر: فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص ٤٥.

(٣) السهيلي، الروض الأنف، ج ٤/٢٤٩.

بكر، والتمام في عهد عمر من بعده ﷺ أجمعين، حيث أطلق هرقل حسرة وهو يخرج من أرض الشام تاركاً إياها للمسلمين الذين أخذوها بالقوة مودعاً وداعاً أبدياً: "سلامٌ عليك يا أرض سوريا تسليم الوداع، لا لقاء بعد اليوم".^(١)

وقد ذكر أن هرقل احتفظ بكتاب النبي ﷺ وأوصى بحفظه من بعده، فما زالت ملوك الروم تتناقله قروناً عديدة، وكانوا يعرضونه على بعض المسلمين من وفود الخلفاء والسلاطين،^(٢) وقد ظهرت النسخة الأصلية من هذا الخطاب النبوي وأجريت عليه أبحاث ودراسات رجحت صحة النسخة.^(٣)

كتاب الرسول ﷺ إلى كسرى فارس؛^(٤)

فارس دولة قوية، ملاصقة لبلاد العرب، فرضت حكمها على بعض المناطق داخل الجزيرة العربية، في فترات زمنية متعددة، وخصوصاً في اليمن والبحرين.

وقد مرت بمراحل حضارية مختلفة، يهمنها منها السنوات التي سبقت احتكاك هذه الدولة بالإسلام عن طريق الدعوة والفتوح والجهاد. وكانت الديانة السائدة في دولة فارس والمناطق الخاضعة لها هي المجوسية، وهي

(١) الأزدي، فتوح الشام، ص ٢٣١؛ الطبري، تاريخه، ج ٤/٣٨؛

ابن حجر، فتح الباري، ص ٤٣؛ الطبري، تاريخه، ج ٤/١٥٦.

(٢) السهيلي، الروض الأنف، ج ٢/١٩٧؛ ابن حجر، فتح الباري، ج ١/٤٤؛ وانظر: فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص ٤٦، ٤٧؛ والكتاني، التراتيب الإدارية، ج ١/١٦٠.

(٣) محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ١٠٨.

(٤) وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، ج ٥/١٣٦.

ديانة قائمة على عبادة النار وتقديسها، كما وجدت فيها ديانات أخرى كاليهودية، والنصرانية، انتشرت بين العرب الخاضعين لها في العراق والبحرين وغيرهما.

وكانت هذه الدولة تسيطر على فارس، وخراسان والعراق وبعض الأجزاء من أطراف الجزيرة العربية شرقيها وجنوبها.

وقد قام نظام الحكم الفارسي على تنظيم ملكي استبدادي، يقوم على التمييز بين الناس وتقسيمهم إلى طبقات مختلفة لكل منها حدود معينة من الحقوق والامتيازات والواجبات.^(١)

وكان الملك الساساني الفارسي في نظرهم صاحب حق إلهي، يفرض ما يشاء من نظام، ويوقع ما يشاء من عقوبات في حق مخالفيه، كما كان الملك يشرف بنفسه على التفرقة بين الناس حسب النظام الطبقي المتبع، وكل من يخالف ذلك يتعرض لعقوبات تصل إلى حد القتل أحياناً، حتى أن من ينتمي إلى الأسرة الحاكمة نفسه لا يستطيع تجاوز ذلك، فلو تجرأ وحاول أن يتزوج من العامة مثلاً، فإنه يتعرض لعقوبة صارمة قد تؤدي بحياته لخلطه الدماء المقدسة - كما يزعمون - بدماء العامة.^(٢)

وبناء على هذه التفرقة كان الكثير من الظلم يقع على الناس في عموم أنحاء الدولة، وعلى الضعفاء منهم خصوصاً.

وقد كانت الدولة تعتمد على جيش قوي ومنظم، يميز أفراده عن بقية الناس في الحقوق، والاحترام، وغير ذلك.^(٣)

(١) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٠؛ ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني، ج ١٥/٤١٥.

(٢) د. يحيى الخشاب، تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام، ص ٤٨.

(٣) يحيى الخشاب، مصدر سابق، ص ٤٨.

وكان يدير دفة الحكم الملك بنفسه، يساعده حكام الولايات إضافة إلى بعض الأمراء والقواد في مختلف أقاليم الدولة، وهم في الغالب من ملاك الأراضي والقرى الواسعة، الذين يقومون بجباية الضرائب من العمال والفلاحين وعامة الناس إلى خزينة الدولة، كي تخدم الجيش والملك وحاشيته، في ترفهم الذي لم يكن له نظير، حيث اشتهر عن ملوك الفرس جمعهم للكنوز والذخائر وإسرافهم الشديد في الملابس والأطعمة، حتى ضرب بترفهم المثل، وكان الترف يدفعهم إلى فرض المزيد من الضرائب على المزارعين والعامة، وبالتالي زاد شعور الناس بالظلم نتيجة ما يؤخذ منهم، إضافة إلى ما كانوا يدفعونه من ضرائب على رؤوسهم تشبه الجزية.^(١)

وقد دخلت الدولة الفارسية قبيل الفتح الإسلامي في حرب شديدة مع الروم، أثرت على الدولة، ودفعتها إلى فرض المزيد من الضرائب والمكوس على رعاياها، مما زاد من سخط الناس وإحساسهم بالظلم، ومهد ذلك للمقارنة مع عدل المسلمين عند الفتح. وكانت القوة العسكرية للفرس في أشدها زمن النبي ﷺ نتيجة لاستعداداتها في حربها مع الروم.^(٢)

أما كسرى الذي عاصر الرسول ﷺ وكتب له كتباً فهو كسرى (أبرويز) وتعني المظفر وهو ابن هرمز الرابع حفيد كسرى الأول المعروف بـ(أنوشروان)، وصل ما لم يصل إليه سلفه من تدويخ الدولة المنافسة الروم (البيزنطيين) بلغ انتصاره ومجده أوجهما في سنة ٦١٥ م، حتى نجح هرقل في دحر الفرس عن بلاده والهجوم المنتصر على مركز المملكة الساسانية حتى اضطر كسرى أبرويز أن يغادر عاصمته ويلجأ إلى مكان آمن، ولكنه ما

(١) أرثر كرستسن، إيران في عهد الساسانيين، ص ٥٨.

(٢) عبدالعزيز العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٩٥ - ٩٧.

لَبِثَ أَنْ قُتِلَ فِي ثَوْرَةِ ٦٢٨ م بَعْدَ وَصُولِ رِسَالَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ^(١)

وقد كان ملكاً قوياً جباراً (من أشد ملوكهم بطشاً، وأنفذهم رأياً، وأبعدهم غوراً، وبلغ فيما ذكر من البأس والنجدة والظفر وجمع الأموال والكنوز ومساعدة القدر، ومساعدة الدهر إياه ما لم يتهيأ لملك أكثر منه). ^(٢)

بعد صلح الحديبية كان ضمن الرسائل التي بعثها رسول الله ﷺ إلى الزعماء والملوك الكتابة إلى كسرى مع عبدالله بن حذافة السهمي، ^(٣) فأمره أن يدفعوا إلى عظيم البحرين فدفعها عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يمزقوا وجاء في كتابه ﷺ إلى كسرى ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لئنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس)). ^(٤) فلما وصل كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز وقرئ عليه أخذه الكبر والجبروت، وغضب على الرسول ﷺ ومزق كتابه، فكانت دعوة رسول الله ﷺ عليهم ((أن يمزقوا كل مُمزَّق)). ^(٥) ولم يقف عند هذا الحد في تكبره وتجبّره،

(١) أبو الحسن الندوي ص ٢٩٨.

(٢) الطبري، تاريخه، ج ٢/١٣٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٦٠٧؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٧.

(٤) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٥٦؛ ابن سعد، الطبقات، ج ١/٢٦٠؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣/٦٨٨.

(٥) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، ج ٥/١٣٦.

فكتب إلى باذان عامله على اليمن - وكانت للفرس سيطرة عليها منذ سنة ٥٧٥م -^(١): (ابعث من عندك رجلين إلى هذا الرجل بالحجاز).^(٢) وكان هدفه أسر الرسول ﷺ والإتيان به ليعاقبه بما يريد ، فبعث باذان من اليمن رجلين شديدين إلى رسول الله ﷺ. ويصف ابن كثير وصولهما إلى الحجاز فيقول: (فخرجتا حتى قدما الطائف فوجدا رجلاً من قريش في أرض الطائف فسأله عنهما فقال: هو بالمدينة واستبشر أهل الطائف يعني وقريش بهما ، وفرحوا وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك كفيتم الرجل ، فخرجتا حتى قدما على رسول الله ﷺ ، فكلمه باذويه فقال: شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك. وقد بعثني إليك لتتطلق معي ، فإن فعلت كتب لك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكفه عنك ، وإن أبيت فهو من قد علمت ، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك. ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكره النظر إليهما وقال: ((ويلكما من أمركما بهذا!)) قالوا: أمرنا بهذا ربنا - يعنيان كسرى - فقال رسول الله ﷺ: ((لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي ثم قال: ارجعا حتى تأتياني غدًا)) قال: وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء: أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله.^(٣)

قال فدعاهما فأخبرهما ، فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، فنكتب بها عنك بهذا ونخبر الملك باذان؟ قال: "نعم أخبره ذلك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي

(١) عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع، اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٨.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ج ١٦/٢٥٧.

(٣) من رواية ابن أبي شيبة، في المغازي، ص ١٥٥؛ وانظر: ابن سعد، الطبقات، ج ١/٢٦٠.

إلى الخف والحافر" وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ومملكك على قومك من الأبناء ثم أعطى خرخرة منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك. فخرجوا من عنده، حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر فقال: والله ما هذا بكلام ملك، واني لأرى الرجل نبياً كما يقول وليكونن ما قد قال، فلئن كان هذا حقاً فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسئري فيه رأينا. فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: أما بعد فإني قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس، لما كان استحل من قتل أشرافهم وبحرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه.

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول الله، فأسلم الأبناء من فارس من كان منهم باليمن، قال: وقد قال باذويه لباذان: ما كلمت أحداً أهيب عندي منه، فقال له باذان: هل معه شرط؟ قال لا.^(١)

وتذكر الروايات أن قتل كسرى الذي أشار إليه الرسول ﷺ كان على يد ابنه شيرويه ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ من جمادى الآخرة سنة تسع من الهجرة.^(٢)

وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: ((إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله)).^(٣) كما يشير الرسول ﷺ إلى سقوط المدائن عاصمة الفرس في يد

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣ / ٥٠٩، ٥١٠.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣ / ٥١٢.

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣ / ٥١٣.

المسلمين في قوله: ((لتفتحنَّ عصابةً من المسلمين كنوز كسرى في القصر الأبيض)).^(١)

وأما رد فعل باذان ملك اليمن بعد وصول الرسولين إليه فكان السماع منهما لتقرير دقيق عن ما رأيا من حال رسول الله ﷺ وسمعا ممن حوله، ولا يستبعد أنهما سمعا من سلمان الفارسي ﷺ وهما من الفرس ومن غيره، كما جاءت الأخبار إلى باذان ومن معه من الفرس في اليمن بقتل أبرويز في الليلة التي أخبر بها رسول الله ﷺ، وورد أن باذان أسلم وقال: (إن هذا لرسول)،^(٢) (وإن كان حقاً فلا يسبقني أحد من الملوك في الإيمان به)، فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس اليمن.^(٣)

وتذكر الروايات أنه وفد بعضهم على رسول الله ﷺ في المدينة في أواخر حياته،^(٤) كما كان الأبناء باذان وغيره من أمراء الفرس في اليمن دور كبير في الوقوف مع أمراء الرسول ﷺ معاذ بن جبل وغيره من الأمراء ﷺ أثناء ولايتهم اليمن للرسول ﷺ.

كما شاركوا في القضاء على ردة الأسود العنسي الكذاب مدعي النبوة، وإعادة الإسلام إلى اليمن بعد ردة الكثيرين من القبائل في خلافة أبي بكر الصديق ﷺ، وقاموا مع نسائهم بقتل الأسود العنسي الكذاب، وكان باذان على رأس هؤلاء من أبناء الفرس (واحتزوا رأسه ثم علا سور المدينة حين أصبح فقال: الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن الأسود كذاب عدو الله، فاجتمع أصحاب الأسود

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٤٢.

(٢) انظر: ترجمته عند ابن حجر في الإصابة، ج ١/١٧٠.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/٥١٠.

(٤) الطبري، تاريخه، ج ٢/٦٥٦.

فألقى إليهم رأسه فتفرقوا إلا قليلاً^(١).

وقد بدأ المسلمون فتوحهم في بلاد فارس أثناء خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت أشد المعارك معهم معركة القادسية، التي قادها من جانب المسلمين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومن جانب الفرس قائدهم المشهور (رستم). وكانت أهداف المسلمين واضحة، وإيمانهم بوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح فارس وإسقاط ملكها وتمزيقه وإعادة الحق إلى عباد الله وتحريرهم من عبودية البشر معروفة عند أواسط المسلمين.

وفي زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقبل معركة القادسية طلب رستم وفوداً من المسلمين ليستمع إليهم ويحاوهم، ويسمع منهم بنفسه مباشرة، وكان من هؤلاء ربعي بن عامر الذي اشتهر كمبعوث للمسلمين في أحد اللقاءات، حيث استعد رستم للقاءه، وأعد مجلسه الفخم لهذا الأمر وزينه بالنمارق المذهبة والحريير، وأظهر اللآلئ والمجوهرات، ووضع الزينات المختلفة وفرشت البسط المزركشة بالذهب والفضة. وجلس رستم للمقابلة في وسطها على سرير من الذهب، وأقبل ربعي بن عامر على مجلس رستم عليه ثياب بالية مرقعة، يحمل سلاحاً متواضعاً ويركب فرساً صغيرة، فلما وصل إلى مجلس رستم، دخل بفرسه إلى المجلس وداس بها على الديداج والحريير، ثم انتزع شيئاً من الحريير الذي في البسط وربط به فرسه وأقبل على رستم ومعه سلاحه، فقال له الفرسُ ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما أنتم دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فأمرهم رستم أن يتركوه، فأقبل على رستم وهو يتوكأ على رمحه فوق البسط والنمارق حتى خرق بعضها، فقال له رستم محاوراً: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها

(١) البلاذري، فتوح البلدان ص ١١٤.

ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله. قال رستم: وما موعود الله؟ قال ربي: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال ربي: نعم ننظركم ثلاثة أيام، فطلب رستم الزيادة فقال ربي: ما سن لنا رسول الله أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث. فقال له رستم أسيدهم أنت؟ فقال ربي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. واجتمع رستم بقواده بعد ذلك وتدارس الأمر معهم وقرروا قتال المسلمين، وعدم قبول عرضهم الإسلام أو الجزية، واستعد الفريقان للقاء وقد اشتبك المسلمون والفرس في قتال مرير انتهى بانتصار المسلمين،^(١) تلى ذلك سقوط عاصمتهم.^(٢)

حيث توجه المسلمون لفتح المدائن عاصمة الفرس، ووصل المسلمون إليها، وكان يفصلهم عنها نهر دجلة، وقد حطم الفرس ما عليه من جسور ليتحصنوا، ومع هذا فقد حاصرها المسلمون عدة أشهر، كانوا خلالها يفتحون في المناطق القريبة منها، كما كان الفرس خلالها يعملون على تفريغ المدائن من كنوزها وخزائنها، كما فر خلال الحصار يزدجرد ملك الفرس، ومع ذلك فقد كان الدفاع عن المدائن منظمًا وقويًا.

وقد عبر المسلمون النهر لاقتحام المدائن تحت قيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وهم على خيولهم مما أفزع الفرس، ودفع بعضاً منهم إلى الفرار، ثم تمكن

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٦ - ١٢٨؛ الطبري، تاريخه، ج ٤/١٠٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٢/٤٦٣.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٠ - ١٣١؛ وانظر: عبدالعزيز العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٢٤ - ١٣٣.

المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص من دخول المدائن، وتوجه إلى القصر الأبيض، وفيه إيوان كسرى المشهور ودخل سعد القصر متواضعاً متذللاً لله وهو يقرأ قوله - تعالى -: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الدخان]. وقد رفع سعد ﷺ الأذان معلناً كلمة التوحيد في ذلك القصر، وصلى المسلمون جماعة في إيوان كسرى ومجلسه الضخم، وأخمدت نيران المجوسية وأقام صلاة الجمعة فيه، وقد حصل المسلمون على غنائم كثيرة بعثوا خمسها إلى المدينة، فلما رآها عمر بن الخطاب ﷺ قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء. فقال علي ﷺ: إنك قد عفت فعفت رعيته، ولو رتعت لرتعت.^(١)

وكان هذا النصر وهذه الغنائم مصداق ما أخبر به ﷺ عن سقوط كسرى ودولته وكنوزه^(٢) بعد عناده ورفضه لرسالة الرسول وتمزيقها بقراية تسع سنوات؛ ولا أشك في أن سلمان الفارسي ﷺ قد علم بنفسه من رسول الله ﷺ ما وعد من فتح بلاد فارس عامة والمدائن خاصة وغنيمة المسلمين لكنوزها، كما لا شك في لقائه بالفارسيين اللذين قدما من اليمن مبعوثين من باذان بأمر كسرى أبرويزو، وأنه تحدث إليهما، حيث يتوقع بقاءهما عدة أيام كان سلمان موجوداً فيها بالمدينة، وكان لذلك تأثير عليهما، ولذلك أسرع ملوك اليمن من الأبناء من الفرس في الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ إلى الإسلام، كما أن سلمان الفارسي ﷺ كان أول أمراء المسلمين على المدائن بعد فتحها زمن عمر بن الخطاب ﷺ، فكان يمثل الإسلام أمام الفرس بتواضعه وزهده وحسن تعامله مع الناس، فكان له ولغيره من

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٠ - ١٣١؛ وانظر: عبدالعزيز العمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٢٤ - ١٣٣.

(٢) انظر: تفصيلات قصة سراقبة بن مالك مع سوارى كسرى، من هذا الكتاب.

الصحابة أثر كبير في انتشار الإسلام بين الفرس.

كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس (عظيم القبط في مصر):

مصر بلد مشهور بالحضارة منذ القدم، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم أكثر من مرة، من ذلك في قصة يوسف عليه السلام في قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف] وقوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف]. كما جاء الحديث عنها مطولاً في حياة موسى عليه السلام وقصته مع فرعون وذكر بلفظه في القرآن الكريم على لسان فرعون: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف]، وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس]، كما ورد الحديث عنه في آيات متعددة دون تسميته.^(١)

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ أخبر في أكثر من مرة بأن مصر ستُفتح للمسلمين، ومن ذلك قوله ﷺ : ((ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً)).^(٢)

وكان يتزعم مصر المقوقس سايروس (CYRUS) عند الروم، وهو رجل دين على مذهب القسطنطينية، يوناني الأصل كان أميراً على مصر من قبل

(١) انظر: السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ص ٧ - ١٠.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، ج ٧/١٩٠؛ وانظر:

السيوطي، حسن الحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ص ١١.

هرقل وأسقفاً على الإسكندرية في الوقت نفسه.^(١)

كان سكان مصر عند بعثة النبي ﷺ من الأقباط، وهم أهل البلاد الأصليين، يخالطهم مجموعة كبيرة من الروم، وخصوصاً في الإسكندرية في الشمال وفي المناطق العسكرية والإدارية، وكان الروم يمثلون سلطة القسطنطينية وإمبراطور بيزنطة، وهم في الغالب من الجنود والموظفين بالإضافة إلى بعض رجال الدين المسيحيين،^(٢) ومنهم المقوقس وهم على مذهب الطبيعة الواحدة في المسيح، وكان مذهب القبط هو المذهب (MONOTHELEMA) النصراني ويختلف عن المذهب السائد في القسطنطينية بين الروم وهو المذهب (MONOPHUSITAI).^(٣)

وهناك شيء من التنافر بين المذهبين، مما يعني تناقضاً بين سلطة الروم السياسية المسيطرة على مصر وغيرها، وبين شعب القبط سكان مصر الأصليين وكنيستهم القبطية، مما دفع الروم إلى مضايقة عدد من رجال الدين الأقباط وإبعادهم،^(٤) كما دخلت مصر في الصراع الرومي الفارسي، فوقعت في يد الفرس سنة ٦١٦م،^(٥) وأُجْلِيَ الفرس عنها سنة ٦٢٣م بعد انتصار الروم ومعاهدتهم للفرس. وكان ﷺ يتابع أخبار البلدان والصراع بين الفرس والروم، وتأتيه الأخبار من السماء، وجزء من هذا الصراع هو الوارد في سورة الروم ﴿الْمَ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾﴾ [الروم]، وحينما عاد الرسول ﷺ من صلح الحديبية كتب كتاباً إلى المقوقس عظيم القبط، وهو حاكم مصر وأسقفها من قبل الروم، وجاء في الكتاب ((بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ابن الكندي، تاريخ ولاية مصر، ص ١٥.

(٢) المقرئزي، القول الإبريز، ص ٤٣.

(٣) هـ. ايدرس بل، مصر من الإسكندر حتى الفتح العربي، ص ١٩٢.

(٤) المقرئزي، القول الإبريز، ص ٤٣.

(٥) هـ. ايدرس بل، مصر من الإسكندر حتى الفتح العربي، ص ١٩٢.

من محمد عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم، القبط سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ آل عمران. (١) وقد اختار رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة لحمل الرسالة، (٢) وقد تمكن من الوصول إلى المقوقس فسلمه كتاب رسول الله ﷺ فأكرمه، وكان أسقفاً فجمع البطارقة وحاول مناقشة ومحاجة حاطب ابن أبي بلتعة، فكان من ذلك قوله: إذا كان نبياً فما باله لم يدع على قومه حين أخرجوه من بلده إلى غيرها، فرد عليه حاطب فقال له: فما بال عيسى حين أخذه قومه وأرادوا أن يصلبوه لم يدع عليهم بأن يهلكهم الله قبل أن يرفعه إلى السماء الدنيا، فقال له: أنت حكيم، قد جاء من عند حكيم، ثم رد على رسول الله ﷺ بكتاب لم يذكر فيه إسلامه، مع أنه فهم ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وجاء في كتابه: (لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظنه بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب وأهديت لك بغلة تركبها والسلام). (٣) ومن الواضح محاوره المقوقس لحاطب أكثر من مرة وقناعته

(١) انظر: تخرجه عند: محمد عبدالله غبان، مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه، ص ٦٧٣ - ٦٧٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٧٠٦؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج ١٠/٢٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١/٣٠٠.

(٣) انظر: ابن سعد، الطبقات، ج ١/٢٦٠؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج ٢/٣٦٢.

بنبوة الرسول ﷺ وأن أصحابه سينزلون مصر ويظهرون عليها.^(١)

ومما بعث مع حاطب بن أبي بلتعة من هدايا إلى رسول الله ﷺ مارية القبطية التي أصبحت أم إبراهيم ابن النبي ﷺ مع جارية أخرى.^(٢) وكذلك غلام أسود وخُفين ونعل.

ومن الواضح من كتاب المقوقس احترامه لرسول الله ﷺ ومعرفته لآخر الأنبياء وخاتمهم، ولم يبدو فيه ما يظهر إسلامه مع معرفته بالحق، ولعله أثر الدنيا والمناصب والملك على الدين والآخرة، وسار على طريق هرقل في معرفة الحق والإعراض عنه، وكان على يقين بأخذ المسلمين لمصر وفتحها، كما كان المسلمون على يقين بذلك، وهو ما حدث في حياة المقوقس نفسه.

ففي سنة ٢٠هـ انطلق عمرو بن العاص من الشام إلى مصر فاتحاً بأمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عازمين على أخذها من الروم، كما أخذوا فلسطين وبلاد الشام. وقد دخل المسلمون مصر عن طريق العريش، وقاتلوا الروم في (الفرما) ثم في (بلبيس) إلى أن وصلوا إلى حصن بابليون الذي استعصى فترة من الزمن، إلى أن وصل مدد للمسلمين يقوده الزبير بن العوام ففتح.^(٣)

كان المقوقس يتابع أخبار المسلمين وفتوحهم مع إدارته للبلاد ومتابعته للقواد العسكريين، وكان يسأل جواسيسه ورسله الذين يتسللون بين المسلمين، حيث سألهم كيف رأيتهم المسلمين؟! فأجابوا: رأينا قوماً الموت

(١) ابن حجر، الإصابة، ج٣/٥٣١: ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ٤٥ - ٤٧؛

وانظر: فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية، ص ٥٤.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥١٥.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٤: المقرئ، المواعظ والاعتبار، ج١/٢٨٨: انظر:

عبدالعزیز العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٠٣.

أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يفرق رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، فإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم، فقال المقوقس: لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها.^(١)

وقد طلب المقوقس من المسلمين أن يبعثوا إليه وفدًا ليفاوضهم، فبعث المسلمون وفدًا على رأسه (عبادة بن الصامت)، فقابل المقوقس، ودار بينهما حديث هدد فيه المقوقس بقوات الروم وشدتها، وضعف المسلمين وقلة عددهم وسلاحهم، فقال له عبادة بن الصامت: (يا هذا لا تغرنّ نفسك ولا أصحابك، وأما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلت حقًا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالكم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قُتلنا كلنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين بعد الاجتهاد منا، وقد قال الله في كتابه: ﴿كَمْ مِنْ فَتَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتَاةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة]. وما منا إلا ويدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة، وألا يردّه إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا فيما خلفه، وقد استودع كل منا ربه أهله

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١/٢٤؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج ١/٢٩٩.

وولده وإنما همنا ما أماننا).

وقد أُعجب المقوقس بكلام عبادة بن الصامت، وأحس بقوة المسلمين ونصر الله لهم، فعزم على مصالحتهم ودفع الجزية لهم، إلا أن الروم رفضوا ذلك.^(١) فاستمر حصار الحصن، ثم تمكنوا من الاستيلاء عليه، ومنه استولوا على معظم أنحاء مصر، ثم تمكن المسلمون من فتح الإسكندرية سنة ٢١هـ وأصبحت لهم السيطرة على مصر.^(٢)

كتب رسول الله ﷺ إلى ملوك الحبشة:

الحبشة منطقة تقع شرق أفريقيا مقابل السواحل اليمنية، وقد اختلفت حدودها من عصر لآخر، والأرجح أنها كانت في العصر النبوي تشتمل أجزاء من الصومال والسودان وغيرها وتسمى قديماً (*Apyssinia*) وحالياً إثيوبيا (*Ethiopia*)، ودولتها قديمة عرفت منذ زمن سليمان عليه السلام. وقد انتشرت فيها المسيحية في القرن الرابع الميلادي، وتمكنت من السيطرة على اليمن سنة ٥٢٥م. لما يقارب الخمسين سنة، وكانت عاصمتها أكسوم (*Axum*).^(٣)

وصلة أهل مكة بها قبل مبعث النبي ﷺ قديمة، حيث كانت موضعاً لتجارة قريش يجلبون منها ولها السلع، وقد احتل الأحباش اليمن وسيطروا عليها وحكموها قبيل مولد النبي ﷺ وكانوا يتنازعون حكمها مع الفرس، وكان أبرهة الحبشي أشهر الحكام الأحباش لليمن، وهو صاحب حملة الفيل على الكعبة، التي نزل فيها قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

(١) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج١/١٢٩: العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص١٤٣، ١٤٤.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٥٠: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٢٢.

(٣) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية ص ٣٠٠؛ انظر: ابن كثير، ج٢/٢٠٣١.

رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤ [الفيل].^(١)

وحيثما أودى النبي وأصحابه في مكة، وجههم ﷺ من الهجرة إلى الحبشة،^(٢) وأخبرهم بعدل ملكها، الذي كان يسمى عند العرب بالنجاشي، وهو اسم لكل من ملك الحبشة، وكان في تلك الفترة أصحمة وكان مع المهاجرين الأولين للحبشة جعفر بن أبي طالب ﷺ وقد بعث ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة برسالة جاء فيها: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة سلام عليك، فإني أحمد إليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته، كما خلق آدم بيده ونفخته، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالة على طاعته، وأن تتبني وتؤمن بالذي جاءني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ومعه نذر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبر، فإني أدعوك وذنودك إلى الله ﷻ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى)).^(٣)

ومن الواضح من الرسالة اختلاف أسلوبها عن رسائل الرسول ﷺ لبقية الزعماء حيث يبدو منها خطاب خاص لرجل لديه شيء من الإيمان بما جاء فيها عن الرسول ﷺ، ومن المؤكد أن النجاشي أصحمة ناقش جعفر بن أبي طالب ﷺ عدة مرات، منها حينما حضر وفد من قريش مطالباً بإعادة جعفر ابن أبي طالب ومن معه من المهاجرين، فعقد لهم أصحمة مجلساً للمناقشة

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج ٢/٢٠٣١.

(٢) انظر: الهجرة إلى الحبشة، من هذا الكتاب.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢/١٥: ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣/٦٨٩.

وسمع منهم ومن وفد قريش وأظهرت نتيجة المناقشة، مَيْلَ النجاشي إلى الحق والإسلام،^(١) واستعداده للدفاع عن المهاجرين من الصحابة، وقد رد أبرهة على رسالة النبي ﷺ وأعلن إسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب ومما جاء في رسالة النجاشي.

(بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله، من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد؛ فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فوروب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً^(٢) إنه كما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين).^(٣)

وكان الصحابة عند ملك الحبشة مكرمين معززين عنده ودلت روايات مختلفة على أنه دخل في الإسلام، وكان بينه وبين الصحابة لقاءات عديدة، رأوا منه كل خير.

وقد ثبت أن الرسول ﷺ قد بعث رسالة إلى ملك الحبشة أصحمة، ولعله الثاني ويختلف عن الأول وحمل الرسالة عمرو بن أمية الضمري في السنة السادسة من الهجرة وجاء فيها: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة أسلم أنت، فأني أحمد إليك الله الذي لا إله

(١) انظر: الهجرة إلى الحبشة، من هذا الكتاب.

(٢) التفروق: هو قمع التمرة وقيل ما يلتصق بالقمع من التمر؛ الجوهري: الصحاح، ج٤/١٤٥٤.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤/٦٩٠؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/٨٤؛ ابن الجوزي، وفاء الوفاء في أحوال المصطفى، ج٢/٧٥.

إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحسنة فحملت بعبسى فخلقته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى)).^(١)

وبعد قراءة النجاشي للرسالة جرت بينه وبين عمرو بن أمية الضمري مناقشات حول المسيح ﷺ ودعوة النبي ﷺ وكان من هذا الحوار (إن عمراً قال له: يا أصحمة إن عليّ القولُ وعليك الاستماع إنك كأنك في الرقة علينا وكأننا في الثقة بك منك، لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا لناه، ولم نخفك على شيء قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك، الإنجيل بيننا وبينك شاهد، لا يُرد وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك موقع الحزِّ وإصابة المفصل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس فرجلك لما لم يرجهم له وأمنك على ما خافهم عليه بخيرٍ سالف وأجر ينتظر، فقال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل^(٢) وأن العيان ليس بأشقى من الخبر ثم كتب النجاشي جواباً على كتاب النبي ﷺ.^(٣)

ونص الرسالة وبقية الروايات تؤكد إسلام هذا النجاشي على يد عمرو ابن أمية الضمري، والمرجح عندي وعند الكثيرين أنه غير النجاشي الأول

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤/٦٨٩.

(٢) فيه إشارة إلى أن عيسى بشر بمحمد ﷺ كما بشر موسى بعيسى.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج٤/٦٨٩، ٦٩٠.

الذي هاجر إليه جعفر بن أبي طالب ومن معه، وتدل الروايات على أن النجاشي هذا واسمه أصحمة بن أبحة، وقد كتب له الرسول ﷺ يأمره أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، حيث خطبها النبي ﷺ وهي في الحبشة بعد ردة زوجها ووفاته فناب أصحمة عن النبي ﷺ في العقد وأصدقها نياحة عنه.^(١) ودلت روايات مختلفة أن ملك الحبشة بعث إلى الرسول ﷺ في سنة (٨هـ) أناساً من الحبشة، وأنهم غرقوا في البحر قبل وصولهم المدينة.^(٢)

وقد حمل عمرو بن أمية الضمري أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين إلى الحبشة على سفينتين وعاد بهم إلى المدينة أثناء غزوة خيبر في السنة السادسة من الهجرة ومعهم جعفر بن أبي طالب ﷺ فكان النبي ﷺ، يقول: ((ما أدري بأيهم أُسْرُ بفتح خيبر أم بقدم جعفر؟)) ولا شك أن الترتيب لسفرهم وعودتهم للنبي ﷺ وتأمين السفر كان بمبادرة من النجاشي، وقد عدَّ ابن هشام هؤلاء المهاجرين وأسماءهم وعقد لذلك موضوعاً خاصاً سماه (ذكر قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة وحديث المهاجرين إلى الحبشة).^(٣)

ودلت روايات صحيحة ومتعددة عند البخاري ومسلم، وغيرهم أن رسول الله ﷺ قد صلى صلاة الغائب على النجاشي عند وفاته،^(٤) مع اختلاف في وقتها، وهذا يدل على إسلامه، ومن المرجح عند كثير من العلماء أنه كان يكتُم إسلامه، ولعل هذا هو النجاشي الأول الذي استقبل جعفر بن أبي طالب ﷺ ومن معه من المهاجرين.

ويذكر بعض المؤرخين أن هرقل علم بإسلام النجاشي، وكان يدفع له

(١) ابن سعد، سنن النبي ﷺ وأيامه، ج ١ / ٦٠٨؛ وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣ / ٢٧٣.

(٢) ابن إسحاق، السيرة، المغازي، ص ٢١٩؛ ابن حجر، الإصابة، ج ١ / ١٠٢.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣ / ٣٥٩.

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، ج ٤ / ٢٤٦.

مساعدة مالية سنوية، نظراً لارتباطه الديني والإداري بالروم، فقطع هرقل تلك المساعدة.^(١)

رسالته ﷺ إلى هوزة بن علي الحنفي (في اليمامة):

اليمامة إقليم معروف في نجد، وتسمى العرروض أو العارض وقاعدتها حَجْر إلى الغرب من البحرين. وتشتهر بالعديد من القرى في وادي حنيفة وما حولها - وهي الرياض وما يحيط بها حالياً - وهي ذات إنتاج زراعي، وفي العهد النبوي كانت تُصدر القمح إلى مكة وغيرها.^(٢)

كانت في اليمامة حواضر مختلفة وزعامات متفرقة، وقبائل ذات شأن واشتهرت بعيونها ونخيلها.^(٣)

وكان أشهر قبائلها بني حنيفة في قاعدتها حجر، وفي عقرباء (بالقرب من العيننة)،^(٤) ومن أشهر من أسلم من زعمائها (ثمامة بن أثال) في قصة معروفة،^(٥) حيث منع تصدير القمح إلى قريش بعد إسلامه، فطلب أهل مكة شفاعة النبي ﷺ لكي يعيد إليهم تجارة القمح، وكان من أشهر زعمائها هوزة بن علي الحنفي الذي كتب له الرسول ﷺ كتاباً، وكان في نواحي جو الخضارم (الخرج)، وكان حاكماً في بني حنيفة، فكتب له ﷺ في السنة السادسة من الهجرة ضمن من كتب إليهم من الملوك والأمراء. وجاء

(١) ابن القيم، زاد المعاد ج ٣/٦٩٤.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥/٤٤٢؛ وانظر: عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، ج ١/١٥٠.

(٣) المرجع السابق، ج ١/٣٥.

(٤) انظر: عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، ج ٥/٤٤٢.

(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، ج ٥/١١٧ - ١١٨.

في الكتاب: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوزة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفِّ والحافر، فأسلم تسلم وأجعلُ لك ما تحت يديك، فلما قدم عليه سليطُ بن عمرو العامري بكتاب النبي ﷺ مختوماً أنزله وحيّاه وقرأ عليه الكتاب، فرد رداً دون رد، وكتب إلى النبي ﷺ ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل إلى بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه، وقال لو سألتني سيابةً من الأرض ما فعلتُ بادَ وبادَ ما في يديه)).^(١) وقد حمل الرسالة (سليط بن عمرو العامري)، وهو صحابي جليل من مهاجري الحبشة من المسلمين الأوائل، حمل أهله في هجرة الحبشة وولد له هناك.^(٢)

ولما وصلت الرسالة إلى هوزة بن علي كان عنده رجل من عظماء نصارى دمشق الشام، فسأله عن النبي ﷺ وحدثه بكتابه الذي جاءه من النبي ﷺ، ورد هوزة عليه، وأنه خاف على ملكه فقال له: (لئن أتبعته ليملكنك، فإن الخيرة لك في اتباعه، وإنه للنبي العربي الذي يبشر به عيسى، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله).^(٣)

ومن الواضح إصرار هوزة على عدم الإسلام رغم كتابة الرسول ﷺ له، حيث إن اشتراطه وعدم إسلامه دعا النبي ﷺ إلى الدعاء عليه: ((بادَ وبادَ مُلكه))، وهذا ما حصل، فبعد انصراف الرسول ﷺ من غزوة فتح مكة ((جاءه جبريل عليه السلام بأن هوزة قد مات، فقال النبي ﷺ: أما إن اليمامة

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/٦٩٦.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢/٧١.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/٦٩٧.

سيخرج فيها كذاب يُقتل بعدي، فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال له رسول الله ﷺ: أنت وأصحابك^(١).

وحينما قدم وفد بني حنيفة في السنة التاسعة من الهجرة^(٢) كان معهم مسيلمة الكذاب، الذي قال: (إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه. فقال: "لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدوا أمر الله فيك ولن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت. وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني" وانصرف^(٣)).

وقد ارتد مسيلمة ومن معه من بني حنيفة أواخر عهد النبي ﷺ وادعى النبوة، وأصبح يسجع للناس كلاماً هراءً لا فائدة فيه، يزعم أنه قرآن وفتن الناس به، واتبعوه عصبية له، حتى كان بعضهم يقول: (كذاب ربيعة خير من صادق مضر)^(٤)، حيث زعم أنه أشرك في الأمر معه، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً جاء فيه: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك، أما بعد فإنني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قریشاً قوم يعتدون)^(٥). فرد عليه الرسول ﷺ

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/٦٩٦.

(٢) وضع البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن آثال، ج٥/١١٧.

(٣) من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة ابن آثال، ج٥/١١٨.

(٤) انظر: الطبري، تاريخه، ج٣/٢٤٦.

(٥) انظر تخريجه عند: محمد حميد الله، الوثائق السياسية؛ وانظر: ابن سعد، الطبقات، ج١/٢٧٣.

ومما جاء فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)).^(١)

اشتدت الردّة، وأعدّ مسيلمة جيوشاً لقتال المسلمين والهجوم على المدينة، وكان بنو حنيفة في اليمامة أتباع مسيلمة الكذاب أخطر المرتدين على المسلمين في المدينة، حيث كان لديهم جيش يزيد على أربعين ألف مقاتل، كما كان فيهم عصبية قوية دفعتهم للتجمع حول مسيلمة وإظهار الاستعداد لقتال المسلمين، بل مهاجمة المدينة نفسها لسهولة الوصول إليها، ولذلك كان من أوائل الجيوش المرسلّة إليهم جيش يقوده [عكرمة بن أبي جهل]، فلم يلق نجاحاً في مواجهته الأولى مع [مسيلمة]، ولذلك صرفه أبو بكر الصديق [رضي الله عنه] إلى منطقة أخرى، وكان قد وجه [شريحيل بن حسنة] مدداً لعكرمة فأمره بالتريث في طريقه إلى اليمامة ووجه [أبو بكر] [رضي الله عنه] [إخالد ابن الوليد]، وأمر [شريحيل] بالانضمام إلى [إخالد بن الوليد]،^(٢) واقترب الجيش من اليمامة، وعماده المهاجرون وعليهم [أبو حذيفة] و[زيد بن الخطاب] ويحمل رايتهم [سالم] مولى أبي حذيفة [رضي الله عنه]، والأنصار وعليهم [ثابت بن قيس بن الشماس] [رضي الله عنه]، ولما قرب جند المسلمين علم بهم [مسيلمة] فخرج بجنده إلى [عقرباء] وعسكر بهم، وتمكن المسلمون من الوقعة بإحدى سرايا [مسيلمة] وتقدر ما بين الأربعين إلى الستين رجلاً، ثم وقع اللقاء مع مسيلمة وقواته، وكان من أوائل القتلى رجل يسمى (الرجال بن عنفوة)، كان قد أظهر الإسلام والتقى بالنبي [صلى الله عليه وسلم] ثم ارتد وتبع مسيلمة، وزعم الرجال أن مسيلمة قد أشرك مع النبي [صلى الله عليه وسلم] في الرسالة، فكان أشد فتنة

(١) انظر تخريجه تحت رقم: ٢٠٦، عند: محمد حميد الله، الوثائق السياسية.

(٢) الطبري، تاريخه، ج ٢٤٢/٣.

لبني حنيفة من مسيلمة نفسه.^(١)

واشتد القتال واجتهد فيه بنو حنيفة، وتمكنوا من فك بعض أسراهم في السرية الأولى، واهتزت صفوف المسلمين، وكادت أن تقع بهم الهزيمة، ثم تداعى المسلمون للثبات، وقاتلوا ببسالة. وكان من هؤلاء ثابت بن قيس بن الشماس رضي الله عنه حامل لواء الأنصار الذي قال: بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء يعني أهل اليمامة، وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء يعني المسلمين، ثم قاتل حتى قتل، وقال أبو حذيفة رضي الله عنه: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال.^(٢) واشتد القتال وكان في أوله في صالح بني حنيفة، ثم أصبح سجلاً، ثم أمر خالد بن الوليد الناس بأن يمتازوا وتكون كل فئة وقوم وحدهم حتى يرى من أين يؤتى الناس، وكان القتال شديداً، وكان أكثر الناس تحملاً من المسلمين أهل القرآن من المهاجرين والأنصار، أكثر قتلى المسلمين منهم، وشعار المسلمين يوم ذلك: يا محمداه، حيث إنهم حديثو عهد بوفاته رضي الله عنه. وثبت مسيلمة في أول الأمر ثم انهزم عنه قومه، وقد دعا [خالد] رضي الله عنه لمسيلمة الكذاب، فعرض عليه أشياء رفضها مسيلمة، وأصر على مواصلة القتال، فقاتله خالد بنفسه حتى أزاله فهرب وهرب معه أصحابه، فركبهم المسلمون وأخذوا يقتلون فيهم، ولاحت بشائر النصر للمسلمين، فقال أصحاب مسيلمة له أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم، وتنادوا الحديد! الحديد!، ليلجأوا إلى حديقة مسيلمة مسورة ومحصنة، والتجأ مسيلمة ومعه سبعة آلاف من قوات بني حنيفة إلى تلك الحديقة، وأغلقوا على أنفسهم وتحصنوا، فلحق بهم شجعان المسلمين

(١) انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٠٦؛ تاريخ الإسلام وعصر الراشدين، ص ٤٠.

(٢) الطبري، تاريخه، ج ٣/٢٤٨.

ومعهم [البراء بن مالك] أخو خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك ﷺ، وكان كالأسد في شجاعته، فلما رأى المسلمين حائرين في الأسوار، أقسم عليهم البراء أن يحملوه ويلقوه على السور ليحاول فتح الأبواب للمسلمين، وامتنع المجاهدون عن ذلك خوفاً عليه من أن يقتحم عليهم وحيداً، فلما رأوا إصراره ألقوه على السور، فقاتل حتى تمكن من فتح الأبواب للمسلمين. ودخل عليهم المسلمون الحديقة واشتد القتل في الفريقين، وتمكن المسلمون من قتل مسيلمة الكذاب، وقد اشترك في قتله أحد الأنصار مع وحشي قاتل حمزة بن عبدالمطلب ﷺ.

ولما علم بنو حنيفة بمقتله انهزموا وأخذتهم سيوف المسلمين. ثم إن أحد أسرى [خالد] ﷺ من زعماء بني حنيفة طلب أن يصالح خالداً عن بني حنيفة، وخدعه بأن بقية الحصون ملأى بالرجال، وأن لهم كربة على المسلمين، وكانت نساء بني حنيفة قد لبسن السلاح، وأخذن يظهرن أنفسهن من على الحصون، فظن المسلمون أن لجيوش بني حنيفة بقية، فصالح ذلك الزعيم خالداً عن قومه بوقف الحرب بشروط، ثم اكتشف المسلمون أنه ليس في الحصون إلا النساء والضعفاء، فوفوا لهم. وجاء أمر من أبي بكر الصديق ﷺ بقتل كل محتلم من القوم، ولكنه بعد أن علم بهذا الصلح أمضاه.

وقد انتهت بذلك ردة بني حنيفة وقتل كذابهم، ثم عادوا بعد ذلك إلى الإسلام.^(١) وأبلى بعض منهم بلاءً حسناً أيام الفتوح.

وقد استشهد جمع كبير من أصحاب النبي ﷺ في هذه المعركة، كان

(١) خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٠؛ الطبري، تاريخه، ج ٢٥٣/٣.

فيهم جماعة ممن شهدوا بدرًا وأحدًا والمشاهد مع النبي ﷺ. وقد بلغ عدة الشهداء ثلاثمائة وستين من الأنصار وثلاثمائة من المهاجرين، إضافة إلى بعض الأعراب، كما بلغ عدة من قتل من بني حنيفة عشرين ألفاً،^(١) وكان معظم قتلى المسلمين في اليمامة من حملة القرآن فعمل المسلمون على جمعه بعد ذلك.^(٢)

وقد ذكر أن لبني حنيفة بعد ذلك دور في التأليب على عثمان بن عفان ﷺ وقتله وإحداث الفتنة بين المسلمين.

كتابه ﷺ إلى المنذر بن ساوي العبدي (في البحرين):

البحرين اسم جامع لمناطق بين عمان والبصرة على ساحل البحر، ومن مدنها الرئيسة هجر وجواثا والقطيف وإقليم الأحساء كاملاً، ومن عمالها الفرس سبيخت ومن العرب المنذر بن ساوي العبدي،^(٣) الذي كان تحت سلطة الفرس، والبحرين مناطق حضرية فيها هجر المدينة المشهورة وفيها قبائل في بواديها، إضافة إلى سكان المدن من الحضرم من مزارعين وغيرهم، وكان فيهم خليط من المجوس واليهود والعرب ومنهم نصارى.

وقد ورد أن الرسول ﷺ كتب إلى المنذر بن ساوي كتاباً قرأه على أهل البحرين فأسلم بعضهم وكره بعضهم الإسلام، فكتب إلى الرسول ﷺ في ذلك فرد عليه ﷺ بكتاب جاء فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله

(١) الطبري، تاريخه، ج ٢/٣٥٢: العُمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ١٠ - ١٠٦.

(٢) صحيح البخاري، باب جمع القرآن، ج ٩/٨.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١/٣٤٦: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٩٠: ابن سعد، الطبقات، ج ١/٢٦٣.

إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد فإني أذكرك الله ﷻ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رُسُلي قد أثوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك فأترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعضوت عن أهل الذنوب، فأقبل منهم وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية)).^(١)

وكان حامل الرسالة هو العلاء بن الحضرمي ﷺ، وذلك في السنة الثامنة من الهجرة، وقد انتشر الإسلام في البحرين، فكان بعض أهلها يدفعون الزكاة والبعض الآخر من النصارى والمجوس يدفعون الجزية.^(٢)

وقد أصبحت البحرين جزءاً من الدولة الإسلامية في أواخر العصر النبوي، وقد بعث الرسول ﷺ إليها مجموعة من الولاة، نظراً لوجود العديد من القرى فيها، وكان من أشهر ولاة البحرين خلال العصر النبوي الصحابي الجليل (العلاء بن الحضرمي ﷺ)،^(٣) وقد بعث معه الرسول ﷺ بعض الصحابة منهم أبو هريرة ﷺ. وقد دارت بينه وبين الرسول ﷺ العديد من المراسلات التي تتعلق بشؤون الولاية. وكان الرسول ﷺ يبعث بعض أصحابه إلى العلاء ليحضر الجزية المفروضة على المجوس في البحرين إلى المدينة المنورة،^(٤) وكان من هؤلاء المبعوثين (أبو عبيدة بن الجراح ﷺ) واستمر العلاء والياً للبحرين أيام الرسول ﷺ. والراجح أن الرسول توفى والعلاء على البحرين، وقد أقره أبو بكر على ولايته بعد وفاة الرسول ﷺ،

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/٦٩٢.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/٣٤٨.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/٢٦٢.

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، قصة عُمان والبحرين، ج٥/١٢١.

كما أقره عمر بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه.^(١)

وكان للعلاء بن الحضرمي دور كبير في جهاد المرتدين في البحرين حيث ارتدت معظم قبائل البحرين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد استطاع العلاء بتوجيه من أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن يقضي على الردة، ويعيد البحرين إلى صف الإسلام مرة أخرى، وبعد هذا الفتح وجه العلاء بخمس الغنائم إلى أبي بكر الصديق، وقد أقره الصديق على البحرين طيلة خلافته، حيث كانت البحرين تنعم بالاستقرار بقية أيام أبي بكر تحت ولاية العلاء بن الحضرمي، الذي جرت بينه وبين أبي بكر العديد من المراسلات التي تتعلق بشؤون ولاية البحرين.^(٢)

كتابه رضي الله عنه إلى فروة بن عمرو الجذامي:

كان أميراً على أطراف الشام مما يلي بلاد العرب، وكان مرتبطاً بالروم ومقره معان من نواحي الأردن.^(٣)

أسلم وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه، وبعث بهدايا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً جاء فيه: ((من محمد رسول الله إلى فروة ابن عمرو، أما بعد فقد قدم علينا رسولك وبلغ ما أرسلت به وخبر عمّا قبلكم وأتانا بإسلامك، وإن الله هداك بهداه إن أصلحت وأطعت الله ورسوله وأقامت الصلاة وآتيت الزكاة، وأمر بلالاً فأعطى رسوله مسعود بن

(١) خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٢٣.

(٢) العمري، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٥٣ - ٥٥؛ وانظر: بعض تلك المراسلات عند محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ٣٤٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٥٩١.

سعد اثنتي عشرة أوقية ونشأ، قال: وبلغ ملك الروم إسلام فروة فدعاه فقال له: ارجع نملكك، قال: لا أفارق دين محمد وإنك تعلم أن عيسى قد بشر به ولكنك تظن بملكك، فحبسه ثم أخرجه فقتله وصلبه^(١). ومع محاولة رده عن إسلامه فإنه ثبت عليه وقتل شهيداً، وقد قال أبياتاً تدل على ثباته على الإسلام قبل قتله ومنها قوله:

بلغ سـرارة المسلمـين بـأنني

سـلم لربـي أعظـمـي وبنـاني^(٢)

ولعل لمقتله دوراً في تحريك غزوة مؤتة مع أسباب أخرى^(٣) وقد عرف بعد ذلك وجود عدد من جذام ثابتين على الإسلام دافعوا عن دحية بن خليفة الكلبي حين تعرضت قافلته للإغارة من بعض القبائل^(٤) وجاء أنه أهدى لرسول الله ﷺ فرساً قبل قتله من قبل الروم^(٥).

رسائل الرسول ﷺ إلى ملكي عُمان:

تقع عُمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، على ساحل الخليج العربي وبحر العرب (خليج عُمان)، وحدودها في العصر النبوي قريبة من الحدود الحالية المعروفة لعُمان المعاصرة^(٦) وتتصل بحضرموت من

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ٢٨١/١؛ ابن الجوزي، وفاء الوفاء، ج ٧٤٠/٢.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٥٩٢/٤.

(٣) انظر: علي العتوم، غزوة مؤتة، ص ١٠٤.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٦١٢/٤؛ وانظر: د. علي العتوم، تجربة مؤتة، ص ١٠.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٤٩٠/١؛ وابن سيد الناس، عيون الأثر، ج ٤٢٢/٢؛ وفاروق حمادة،

العلاقات الإسلامية النصرانية، ص ١٣١.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١٥٠/٤؛ وانظر: عبد المنعم عبد الحميد سلطان، تاريخ

عمان والخليج في صدر الإسلام، ص ١٣.

الغرب، وبمنطقة البحرين من الشمال، تشتهر بزراعة النخيل وإنتاجها الحيواني الوفير، وعلاقاتها التجارية البحرية مع الهند وغيرها. كانت بها دولة توارثها آل الجلندي وعاصمتها صُحار، وأشهر قبائلها الأزد، ومنهم الملوك.

وكانت الوثنية تسود في عمان كغيرها من بلاد العرب، مع وجود أفراد من المجوس، وأفراد من النصارى لا تأثير يذكر لهم، وقد وصلت أخبار الإسلام مبكرة إلى عمان^(١) بحكم احتكاكها بقبائل العرب، سواء في البحرين أم في اليمن وحضرموت، وبعد عودة الرسول ﷺ من عمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة كتب كتاباً إلى جيفر وعباد ابني الجلندي يدعوهما فيه إلى الإسلام وبعثه مع عمرو بن العاص،^(٢) وجاء في الكتاب: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي سلام على من اتبع الهدى أما بعد؛ فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما)).^(٣)

ويقص عمرو بن العاص ﷺ وصوله إلى عمان وكيفية مقابلته الملكين وما دار بينه وبينهما فيقول: (قال عمرو فلما قدمت عمان عمدت إلى عبد

(١) عبد المنعم عبد الحميد سلطان، تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام، ص ٢٦.

(٢) هنالك آراء مختلفة حول بعث عمرو يرجح بعضها السنة الثامنة أو غيرها؛ انظر: عبد المنعم

عبد الحميد سلطان، تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام، ص ٢٨.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣/٦٩٣؛ وانظر: تخريجه عند: محمد حميد الله، الوثائق

السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ١٤٦.

وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خُلُقاً فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، فمكثت أياماً ببابه ثم إنه دعاني فدخلت عليه فدفعت إليه الكتاب محتوماً ففض خاتمه، وقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه إلا أنني رأيت أخاه أرق منه فقال: دعني يومي هذا وارجع إليّ غداً، فلما كان الغد رجعت إليه فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكتُ رجلاً ما في يدي قلت: فإني خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إليّ فدخلت عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وَصَدَقًا بالنبي ﷺ وخلياً بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها في فقرائهم^(١).

ويظهر أن هناك حواراً طويلاً دار بين عمرو بن العاص وبين الملكين، تركز حول موقف الملوك الآخرين من رسائل الرسول ﷺ ومن دعوته، وعن قومه قريش وما حصل منهم، حيث أخبرهم عمرو بإسلام النجاشي وقبوله الدعوة، وعن موقف هرقل من إسلام النجاشي، كما دارت بينهم مناقشة حول الصدقة وفرائض الزكاة ومن يستحقها، وجوهر دعوة الرسول ﷺ.

وبالطبع اقتنع الملكان بالإسلام وتركوا عمرو بن العاص يؤدي مهمته في الزكاة، بأخذها من الأغنياء وردها على الفقراء، بقية حياة الرسول ﷺ. ويظهر أنه كان يشاركه في المهمة أبو زيد الأنصاري^(٢)، حيث ساهم في تعليم الناس القرآن وسنة رسول الله ﷺ، كما كان للعلاء بن الحضرمي

(١) ابن سعد، الطبقات، ج١/٢٦٢، ٢٦٣.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٩٣؛ وانظر: عبد المنعم عبد الحميد سلطان، تاريخ عمان والخليج في صدر الإسلام، ص ٣٠؛ وأبو زيد هو ثابت الأنصاري والد زيد بن ثابت الأنصاري، الذي جمع القرآن؛ ابن حجر، الإصابة ج١/١٩٣.

أمير البحرين نوع من العلاقة ببعض الأعمال في عمان،^(١) وقد استمر عباد وجيفر على ملك عمان، بقية حياة الرسول ﷺ.

وحدثت ردة في عمان بعد وفاة الرسول ﷺ تمكن أبو بكر الصديق ﷺ بمساعدة جيفر وعباد ملكي عمان من التصدي لها، بعد معارك متعددة قادها حذيفة بن محصن وعكرمة بن أبي جهل في نواحي دُبا،^(٢) وقابل عدد من أهل عمان أبا بكر الصديق ﷺ في بداية خلافته مؤيدين ثابتين على الإسلام فأثني عليهم وعلى ثباتهم رغم اضطراب الأحوال بعد وفاة الرسول ﷺ.^(٣) وكان لقبائلها دور مهم في الفتوح الإسلامية في عصر الراشدين وخصوصاً في العراق وفارس.

كتابه ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني؛

كان الحارث أميراً على نواحي البلقاء من أرض الشام وبعض نواحي دمشق.^(٤) وكان تابعاً للروم متعصباً للنصرانية.

وقد كتب له رسول الله ﷺ رسالة جاء فيها: ((بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق وإنني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك)).^(٥) وقد غضب الحارث، ورمى الرسالة. وكان حامل الرسالة شجاع

(١) العُمري، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، ص ٤٦.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٩٧؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٧؛ ودُبا: مدينة عمانية بها سوق من أسواق العرب المشهورة في العصر الجاهلي؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢/٤٣٤.

(٣) الطبري، تاريخه، ج ٢/٢٦٢، ٢٦٣.

(٤) فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص ٨٣.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ١/٥٦١؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج ٤/٦٩٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٤/٤٦٨.

ابن وهب الأسدي،^(١) وهدد وتوعد وكتب إلى قيصر يستأذن في الهجوم على الرسول ﷺ في المدينة، فنهاه عن ذلك وقال لا تَسِرْ إليه وألهُ عنه.^(٢)

كتابه ﷺ إلى جبلة بن الأيهم الغساني:

كان جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة المشهورين في الشام قبل الإسلام.^(٣) وكانوا مقصد العرب وشعرائهم في الجاهلية وتربطهم بالأوس والخزرج وشائج قُرْبَى، يزورهم حسان بن ثابت وغيره من شعراء يثرب قبل الإسلام فيمدحونهم وينالون من عطاياهم.

وكانوا تبعاً للروم، إلا أنهم يملكون نصارى العرب في الشام، وقد كتب الرسول ﷺ كتباً إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه إلى الإسلام.^(٤)

وقد حمل الرسالة شجاع بن وهب الأسدي، وكان يعرف صلة النسب بين الأنصار والغساسنة، ودار حوار بين شجاع وجبلة جاء فيه: (أن شجاعاً قال له: يا جبلة إن قومك نقلوا هذا النبي من داره إلى دارهم - يعني الأنصار - فأووّه ومنعوه ونصروه، وإن هذا الدين الذي أنت عليه ليس بدين آبائك ولكنك ملكت الشام وجاورت الروم، ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس، فإن أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا وكانت لك الآخرة، وقد كنت استبدلت المساجد بالبيع، والأذان

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٦٠٧؛ وابن حجر، الإصابة، ج٢/١٣٨.

(٢) الحلبي، السيرة الحلبية، ج٣/٣٠٦.

(٣) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٧٢.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٦٠٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٨/٢٦٥؛ الصالحي

الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج١١/٣٥٩.

بالناقوس، والجمع بالشعانيين،^(١) وكان ما عند الله خيراً وأبقى. قال جبلة: إنني والله لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبي اجتماعهم على من خلق السموات والأرض، وقد سرّني اجتماع قومي له، وقد دعاني قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه، ولكنني لست أرى حقاً ولا باطلاً وسأنظر.^(٢)

وليس واضحاً إسلامه زمن النبي ﷺ، ولكن من الواضح وجود فهمٍ لديه بالإسلام ومحبة منه لما جاء به النبي ﷺ، وإن لم يعلن إسلامه، وقد شارك قومه في معركة اليرموك مع الروم وقيل إنه كان معهم^(٣) في القتال.

وقد أظهر الإسلامَ وقدم المدينة زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعه عدد من فرسان قومه، ودخلوها في هيئة وزينة لافتة للنظر،^(٤) وقد سرَّ عمر بقدوم جبلة ومن معه مسلمين، وقد وقعت حادثة أدت إلى رده وفراره إلى الروم (ذلك أنه وطئ رداء رجل من مزينة بدمشق، فاطمه ذلك المزني، فدفعه أصحاب جبلة إلى أبي عبيدة فقالوا: هذا لطم جبلة. قال أبو عبيدة: فيلطمه جبلة. فقالوا: أو ما يُقتل؟ قال: لا! قالوا: فما تقطع يده؟ قال: لا، إنما أمر الله بالقود. فقال جبلة: أترون أني جاعل وجهي بدلاً لوجه مازني جاء من ناحية المدينة؟ بئس الدين هذا. ثم ارتد نصرانياً، وترحل بأهله حتى دخل أرض الروم، فبلغ ذلك عمر فشق عليه وقال لحسان: إن صديقك جبلة ارتد عن الإسلام. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم قال: ولم؟ قال: لطمه رجل من مزينة. فقال: وحق له، فقام إليه عمر بالدرة فضربه.

(١) يقال للرجل أشعث الرأس: أي تآثر الرأس سيئ المنظر قليل النظافة والترتيب ولعله أراد النظافة والغسل ليوم الجمعة، وانظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٢٥٤/٩؛ والجوهري، الصحاح، ج ٢١٤٥/٥.

(٢) الحلبي، السيرة الحلبية، ج ٣٠٦/٣.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٨٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٦٣/٨.

(٤) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٦٣/٨.

وقيل إن عمر لما بلغه إسلام جبلة فرح بإسلامه، ثم بعث يستدعيه ليراه بالمدينة. وقيل: بل استأذنه جبلة في القدوم عليه فأذن له، فركب في خلق كثير من قومه. قيل: مئة وخمسين راكباً. فلما سلم على عمر رحب به عمر وأدنى مجلسه، وشهد الحج مع عمر في هذه السنة، فبينما هو يطوف بالكعبة إذ وطئ إزاره رجل من بني فزارة فأنحل، فرفع جبلة يده فهشم أنف ذلك الرجل. فاستعدى عليه الفزاري إلى عمر ومعه خلق كثير من بني فزارة، فاستحضره عمر فاعترف جبلة. فقال له عمر: أقدتُ منك (أي قضيتُ باقتصاصه منك)؟ فقال: كيف، وأنا ملك وهو سُوقَة؟ فقال: إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله إلا بالتقوى. فقال جبلة: قد كنت أظن أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية. فقال عمر: دع هذا عنك، فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك. فقال: إذا أتتصّر. فقال: إن تتصّرت ضربت عنقك.

فلما رأى الحدّ قال: سأنظر في أمري هذه الليلة، فانصرف من عند عمر، فلما ادلهم الليل ركب في قومه ومن أطاعه، فسار إلى الشام ثم دخل بلاد الروم، ودخل على هرقل في مدينة القسطنطينية، فرحب به هرقل وأقطعته بلاداً كثيرة، وأجرى عليه أرزاقاً جزيلة، وأهدى إليه هدايا جميلة، وجعله من سمّاره، فمكث عنده دهرًا.

ثم إن عمر كتب كتاباً إلى هرقل مع رجل يقال له: جثامة بن مساحق الكناني.

فلما بلغ هرقل كتابُ عمر بن الخطاب قال له هرقل: هل لقيت ابن عمك جبلة؟

قال: لا!

قال: فالقهُ، فذكر اجتماعه به وما هو فيه من النعمة والسرور والحبور الدنيوي، في لباسه وفرشه ومجلسه وطيبه وجواريه، حواليه الحسان من

الخدم والقيان، ومطعمه وشرابه وسروره، وداره التي تعوض بها عن دار الإسلام.

وذكر أنه دعاه إلى الإسلام والعود إلى الشام فقال: أبعد ما كان مني من الارتداد؟

فقال: نعم! إن الأشعث بن قيس ارتد وقاتلهم بالسيوف، ثم لما رجع إلى الحق قبله منه وزوجه الصديق بأخته أم فروة. قال: فالتهى عنه بالطعام والشراب، وعرض عليه الخمر فأبى عليه، وشرب جبلة من الخمر شيئاً كثيراً حتى سكر، ثم أمر جواريه المغنيات فغَنَّينه بالعيدان من قول حسان يمدح بني عمه من غسان، والشعر في والد جبلة:

لِللَّهِ دَرٌّ عَصَابَةٌ نَادَمْتُهُمْ

يَوْمًا بِجَلِّقٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

أَوْلَادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ

قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمَفْضَلِ

قال: فأعجبه قولهن ذلك.

ثم قال: هذا شعر حسان بن ثابت الأنصاري فينا وفي ملكنا.

ثم قال لي: كيف حاله؟ قلت: تركته ضريراً شيخاً كبيراً.

ثم قال لهن: أطرينني، فاندفعن يغنين لحسان أيضاً:

لَمِنَ السِّدْيَارِ أَوْحَشَتْ بِمَعَاكَ

بَيْنَ أَعْلَى الْيَرْمُوكِ فَالْصَّمَانِ

فَالْقَرِيَّاتِ مِّنْ يِّلَامِسِ فِدَارِيَا

فَكَسَاءَ لِقِصُورِ السِّدْوَانِي

فقفا جاسم فأوديعة الصفر
مغنى قبائل وهجان

ثم قال: هذا لابن الفريعة حسان بن ثابت فينا وفي ملكنا وفي منازلنا
بأكناف غوطة دمشق.

قال: ثم سكت طويلاً، ثم قال لهن: بكيني، فوضعن عيدانهن ونكسن
رؤوسهن وقلن:

تصرت الأشراف من عار لطمّة
وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكتّني فيها اللجاج ونخوة
وبعتُ بها العينَ الصحيحةَ بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني
رجعتُ إلى القول الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة
وكنت أسيراً في ربيعة أو مضر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة
أجالس قومي ذاهبَ السمع والبصر
أدين بما دانوا به من شريعة
وقد يصبر العود الكبير على الدبر

قال: فوضع يده على وجهه فبكى، حتى بلّ لحيته بدموعه وبكيت معه،
ثم استدعى بخمسائة دينار هرقلية فقال: خذ هذه فأوصلها إلى حسان بن
ثابت، وجاء بأخرى فقال: خذ هذه لك.

فقلت: لا حاجة لي فيها ولا أقبل منك شيئاً وقد ارتددت عن الإسلام،^(١) ولعل هذه القصة التي مرت معنا فيها شيء من الطول - ومحل نظر - إلا أن في إيرادها فائدة لمعرفة ما وصلت إليه حال جبلة الذي آثر الدنيا على الآخرة على منهج هرقل.

كتابه ﷺ إلى يُحَنَّةَ بن رُؤبة وزعماء أيلة:

أيلة ميناء يقع غربي خليج العقبة من ناحية فلسطين،^(٢) وهو مكان ميناء إيلات في فلسطين المحتلة، وكانت بلدة حضرية يقطنها خليط من السكان اليهود والنصارى، ويتزعمهم يُحَنَّةَ بن رُؤبة وهو من زعماء النصارى في المنطقة.

وحينما وصل الرسول ﷺ إلى تبوك أثناء غزوتها اختار وفداً بعثهم إلى أيلة، برسالة إلى زعيمها يُحَنَّةَ بن رُؤبة وجاء في الرسالة الموجهة إليه وإلى زعماء أيلة ((إلى يُحَنَّةَ بن رُؤبة وسروات أهل أيلة سلِّمُ أنتم، فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو فإنني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم، فأسلِّمُ أو أعطِ الجزية، وأطع الله ورسوله ورُسُلَ رسوله، وأكرمهم واكسهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاء، واكسِ زيدا كسوة حسنة، فمهما رضيت رُسُلي فإنني قد رضيت وقد علم الجزية، فإن أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله وحق رسوله، وإنك إن رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئاً حتى أقاتلكم، فأسبي الصغير وأقتل الكبير فإنني رسول الله بالحق أو من

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ / ٦٣ - ٦٦، حوادث سنة ٥٤هـ (بتصرف).

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١ / ٢٩٢؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار،

بالله وكتبه ورسله وبالمسيح ابن مريم أنه كلمة الله، وإني أؤمن به أنه رسول الله وأنت قبل أن يمسكم الشر، فإني قد أوصيت رسلي بكم، وأعط حرملة ثلاثة أوسق شعيراً، وإن حرملة شفع لكم وإني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئاً حتى ترى الجيش، وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه وإن رسلي شرحبيل وأبيّ وحرملة وحريث بن زيد الطائي فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيت، وإن لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، والسلام عليكم إن أطعتم وجهزوا أهل مقنا^(١) إلى أرضهم)).^(٢)

وقد كان هذا الخطاب فيه أمان واضح لأيلة وأهلها حال رغبوا ذلك، وفيه تهديد صريح لهم ولتجارتهم البرية والبحرية حال عصيانهم، حيث كانت مدينتهم ملتقى السفن من اليمن وغيرها ومحطة الوصول إلى الشام فخشي يُحْتَمَى من العواقب، وقدم إلى رسول الله ﷺ في تبوك ومعه جماعة من أهل الشام ومن اليمن ومن سيطرة البحر وتجاره، وكان يُحْتَمَى يلبس ملابس النصراني وفيها صلبان من ذهب وغيرها.^(٣)

وقد استقبله الرسول ﷺ ومن معه، وعقد معه معاهدة كان فيها نصّ على أمان السفن. وهذا يعني وعي الرسول ﷺ بالحركة والتجارة البحرية وأهمية تأمينها.

وقد جاء في نص المعاهدة: ((بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله،

(١) مقنا: قرية بالقرب من أيلة كان يقطنها يهود، البكري، معجم ما استعجم، ج١/٢١٧؛ وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/٢٩٢؛ (وتوجد حالياً قرية قرب حقل شمال غرب المملكة، تسمى بهذا الاسم).

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١/٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١/٢٩٠؛ الواقدي، المغازي، ج٣/١٠٣١.

ومحمد النبي رسول الله ليحثة بن رؤبة وأهل أيلة، لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، ولمن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، ومن أحدث حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه. وإنه طيبة لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر. هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيط بن حسنة بإذن رسول الله)).^(١)

كان واضحاً لرسول الله أهمية تأمين الطرق البحرية والبرية لأهلها، وكان حريصاً على إعطاء ذلك الأمان لمن يستحقه من التجار، وهذا واضح في المعاهدة التي سبق ذكرها.

كانت الرسائل المختلفة تحقيقاً واقعيّاً وعمليّاً لعالمية الرسالة، وجهد الرسول ﷺ في تبليغها واهتمامه بأحوال البشرية جمعاء وعامة الناس مع خاصتهم، حيث كان يحذر هؤلاء الزعماء أن يحولوا بين رعاياهم ومستضعفيهم وبين سماعهم لدعوة ربهم ومن أرسله الله إليهم.

كانت هذه الرسائل أكبر دليل على حرص الرسول ﷺ على أداء الرسالة، وأن السلام والدعوة بالحسنى هي الأساس الأول للدعوة، وأن دعاوى انتشار الإسلام بالسيف لا صحة لها على الإطلاق.

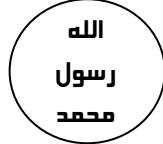
كما أوضحت هذه الرسائل وما تبعها من أحداث اهتمام زعماء النصرانية وقوادها، وعلى رأسهم هرقل، بدعوة الرسول ﷺ، ومعرفتهم بنبوته وصدقه، وتنبؤهم بانتشار دين الإسلام على حساب أراضيهم ومناطقهم ودياناتهم، وهذا ما حدث في زمانهم ورأوه بأعينهم سواء هرقل أم المقوقس أم كسرى وغيره.

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١/٢٨٩: أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، ص ٢٥٨.

كما تدل الرسائل على إيمان الرسول ﷺ بنصر الله لدينه رغم الإمكانيات البسيطة عنده وضعف أمته بالمقاييس المادية، وتحقق وعد الله لرسوله ﷺ.

كما أنه ﷺ اختار لحمل الرسائل أقدر الناس على تحقيق أهدافها والوصول لمن أرسلت إليه، والقدرة على التخاطب معه، ومعرفة طبيعة وعقائد المجتمعات التي وجهوا إلى زعمائها، كما تحلوا بالشجاعة والصبر والحكمة، وقد كان في أسلوب رسائله ﷺ اختصار ووضوح وتحقيق للهدف منها، واستشهاد بالآيات القرآنية الموجهة إليه ﷺ وإلى عامة الناس، خصوصاً في حديثه مع زعماء النصرانية، كما كان يُصدرها بالبسملة، ويؤكد فيها على عبادة الله وحده لا شريك له.

وقد عرف ﷺ أن الملوك لا يقبلون كتاباً إلا بختم، فصاغ خاتماً يؤدي المهمة وفيه أدب مع الله حيث جعل لفظ الجلالة في السطر الأول وكلمة رسول في السطر الثاني ومحمد في السطر الثالث بهذا الشكل:



روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب كتاباً إلى الروم قيل له إنهم لا يقرأون كتاباً إلا أن يكون مختوماً فاتخذ بيضة في يده ونقش فيه (محمد رسول الله).^(١)

وقد خرجت هذه الرسائل بالإسلام خارج بلاد العرب للشعوب الأعجمية المختلفة.

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعوة اليهود والنصارى، ج٢/٢٣٥؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٤٧؛ الكتاني، التراتيب الإدارية، ج٢/٦٥؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج٢/٣٩٩.

كان في الأحداث المصاحبة لبعث الرسائل إعجاز من الرسول ﷺ، حيث حدثت عن تمزيق الله لملك كسرى، وقد حدث ذلك بعد أقل من عشر سنوات من رسالة الرسول ﷺ، حيث فتح المسلمون المدائن، وسقطت مملكة فارس على يد أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم سلمان الفارسي الذي قال عنه الرسول ﷺ ((سلمان مئناً أهل البيت)).

تعد هذه الرسائل وما حملته من مبادئ أسلوباً في التعامل الدولي وتأكيداً لعالمية الرسالة، ونقطة تحول في دولة الإسلام في زمن النبي ﷺ وعلاقتها بالعالم.

وتدل بعض الدراسات على وجود الأصول الجلدية لبعض هذه الرسائل التي ذكر منها، رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط، ورسالته ﷺ إلى المنذر بن ساوي العبدي ملك البحرين، ورسالته ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، ورسالته ﷺ إلى كسرى، ورسالته ﷺ إلى قيصر الروم.^(١)

ورغم كتابات المستشرقين عن هذه الأصول وإجراء دراسات معينة عليها في بعض المتاحف العالمية إلا أنه ينبغي التحفظ على ما ذكر حتى تجرى مزيد من الأبحاث والتحقيقات والمقارنات من الخبراء المختصين بها.

وهناك العديد من الكتب والرسائل من الرسول ﷺ لزعماء وملوك ربما يكونون أقل أهمية ممن ذكرناهم، كما وجه عدد منها لقبائل معينة يصعب الحديث عنها جميعاً وقد صدرت دراسات خاصة عنها ذات منهج

(١) انظر: التفصيلات الخاصة بهذه الأبحاث عند أبي الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص ٢٩٢؛ ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ١١؛ وخالد سيد علي، رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، ص ١٨، ٣٠، ٤٤، ٥٥، ٦٢؛ ويشكك د. محمد غبان في صحة الأصول المحفوظة لهذه الكتب، انظر: الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ وإليه جمعاً ودارسة، ص ٦٧٥.

علمي واضح.^(١)

ولا شك أن ربط أحداث السيرة، بعصر الراشدين، وما جرى خلاله من فتوح بكتب الرسول ﷺ لملوك وأمراء هذه المناطق له أهمية خاصة، كما أن ربط رسائل الرسول ﷺ لأهل تلك المناطق ودخولها وأهلها في الإسلام وبقاء شعوبهم إلى اليوم الحاضر ضمن أمة الإسلام وأتباع محمد ﷺ له أهمية لكل دارس للتاريخ ولانتشار الإسلام بين أهل تلك المناطق، ولتاريخ هذه المناطق المعاصر.

* * * * *

(١) انظر: ما كتبه محمد بن عبد الله غبان، مرويات الوثائق المكتوبة من النبي ﷺ، جمعاً ودراسةً، وهي رسالة علمية أعدت لدرجة الدكتوراه بقسم التاريخ بكلية الدعوة وأصول الدين بالمدينة المنورة؛ وانظر: محمد حميد الله، مصدر سابق؛ وخالد سيد علي، رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء.

فتح خيبر (ربيع الأول سنة ٥هـ)^(١)

كان وفد اليهود الذين حرضوا الأحزاب على غزو المدينة قد تحرك من خيبر، كما أن يهود خيبر كانوا يخططون لغزو المدينة، وقد اتصلوا ببعض القبائل لهذا الغرض، حيث عقدوا حلفاً مع غطفان، وأخذوا يجمعون يهود خيبر ووادي القري وتيماء وما جاورها لضرب المدينة.^(٢)

وقد تأكدت هذه المعلومات للمسلمين بعد عودتهم من غزوة الحديبية، حيث كان من عادة الرسول ﷺ متابعة أخبار أعدائه ومتابعتها، فكانت خيبر تجمعاً لأعداء جدد، فاستعد المسلمون لهذا الأمر. وفي الوقت نفسه كان يهود خيبر، يبثون الدعاية عن قوتهم، ويشيرون أن لديهم قرابة عشرة آلاف مقاتل يعدونهم لقتال الرسول ﷺ، وأن لديهم حصوناً منيعة، كما أنهم أخذوا يهددون المسلمين ويتوعدونهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة بواسطة بقايا اليهود في المدينة وبعض المنافقين فيها.^(٣)

وقد كانت ظروف المواجهة مع قريش مناسبة، نتيجة لصلح الحديبية الذي اتفق فيه المسلمون مع قريش على أن تتوقف الحرب بينهم عشر سنوات، فما كان من رسول الله ﷺ والمؤمنون معه إلا أن بادروا القوات اليهودية في خيبر قبل أن تبادرهم، حيث أخذ المسلمون استعدادهم وتوجهوا إليهم مع رسول ﷺ، وكانوا ألفاً وأربعمائة مقاتل.^(٤)

(١) منطقة زراعية تقع شمال الحجاز، وبها مدينة حديثة حالياً، كان بها سبعة حصون لليهود زمن النبي ﷺ، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢/٤٠٩. (انظر: <http://ar.wikipedia.org>) بتاريخ ٣٠/٣/١٤٣٢هـ.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/١٩١، ٣٣٠، ٢٧٣؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/٥٣١، ٦٣٤؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/١٨٠، ٤٦١.

(٣) الواقدي، المغازي ج ٢/٦٣٤؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/١٨١.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢/١٠٧.

وأثناء توجه المسلمين إلى خيبر، تحركت غطفان من نجد لمساعدة يهود خيبر، فعمل المسلمون على خديعتهم، حيث سربوا إليهم أخباراً بأن بعض المسلمين قد توجهوا للإغارة على ديارهم الأصلية، فصدقت غطفان الخبر، ورجعت إلى ديارها تاركة يهود خيبر لمصيرهم،^(١) وفي الوقت نفسه فإن الرسول ﷺ تعمد أن ينزل على خيبر من ناحية الشام،^(٢) أي في موقع بينها وبين ديار غطفان ليقف في وجه أي احتمال لغطفان أو لليهود شمال الحجاز في الوصول إلى ساحة المعركة أو مساعدة يهود خيبر.

وصل المسلمون ليلاً قرب خيبر فعسكروا ولم يتعرضوا لهم بأذى في الليل،^(٣) وعندما توجه اليهود في الصباح إلى مزارعهم فوجئوا بالمسلمين فرجعوا إلى حصونهم وهم يرددون ((محمد والخميس))، يقصدون الجيش، وكان مما قال ﷺ: ((خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)).^(٤)

كانت حصون اليهود بخيبر عديدة، وقد توزع المسلمون عليها لمحاصرتها، وكانوا يترامون بالنبل مع يهود خيبر حتى أصيب عدد من المسلمين جراء ذلك.^(٥)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣٠؛ الواقدي، المغازي، ج٢/٦٥٠؛ وانظر: رزق الله، السيرة الصحيحة، ص ٥٠١.

(٢) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/١٨٤.

(٣) البخاري، فتح الباري، ج١٥/٤٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣٠؛ الواقدي، المغازي، ج٢/٦٤٣.

(٤) البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ج٥/٧٣.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣٤؛ الواقدي، المغازي، ج٢/٦٤٣؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/١٨٦.

كان الرسول ﷺ حريصاً على معرفة أحوال الحصون المحاصرة. (١) وكان حصن النطاة وهو أحد حصون خيبر لا يوجد به سوى عدد قليل من المدافعين، وعلم الرسول ﷺ أنه مليء بالأسلحة والمؤن، وأن بداخله منجنيقاً ودباباً، فإن فتحه المسلمون فستساعدهم تلك الآلات على فتح بقية الحصون، فركز المسلمون حصارهم وهجومهم على هذا الحصن حتى تمكنوا من فتحه، فوجدوا فيه الأطعمة والمؤن ما أعانهم على أعدائهم، كما أنهم استفادوا مما فيه من أسلحة مختلفة في هجومهم على بقية الحصون الأخرى. (٢)

وقد فتح المسلمون الحصون الواحد تلو الآخر، ومن ضمنها حصن ناعم والصعب. (٣)

وقد استعصى حصن (القموص) على المسلمين، فبشر الرسول ﷺ بفتحه في ما روي عن سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: ((لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله))، فبات الناس يدوكون (يضطربون) ليلتهم أيهم يعطاها.

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: ((أين علي بن أبي طالب؟ فقيل يا رسول الله هو يشتكي عينيه قال ﷺ: فأرسلوا إليه، فأتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاها الراية فقال علي ؓ: يا رسول الله

(١) الواقدي، المغازي، ج٢/٦٤٧؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج١٩١/٥.

(٢) الواقدي، المغازي، ج٢/٦٤٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣١، ٣٣٢؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج١٨٧/٥.

أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال ﷺ: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من حمر النعم)).^(١)

وقد فتح الله على عليّ ﷺ كما أخبر رسول الله ﷺ، وتساقطت بقية حصون خيبر واحداً تلو الآخر، مما اضطر اليهود آخر الأمر أن يفاوضوا رسول الله ﷺ، واستسلموا للمسلمين على أن تحقن دماؤهم ويسمح لهم بالخروج من خيبر.^(٢) وبعد أن وقع الصلح بينهم وبين المسلمين على رحيلهم اتفق المسلمون معهم على أن يعمل يهود خيبر بالنخيل والمزارع، على أن لهم نصف الثمرة، وأن من حق المسلمين الاستغناء عنهم وإجلأؤهم متى شاءوا.^(٣) وكانت نتيجة هذه الغزوة استشهاد عشرين من أصحاب النبي ﷺ، ومقتل ثلاثة وتسعين من يهود خيبر وقد استمر حصار وقتال أهل خيبر بضعة عشر يوماً.^(٤)

وبعد أن سالم يهود خيبر رسول الله ﷺ حاولت امرأة منهم أن تسم رسول الله ﷺ عن طريق لحم شاة مطبوخة أهدتها إليه، ولكن الله سلمه منها.^(٥)

وقد ذكر أن وفاته ﷺ بعد ذلك بسنوات كانت من أثر ذلك السم فقد

(١) صحيح البخاري (فتح الباري)، ج ٥٧/١٦ - ٥٨؛

انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣١٥.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ج ٥٧/١٦.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٣٧؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/٦٩٠؛ ابن حجر، فتح الباري، ج ٥٧/١٦.

(٤) انظر: أسماء الشهداء عند ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٣٤٣؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/٦٩٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٢٠٨.

(٥) البخاري، فتح الباري، ج ١٢/٢٦١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٣٧؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/٦٧٧؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٢٠٨.

روى ابن هشام: (وقد قال في مرضه الذي توفي فيه ودخلت أم بشر بنت البراء ابن معرور تَعُودُه: يا أم بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر، قال: فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة).^(١)

وبعد أن فتح المسلمون خيبر ورتبوا أمورها توجه رسول الله ﷺ ومن معه من المجاهدين إلى وادي القرى فاستقبلوا المسلمين بالرمي، فأصيب خادم لرسول ﷺ من جراء رميهم، فقاتلهم المسلمون، وفتحوا بلدهم عنوة وأبقاهم الرسول ﷺ على العمل في النخل بالنصف كفعله مع أهل خيبر.^(٢) فلما بلغت أخبار خيبر ووادي القرى بقية مناطق شمال الحجاز بادرت إلى مصالحة النبي ﷺ، وخصوصاً فدك وتيماء وأيلة وغيرها.^(٣)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ج٣/٣٢٨: وانظر: وفاة النبي ﷺ، من هذا الكتاب
 (٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٢٨: الواقدي، المغازي، ج٢/٧٠٩: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٢٢٩.
 (٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٥٣: الواقدي، المغازي، ج٢/٧٠٦: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٢١٤:
 (تيماء): بليد صغيرة بين الشام ووادي القرى على طريق الحج الشامي، وقد اشتهرت بحصن الأبلق، وكان يقطنها جماعة من اليهود زمن الرسول ﷺ وهي (بلد حاضرة إلى اليوم)، انظر: البكري معجم ما استعجم، ج١/٣٢٩: وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/٦٧:
 (أيلة): تقع شمال بلاد الشام وهي ميناء على خليج العقبة وتسمى حالياً إيلات، (انظر: وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/٢٩٢):
 (فدك): من أعمال المدينة بينها وبين خيبر مسيرة يومين، (انظر: البكري معجم ما استعجم، ج٣/١٠، ١٥).

عُمْرَةُ الْقِضَاءِ^(١)

وتسمى عمرة الصلح، كان من بنود صلح الحديبية رجوع الرسول ﷺ عامه ذلك (وإذا كان عامك قابلاً خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيره).^(٢) وكان ﷺ قد وعد أصحابه دخول مكة حين ذهب معهم في غزوة الحديبية بناءً على رؤيا رآها الرسول ﷺ. وقد أشارت الآيات إلى ذلك في قوله - تعالى -: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (٢٧) [الفتح]. كان يعلم الله وأمره تقديم فتح قريب وهو فتح خيبر^(٣) على دخوله ﷺ مكة معتمراً.

وفي شعبان من السنة السابعة من الهجرة بعد استكمال سنة من صلح الحديبية أمر ﷺ بأن يخرج معه معتمراً من شهد الحديبية، فخرج من عاش منهم وخرج آخرون حتى وصل عددهم ألفي معتمر، سوى من معهم من النساء والصبيان وحمل ﷺ السلاح الخفيف المذكور في الصلح، وساق الهدى وأحرم مع أصحابه، وقاد معه مائة فرس احتياطاً، ولم يظهر أي شكل للقتال، بل كان خروجاً سلمياً، فيه تلبية وتكبير وإحرام.^(٤)

وقدم الرسول ﷺ محمد بن مسلمة بالخييل إلى مر الظهران، فلما رآته قريش علمت أن رسول الله ﷺ قادم، وحين وصوله ﷺ ترك السلاح في وادٍ قرب التنعيم^(٥) وأخلت قريش له مكة، وصعدوا في الجبال يتفرجون على

(١) وضع البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باباً بعنوان: "عمرة القضاء"، ج ٨٤/٥.

(٢) انظر: صلح الحديبية، من هذا الكتاب.

(٣) انظر: فتح خيبر، من هذا الكتاب.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٧٠.

(٥) (التنعيم): مكان معروف على طريق المدينة حالياً، وبه مسجد عائشة، حيث يحرم منه المعتمرون من مكة اليوم، البلادي، معجم الأماكن الواردة في السيرة، ص ٦٥.

الرسول ﷺ. وكان عبد الله بن رواحه أخذ بناقة رسول الله ﷺ وهو يدخل مكة في مظهر يدل على احترام المسلمين وتقديرهم وحمائيتهم لرسول الله ﷺ ويردد أبياتاً منها:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ
 خَلُّوا فَكُلَّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
 يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيَامِهِ
 أَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ
 نَحْنُ قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ
 كَمَا قَتَلْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ
 ضَرِيحاً يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ
 وَيُذْهِلُ الْخَيْلَ عَنْ خَيْلِهِ^(١)

وقد أشاعت قريش أن رسول الله ﷺ به ضعف، فعمد إلى ما يريهم صحته وصحة أصحابه وقوة أجسادهم بما يغيظ أعداءهم.

روى البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: (صَفَّوْا لَهُ عِنْدَ دَارِ الْنَدْوَةِ لِيَنْظُرُوا إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ اضْطَبَعَ بِرِدَائِهِ وَأَخْرَجَ عَضُدَهُ الْيَمَنِيَّ، ثُمَّ قَالَ: رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا أَرَاهُمَ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً، ثُمَّ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ وَخَرَجَ يَهْرُولُ وَيَهْرُولُ أَصْحَابَهُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَ وَارَاهُ الْبَيْتَ مِنْهُمْ، وَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ الْيَمَانِيَّ، مَشَى حَتَّى يَسْتَلِمَ الرُّكْنَ الْأَسْوَدَ، ثُمَّ هَرُولٌ كَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ، وَمَشَى سَائِرَهَا، فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَظُنُّونَ أَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا صَنَعَهَا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٧١.

قريش للذي بلغه عنهم، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها فمضت السنّة بها.^(١)

وبعد أن أدى العمرة تزوج الرسول ﷺ ميمونة بنت الحارث ولم يبن بها، وبقي بمكة ثلاثة أيام، وفي نهايتها جاءه حويطب بن عبد العزى في نفر من زعماء مكة وطلبوا منه الخروج فقال ﷺ: ((وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا، فخرج رسول الله ﷺ وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها بسرفٍ - أي بعجلٍ -، فبنى بها رسول الله ﷺ هنالك ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة)).^(٢)

وعند خروج الرسول ﷺ من مكة لحقت به ابنة عمه حمزة، وكانت يتيمة فأخذ بيدها علي ﷺ وأعطاهها فاطمة ﷺ وقال لها دونك ابنة عمك احملها، فحرص كلٌّ من جعفر وزيد بن حارثة أن يضموها إليهم، حتى تنازعا مع علي بن أبي طالب ﷺ كل منهم يريد ضمها والنفقة عليها، واختصموا عند رسول الله ﷺ كل يريد أجر برّها والإحسان إليها وتربيتها، ففضى بها رسول الله ﷺ لجعفر لوجود خالتها عنده، وقال ((الخالة بمنزلة الأم))^(٣)

ولعل في هذا إشارة إلى أن حنان الخالة قريب من حنان الأم، وستكون الصغيرة عند خالتها أكثر راحة وأماناً.

(١) ابن هشام، السيرة، ج ٣/٢٧١: انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء، ج ٥/٨٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٧٢.

(٣) انظر: صحيح البخاري، باب عمرة القضاء، ج ٥/٨٥.

غزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨هـ)^(١)

مع فتح خيبر كتب رسول ﷺ كتباً إلى الملوك والأمراء يبلغهم دعوة الله. وكانت إحدى هذه الرسائل موجهة إلى حاكم [بصرى] بالشام، وقد أعطى الرسول ﷺ هذه الرسالة إلى الحارث بن عمير الأزدي ليحملها إلى ملك بصرى من قبل [هرقل] (الحارث بن أبي شمر الغساني)، لكن أحد أمراء غسان في الشام ويدعى (شرحبيل بن عمرو الغساني) قبض على مبعوث النبي ﷺ، فلما علم أنه يحمل رسالة من النبي ﷺ قتله، مع أن الرسل لا تقتل عادة.^(٢)

ولما علم النبي ﷺ بمقتله غضب، وجمع جيشاً قوامه ثلاثة آلاف من المسلمين، وأمر عليهم مولاه زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب ﷺ، فإن قتل فعبدة الله بن رواحة ﷺ،^(٣) فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم.^(٤)

وكان خالد بن الوليد ﷺ مع الجيش حديث عهد بإسلام جندياً في

(١) وضع ابن أبي شيبة في المغازي عنواناً "ما حفظت في بعث مؤتة"، ص ٣٦٦:

وانظر: أبو مائلة العمري، بريك بن محمد بن بريك، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ط ١ - المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية ١٤٢٤هـ.

(٢) انظر: الواقدي، المغازي، ج ٢/٥٧٥، ٥٧٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢/١٢٨، ويرى أكرم العمري في كتابه السيرة الصحيحة، ج ٢/٤٦٧، ورزق الله في كتابه السيرة الصحيحة، ص ٥٤٣، ضعف هذا الخبر، وعلى أي حال فإن رسول الله ﷺ كان يتطلع إلى الجهاد ضد الروم ويبشر به أصحابه في فترات سابقة لهذه الغزوة، وإن كان هناك سبب معين في توقيت الغزوة فالجهاد في الأصل ماض ضد الروم وغيرهم ممن ظلم الناس واعتدى عليهم ومنعهم من سماع الحق، وذلك لإبلاغ كلمة الله وإعلائها لا فرضها.

(٣) البخاري، فتح الباري، ج ١٦/٩٨؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٧٣؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٦٧.

(٤) الواقدي، المغازي، ج ٢/٧٥٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢/١٢٨.

صفوف المجاهدين، وأمر الرسول ﷺ الجيش بالتوجه إلى أطراف الشام وتأديب وتهيب القبائل النصرانية العربية، وإظهار قوة المسلمين والعودة مرة أخرى إلى المدينة، وقبل أن يتحرك الجيش التقى بهم رسول الله ﷺ وأمرهم بتقوى الله، وذكرهم بتعاليم دينهم في الحرب، ثم سلم الراية إلى زيد بن حارثة ﷺ وشيعهم وودعهم.^(١)

وسلك الجيش طريقه إلى أطراف بلاد الشام.^(٢) هذا يعني تحرشاً مباشراً لأول مرة بمملكة الروم وحدودها. وقد علم الروم والغساسنة بتحرك الجيش فأعدوا له جيشاً آخر لمقابلته، اشترك فيه منتصرة العرب من لخم وبهراء وجذام وبلي، وكان ذلك الجيش يزيد على مائة ألف مقاتل، وقد عسكرت جيوش الروم في أرض البلقاء في الأردن حالياً، وقد علم جيش المسلمين بذلك التجمع، فأرادوا أن يكتبوا للرسول ﷺ لعله يمددهم بمزيد من المجاهدين،^(٣) لكن الوقت قصير والعدو قريب ولن يمهلهم، وأبطال المسلمين يشجع بعضهم بعضاً على القتال، فالتقوا مع الروم في مكان يسمى مؤتة،^(٤) فقاتلوا قتال الأبطال، وكان حامل الراية زيد بن حارثة ﷺ ((أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ عبد الله بن رواحه فأصيب))،^(٥) فأخذ الراية أحد الأنصار ودعا الناس إلى الاجتماع، ثم دفع

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٧٣؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/٧٥٦، وانظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١٦/١٢٨.

(٢) وضع البخاري في صحيحه باباً سماه: (باب غزوة مؤتة من أرض الشام)، انظر: فتح الباري، ج ١٦/٩٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٧٥؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/٧٦٠.

(٤) تقع مؤتة في بلاد الأردن حالياً، ولمزيد من التفاصيل راجع: علي الغيوم، تجربة مؤتة - عمان الأردن: مكتبة الرسالة ١٤٠٦هـ.

(٥) من رواية البخاري، فتح الباري، ج ١٦/١٠٠.

الراية إلى خالد بن الوليد،^(١) الذي تمكن بعون الله ثم بخبرته العسكرية من إعادة تنظيم صفوف المسلمين، وقيادتهم في القتال، ومن ثم الانسحاب بهم في خطة محكمة (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)،^(٢) وقد جنب المسلمين المزيد من الخسائر، فرغم الفارق الكبير بين جيش الأعداء وجيش المسلمين فإن خسائر المسلمين كانت خمسة عشر شهيداً،^(٣) وهذا في تصوري يعد نصراً للمسلمين، مقارنة بموازنين القوى في المعركة، وقد كان الرسول ﷺ يثني خيراً على أولئك الشهداء ويقول عنهم: ((ما يسرني أو يسرهم أنهم عندنا)).^(٤)

وقد عاد الجيش بعد ذلك إلى المدينة، يقوده سيف الله خالد بن الوليد ﷺ، حيث كانت هذه أول معركة جهادية له في صفوف المسلمين بعد إسلامه، وقد أخبر الرسول ﷺ أهل المدينة بما جرى قبل وصول الجيش، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ: ((أن النبي ﷺ نعى زيدا وجعفرأ وابن رواحه للناس، قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحه فأصيب - وعيناه تذرفان - ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)).^(٥) وهي فتح كما سماها رسول الله ﷺ.

وقد حزن ﷺ على وفاة جعفر وغيره ودعا لهم: ((اللهم اخلف جعفرأ في

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٧٩.

(٢) من رواية البخاري، فتح الباري، ج١٦/١٠١.

(٣) انظر: ابن هشام السيرة النبوية، ج٣/٣٨٨؛ الواقدي المغازي، ج٢/٧٦٩.

(٤) البخاري، فتح الباري، ج١٢/١٥٢.

(٥) من رواية البخاري، فتح الباري، ج١٦/١٠٠.

أهله بأفضل ما خلفت عبداً من عبادك الصالحين)).^(١) فتزوج بعد ذلك أبو بكر الصديق من أسماء بنت عميس زوجة جعفر واحتضن أولاده من بعده ثم تزوجها بعد ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام واحتضن أولادها من جعفر وأبي بكر.^(٢)

وعند قدوم الجيش إلى المدينة استقبلهم أهلها، وقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم بعضهم يقول لهم: يا فرارون أفررتم وأنتم في سبيل الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: ((ليسوا بفرار ولكنهم كُرَّار إن شاء الله)).^(٣) وكانت لهم كَرَّةٌ وأي كَرَّة، وذلك في فتوح الشام في اليرموك على يد خالد بن الوليد وأمثاله عليهم السلام. ممن شارك في معركة اليرموك وتحطيم قوى الروم، وفتح دمشق وبيت المقدس وغيرها من بلدان الشام المباركة.

أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بفضل شهداء مؤتة، وكان يرى أسامة بن زيد بعد وفاة أبيه زيد فيرق له وتدمع عيناه، وكذلك حينما يرى أبناء جعفر بن أبي طالب عليه السلام، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنهم من الشهداء، من أهل الجنة، وأخبر أن لجعفر جناحين في الجنة فعرف في الأمة بهذه الصفة.^(٤)

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٧٠.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٤/٢٣١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢٨٢؛ الواقدي، المغازي، ج ٢/٧٦٥.

(٤) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٧٤، ٣٧٥؛ وابن سعد، الطبقات، ج ٤/٤١.

فتح مكة (٢٠ رمضان سنة ٨هـ)

كان ضمن شروط صلح الحديبية ((أن من شاء أن يدخل في عقد محمد دخل فيه، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش دخل فيه))، فدخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ، ودخلت بكر في عقد قريش،^(١) فاعتدت بكر على خزاعة وساعدتهم في ذلك قريش، فعُدَّ هذا نقضاً للعهد من قبل قريش، وقد جاء أحد زعماء خزاعة وهو عمرو بن سالم الخزاعي فأنشد الرسول ﷺ أبياتاً يستحثه فيها على العهد ومساعدتهم بناءً على العهد، وخصوصاً أن قريشاً ساعدت حلفاءها. وهذا اعتداء على حلفهم مع المسلمين.

وكان مما قال:

يا رب إنني ناشد محمداً

حلف أبيننا وأبييه الأتليدا^(٢)

فانصر هداك الله نصراً أعتدا

وادعُ عباد الله يأتوا موددا

إلى آخر القصيدة، فقال ﷺ: نُصرت يا عمرو بن سالم،^(٣) ثم جاء وفد آخر من خزاعة يطلب مناصرة النبي ﷺ فوعدهم، ثم إن قريشاً أحست بالخطر، وجاء زعيمها (أبو سفيان بن حرب) إلى المدينة ليجدد العهد مع النبي ﷺ، فدخل بيت ابنته أم المؤمنين (حبيبة بنت أبي سفيان)، حيث كان صهراً للنبي ﷺ، فلما دخل حجرة ابنته أم المؤمنين أم حبيبة، وأراد أن يجلس

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤ / ٣١٨؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤ / ٣٩٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣ / ٥٢٧؛ الصالحي

الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥ / ٣٠٨؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٠.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤ / ٣٩٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣ / ٥٢٧؛ وانظر:

تخريج د. أكرم العمري لها في السيرة النبوية الصحيحة، ج٢ / ٤٧٣).

على فراش النبي ﷺ رفعتة أم حبيبة عنه، فقال أبو سفيان: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال: والله لقد أصابك بعدي شرٌّ، ثم إن أبا سفيان أتى النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه،^(١) ثم أتى أبا بكر ﷺ ليتوسط له عند النبي ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم كلم عمر بن الخطاب ﷺ فقال: أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم أتى علياً وعنده فاطمة ﷺ والحسن بن علي بينهما غلام صغير، فقال له علي: والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه، فقال لفاطمة ﷺ: يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يجير الناس فيكون سيد العرب؟ فقالت: ما بلغ ابني هذا أن يجير الناس، فلما اشتد عليه قال لعلي ﷺ: انصحنى فقال له علي: أنت سيد كنانة فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرض قومك: قال أو ترى ذلك يغني عني شيئاً؟ قال علي ﷺ: لا ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد وقال إني قد أجرت بين الناس، فلما قدم مكة قال له أهلها ما زاد علي على أن سخر بك.^(٢)

ثم إن رسول الله ﷺ جهز الناس للغزو، وكان حريصاً على ألا تعلم قريش بخبر تحركه، وأرسل إحدى سراياه الطلائعية إلى جهة غير مكة حتى يظن الناس أنه يجهز لتلك الجهة، وفي الوقت نفسه أخبر خاصة أصحابه أنه متوجه إلى مكة وطلب منهم أن يكتموا الخبر، وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها.

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٣٩٧.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٣٩٦؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٣١؛ ابن أبي شيبه، المغازي، ص ٣٢٦.

وخرج الرسول ﷺ إلى مكة في رمضان وخرج معه خمسة آلاف من المهاجرين والأنصار، ولحقت به جموع مسلمة من قبائل مزينة وسُلَيم وغفار وجُهينة وتميم وأسد، حتى كان مجموع جيشه حين وصل قرب مكة عشرة آلاف مقاتل،^(١) نزل بهم رسول الله ﷺ مرَّ الظَّهْرَانِ.

وقابل العباس بن عبدالمطلب ﷺ الرسول ﷺ وهو في الطريق إلى مكة مظهرًا إسلامه،^(٢) وقيل إنه كان يكتُم إسلامه قبل ذلك بوقت طويل، وله مواقف مع النبي ﷺ منذ بيعة العقبة الثانية تدل على ذلك،^(٣) وكان العباس حريصاً على إسلام قومه، فركب بعد ذلك بغلة النبي ﷺ وأخذ يبحث عن من يبعثه إلى قريش في مكة لعلهم يأتون النبي ﷺ يأمنونه أو يسلمون، وكان ﷺ قد أمر المسلمين أن يكثرُوا نيرانهم - وكانوا في الليل - ليرعبوا أهل مكة حتى لا يقاتلوا، فأشعلت قرابة عشرة آلاف نار في وقت واحد،^(٤) فلما رأتها قريش خرج أبو سفيان ليستطلع الخبر وكان زعيمها، فلقبه العباس ﷺ عم النبي ﷺ فأمنه، ثم أتى به النبي ﷺ فأمضى تأمين العباس إياه، فلم يعرض له المسلمون بشر، وفي الصباح جاء به العباس ﷺ إلى النبي ﷺ فأعلن إسلامه، ثم إن العباس قال للنبي ﷺ: إن أبا سفيان يحب الفخر عند قومه فلو أمنت من دخل داره.^(٥)

(١) من رواية البخاري، ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/١١١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/١٣٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٤٣؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٩.

(٣) انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (بهامش الإصابة، ج٣/٩٥)، ابن حجر، فتح الباري، ج١٤/٢٢٣؛ ابن حجر، الإصابة، ج٢/٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/٧٨.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/٥٤٧؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٢٥، ٣٢٤؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢١.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٤٨؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٣٠.

وكان النبي ﷺ حريصاً أشد الحرص على أن يكون دخوله إلى مكة سلمياً، وأن لا يراق دم، ولذا فعند دخوله مكة قسم جيشه إلى أربعة أقسام تدخل من جهات مكة الأربع، مظهرة قوتها، وكافة عن الناس، حتى يستسلم أهل مكة للأمر الواقع ويسلموا بسلام، وفي الوقت نفسه أعلن الرسول ﷺ: ((أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن))،^(١) وبذلك أتاح كل فرص الأمان لمن رغب فيه، ودخل رسول الله ﷺ مكة بسلام وركزت رايته في الحجون.^(٢)

ولقد لقيت كتيبة خالد بن الوليد ﷺ المسلمة بعض المقاومة من مقاتلي قريش المشركين التي سرعان ما سقطت،^(٣) وفر المشاركون فيها إلى بيوتهم أو إلى خارج مكة. وكان دخول رسول الله ﷺ دخول المتواضعين لله حيث كان مطأطئ الرأس خاشعاً لله - تعالى -^(٤) وكان يقرأ سورة الفتح،^(٥) ثم توجه إلى الكعبة وطاف بالبيت سبعة أشواط ثم قال ﷺ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل دم أو مائة فهو تحت قدمي هاتين إلا سداً للبيت وسقاية الحاج، ثم قال: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ قولته المشهورة: اذهبوا فأنتم الطلقاء.^(٦) ثم دعا بسادن الكعبة

(١) البخاري، فتح الباري، ج١٦/١٢٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٤٩؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٣٠؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٤٤.

(٢) البخاري، فتح الباري، ج٦/١١٨.

(٣) البخاري، فتح الباري، ج١٦/١١٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٦٠؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٩.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٥٥؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٤٢.

(٥) البخاري، فتح الباري، ج١٦/١٢٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٥٥.

(٦) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١٦/١٢٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤١٢، ٤١١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/٥٧٠؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٦٤.

فأخذ منه المفتاح ففتحت له الكعبة،^(١) فوجد بها صوراً فأمر بها فطمست، ثم دار على الأصنام في الحرم، وكانت ثلاثمائة وستين صنماً - بما يقارب عدد أيام السنة - وكان يشير إليها ويقول: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٨١) [الإسراء]، فأسقطها جميعاً وأمر بها فحطمت.^(٢) ولم يدع رسول الله ﷺ شيئاً من الأصنام إلا حطمة ولا صوراً إلا مسحها.^(٣)

وقد ورد عن ابن أبي شيبة بسند صحيح أن النبي ﷺ دخل مكة حين دخلها وهو معتمر بشقة بُردٍ أسود، فطاف على راحلته القصواء وفي يده محجن يستلم به الأركان، فما وجدت لها مناحاً في المسجد حتى نزل على أيدي الرجال، ثم خرج بها حتى أنيخت بالوادي، ثم خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: ((أيها الناس إن الله قد وضع عنكم عيبة الجاهلية وتعظيمها بآبائها))، الناس رجلان فبرتقي كريم على الله، وكافر شقي هين على الله، أيها الناس إن الله يقول: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ لَمْ نُوْمِنُوا وَلَكِنْ قُلُوْا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوْبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ ﴾ (١٤) [الحجرات]، أقول هذا وأستغفر الله لي ولكم، ثم عدل إلى جانب المسجد، فأتى بدلو من ماء زمزم فغسل بها وجهه ما تقع قطرة إلا في يد إنسان، إن كانت قدر ماء يحسوها، وإلا مسح بها، والمشركون ينظرون فقالوا: ما رأينا ملكاً قط أعظم من اليوم، ولا قوماً أحقق من القوم، ثم أمر بلالاً فرقى على ظهر الكعبة، فأذن بالصلاة، وقام المسلمون فتجردوا في الأزر وأخذ الدلاء وارتجزوا على زمزم يغسلون الكعبة ظهرها وبطنها، فلم يدعوا

(١) البخاري، فتح الباري، ج ١٦/١٢٨: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٣.

(٢) رواه البخاري، فتح الباري، ج ١٦/١٢٧: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٢٣.

(٣) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤١.

أثراً من المشركين إلا محوه أو غسلوه.^(١)

وفي هذه الرواية وصف دقيق لأفعال الرسول ﷺ وخطبته بعد الفتح. ثم بايع الرسول ﷺ من بايع من الرجال على الإسلام، ثم بُويعت النساء على الإسلام وعلى شروط أخرى خاصة بهن،^(٢) وحين حضرت صلاة الظهر رفع بلال صوت الحق من على ظهر الكعبة معلناً الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله. وقد كره بعض حديثي الإسلام من قريش رؤيتهم وسماعهم لذلك، ثم ندموا على ما قالوا بعد أن حسن إسلامهم.^(٣) وهكذا تطهّرت مكة من الشُّرك وانتهت قوتها المعاندة للإسلام، وأصبحت أحد مدن المسلمين، بل أهمها، حيث نظمها رسول الله ﷺ وعين عليها عتاب بن أسيد أميراً.^(٤)

وقد اهتم رسول الله ﷺ بتعليم أهل مكة الإسلام، حيث بقي عندهم تسعة عشر يوماً،^(٥) غادر بعدها لملاقاة قبيلتي ثقيف وهوازن اللتين استعدتا لقتال رسول الله ﷺ بعد أن فتح مكة، وقد كان فتح مكة سبباً عظيماً في خفة حدة العرب في حرب الإسلام، حيث دخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجا،^(٦) بعد دخول قريش فيه وسقوط أقوى قوى الشُّرك المعادية للإسلام. وصدق الله - تعالى -: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [النصر].

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٤١.

(٢) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٣٧١/٥.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤١٣/٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٥٧٥/٤؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٣٧٢/٥.

(٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٤٤٦/٥؛ ابن حجر، الإصابة، ج ٤٥٢/٢؛ الطبري، تاريخه، ج ١٦٢/٣.

(٥) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج ١٣٢/١٦.

(٦) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج ١٣٤/١٦.

غزوة حنين والطائف (شوال سنة ٨هـ)^(١)

تأهبت هوازن، وعلى رأسها ثقيف، لملاقاة المسلمين بعد أن فتحوا مكة، وخرجت معهم غطفان وغيرها، وأخذوا معهم بنيهم وذراريهم ليصمدوا في القتال ومواجهة النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين،^(٢) وتأكد الرسول ﷺ من صحة الخبر، فخرج بجيش الفتح وهم عشرة آلاف مقاتل (كما خرج معه ﷺ عشرة آلاف من الطلقاء)^(٣) - مُسَلِّمَةُ الفتح - حتى أن بعضهم اغتروا بكثرتهم وقالوا: لن نُغلب اليوم من قلة، واستعار الرسول ﷺ أسلحة من يعلى بن أمية عارية مضمونة، وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم أعادها إليه بعد الغزوة وشكره على ذلك.^(٤)

كانت هوازن قد اجتمعت في حُنَيْنٍ يتزعمها مالك بن عوف، وقد أمر قومه أن يحملوا نساءهم وأموالهم حتى يكون ذلك دافعاً لهم على الثبات عند اللقاء، وقد عاب عليه دريد بن الصُّمَّة وكان مع هوازن شيخاً لا يغني شيئاً، لكنه صاحب حكمة، وكان مما قال له: إنها إن كانت لك لم تتفك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فُضِحْتَ في أهلِكَ ومالك.^(٥)

ودخل المسلمون وادي حنين، ولم يكونوا يعلمون أن القوم قد كمنوا

-
- (١) عقد البخاري باباً سماه باب قوله - تعالى -: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، انظر: فتح الباري، ج ٥/٩٨؛ كما وضع باباً سماه باب غزوة الطائف في شوال سنة ثمان، ج ٥/١٠٢؛ ووضع ابن أبي شيبَةَ عنواناً "ما ذكروا في الطائف"، ص ٣٥٩، وعنواناً آخر "غزوة حنين وما جاء فيها"، ص ٣٧٨.
- (٢) انظر: البخاري، فتح الباري، ج ١٦/١٧٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٤٣٨.
- (٣) صحيح البخاري، فتح الباري، ج ١٦/١٧٢.
- (٤) انظر: تخريج ذلك عند رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٨٣.
- (٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٤٣٨؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٤٦٠.

لهم، وذلك في مطلع الصبح، وكان جيش المسلمين كثيفاً، وفيه من القبائل والطلقاء وغيرهم أكثر مما فيه من المهاجرين والأنصار، وقد فوجئت جموع المسلمين بهجوم مباغت من هوازن، فتفرقت طلائعهم وخصوصاً تميم والطلقاء من أهل مكة واضطربت صفوف الجيش، فثبت رسول الله ﷺ ومعه بعض المهاجرين والأنصار، منهم عمه العباس وأبو بكر وعمر وعلي ﷺ، وانحاز ﷺ يمين الجيش وجعل ينادي ((فنادى نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله، أبشروا نحن معك. ثم التفت عن يساره فقال: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله أبشروا نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: أنا عبد الله ورسوله،^(١) أيها الناس هلموا إليّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله، ثم أمر الرسول ﷺ عمه العباس وكان جهور الصوت أن ينادي يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، وكان ﷺ ينادي ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب))،^(٢) فلما سمع المهاجرون والأنصار النداء أجابوا لبيك لبيك، فاجتمعوا على رسول الله ﷺ فاستقبل بهم الأعداء. واشتد القتال بين المسلمين وهوازن حتى قال ﷺ: ((الآن حمي الوطيس))،^(٣) فهو أول من قالها.^(٤) وقاتل المسلمون مع رسول الله ﷺ قتال الأبطال، وأخذ الرسول حفنة

(١) رواه البخاري، فتح الباري، ج١٦/١٧٢.

(٢) من رواية البخاري، فتح الباري، ج١٦/١٤٣؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٤٤٤، ٤٤٥؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٤٧١؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٧٨.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ج٤/٤٤٥؛ وانظر: تخريجها في رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٨٩.

(٤) انظر: السهيلي، الروض الأنف، ج٤/١٣٨.

من التراب فرمى بها وجوه القوم وهو يقول: ((شَاهَتِ الوجوه))،^(١) فانهمزوا. وبعد وقت قصير تأكدت الهزيمة في صفوف الأعداء ورجع المسلمون بالأسرى والغنائم،^(٢) وقتل من الأعداء ما يزيد على سبعين رجلاً، واستشهد جماعة من المسلمين.^(٣)

وأرسل الرسول السرايا لملاحقة المهزومين، والقضاء عليهم أو تفريق قوتهم، ونجحت بعوث الرسول ﷺ وأمر ﷺ بالغنائم والسبايا والأسرى فجمعوا بالجُعرانة.^(٤) وبعد أن هدأت الأمور واصل الرسول ﷺ مسيرته إلى الطائف، وهي المقر الرئيس لثقيف التي جمعت بقية هوازن على حرب رسول الله ﷺ.

وكانت الطائف محصنة بالأسوار التي تطيف بها وهي سبب تسميتها،^(٥) ولذلك لم يتمكن الرسول ﷺ من اقتحامها، فحاصرها نيفاً وعشرين ليلة،^(٦) ونصب عليها المنجنيق الذي أشار به سلمان الفارسي، ورمها به

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، ج ٥/١٦٩؛ انظر: رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٨٩.

(٢) انظر: البخاري، فتح الباري، ج ١٦/١٧٢.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٤٤٩.

(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج ١٦/١٦٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٤٨٨؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٤٨٩؛ د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج ٢/٥٠٤؛ رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٩٦؛ (الجُعرانة: شرقي مكة ترتبط بطريق الطائف السيل السريع، بطريق فرعي يظهر لمن ينظر على الطريق)، البلادي، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص ٨٣.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤/٩؛ وانظر: د. عبد الجبار منسي العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، ص ١٦.

(٦) وقد رأى قوم غير ذلك في مدة الحصار، انظر: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٥٦٥؛ د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج ٢/٥٠٧، رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٩٦.

لكنه لم يؤثر في أهلها،^(١) واستشهد مجموعة من الصحابة من رمي أهل الطائف للمسلمين بالنبال وغيرها.

وقد حاول نفر من المسلمين اقتحام الأسوار عن طريق دبابة صنعوها من الخشب والجلود، احتموا داخلها واقتربوا بها من الأسوار فرمى عليها أهل الطائف قطع حديد محماة فأحرقت الجلود وأثرت في الخشب فخرج مَنْ بداخلها من المجاهدين، فرموهم من على الأسوار بالنبال فقتلوا منهم رجالاً.^(٢) ونزل بعض رقيق أهل الطائف إلى المسلمين فأعلنوا إسلامهم فأعتقهم الرسول ﷺ. ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن طال الحصار أخبر أنه لم يؤذن له في فتح الطائف، ورحل وتركها لا يأساً منها ولكن طمعاً في أن يأتي أهلها مسلمين طوعاً من تلقاء أنفسهم، حيث دعا لهم قائلاً ((اللهم اهدِ ثقيفاً))،^(٣) وتوجه الرسول ﷺ إلى مكة وتوقف في الطريق بالجعرانة، حيث مقر الغنائم والأسرى والسبايا من هوازن وأحلافهم، وفي الجعرانة انتظر رسول الله ﷺ اتصالاً من هوازن أو توبة عما جرى منهم مع المسلمين، وبعد عدة أيام من الانتظار قسم رسول الله ﷺ الغنائم والسبي على المسلمين. ثم جاءت وفود هوازن معلنة إسلامها وتوبتها عما بدر منهم في حق رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وطلبوا من الرسول ﷺ أن يرد عليهم أموالهم وأولادهم، وقال أحد شعرائهم قصيدة

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤/٤٨٣؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٥٦٠؛ وانظر: د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥٠٩؛ رزق الله، السيرة النبوية، ص٥٩٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٨٣؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٥٦١؛ وانظر: تخريج هذه الحادثة عند أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥٠٩؛ وانظر: عبدالعزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، ص٢٢٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٦١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٨٥؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٥٦٢.

(٤) انظر: تخريجها عند رزق الله، السيرة النبوية، ص٥٩٦.

طويلة يستشفع فيها برسول الله ﷺ مطلعها:

أْمُنُّنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ فِي كَرَمِ

فَانِكَ الْمَرَّةَ نَرْجُوهُ وَنُدْخِرُ^(١)

فخبرهم الرسول ﷺ بين أن يأخذوا أموالهم، أو أولادهم ونساءهم، فاختروا الأولاد والنساء، فقال ﷺ: ((معي من ترون، وأحبُّ الحديث إليَّ أصدقه، وقد كنت استأنيت بكم، وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير رادِّ لهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإننا نختار سبينا، فقام رسول ﷺ فأتى على الله بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد، فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبنا لك ذلك يا رسول الله)).^(٢)

وقد بادر المسلمون بالتنازل عن نصيبهم من السبي تقليداً لرسول الله ﷺ، ثم أوصى الرسول ﷺ هوازن، وقال لهم: أخبروا مالك بن عوف - زعيم هوازن - إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله ومائة بعير، فخرج من الطائف سراً وأتى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه وعينه الرسول على من أسلم من القبائل التي حول الطائف، وأصبح يغير بهم على سرح مشركي ثقيف حتى ضيق عليهم.^(٣)

(١) انظر: القصيدة: عند الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٥٧١.

(٢) من حديث البخاري (فتح الباري)، ج ١٦/١٤٥ - ١٤٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٤٩١: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٣/٦٨٣.

وحيثما قسم الرسول ﷺ الغنائم أعطى منها القبائل والمؤلفة قلوبهم من مسلمة الفتح وغيرهم، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، فوجد بعضهم في نفسه فجمعهم الرسول ﷺ منفردين، وخطبهم ((وكان مما قال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن. قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله؟ قال: لو شئتم لقلتم كذا وكذا. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وسلوكوا شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار)).^(١) فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: ((بلى رضينا برسول الله قسماً وحظاً وتفرقوا))،^(٢) ثم أحرم الرسول ﷺ معتمراً من الجعرانة، ودخل مكة، وبقي بها عدة أيام، غادر بعدها إلى المدينة، وبعد عدة أشهر كثر الإسلام حول الطائف وبين أهله. ثم قدم وفد منهم على رسول الله ﷺ وفاوض الرسول ﷺ عن قومهم، وانتهت تلك المفاوضة بإسلامهم، ودخول مدينتهم في الإسلام وقبولهم تحطيم الأصنام.^(٣)

وبإسلام الطائف أصبحت جميع مدن الحجاز خاضعة للحكومة النبوية، يديرها أمراء عينهم رسول الله ﷺ.

(١) من رواية البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٦٣ - ١٩٦: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٨٧.
(٢) انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٧١، وشرح ابن حجر لما في الحديث؛ وابن الأثير، الكامل، ج٤/٢٧٢.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٥٣٧، ٥٤١؛ وانظر: د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥١٢؛ د. رزق الله، السيرة النبوية، ص ٦٥٩؛ وانظر: وفد الطائف، من هذا الكتاب.

وقد نزلت بعض الآيات تتحدث عن غزوة حنين، من ذلك قول الله - تعالى
:- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ
كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ
وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة].

غزوة تبوك (رجب سنة ٥هـ)^(١)

كانت أحداث غزوة مؤتة التي وقعت بين المسلمين والروم وأعاونهم من نصارى العرب سنة (٥هـ) هي أول احتكاك بين المسلمين والروم، ما تزال ماثلة في ذهن الرسول ﷺ، حيث استشهد مجموعة من الصحابة. وعزم الرسول ﷺ على قتال الروم انطلاقاً من قوله - تعالى - : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] ولذا فقد كانت هذه الغزوة موجهة أصلاً وبوضوح ضد الروم، ولذلك فإن الرسول ﷺ حينما ندب المسلمين لهذه الغزوة أخبرهم أنها متوجهة إلى نواحي بلاد الروم.^(٢) وكان يدرك أن للروم عيوناً من منافقي المدينة، كما أنه أراد من جنده الاستعداد، حيث إنهم سيبعدون الشقة، وكان الجو حاراً جداً، والبلاد مجدبة، والناس في عسرة، وثمار المدينة من تمر وعنب وغيرها قد طابت،^(٣) والناس ينتظرونها طوال العام، ولذلك فإن الخروج إلى تبوك كان صعباً.

وبالتالي فإن المنافقين قد سقطوا في مستنقع الكذب، حيث كانوا يعتذرون عن الخروج مع النبي ﷺ زوراً وبهتاناً ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكُولُ أُذُنَ لِي وَلَا نَفْتِيَّ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

(١) لمزيد من التوسع حول أحداث هذه الغزوة ورواياتها ودراسة تلك الروايات انظر: عبدالقادر حبيب الله السندي، الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك - الكويت: مكتبة المعلا ١٤٠٦هـ؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، عنوان: "ما حفظ أبو بكر في غزوة تبوك"، ص ٣٩٦.

(٢) انظر: الحديث الذي رواه البخاري عن كعب بن مالك، البخاري (فتح الباري)، ج ٢٤٢/١٦.

(٣) عنوان البخاري لهذه الغزوة: (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة)، فتح الباري، ج ٢٣٧/١٦؛ انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٩٨.

﴿٤٩﴾ [التوبة]،^(١) وقد تداعى المنافقون إلى التخلف عن رسول الله ﷺ وعدم الخروج معه في زمن الحر وقال الله عنهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة].^(٢)

ودعا النبي ﷺ أصحابه للنفقة في هذه الغزوة، فبادر أغنياء الصحابة في ذلك وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وغيرهم ﷺ، وأنفق عثمان ﷺ نفقة كبيرة كان فيها ثلاثمائة بعير وألف دينار حتى قال الرسول ﷺ: ((ما ضر عثمان ما فعل بعد ذلك)). وقال عنه: ((من جهز جيش العسرة فله الجنة))،^(٣) كما قال ﷺ: ((اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه)).^(٤) وقد جاء رجال من المسلمين إلى النبي ﷺ وهم أهل حاجة ويرغبون في الخروج مع الرسول ﷺ ولكن الحاجة وعدم وجود الراحلة منعتهم من ذلك. فذكروا حاجتهم للنبي ﷺ فقال لهم: ((لا أجد ما أحملكم عليه))، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع،^(٥) وجاء معذرون من الأعراب ليعتذروا.

وتخلف ثلاثة من الصحابة تكاسلاً، وهم يريدون اللحاق بالرسول ﷺ، لكنهم كانوا صادقين في ذكر حالهم فعفى الله عنهم ونزلت فيهم آيات قرآنية.^(٦)

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٥١٦.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٢/٨٩٨.

(٣) من حديث البخاري (فتح الباري)، ج ٤/١٩٥.

(٤) ابن هاشم، السيرة النبوية، ج ٣/٥١٨.

(٥) ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٠٢.

(٦) انظر: حديث كعب بن مالك عند البخاري (فتح الباري)، ج ١٦/٢٤١؛ وعند ابن أبي شيبة

في المغازي، ص ٣٩٨.

قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة].

كانت هذه الغزوة بحق امتحاناً للمجتمع المسلم غنيهم وفقيرهم مؤمنهم وضعاف الإيمان منهم، كما كان للمنافقين وبقايا اليهود دور في التشبيط، حيث كان لكل صف موقف ولكل حادث حديث، وكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ وقد تقدمت به السن، حيث تجاوز الستين من عمره ﷺ، ورغم ذلك حرص على أن يقودها بنفسه، إذ تعد مقدمة غزوات المسلمين في بلاد الروم، وفي الانطلاقة العالمية للإسلام.

تجمع من المسلمين ثلاثون ألف مقاتل خرج بهم رسول الله ﷺ كان منهم عشرة آلاف فارس،^(١) وهذا الجيش يعد أكبر جيش للمسلمين تجمع في حياة حياة الرسول ﷺ وأخذ المسلمون طريق تبوك، ومروا في طريقهم على مدائن صالح،^(٢) فأمرهم النبي ﷺ بالعجلة وأن لا يدخلوا بيوت القوم إلا باكين أو متباكين.

وقد واصل الرسول ﷺ مسيره حتى وصل إلى تبوك فأقام بها بضع عشرة ليلة، كان خلالها يبعث سراياه وطلائعه لمعرفة أخبار الروم، كما كان

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/٢٤٢؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٥٢٠؛ وانظر: د. رزق

الله، السيرة النبوية، ص ٦٢٣؛ د. أكرم العمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥٣١.

(٢) روى البخاري عن ابن عمر ﷺ قال: "لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم. إلا أن تكونوا باكين. ثم قنع رأسه وأسرع حتى أجاز الوادي"، (فتح الباري، ج١٦/٢٥٥).

يبيعها إلى المواقع المجاورة. وكان زعماء القبائل وحكام القرى القريبة منه يأتون إليه. وقد أسر خالد بن الوليد في أحد سراياه أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فجاء به إلى الرسول ﷺ، فعقد الذمة لنفسه ولقومه وأقرّ بدفع الجزية فأطلقه ﷺ،^(١) كما جاء (يُحْتَنَ بن رؤية) صاحب أيلة فدفع الجزية لرسول الله ﷺ وعقد الذمة لقومه، وجاءه أهل أذرح والجرباء، فأمنهم الرسول جميعاً وعقد لهم الذمة وكتب لهم كتباً.^(٢)

ويظهر أن الروم كانوا على علم بتحريك الرسول ﷺ، ومن معه ووصولهم إلى تبوك وإظهار قوتهم في أطراف بلاد الروم، بل إن بعضها يعد داخل حدود الروم.^(٣) ومع كل هذا فإن قواتهم لم تتحرش بالمسلمين أو تحاول مصادمتهم أو عرقلتهم مع قدرتها على ذلك، ولعل مما يؤكد متابعتها للموقف بدقة أن ملك غسان قد أرسل إلى (كعب بن مالك)، وهو أحد المخلفين الذين تاب الله عليهم، يطلب منه أن يقدم إليهم في الشام، وكان هذا بعد غزوة تبوك وهو في المدينة.^(٤) وقد وصلت معلومات ملك غسان وهو من عملاء الروم إلى معرفة تامة بحال فردٍ من المسلمين في هذه الغزوة، وموقف الرسول ﷺ منه، فمن باب أولى أن يكون على اطلاع بتحريك جيش الرسول ﷺ من المدينة إلى تبوك، والإعداد لهذا الجيش قبل التحرك، خصوصاً أن وجهته كانت معلنة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٥٢٦: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/٣٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٥٢٥، ٥٢٦: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/٢٩.

(انظر: كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل الروم من هذا الكتاب).

(٣) نقل ابن كثير عن الإمام أحمد رواية عن وصول رسول من ملك الروم هرقل إلى رسول الله ﷺ

في تبوك وتبليغه إياه رسالة منه وهي قصة عجيبة قال عن إسنادها لا بأس به (انظر:

ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/٢٧ - ٢٩): وانظر: تلك الرواية عند أحمد في المسند،

ج٣/٤٤٢: وانظر: كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل من هذا الكتاب).

(٤) انظر: حديث كعب بن مالك عند البخاري (فتح الباري)، ج١/٢٤٢.

وجواسبس الروم يصلون إلى المدينة، ولعل ملك الروم كان على يقين تام بصدق الرسول، ولذلك آثر عدم التعرض لهذا الجيش خوفاً منه وإدراكاً أن الرسول ﷺ ظاهر عليهم عاجلاً أم آجلاً، حيث إن هرقل ما أن تسلم رسالة الرسول ﷺ واستمع أخباره ممن يعرفونه، حتى قال لمحدثه: واللّه لئن كنت صدقتني: "يوشك أن يملك ما تحت موضع قدمي هاتين"،^(١) وقد عاش حتى شاهد المسلمين بعد ذلك يملكون ما تحت قدميه.^(٢)

وبعد أن أثبت الرسول ﷺ قوة المسلمين في أطراف جزيرة العرب عاد مرة أخرى إلى المدينة. وفي الطريق لقي الأذى ﷺ من بعض المنافقين، حيث حاولت مجموعة منهم قدرت بأربعة عشر رجلاً قتل رسول الله ﷺ، حينما كان ﷺ يسير في عقبه ليتجاوزها، وأمر من ينادي في الناس: إن رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد - والعقبه طريق ضيق في الجبل لا يكاد يمر منه الراكب - وكان يقود بالرسول ﷺ حذيفة بن اليمان ويسوق به عمار بن ياسر ﷺ.

فأقبل مجموعة من الرجال ملثمين على رواحلهم حتى غشوا عماراً ﷺ وهو يضرب وجوه رواحلهم ليبعدهم عن رسول الله، فقال ﷺ لحذيفة: ((قُدْ. قُدْ، وحين هبط رسول الله ﷺ قال لعمار ﷺ: ((هل عرفت القوم؟ قال عمار: قد عرفت الرواحل والقوم ملثمون: قال له الرسول ﷺ: هل تدري ما أرادوا؟ قال عمار ﷺ: اللّٰه ورسوله أعلم، قال أرادوا أن يُنْفَرُوا برسول اللّٰه فيطرحوه)).^(٣)

(١) من لفظ البخاري (فتح الباري)، ج ١٢/٧١.

(٢) انظر: كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل الروم، من هذا الكتاب؛

وانظر: الطبري، تاريخه، ج ٤/٢٨؛ والأزدي، فتوح الشام، ص ٢٣٦.

(٣) انظر: الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج ٥/٣٩٠، ٣٩١: الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٦٦٩.

وقد عاد الرسول ﷺ إلى المدينة فلما أقبل عليها قال: ((هذه طابئةٌ وهذا جبلٌ أُحدٌ يحبنا ونحبه))،^(١) وخرج النساء والصبيان لاستقبال المسلمين، وكان الصبيان ينشدون:

طلّغ البدرُ علينا من ثِيَّاتِ الوُدَاعِ
وجبَّ الشكرُ علينا ما دعا لله داعٍ^(٢)

كانت هذه الغزوة تربيةً للمجتمع المسلم كافةً للمشاركة في الجهاد بالنفس والمال، وتربيةً للأمة كلها على بعد النظر والطموح العالي، حيث إنَّ الرسول ﷺ قبل أن يودع أمته إلى الرفيق الأعلى لفت نظرها إلى الروم، في حركة جهادية عملية لتقوم بالفتوح في نواحيها، بعد ذلك لم تنته قضايا تلك الغزوة بوصول الرسول ﷺ إلى المدينة، بل ارتبطت به قضية مسجد الضرار، وكذلك قضية المخلفين الذين جاؤوا يعتذرون إلى الرسول بسبب تخلفهم عنه، فمنهم المنافقون الذين اعتذروا بالكذب وبالباطل ففضحهم الله، ومنهم الذين تخلفوا ولكنهم التزموا الصدق في اعتذارهم لرسول الله ﷺ، وهم الثلاثة الذين خلفوا وعلى رأسهم كعب بن مالك، فهجرهم الرسول فترة من الوقت، ثم تاب الله عليهم في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.^(٣) وقد تحدثت بعض الآيات في القرآن الكريم عن غزوة تبوك في قوله - تعالى -:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي

(١) البخاري (فتح الباري)، ج١٦/٢٥٦؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٩٧.

(٢) انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/٢٥٩؛ وانظر: د. رزق الله، السيرة النبوية، ص ٦٣١.

(٣) انظر: تفاصيل حال المعتذرين في حديث كعب بن مالك، السابق ذكره في (فتح الباري)،

ج١٦/٢٤٢؛ وابن أبي شيبة، المغازي، بسند متصل، ص ٣٩٨.

الْأَخِرَةَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا نَصْرُهُ
 فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ
 يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ
 وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ
 وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا
 وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
 ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّعْيَةُ
 وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
 لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
 وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ
 يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾
 وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
 اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا
 خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ
 ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ
 كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَذُنٌ لِي وَلَا نَفْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا
 وَإِن جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ
 وَإِن تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ
 فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ

نَتَرَبَّصُّ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ [التوبة].

ويقول - تعالى - أيضاً عن هذه الغزوة في السورة نفسها: ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فليضحكوا قليلاً وليبكيوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَعْدُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا

تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ
ثُمَّ تُرْجَوْنَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَّهُمْ
جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ
تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ [التوبة].

ويقول الله ﷻ راضياً عن المؤمنين الذين اتبعوا نبيه في هذه الغزوة:
﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ
رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ
﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا
يَرْعَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا
كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً
صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ
مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ
﴿١٢٢﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ [التوبة].

حج أبي بكر بالناس (سنة ٥هـ)^(١)

فتح الرسول ﷺ مكة في رمضان من السنة الثامنة من الهجرة، ولم يحج في نفس السنة، ولم يؤمّر على الحج، ثم انشغل ﷺ باستقبال الوفود وعدد من الغزوات والسرايا منها غزوة تبوك. وحينما جاء موسم الحج في السنة التاسعة من الهجرة كره ﷺ أن يحج ذاك العام، في وقت يحضر الحج مشركو العرب كعادتهم، ولذلك قال ﷺ: ((إنه يحضره عُرّة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك)).^(٢)

واختار الرسول ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ أميراً على الحج لذلك العام، وبعد خروجه دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ، وحمله صدر سورة براءة (التوبة) ليبلغها الناس في الحج، وفيها إعلان للمشركين أن لا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، ونبذ لعهود من له عهد حول الحرم من المشركين، ولذلك حرص الرسول أن يبلغ عنه أحد من أهل بيته، وقال لعلي ﷺ: ((لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا أحد من أهل بيتي)).^(٣)

وخرج علي ﷺ على العضباء ناقة رسول الله ﷺ فلحق بأبي بكر الصديق في ذي الحليفة، ولما رآه الصديق سأله بكل أدب: أمير أم مأمور؟ فرد علي ﷺ بكل أدب بل مأمور.^(٤)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس، ج ١١٥/٥.

(٢) انظر: محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج ٥٣٦/٢.

(٣) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله فسيحوا في الأرض، ج ٢٠٢/٥؛ والإمام أحمد في مسنده، ج ٢٨٣/٣؛ والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة التوبة، ح برقم: ٣٠٩٠، ج ٢٧٥/٥.

(٤) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٦٩/٤؛ وانظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله فسيحوا في الأرض، ج ٢٠٢/٥.

وواصلنا الطريق إلى مكة، وتعاون الصديق وعلي رضي الله عنهما، حيث كان الصديق أمير الحج وخطيبهم وإمامهم وعلي رضي الله عنه يتلو الآيات من سورة براءة على الناس وفيها قوله - تعالى -: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهرٍ وأعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ۝٢ وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ۝٣ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوكم شيئا ولم يظهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ۝٤ فإذا انسح الشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصدٍ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ۝٥ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ۝٦ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ۝٧ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأتي قلوبهم وأكثرهم فسيقون ۝٨ أشرأ بعانت الله ثمنا قليلا فصدا عن سبيلهم إنهم ساء ما كانوا يعملون ۝٩ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ۝١٠ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيت لقوم يعلمون ۝١١ وإن تكثروا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقلنوا أئمة الكفر إنهم لا أئمن لهم لعلمهم ينتهون ۝١٢ ألا نقلنوا قوما تكثروا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أنخسوناهم فألله أحق أن نخسوه إن كنتم مؤمنين

١٣ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
 صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
 وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
 تَعْمَلُونَ ١٦ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ
 أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ١٧ إِنَّمَا
 يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ
 وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ١٨ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
 الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
 يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٩ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمْ
 رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ٢١ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٢ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ
 أَوْلِيَاءَ إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ ٢٣ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
 وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ
 مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٢٤ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ
 أَعَجَبْتُمْكُمْ كَثْرَتِكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ
 الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ
 وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الْكَافِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

﴿٢٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ [التوبة].

وكان بعض الصحابة يبلغون تلك الآيات للناس مع علي عليه السلام الذي ناب عن النبي صلى الله عليه وآله في هذا الأمر، ويؤكدون عليهم ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. روى البخاري عن أبي هريرة (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي أمره عليها النبي صلى الله عليه وآله قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان).^(١)

ولا شك أن علياً عليه السلام من آل البيت يمثل النبي صلى الله عليه وآله ويستوثق منه الناس، وخصوصاً من كان له عهد مع النبي صلى الله عليه وآله وعلي أقرب أهل البيت إلى النبي صلى الله عليه وآله، ومن عادة العرب (في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه)،^(٢) فكان قيام علي عليه السلام بهذه المهمة تأكيداً للجميع أن هذا ما أراد الله ورسوله، وقد سئل علي عليه السلام بأي شيء بعثت في الحجة؟ قال بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم وكافر بالبيت الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله عهد فعهدته إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر.^(٣)

وأما الذين استفادوا من الحادثة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي عليه السلام

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب حج أبي بكر بالناس، ج ١١٥/٥.

(٢) محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج ٥٣٩/٢.

(٣) ابن القيم، زاد المعاد، ص ٦٥٥؛ رواه الترمذي في صحيحه، ح برقم: ٣٠٩١؛ وأحمد في المسند، ج ٧٩/١.

فليس هذا في محله، فكل منهما له فضله وله مهمة بأمر الرسول ﷺ، وكل منهما يقوم بما أمر به، ويحب الآخر ويحترمه ويتأدب معه بل إنهما ﷺ كلُّ منهما ساهم في عمل الآخر، وساهم معهم بقية الصحابة، سواء في إدارة الحج وشؤونه أم في تبليغ آيات سورة براءة إلى الناس في الحج، فهم يكمل بعضهم بعضاً، هدفهم واحد، هو إعلاء كلمة لا إله إلا الله في الحج وفي غيره، وإذا كنا في هذا الزمان نؤكد ما بلغه علي ﷺ عن رسول الله ﷺ بمنع المشركين والعراة من الحج، فمن باب أولى أن يكون الصحابة في زمن علي ﷺ يقومون بالعمل معه، للهدف نفسه أثناء وجود المشركين، الذين انقطعوا عن مكة بحمد الله بعد سماعهم من علي ومَنْ ساندته، وما احتاج المسلمون لتكرار ذلك عبر القرون لانقطاع المشركين عن مكة تماماً.

كان هذا الإنذار وكانت هذه الحجة تمهيداً لحج الرسول ﷺ في العام الذي يليه (حجة الوداع)،^(١) حيث كانت البقاع الطاهرة خالية من المشركين ونفوس الحجيج صافية لاستقبال الرسول ﷺ في حج الموحدين لله وفي وداع رسول الله ﷺ لكافة الناس، ليبلغ الشاهد منهم الغائب.

(١) انظر: حجة الوداع، من هذا الكتاب.